



أبو الأنبياء

دراسة مقارنة وتحقيقية في سيرة
نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام

الشيخ علي حسن غلوم



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

تلفون : ٢٥٤٢٧٦٦٧ - ٢٥٤٢٧٩٩٧

Email: alwalaa66@yahoo.com

www.alwalaa.com

الشيخ
علي حسن علوم

أبو الأنبياء

دراسة مقارنة وتحقيقية في سيرة
نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٣	• مقدمة بقلم المؤلف
١٧	١. مدخل
١٩	موضوعات هذا الفصل
٢٠	ملّة إبراهيم
٢٥	تدقيق الاسم
٢٨	اسم والدته
٣٠	اسم والده
٤٩	نتائج الفصل وخلاصته
٥١	٢. خصاله ومقاماته
٥٣	موضوعات هذا الفصل
٥٣	خصاله في القرآن
٦١	مقاماته في القرآن
٦٦	نتائج الفصل وخلاصته
٧١	٣. صفاته الخلقية
٧٣	موضوعات هذا الفصل
٧٤	كتاب قصص الأنبياء
٧٧	عرض الروايات
٨٧	نتائج الفصل وخلاصته
٨٩	٤. الأوليات الإبراهيمية
٩١	موضوعات هذا الفصل
٩٢	أول مضيف

أَوَّل من شاب شعره	٩٢
أَوَّل عناق بين البشر	٩٥
أَوَّل مصافحة بين البشر	٩٦
أَوَّل قتال في سبيل الله	٩٦
أَوَّل نعال	٩٧
أَوَّل لباس داخلي	٩٧
أَوَّل جزر ولفث وذرة	٩٨
أَوَّل موت بالمرض	٩٨
أَوَّل الجياد العربية	٩٩
أَوَّلِيَّات بالجملة	١٠٠
نتائج الفصل و خلاصته	١٠٠
١٠٣	
٥. ولادته	

موضوعات هذا الفصل	١٠٥
زمن ولادته	١٠٦
محل ولادته	١١١
ظروف ولادته	١١٩
نتائج الفصل و خلاصته	١٢٦
١٢٩	
٦. الختان	

موضوعات هذا الفصل	١٣١
نظرة مقارنة	١٣١
الختان والطهارة	١٣٦
نتائج الفصل و خلاصته	١٥١
١٥٣	
٧. رؤية ملكوت السماوات	

موضوعات هذا الفصل	١٥٥
أسئلة عديدة	١٥٦

- الروايات تصف الحدث ١٥٦
- تعليق العلامة المجلسي ١٦٣
- تعليق العلامة الطباطبائي ١٦٤
- تعليق العلامة فضل الله ١٦٦
- كذب أم تمثيل؟ ١٦٧
- رواية طريفة ١٧٠
- نتائج الفصل و خلاصته ١٧١
- ٨. تحطيم الأصنام** ١٧٣
- موضوعات هذا الفصل ١٧٥
- في القرآن الكريم ١٧٦
- في الروايات الإسلامية ١٧٨
- هل كذب إبراهيم ؟ ١٨٠
- متى جرى ذلك ؟ ١٨٥
- تفصيل الحدث في الروايات ١٨٩
- مصدر التفاصيل الموضوعة ١٩٤
- الضفدع والوزغ ١٩٥
- مصدر الأسطورة اليهودية ١٩٩
- تعطيل النار ٢٠٣
- الأصل في ترتيب الأحداث ٢٠٥
- نتائج الفصل و خلاصته ٢٠٧
- ٩. من هو نمرود ؟** ٢٠٩
- موضوعات هذا الفصل ٢١١
- نظرة عامة ٢١٢
- شخصية نمرود ٢١٩
- نتائج الفصل و خلاصته ٢٢٦

٢٣٧	١٠. الهجرات الإبراهيمية
٢٣٩	موضوعات هذا الفصل
٢٤٠	الهجرة الإبراهيمية في القرآن
٢٤١	المحطة الأولى
٢٤٢	المحطة الثانية
٢٤٣	المحطة الثالثة
٢٤٢	المحطة الرابعة
٢٤٤	المحطة الخامسة
٢٥٢	المحطة السادسة
٢٥٣	المحطة السابعة
٢٥٣	المحطة الثامنة
٢٥٥	المحطة التاسعة
٢٦٠	المحطة العاشرة
٢٦٤	المحطة الحادية العاشرة
٢٦٤	محطة النجف
٢٧٣	نتائج الفصل وخلاصته
٢٧٥	١١. إبراهيم المقاتل
٢٧٧	موضوعات هذا الفصل
٢٧٨	الحربان الاتحاديتان
٢٨٠	تحرير النبي لوط
٢٨١	البشارة بإسماعيل
٢٨٥	البشارة بإسحاق
٢٨٩	الرسالة الثانية
٢٩٢	إبراهيم الحليم
٢٩٣	نتائج الفصل وخلاصته

١٢. إهلاك قوم لوط

٢٩٥

٢٩٧ موضوعات هذا الفصل

٣٠٧ ديار قوم لوط

٣١٨ الساميون

٣٢٢ وصف العذاب

٣٢٧ ماهية العذاب

٣٣١ تحديد الموقع

٣٣٥ إهلاك قوم إبراهيم

٣٤٢ نتائج الفصل و خلاصته

١٣. إحياء الموتى

٣٤٥

٣٤٧ موضوعات هذا الفصل

٣٤٩ أنواع الطيور الأربعة

٣٤٩ تضارب التفاصيل

٣٥٥ لماذا الطلب ؟

٣٥٧ القصة في المصادر الكتابية

٣٥٨ نتائج الفصل و خلاصته

١٤. إسماعيل وهاجر

٣٦١

٣٦٣ موضوعات هذا الفصل

٣٦٤ القصة بين القرآن والتخ

٣٦٨ القصة في الروايات

٣٨١ رواية في سياق مختلف

٣٨٥ أين تقع فاران ؟

٣٩٩ وفاة هاجر ومدفنها

٣٩٩ نتائج الفصل و خلاصته

٤٠١	١٥. سارة وإسحاق
٤٠٣	موضوعات هذا الفصل
٤٠٧	في القرآن الكريم
٤٠٩	فارق العمر بين إسماعيل وإسحاق
٤١٠	غيره سارة
٤١٥	نتائج الفصل و خلاصته
٤١٧	١٦. من هو الذبيح ؟
٤١٩	موضوعات هذا الفصل
٤٢١	قصة الذبيح في التثنية
٤٢٢	قصة الذبيح في الروايات الإسلامية
٤٣٣	فلسفة الأمر بالذبح
٤٤٣	رمي الجمرات
٤٤٤	صفات الكبش
٤٤٥	نتائج الفصل و خلاصته
٤٤٧	١٧. بناء الكعبة
٤٤٩	موضوعات هذا الفصل
٤٤٩	الحدث كما صورّه القرآن
٤٥٥	نتائج الفصل و خلاصته
٤٥٧	١٨. وفاته ومدفنه
٤٥٩	موضوعات هذا الفصل
٤٦٠	وصية إبراهيم
٤٦٩	وفاة سارة ودفنها
٤٧١	تزويج إسحاق
٤٧٤	زواج إبراهيم
٤٧٥	وفاة إبراهيم ودفنه
٤٧٧	نتائج الفصل و خلاصته

مقدمة

بقلم المؤلف

بقلم المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، سليل الخليل إبراهيم، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين. اللهم صل على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

قبل أن أبدأ الكتابة في سيرة خليل الله إبراهيم «عليه السلام» كنت أملك مجموعة من التصورات - يشترك فيها معي كثيرون - حول سيرته، إلا أنها بدأت تتشكل في صورة جديدة مختلفة كلما تقدّمت خطوة في إطار البحث قرآنياً، ومن ثم في الروايات الإسلامية ومصادر أهل الكتاب.

فالعديد من التصورات المتعلقة بسيرته أخذناها مأخذ المسلمات، إلا أن إعادة قراءتها من خلال مصادرها وعرضها على القرآن الكريم وبعض المعطيات التاريخية تفتح ثغرات عديدة فيها، ليُعاد تشكيلها من جديد حتى على فرض عدم القدرة على حسم بعض مفرداتها، إذ أن انكشاف خطأ التصورات السابقة لا يعني بالضرورة تقديم تصوّر بديل وأكيد، فقد تكون المعطيات الروائية أو التاريخية التي وصلت أو توصلنا إليها قاصرة عن ذلك، ولكنها من دون شك خطوة في اتجاه فتح الباب للمزيد من البحث والتحقيق الذي قد يوصلنا إلى المطلوب، ولو بعد حين.

وهذا الكتاب ليس بعيداً عن أجواء الجزئين الأول والثاني من كتابي السابق «في عمق التاريخ»، بل إن بعض فصوله قد تم عرضه هناك، إلا أن ما قدّمته في الكتاب السابق كان محفّزاً للبحث بصورة أكثر شمولاً تفصيلاً، في محاولة لإعادة اكتشاف سيرة أبي الأنبياء «عليهم السلام» بدءاً من تحديد عصره وولادته، مروراً بكل الأحداث التاريخية والتحديات الكبيرة التي واجهها وتفوَّق عليها، وقادته في نهاية المطاف إلى تأسيس سلالتين عظيمتين من الأنبياء الذين رسموا ملامح تاريخ البشرية طوال ما يقارب الأربعين قرناً إلى هذا اليوم، وهو من دون شك أمر عظيم.

ومجدداً، كشف هذا التحقيق حجم التزييف والتلاعب والوضع والتحريف في ما وصل إلينا من مفردات تاريخية ترتبط بسيرة الأنبياء، ومدى التأثير اليهودي والمسيحي على الموروث الإسلامي الروائي، سواء في إطار عرض:
 ○ ملامح شخصية النبي إبراهيم، إذ تقدّمه في هيئة الرجل الضعيف أمام إرادة زوجته سارة، المستسلم لرغباتها الانتقامية والحاقدة تجاه هاجر وإسماعيل.

○ تفاصيل مرحلة الطفولة المبكرة للنبي إبراهيم، والمفردات الغريبة التي تكتنفها.

○ مواجهاته مع قومه ومع الملك (نمرود) وما جرى له في هجراته، لاسيما تلك التي تتهمه بتقديم زوجته لملكين مختلفين، على أنها أخته، وما يترتب على ذلك من تجاوز على نوااميس الغيرة والكرامة لدى الإنسان العادي فضلاً عن نبي عظيم كإبراهيم.

○ التفاصيل الخاصة بابنيه إسماعيل وإسحاق، وزوجته سارة، وسُريته هاجر، والغاية من الهجرة إلى مكة وما جرى فيها ورفع القواعد من البيت والنداء إلى الحج.

○ ما جاء تحت عنوان الأولويات الإبراهيمية، وهي مجموعة من الأمور التي ادّعت بعض المرويات أن إبراهيم «عليه السلام» كان أول من فعلها أو تمظهرت فيه، والخلفية الكتابية لهذه الادعاءات الواهية.

بالإضافة إلى العديد من القضايا والتفاصيل التي قد تصل إلى حد الاستسخاف بالعقل البشري من قبل مَنْ وضعوها، ولا تحتاج إلى جهد لاكتشاف أسطوريتها.

وسعت في هذا الكتاب أن أقرب من تحديد العصر الذي عاش فيه إبراهيم «عليه السلام»، ومسقط رأسه، والملك الملقب بنمرود، مع الاعتراف بأن القطع بصحة النتائج ويقينيتها أمر خارج عن حدود الإمكانيات والمعطيات المتاحة، لاسيما وأن القرآن الكريم، وهو المصدر الوحيد المعصوم عن الخطأ فيما يتوافر بين أيدينا، قد سكت عن غالبية التفاصيل، وقدم صوراً إجمالية عن سيرة الخليل إبراهيم «عليه السلام» بما يتناغم مع الهدف العام من نزوله، وهو هداية البشرية، وما سعينا للبحث في التفاصيل بأمر متعارض مع المنهج القرآني، إذ أن الغاية منه هو كشف ما علق بهذه السيرة من تفاصيل زائفة نتيجة كثير من المرويات الموضوعية والمحرّفة وقصص القصاصيين وتراكم مفردات الموروث الشعبي على مدى قرون، ومحاولة إعادة تشكيل مجمل الصورة التاريخية بما لا يتعارض مع الصورة القرآنية.

وقد وُجِّه لي - بعد قراءة كتابي «في عمق التاريخ» - انتقاد خلاصته محاباتي المصادر الكتابية على حساب الروايات الإسلامية... ومع قبولي هذا النقد من حيث المبدأ، ولكنه قراءة بعيدة عن واقع الهدف من الكتاب، وكذلك المنهج المعتمد فيه، ولربما كان نتيجة اعتمادي العرض المقارن، وعدم المسامحة في نقد المرويات الإسلامية، بما في ذلك المنسوبة لأهل البيت «عليهم السلام»، وهو ما لم يعتده كثيرون في أوساطنا المتديّنة.

ويشترك هذا الكتاب مع سابقه «في عمق التاريخ» في طريقة البحث والعرض والاستعانة بالخرائط والمخططات والصور، إلا أنه -بالإضافة إلى معالجته سيرة نبي واحد على وجه التحديد على خلاف الكتاب السابق- يمتاز عنه أيضاً في كيفية عرض كل فصل من فصوله، حيث يبدأ بعرض مجمل موضوعاته والأسئلة التي يحاول الإجابة عليها، ثم تقديم تلك التفاصيل بصورة مقارنة بين القرآن الكريم والروايات ومصادر أهل الكتاب والمعطيات التاريخية المتوافرة، وفي نهاية الفصل خاتمة تلخص تلك النتائج.

أسأل الله «عز وجل» القبول، والتجاوز عما أخطأت فيه.. وللقاريء الكريم الفائدة ومتعة القراءة.

علي حسن غلوم

الكويت

١ محرم ١٤٤٢ هـ / ٢٠ أغسطس ٢٠٢٠



مدخل

مدخل

• موضوعات هذا الفصل:

- تحليل مصطلح «الأديان الإبراهيمية» وعلاقة ذلك بالمصطلح القرآني «ملة إبراهيم».
- الفرق بين الدين والملة والشرعية.
- الارتباط بين الملة الإبراهيمية والإسلام والمسلمين.
- التحقيق في اسم إبراهيم، وهل هو اسمه أم لقب إلهي أعطي له، ومعنى إبراهيم بحسب ما ورد في بعض المصادر الكتابية والإسلامية.
- اسم والده إبراهيم في المصادر الكتابية والروايات الإسلامية.
- التحقيق في اسم والد إبراهيم، وإشكالية الاختلاف في الاسم بين ما جاء في القرآن تحت عنوان الأب آزر، وما جاء في المصادر الكتابية وبعض المصادر الروائية والتاريخية الإسلامية من أن اسمه تارح/تارخ.
- هل كان والد إبراهيم مشركاً، بل وصانع أصنام، ومسئولاً عن المعبد الوثني؟

• ملة إبراهيم:

قال الله «تعالى»: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١).

اتفقت «الديانات»^(٢) السماوية المنتشرة اليوم في الأرض على مكانة النبي إبراهيم «عليه السلام»، وأنه تنتهي إليه سلسلة الغالبية العظمى من الأنبياء المذكورين في الكتب المقدسة لديها. بل إن ظهور مصطلح «الأديان الإبراهيمية» الذي يشمل الإسلام واليهودية والمسيحية والمندائية والسامرية، وتنسب إليها البهائية والبابية والقاديانية وغيرها مؤشّر على ذلك.

وفي الوقت الذي أشار فيه البعض إلى أن أول من استخدم هذا المصطلح هو المستشرق الفرنسي المشهور **لويس ماسينيون**^(٣)، إلا أن للقرآن الكريم تعبيراً لافتاً ويسبق ذلك، ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، وهو مصطلح: «ملة إبراهيم» كما مر معنا في الآية الافتتاحية. وكذلك يقول الله «سبحانه وتعالى» جاعلاً إبراهيم في مبتدأ سلسلة الأنبياء «عليهم السلام» الذين يجب أن نؤمن بما أرسل إليهم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ..... أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ

١. سورة النساء: ١٢٥.

٢. نستعمل هذا المصطلح هنا تجوّزاً وبحسب الوضع القائم، وإلا فالدين النازل واحد.

٣. لويس ماسينيون Louis Massignon (١٨٨٢-١٩٦٢م) من أكبر المستشرقين الفرنسيين وأشهرهم، وقد شغل عدة مناصب مهمة كمستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال أفريقيا، وكذلك الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر. تعلم العربية والتركية والفارسية والألمانية والإنكليزية. استهواه التصوف الإسلامي فدرس شخصية الحسين بن منصور الحلاج دراسة مستفيضة ونشر ديوانه مع ترجمة فرنسية، كما نشر كتباً أخرى حول التصوف وقضايا إسلامية أخرى.

وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ، قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(١).

وقد تحدّث العلامة الطباطبائي^(٢) عن الفرق بين الدين والملة والشرعية، وحيث أن عباراته تحتاج إلى شيء من التوضيح والبيان وفك التداخل فيها، لذا يمكن إعادة صياغة كلامه ضمن النقاط التالية:

١. القرآن يستعمل الشرعية والملة في معنى أخص من الدين.
٢. الشرعية هي الطريقة الخاصة لأمة من الأمم أو لنبي من الأنبياء الذين بُعثوا بها. كيف يتعبّدون، وكيف ينظّمون علاقاتهم البينية، وما هي الآداب التي يتحلّون بها... إلخ.
٣. الدين هو الطريقة الإلهية العامة لجميع الأمم، ولم يتعبّد عباده إلا لدين واحد وهو الإسلام له.
٤. الملة كالشرعية، هي الطريقة الخاصة بنبي أو أمة.

١. سورة آل عمران: ١٩-٨٥.

٢. السيد محمد حسين الطباطبائي المعروف بالعلامة الطباطبائي (١٣٢١ هـ / ١٩٠٤ م - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م) من أبرز فلاسفة ومفكري الشيعة في القرن العشرين. اشتهر بتفسيره المعروف بالميزان في تفسير القرآن. وله مؤلفات عديدة من قبيل (بداية الحكمة) و(نهاية الحكمة) و (أصول الفلسفة والمذهب الواقعي).

٥. الفرق بين الشريعة والملة يخص الاستعمال اللفظي «العناية اللفظية» فعندما ننسب الطريقة إلى الله «سبحانه وتعالى» نستعمل كلمة شريعة، وعندما ننسب الطريقة إلى غير الله - كالنبي - لكونها مأخوذة عنه بالاتباع العملي، نستعمل كلمة ملة.

٦. ولذا يقال: شريعة الله، ولا يقال: ملة الله، بل ملة محمد أو ملة الإسلام. قال «تعالى»: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١)، وقال «تعالى» حكاية عن يوسف «عليه السلام»: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٢)، وقال «تعالى» حكاية عن الكفار في قولهم لأنبيائهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(٣).

٧. الشريعة تقبل النسخ دون الدين^(٤).

تعليق: ولكن لو كانت الملة مرادفة للشريعة، مع الفارق البسيط الذي ذكره العلامة في العناية اللفظية فقط، فلماذا قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٥)؟

١. سورة البقرة: ١٣٥.

٢. سورة يوسف: ٣٧-٣٨.

٣. سورة إبراهيم: ١٣.

٤. انظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٢٥٠.

٥. سورة الحج: ٧٧-٧٨.

فجعل ملة محمد هي ملة إبراهيم ذاتها، ومن المستبعد جداً أن تكون الشريعتان واحدة مع فاصل زمني بينهما يقارب ٢٥٠٠ سنة، وكيف تتحدان وقد جعل الله للنبي موسى الذي بُعث بعد إبراهيم بأقل من ٥٠٠ سنة شريعة خاصة تختلف نسبياً عن الشريعة الإبراهيمية؟ مع العلم بأن الفارق الزمني الكبير، واختلاف العادات، وتطور أنماط الحياة ومتطلباتها، متحققة في عهد النبي محمد بشكل أكثر وضوحاً من تغيرها على عهد موسى.

ثم إن العلامة الطباطبائي قال أن الشريعة تقبل النسخ، فهل تقبل الملة النسخ أيضاً؟ أستبعد أن يقول العلامة أن الملة قابلة للنسخ. ولذا أستقرب أن الملة تعبير عن الاتجاه العام للطريقة المتبعة من قبل بعض الناس، والناشئة عن المتبني الفكري والتشريعي والأخلاقي، بغض النظر عن التفاصيل التشريعية الجزئية المرتبطة بكيفية أداء العبادات وخصوصياتها، أو الأحكام المعاملاتية وأمثال ذلك. بينما الشريعة هي كما قال، عبارة عن الطريقة الخاصة بالسلوك من قبل الملتزمين بدين ما بكل ما فيها من تفاصيل وخصوصيات. فعندما يدعوني إلى الدين، ويتبعه بعض الناس، تظهر الملة، والتي تمثل الإطار العام لهذا الدين ومنهجه... فظهرت ملة إبراهيم، ومثلتها ملة محمد، فكلتاهما ملة التوحيد والتسليم لله وعبادته والعمل الصالح... ولكن لمحمد شريعة، ولموسى شريعة، ولإبراهيم شريعة.

وقد بين القرآن الكريم في الآية السابقة جزئية أخرى في هذا الإطار، وهي مرتبطة بتسمية هذه الملة، وهي ملة الإسلام، ويُطلق على أتباعها عنوان المسلمين: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾.

واعتبر العلامة الطباطبائي أنه إنما سمي إبراهيم أبا المسلمين لأنه «عليه السلام» أول من أسلم لله كما قال «تعالى»: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وقال حاكياً عنه «عليه السلام»: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾^(٢)، فنسب أتباعه إلى نفسه، وقال أيضاً: ﴿وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٣)، ومراده ببنيه المسلمون دون المشركين قطعاً، وقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٤)، وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ وفي هذا امتنان ثان منه «تعالى» على المؤمنين بعد الامتنان بقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ فالضمير له «تعالى»^(٥).

وللشيخ الشعراوي التفاتة بهذا الخصوص حيث ذكر أن الإسلام انقياد عقدي للجميع، وفي أمة الإسلام من ليس من ذرية إبراهيم، لكن إبراهيم «عليه السلام» أب لرسول الله محمد، والرسول أب لكل من آمن به لأن أبوة الرسول أبوة عمل واتباع، كما جاء في قول الله «تعالى» في قصة نوح عن ابنه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(٦). ولما كان النبي أباً لكل من آمن به سَمَّى الله زوجاته أمهات للمؤمنين، فقال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾^(٧).

وما دامت الأزواج أمهات، فالزوج أب، وبناءً على هذه الصلة يكون إبراهيم

١. سورة البقرة: ١٢١.

٢. سورة إبراهيم: ٣٦.

٣. سورة إبراهيم: ٣٥.

٤. سورة آل عمران: ٦٨.

٥. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٤١٢.

٦. سورة هود: ٤٦.

٧. سورة الأحزاب: ٦.

«عليه السلام» أبا لأمة الإسلام، وإن كان فيهم مَنْ ليس من سلالته^(١).

• تدقيق الاسم:

في الوقت الذي لا نجد فيه القرآن الكريم يتحدث عن اسم آخر له «عليه السلام» سوى إبراهيم، إلا أننا نجد أن التناخ^(٢) يقدم لنا صورة معينة حول تبدل الاسم والدلالة. ففي سفر التكوين^(٣): (وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللَّهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأَكْثِرَكَ كَثِيرًا جَدًّا». فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا: «أَمَّا أَنَا فَهَؤُذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبَا لَجُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَا يَدْعَى اسْمُكَ بَعْدَ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبَا لَجُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَمِ. وَأَثْمِرُكَ كَثِيرًا جَدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لَأَكُونَ إِلَهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأَعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلَهُهُمْ»^(٤)).

ويمكن أن يلاحظ على هذا النص - في جانب منه - أنه شبيه بما جاء في

١. الشعراوي: خواطر، ج ١٦، ص ٩٩٥١-٩٩٥٢.

٢. يسمي اليهود - إجمالاً - مجموعة الكتب التي تشكل (العهد القديم) من الكتاب المقدس لدى النصارى بعنوان (تناخ)، وإن كانت لديهم ملاحظات بخصوص بعضها زيادة ونقصاً، فاليهود لا يعترفون بالعهد الجديد المشتمل على الأناجيل وما بعدها من رسائل وملحقات. والكلمة (تناخ) هي الحروف الأولى من (التوراة - نبؤيم - ختيم) أي التوراة وكتب الأنبياء وكتب أخرى. وللمزيد انظر الجزء الأول من كتابي (في عمق التاريخ).

٣. أول أسفار التناخ، وهو بالتالي أول أسفار التوراة، فالتوراة هي أول كتاب في التناخ.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٧: ٨-١.

القرآن الكريم حيث قال «تعالى»: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وفي جانب آخر هو شبيه لما أشار إليه القرآن في قوله «تعالى»: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٢).

وعلى كل حال، فإن النص التوراتي السابق يتحدث عن الاسم الأصلي لهذا النبي الكريم هو «أبرام»، وفي العبرية الحديثة يُكتب الاسم هكذا: אַבְרָם، وتُلفظ الكلمة Avram حيث تتبدل الباء إلى حرف V.

مع العلم بأن كتابة الحرفين تتحقق من خلال حرف واحد هو (ב) فإذا احتوى على نقطة في الوسط (בּ) صار اللفظ (باء)، ويبدو أن الأمر يعود إلى اختلاف اللهجات العبرية، كما نجد في العربية أن كلمة «ثلج» تتحول إلى «فلج» في بعض اللهجات، والجيم في بعض اللهجات تتحول إلى ياء، والقاف والجيم يتحولان إلى G، ... إلخ. ثم جاء الأمر - في قصة سنتناولها لاحقاً - بتبديل اسمه - ولعله لقب وليس باسم - ليصبح إبراهيم، ويُكتب في العبرية هكذا: אַבְרָהָם، ويُلفظ Avraham، وهذا الاسم أو اللقب صار الغالب عليه.

وفي «قاموس الكتاب المقدس»: (معنى أبرام «الأب الرفيع»، أو «الأب المكرّم»، ومعنى إبراهيم «أبورهام» أي «أبو جمهور»)^(٣).

ولعل هذا المعنى يلتقي مع قوله «تعالى»: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ

١. سورة البقرة: ١٢٤.

٢. سورة النساء: ٥٤.

٣. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٩.

حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»^(١). فقد قيل أن معناه: (الإمام المُقْتَدَى به)، وبما يقترب من مضمون ما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (يا علي، أنا وأنت أبوا هذه الأمة)^(٢).

وجاء في تفسير المنار للعلامة محمد رشيد رضا^(٣) ما ملخصه:

١. إبراهيم هو الاسم العلم لخليل الرحمن.
٢. كان اسمه أبرام، وقالوا أن معناه «أبو العلاء»، فهو مركب من كلمة «أب» وهي كلمة عربية سامية، مضافة إلى «رام»، وهي ليست عربية، بل قد تكون كلدانية^(٤) أو من لغة أخرى من فروع السامية أخوات العربية التي هي أعظمها وأوسعها، حتى جعلها بعض علماء اللغات هي الأصل والأم لسائر تلك الفروع السامية، كالعبرية والسريانية.

١. سورة النحل: ١٢٠.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٢، ص ٣٦٨. والمجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ١١.

٣. محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م). عالم دين ومفكر إسلامي من لبنان. يعد أحد رواد الإصلاح الإسلامي في وقته. تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، وأسس مجلة المنار، وله تفسير للقرآن يحمل ذات الاسم.

٤. كلدو (الكلديون - الكلدانيون) جماعة بشرية برزت في الألف الأولى قبل الميلاد في منطقة جنوب بلاد الرافدين، واختلف في أصولهم: (أ) قدموا من شواطئ الخليج العربي جنوب العراق.

(ب) فرع من الآراميين المستقرين شمال غرب بلاد الرافدين وأنحاء من بلاد الشام.

(ج) قدموا من شبه الجزيرة العربية، ودخلوا العراق عن طريق ساحل بحر العرب ثم الخليج العربي الذي أصبح مقترناً باسمهم، فسمي بـ (البحر الكلداني).

(د) قدموا من مدينة (الجرها) في القطيف.

تأسست عدة ممالك كلدانية في جنوب ما بين النهرين. ومن ضمن الاهتمامات العديدة لمعارف الكلدانيين كان الاهتمام بالتقاويم والروزنامات، وأنشأوا رموزاً لغوية فلكية للتعبير عن العلاقات بين الأجرام السماوية.

٣. في سفر التكوين أن الله «تعالى» ظهر لإبراهيم وهو في سن التاسعة والتسعين من عمره، وكلمه، وجدّد عهده له بأن يُكثّر نسله، ويعطيه أرض كنعان «فلسطين» ملكاً أبدياً، ولذا سمّاه إبراهيم بدلاً من أبرام بلحاظ ذريته التي ستكون كثيرة.

٤. قالوا: إنّ معنى إبراهيم أبو الجمهور العظيم، أي أبو الأمة، وهو بمعنى تبشير الله «تعالى» إياه بتكثير نسله من إسماعيل وإسحاق «عليهم السلام».

٥. ذكرت في الاسم «إبراهيم» سبع لغات عن العرب، وهي: إِبْرَاهِيمُ وإِبْرَاهَامُ وإِبْرَاهُومُ وإِبْرَاهِيمَ وَأَبْرَهُمُ وَأَبْرَهُمُ وَأَبْرَهُمُ.

٦. قال البعض بأن الاسم سرياني الأصل.

٧. قال البعض بأن معناه «أبٌ راحم» أو «أبٌ رحيم»، وعلى هذا يكون جزاء عربيين بقلب حائه هاء، كما يقلبها الأعاجم الذين لا ينطقون بالحاء^(١).

• اسم والدته :

لم يرد اسمُ والدة إبراهيم «عليه السلام» في الكتاب المقدس بقسميه، إلا أنه ورد في القسم الرابع من التلمود البابلي «نزيقين / الأضرار» وفيه: (ذكر الحبر حنان بن رابا باسم راب أكثر من ذلك: لقد كان اسم أم إبراهيم أم ثلاثي بنت كريبنو)^(٢).

أما الترجمة الإنجليزية للنص السابق - وهي أدق من العربية لأنها صادرة عن الناطقين بالعبرية - فجاءت كالتالي:

١. رضا: تفسير المنار، ج ٧، ص ٤٤٠-٤٤١.

٢. التلمود البابلي، ج ١٢، ص ١٨٥.

And Rav Ḥanan bar Rava says that Rav says: The mother of Abraham was called Amatlai bat Karnevo.^(١)

وترجمتها: (ويقول الربّي حنان بن رابا أنّ راب يقول: كانت أم إبراهيم تُسمّى أمتلاي بنت كرنيبو) أو «كرنيفو». وكأنّ لفظ الاسم قريب من أمة الله، أو أمة إلهي.

وفي المصادر الإسلامية وقع الاختلاف في اسم أم النبي إبراهيم، قال ابن كثير^(٢): (وحكى الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخه، عن إسحاق بن بشر الكاهلي، صاحب كتاب «المبتدأ» أن اسم أم إبراهيم أميلة... وقال الكلبي: اسمها بونا بنت كربنا بن كرشى من بني أرفخشذ بن سام بن نوح)^(٣). وبمقارنة ما ورد هنا مع ما جاء في التلمود نستطيع أن ندرك مصدر الروایتين في التراث الإسلامي.

وفي قصص الأنبياء للراوندي^(٤) رواية عن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: وكانت أم إبراهيم وأم لوط «عليهما السلام» أختين^(٥). وبحسب

1. https://www.sefaria.org/Bava_Batra.91a.14?lang=bi

٢. عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي، ثم الدمشقي، مُحدّث ومفسر وفقه، (٧٠١ هـ - ٧٧٤ هـ). له عدة مصنفات، من أشهرها: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية، وطبقات الشافعية، والسيرة النبوية.

٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١١٨.

٤. سأتناول في الفصل الثالث نبذة عن هذا الكتاب وما قيل فيه بشيء من التفصيل والتحقيق. أما المؤلف فهو قطب الدين سعيد بن عبد الله الراوندي (ت ٥٧٣ هـ) المعروف بالقطب الراوندي محدث ومفسر ومتكلم وفقه ومؤرخ شيعي. له عدة كتب في تفسير القرآن، ومن مصنفاته (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)، (الخرائج والجرائج)، (آيات الأحكام).

٥. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ١١٠..

هذه الرواية فإن إبراهيم ولوط أبناء خالة، وسيأتي معنا بحث خاص بذلك عند الحديث عن السيدة سارة زوج إبراهيم.

أما في رواية الكليني^(١) فإن اسم الأم سارة بنت لاحق. ففي الكافي بالسند عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي قال: (سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: إن إبراهيم «عليه السلام» كان مولده بكوثر ربي، وكان أبوه من أهلها، وكانت أم إبراهيم وأم لوط سارة وورقة) وفي نسخة رقبة (أختين، وهما ابنتان للاحج، وكان لاحق نبياً منذراً، ولم يكن رسولاً)^(٢).

• اسم والده:

ذكر القرآن الكريم أن اسم الأب آزر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٣). ولكن من علماء السنة والشيعة من رفض قبول كون آزر والداً لإبراهيم، ولابد من تأويل عنوان «الأب» هنا. قال العلامة الطباطبائي حول آزر المذكور في القرآن: (وأما أبو إبراهيم فقد ذكر أهل التاريخ أن اسمه تارخ - بالحاء المهملة أو المعجمة - وآزر إما لقبه أو اسم صنم أو وصف ذم أو مدح بحسب لغتهم بمعنى المعتضد أو الأعرج وصفه به إبراهيم. وذكروا أن هذا المشرك الذي سماه القرآن أبا إبراهيم

١. الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩ هـ/ ٩٤١ م) من كبار فقهاء ومحدثي الشيعة الإمامية ومؤلف كتاب الكافي الذي يعدّ من أهم المصادر الحديثية عند الشيعة. يُنسب إلى قرية كُلين الواقعة على بعد ٢٨ كم من مدينة ري، الواقعة في جنوب العاصمة الإيرانية طهران.

٢. الكليني: الكافي، الروضة، ص ٢٧٠ - ٢٧٣.

٣. سورة الأنعام: ٧٤.

وذكر حاجته إياه كان هو تاريخ أباه الصلبي ووالده الحقيقي ووافقهم على ذلك عدة من علماء الحديث والكلام من أهل السنة، وخالفهم جمع منهم، والشيعة كالمجمع على ذلك، أو هم مجمعون، إلا ما يترأى من بعض المحدثين حيث أودعوا تلك الأخبار كتبهم) أي أن بعض محدثي الشيعة لما رَووا الأحاديث التي تدل على أنه والده فإن هذا يشير بنحو ما إلى أنهم يتبنون هذا الرأي (..... وقد طالت المشاجرة بين الفريقين)^(١).

وقال أيضاً: (وقد اختلف المفسرون..... أنه اسم عَلمَ لأبيه، أو لقب أريد بمعناه المدح أو الذم بمعنى المعتضد أو بمعنى الأعرج أو المعوج أو غير ذلك، ومنشأ ذلك ما ورد في عدة روايات أن اسم أبيه تَارَحَ بالحاء المهملة أو المعجمة) أي خاء فتصبح «تارخ» (ويؤيده ما ضبطه التاريخ من اسم أبيه، وما وقع في التوراة الموجودة أنه «عليه السلام» ابن تارخ. كما اختلفوا أن المراد بالأب هو الوالد أو العم أو الجد الأمي أو الكبير المطاع، ومنشأ ذلك أيضاً اختلاف الروايات، فمنها ما يتضمن أنه كان والده وأن إبراهيم «عليه السلام» سيشفع له يوم القيامة ولكن لا يُشَفَّع بل يمسخه الله ضبعاً منتناً فيتبرأ منه إبراهيم، ومنها ما يدل على أنه لم يكن والده، وأن والده كان موحداً غير مشرك، وما يدل على أن آباء النبي «صلى الله عليه وآله» كانوا جميعاً موحدين غير مشركين إلى غير ذلك من الروايات)^(٢).

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ٢٠٨.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ١٦١-١٦٢.

وأما الشيخ محمد هادي معرفة^(١) فقد ذكر احتمالاً آخر في ضوء استعراضه الأقوال المختلفة وأدلتها، ومن بينها ما جاء في تأييد القول بأن آزر وتارح لقبان أو اسم ولقب لشخص واحد، فقال: (ويتأيد هذا الاحتمال بأن تارح بالعبرية يُعطي معنى الكسول المتقاعس في العمل. أما آزر، فهو النشيط في العمل؛ لأنه من الأزر، بمعنى القوة والنصر والعون، ومنه الوزير، أي المعين، قال «تعالى» حكايةً عن موسى بشأن هارون: ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾^(٢)، وهذا المعنى قريب في اللغات السامية، ومن ذلك، عازر وعُزير في العبرية، وجاءت المادة بالمعنى نفسه في العربية، قال الله «تعالى»: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾^(٣)، ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران في اللغتين العبرية والعربية. فلعل اسمه الأصلي كان آزر، بمعنى النشيط، لكنهم رأوا منه كسلاً وفضلاً في العمل والهمة فلقبوه بتارح، وكما اشتهر نبي الله يعقوب بلقب إسرائيل^(٤)).

وحول الاعتماد على الروايات المتضاربة في ترجيح أحد القولين، علق العلامة الطباطبائي قائلاً: (فالروايات الدالة على كون آزر أباه الحقيقي على ما فيها من الاختلاف في سرد القصة روايات مخالفة للكتاب لا يُعْبَأُ بها) وهذا منه اعتماد على مرجعية القرآن في تقييم الروايات وترجيح بعضها على بعض (ولا حاجة مع ذلك إلى حملها على التقية إن صحَّ الحمل مع هذا

١. محمد هادي بن علي بن الميرزا محمد علي معرفة (١٩٣٠م - ٢٠٠٦م)، عالم وباحث في العلوم والدراسات القرآنية. صنف كتباً عديدة، من بينها (التمهيد في علوم القرآن) و(صيانة القرآن من التحريف) و (التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب).

٢. سورة طه: ٣١.

٣. سورة الأعراف: ١٥٧.

4. <http://arabic.bayynat.org.lb/ArticlePage.aspx?id=27539>

الاختلاف بين القوم^(١). وسأطرق للتعليق على مفردة التقية عند ذكر كلام العلامة المجلسي.

كما تحدّث **الفخر الرازي**^(٢) في تفسيره بحول مسألة امتناع أن يكون أزر المذكور في الآية والدّ لإبراهيم وعرضها كالتالي، قال: (ظاهر هذه الآية يدل على أن اسم والد إبراهيم هو أزر، ومنهم من قال اسمه تارج. قال الزجاج^(٣): لا خلاف بين النّسّابين أن اسمه تارج، ومن الملمّدة من جعل هذا طعنًا في القرآن، وقال هذا النسب خطأ وليس بصواب)^(٤) أي بلحاظ أن الثابت أن اسمه تارج، وما جاء في القرآن خطأ تاريخي بما يثبت أنه ليس بكتاب منزل من عند الله، بل هو من تأليف النبي.

مما سبق - ومن خلال الرجوع إلى موارد أخرى عديدة - يمكننا أن نقسّم الاحتمالات كما يلي:

١. أزر هو والد إبراهيم بحسب ظاهر القرآن الكريم، وهذا اسمه، ولا عبرة

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٠٨-٢٠٩.

٢. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي الرازي، الطبرستاني المولد، القرشي، التيمي البكري النسب، الشافعي الأشعري، الملقّب بفخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ). إمام مفسر فقيه أصولي، عالم موسوعي. ولد في الريّ، وأصله من طبرستان. له تصانيف كثيرة من أهمها: (التفسير الكبير) الذي سماه (مفاتيح الغيب).

٣. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الزجاج البغدادي (٢٤١ هـ - ٣١١ هـ / ٨٥٥ - ٩٢٣م) ولد ببغداد وبها توفّي. كان يعمل في صناعة الزجاج، فتركها وصار من أشهر النحويين والأدباء. صنّف العديد من الكتب، أشهرها كتاب (معاني القرآن)، وكتاب (ما ينصرف وما لا ينصرف) وكتاب (تفسير أسماء الله الحسنى).

٤. الرازي: التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٣٧.

بما جاء في التنخ وفي مجموعة من الروايات وكتب التاريخ من أن اسمه تَارَح.

٢. آزر هو الوالد، وهذا لقبه، واسمه تَارَح. ومعنى آزر:

(أ) المعتضد «مدح»

(ب) الأعرج «ذم»

(ج) المعوجّ «ذم».

(د) النشيط في العمل.. إلخ.

٣. آزر ليس والد إبراهيم، والصحيح هو ما جاء في التوراة وفي موارد عديدة من التراث الإسلامي من أن اسمه تَارَح/تَارَخ، أما آزر فهو:

(أ) عم إبراهيم

(ب) والد زوجة إبراهيم

(ج) زوج أم إبراهيم

(د) والد والدة إبراهيم

(هـ) الكبير المطاع

ولنستعرض بدءاً خلاصة ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره، وهو يرى أن آزر هو الوالد الصلبي لإبراهيم، والأدلة التي ساقها تأكيداً على ذلك، وردوده على أدلة مَنْ خالفوه، وذلك على شكل نقاط:

١. الإجماع المدّعى على أن اسم والد إبراهيم «عليه السلام» كان تارح ضعيف، لأنه متحقق من خلال تقليد بعضهم بعضاً، فيرجع إلى قول الواحد والإثنين

مثل قول وهب^(١) وكعب^(٢) وغيرهما، وربما تعلقوا بما يجدونه من أخبار اليهود والنصارى، ولا عبرة بذلك في مقابلة صريح القرآن.

٢. لو فرضنا أن تارح والد إبراهيم فهذا يحتمل أموراً:

أ) لعله كان مسمى بهذين الاسمين، تارح وآزر، أحدهما اسمه الأصلي والآخر لقبه، فاشتهر اللقب، أي تارح وخفي الاسم، أي آزر. فالله «تعالى» ذكره بالاسم، ويحتمل أن يكون بالعكس، وهو أن تارح كان اسماً أصلياً، وآزر كان لقباً غالباً. فذكره الله «تعالى» بهذا اللقب الغالب.

١. وهب بن منبه بن كامل بن سيج بن الأسوار الأبنواوي أبو عبد الله الصنعاني. كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالمٌ بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يُعدّ في التابعين، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. وكان يقول: سمعت اثنين وتسعين كتاباً كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل. وفي «طبقات الخوارج» أنه صحب ابن عباس ولازمه ثلاث عشرة سنة. له كتاب «قصص الأنبياء» و«قصص الأخيار». للمزيد انظر كتابي (في عمق التاريخ - الجزء الثاني).

٢. كعب الأخبار، وهو كعب بن ماته الحميري أبو إسحاق، كان من أحبار اليهود فأسلم في أيام أبي بكر وقيل: في أيام عمر. جالس الصحابة فكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية. روى عن عمر وصهيب وعائشة، وروى عنه بعض الصحابة ك معاوية وأبي هريرة وابن عباس ومالك بن أبي عامر الأصبحي. قال ابن كثير في (البداية والنهاية: ١/ ٣٤-٣٥): (فإن كعب الأخبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» بأشياء من علوم أهل الكتاب، فيستمع له عمر تأليفاً له وتعجباً مما عنده مما يوافق كثيراً منه الحق الذي ورد به الشرع المطهر، فاستجاز كثيراً من الناس نقل ما يورده كعب الأخبار لهذا المعنى، ولما جاءه من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل، لكن كثيراً ما يقع فيما يرويه غلط. وقد روى البخاري في صحيحه عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يقول في كعب الأخبار: وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب). للمزيد حول إقحام الإسرائيليات في التراث الإسلامي عن طريق كعب الأخبار وغيره انظر كتابي (في عمق التاريخ في جزئيه الأول والثاني).

(ب) أزر اسم ذم في لغتهم، بمعنى «المخطئ»، كأنه قيل: (وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ) كأنه عابه بزيغه وكفره وانحرافه عن الحق.
(ج) أزر هو الشيخ الهرم بالخوارزمية والفارسية.

(د) أزر كان اسم صنم يعبدّه والد إبراهيم، وإنما سمّي بهذا الاسم لوجهين:

١- أنه جعل نفسه مختصاً بعبادته، ومَن بالغ في محبة أحد فقد يجعل اسم المحبوب اسماً للمحب، وقد قال الله «تعالى»: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ﴾^(١).

٢- أن يكون المراد عابد أزر، فحُذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

(هـ) أزر كان عمّاً له، والعم قد يُطلق عليه اسم الأب، كما حكى الله «تعالى» عن أولاد يعقوب أنهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^(٢) ومعلوم أن إسماعيل كان عمّاً ليعقوب. وقد أطلقوا عليه لفظ الأب، فكذا ههنا.

إلا أن الفخر الرازي لم يرتضِ هذه التوجيهات كلها معتبراً أنها مخالفة لظاهر القرآن، ولا داعي للتكلف في تأويل الآيات القرآنية، ولذا قال: (واعلم أن هذه التكلفات إنما يجب المصير إليها لودل دليل باهر على أن والد إبراهيم ما كان اسمه أزر، وهذا الدليل لم يوجد البتة، فأني حاجة تحمّلنا على هذه التأويلات، والدليل القوي على صحة أن الأمر على ما يدل عليه ظاهر هذه

١. سورة الإسراء: ٧١.

٢. سورة البقرة: ١٢٣.

الآية، أن اليهود والنصارى والمشرّكين كانوا في غاية الحرص على تكذيب الرسول «عليه الصلاة والسلام» وإظهار بُغضه، فلو كان هذا النسب كذباً لامتنع في العادة سكوتهم عن تكذيبه، وحيث لم يكذبوه علمنا أن هذا النسب صحيح. والله أعلم^(١).

والحق مع الرازي في الأخذ بظاهر الآيات القرآنية والتي تدلّ على أن الأب هو آزر، وأن كلمة الأب تنصرف إلى الوالد الصلبي، ولكن ليس من السهل تجاوز كل هذا الكم من النصوص والأدبيات الكتابية والروايات الإسلامية والتاريخية التي لا تذكر اسماً لوالد إبراهيم سوى تارح، وليس آزر، ولذا كان البحث عن توجيه لذلك لازماً، كما لعل أهل الكتاب احتجّوا على النبي بالاختلاف في الاسم ولم يبلغنا ذلك.

ومن بين النصوص الكتابية مثلاً ما جاء في سفر التكوين من التوراة: (وَعَاشَ تَارَحُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَوُلِدَ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَهَذِهِ مَوَالِيدُ تَارَحَ: وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ..... وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ...)^(٢).

وفي إنجيل لوقا عند ذكر نسب يوسف النجار زوج السيدة مريم بحسب المدّعى المسيحي: (يُوسُفَ، بَنِ هَالِي..... بَنِ يَعْقُوبَ، بَنِ إِسْحَاقَ، بَنِ إِبْرَاهِيمَ، بَنِ تَارَحَ، بَنِ نَاحُورَ.....)^(٣).

ثم إن الملاحظ أن وصف شروح الكتاب المقدس لتارح يقارب الوصف

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٣٧-٣٨.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٦-٣١.

٣. الكتاب المقدس: إنجيل لوقا، الأصحاح ٣: ٢٣-٣٤.

القرآني ووصف بعض الروايات لآزر. فوفقاً للأدبيات الحاخامية، كان تارح شريراً، كاهناً وثنياً صانعاً للأصنام. وقام «أبرام» بتعطيم الأصنام في متجر أبيه وطارد العملاء الذين كانوا يشترونها منه. ثم أحضر تارح ابنه أمام نمرود، الذي ألقى به في فرن حارق، لكن أبرام هرب منه بأعجوبة. وعلى إثر ذلك تاب تارح. وقال الربّي حياً^(١): (وهو يغادر المكان، ترك تارح أبرام ليهتم بالمتجر. جاءت امرأة مع طبق من الدقيق وطلبت من أبرام أن يقدمه للأصنام. فأخذ أبرام عصا وحطم الأصنام، ووضع العصا في يد المعبود الأكبر. عندما عاد تارح، طالب أبرام بتفسير لما صدر عنه. أخبر أبرام والده أن الأصنام تقالت فيما بينها وأن الأكبر حطم البقية بالعصا. صرخ تارح: لماذا تسخر مني؟ فردّ عليه أبرام: هل تدرك الأصنام شيئاً؟ انظر إلى ما تقوله بنفسك)^(٢).

ونجد في القرآن الكريم ما يلي: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ، قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِّنَ الشَّاهِدِينَ، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ،

١. الربّي حياً بار آבא רבי חייא Hiyya، (١٨٠-٢٣٠ م تقريباً)، يعتبر أحد حكماء اليهود في عصره. تتلمذ على يد الربّي يهودا هاناسي. نشط في طبريا، وكان المترجم الرئيسي للتوسفتا، وهي إضافات وتتمة للمشناة، والمشناة هي متن التلمود.

2. <https://pdfslide.net/documents/haggadah-habonim-dror-2012-yoreh-and-hatzav.html>

قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أَفَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ^(١). وقال «تعالى»: ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾^(٢).

كما أننا نجد في سفر يشوع من التنخ ما يدل أيضاً على عبادة تارح/تارخ للأصنام: (وَقَالَ يَشُوعُ) أَي يوشع بن نون وصي النبي موسى (لَجَمِيعِ الشَّعْبِ: «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَبَاؤُكُمْ سَكَنُوا فِي عَبْرِ النَّهْرِ مِنْذُ الدَّهْرِ. تَارَحُ أَبُو إِبْرَاهِيمَ وَأَبُو نَاحُورَ) لِإِبْرَاهِيمَ جَدُّ اسْمِهِ نَاحُورُ، وَأَخٌ أَيْضاً يَحْمِلُ ذَاتَ الْاسْمِ، وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْأَخُ (وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى. فَأَخَذْتُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاكُمْ مِنْ عَبْرِ النَّهْرِ وَسَرَّتُ بِهِ فِي كُلِّ أَرْضٍ كَنْعَانَ، وَأَكْثَرْتُ نَسْلَهُ وَأَعْطَيْتُهُ إِسْحَاقَ)^(٣).

إلا أن التراث الكتابي في التنخ وخارجه يؤكد على توبة تارح لاحقاً، وهجرته مع إبراهيم ولوط لاحقاً، وهي نقطة جوهرية تخالف ما جاء في القرآن.

أما الممانعون لكون آزر والداً صليباً لإبراهيم فقد تمسكوا بأدلة عديدة

يمكن تلخيصها في الآتي:

١. سورة الأنبياء: ٥١-٧٠.
٢. سورة الصافات: ٩١-٩٣.
٣. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الأصحاح ٢٤: ٢-٣.

١. آزر كان مشركاً، وبحسب أصحاب هذا القول لا يجوز أن يكون والد أي نبي مشركاً، ولا أحد من أجداد نبينا «صلى الله عليه وآله».

٢. المشهور أن اسم والده «تارح/ تارخ» وليس آزر.

٣. قوله «تعالى»: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾^(١). فالآية دالة على أن جميع آباء محمد «صلى الله عليه وآله» كانوا مسلمين، وهذا معنى تقلبه في الساجدين.

٤. قوله «تعالى»: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(٢)، فكيف يكون والد النبي إبراهيم مشركاً؟ وقد روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» قوله: (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات)^(٣).

٥. قوله «تعالى»: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤) وهذه الآية تدل على أن إبراهيم «عليه السلام» شافه آزر بالغلظة والجفاء، ومشافهة الوالد بالجفاء لا تجوز، وهذا يدل على أن آزر ما كان والده.

٦. الأب قد يطلق على الوالد كما قد يطلق على غيره، كالعم كما مرّ في آية سابقة، وقد روي أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (ردّوا عليّ أبي)^(٥) وهو يريد عمّه العباس، كما قد يُطلق على الجدّ للأُم عنوان الأب كما في قوله «تعالى»: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ

١. سورة الشعراء: ٢١٨-٢١٩.

٢. سورة التوبة: ٢٨.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٥، ١١٨.

٤. سورة الأنعام: ٧٤.

٥. الزيلعي: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، ج ١، ص ٨٩.

دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١).
فجعل عيسى من ذرية إبراهيم، مع أن إبراهيم كان جداً لعيسى من قبل الأم. ويطلق على الشخصية الراعية لفرد أو فئة من الناس، كما روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» قوله: (يا علي، أنا وأنت أبوا هذه الأمة)^(٢).

٧. ما روي عند السنة والشيعة من أن أزر لم يكن والد إبراهيم. وسنتناول هذه النقطة لاحقاً، كما مرّ بنا رأي العلامة الطباطبائي حول تضارب الروايات.

وقد جاء **الفخر الرازي** ببعض الردود على الأدلة السابقة، ومن أحب فليراجع المصدر^(٣) وذلك تجنباً للإطالة المملة.

أما **العلامة الطباطبائي** الذي يذهب بدوره إلى منع كون أزر والداً لإبراهيم، فقد جاء بدليل قرآني آخر استخرجه من خلال ترتيب السيرة الإبراهيمية على ضوء الآيات القرآنية، وذلك على النحو التالي:

١. إبراهيم «عليه السلام» في أول دعوته لقومه بدأ برجلٍ وُصف في القرآن بأنه «أبوه أزر»، وقد أصرَّ عليه أن يرفض الأصنام ويتَّبعه في دين التوحيد فيهديه.

١. سورة الأنعام: ٨٣-٨٧.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٢، ص ٣٦٨. والمجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٦، ص ١١.

٣. الرازي: التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٣٨-٤٠.

٢. كانت ردة فعل هذا الرجل سلبية، وانتهت بطرده لإبراهيم وأمّره بهجره.
٣. سلّم إبراهيم على الرجل ووعدّه أن يستغفر له، ولعله كان طمعاً منه في إيمانه وتطميحاً له في السعادة والهدى.
٤. حكى القرآن أن إبراهيم أنجز وعده واستغفر للرجل، قال «تعالى» فيما حكاه عنه: ﴿وَاعْفُ رَ لَآبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(١) ووجود (كان) يدل على أنه إنما دعا بهذا الدعاء لأبيه بعد موته، أو بعد مفارقتة إياه وهجره له.
٥. كشف الله «سبحانه» عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(٢).
٦. ثم يذكر الله «تعالى» ذهابه إلى الأرض المقدسة ورزقه صالح الأولاد بقوله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾^(٣).
٧. ثم يذكر الله «تعالى» آخر دعائه بمكة وقد وقع في آخر عهده «عليه السلام» بعد ما هاجر إلى الأرض المقدسة وولد له الأولاد وأسكن إسماعيل مكة وعمرت البلدة وبُنيت الكعبة، وهو آخر ما حكى من كلامه في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ

١. سورة الشعراء: ٨٦.

٢. سورة التوبة: ١١٣-١١٤.

٣. سورة مريم: ٤٩.

إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿١﴾.

٨. والآية بما لها من السياق وبالقرائن المحيطة بها أحسن شاهد على أن والده الذي دعا له فيها غير الذي يذكره «سبحانه» بقوله: ﴿لَأَبِيهِ أَزْرَ﴾ فإن الآيات كما ترى تنص على أن إبراهيم «عليه السلام» استغفر له وفاء بوعده ثم تبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله، ولا معنى، لإعادته الدعاء لمن تبرأ منه.

٩. ومن لطيف الدلالة في دعائه الأخير ما في قوله: ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ حيث عبر بالوالد، والوالد لا يطلق إلا على الأب الصلبي وهو الذي يلد ويولد الانسان، بينما سائر الآيات المرتبطة بالحوار مع ذلك الرجل والدعاء له بالمغفرة ثم التبرؤ منه جاءت باستعمال كلمة (الأب)، والأب ربما تطلق على الجد والعم وغيرهما.

١٠. وعليه، فإن تحديد هوية الرجل في الآية لا يستدعي الاشتغال بالأبحاث الروائية والتاريخية والأدبية في كلمة (أبيه) و (آزر)، وأنه لقب أو اسم.

١١. غالب ما ذكره الذين خاضوا في هذا الباب بعيداً عن هذا الاستدلال، ومن خلال الروايات والتاريخ والأدب تحكم لا دليل عليه، مع ما فيه من إفساد

ظاهر الآية وإخلال أمر السياق باعتبار التراكيب العجيبة التي ذكروها للجملة بالتقديم والتأخير والحذف والتقدير^(١).

أما العلامة السيد محمد حسين فضل الله^(٢) فلم يرتضِ هذا الاستدلال كما اعتبر أن آزر هو الوالد الصليبي لإبراهيم، قال: (نلاحظ على ذلك أن التأكيد على كلمة «الأب» في القرآن بشكل متكرر في كلام الله عنه وفي كلام إبراهيم في خطابه ودعائه له، يوحي بأن الإشارة إلى الجانب الأبوي في معنى النسب المباشر كما هو المتبادر من الكلمة. ولا مجال للاستدلال على إطلاق كلمة الأب على العم بقوله «تعالى»: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾^(٣)، فإن الإطلاق وارد على سبيل التغليب؛ أما إطلاقه على الجد فهو منسجم مع انتسابه إليه بالولادة بشكل غير مباشر، ولم يُعهد استعمال كلمة «الأب» في غير الوالد والجد إلا على نحو المجاز، ولذلك فإنه لا شاهد على الحمل المذكور في السياق القرآني. وأما ما ذكره من الشاهد على دعواه بأن إبراهيم استغفر لوالديه في آخر أمره، ما يدل على أن المقصود به غير آزر الذي تبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله، فيرد عليه أن براءة إبراهيم من أبيه من حيث كفره وضلاله كانت منذ البداية حتى في حال وعده له بالاستغفار عندما قال له: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ١٦٢-١٦٨.

٢. السيد محمد حسين بن عبد الرؤوف فضل الله (١٣٥٤هـ-١٤٣١هـ). مرجع دين ومفكر إسلامي وشاعر وأديب من لبنان. يعد من أعلام حركة إصلاح التراث الإسلامي. له العديد من المؤلفات من بينها تفسير (من وحي القرآن)، (الإسلام ومنطق القوة)، (خطوات على طريق الإسلام). كما أسس العشرات من المؤسسات الخيرية والتبليغية في لبنان وخارجه.

٣. سورة البقرة: ١٢٣.

دُونِ اللَّهِ^(١) كما أنه كان يؤكّد ضلاله عندما استغفر له في قوله: ﴿وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾^(٢). أما الآية الكريمة المستشهد بها ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد تكون واردة في السياق العام للاستغفار، وربما يؤكد ذلك أنه ابتداءً بالغفران لنفسه مع أنه معصوم بلحاظ مقام النبوة أولاً، وبلحاظ واقع سيرته المعصومة فإنه لم يرد فيها أيّ ذنب أو خطأ، بل إن حديث الله عنه يدل على هذه العصمة المتحرّكة في كل حياته. إن تكرار كلمة الأب في القرآن والتركيز على ذكر اسمه يوحيان بأن إبراهيم «عليه السلام» كان يتكلم مع والده الذي كان يتكلم معه من الموقع الفوقي الذي يتكلم فيه الأب مع ولده، والله العالم^(٣).

ولكن الإنصاف أنه لا بد من الأخذ بعين الاعتبار أن التبرؤ - وبالتالي التوقف عن الاستغفار - إنما وقع بعد تبين أنه عدوٌّ لله، أي بعد أن استمر آزر في كفره وعناده ومقاومته لدعوة إبراهيم وبما لم يدع مجالاً لهدايته، ولا بد أن هذا كان في آخر عهد إبراهيم بمسقط رأسه ببلاد الرافدين وعند أوقيل هجرته منها، وهنا توقّف إبراهيم عن الاستغفار له، فكيف يعود ويناقض نفسه ويدعو له بعد عشرات السنين حيث كان في أجواء إعادة بناء الكعبة المشرفة، وبعد أن رُزق بإسماعيل وإسحاق وقد شاب وشاخ؟

وأذكر هنا أمراً آخر محتمل كقرينة إضافية تدل على أنه لم يكن والد إبراهيم، وهو أن القرآن الكريم ذكر اسم الرجل - بينما لا يهتم عادة بمثل

١. سورة مريم: ٤٨.

٢. سورة الشعراء: ٨٦.

3. <http://arabic.bayynat.org/HtmlSecondary.aspx?id=5663>

هذه التفاصيل - وما ذاك إلا للتنبيه على أن المقصود ليس الوالد، بل مَنْ كان بمثابة الأب لإبراهيم، على اعتبار أن المعروف - كما في الكتاب المقدس أيضاً - أن اسمه تارح/تارخ.

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي^(١) بما هو قريب من هذا المعنى: (فلو ذكر القرآن في كل آياته بالنسبة لإبراهيم كلمة «لأبيه» لانصرف الأمر إلى أبيه الحقيقي، بيد أنه قيّد ذكر أبيه بعلم، مما يدلّ على أنه يقصد به العم)^(٢).

ولكن مع كل ما سبق يبقى السؤال قائماً: لماذا عبّر القرآن عن هذا الرجل بعنوان الأب إن لم يكن والده، مع العلم بأن عنوان الأب ينصرف إلى الوالد؟ ألم يكن ممكناً أن يعبر عنه بعنوان العم مثلاً أو غير ذلك بحسب حقيقة النسبة بينهما ولا يدخلنا في هذه الربكة التي استدعت كل هذا البحث والكثير من القيل والقال بين المفسرين والعلماء وأهل الكلام؟

لربما كان السبب هو أن الله «تعالى» أراد أن يبيّن مكانة هذا الرجل بالنسبة لإبراهيم «عليه السلام» بحيث أنه يدعوه ويحاول معه بطرق متعددة ويحترمه ويلين له القول ثم يعده بالاستغفار له مع إصراره على الشرك واستمراره في الغي وطرده لإبراهيم، فقد كان بالنسبة إليه بمثابة الأب، ولذا استحق كل هذه العناية. ولو عبّر القرآن عنه بالعم - مثلاً - لما أدركنا هذه الخصوصية.

١. محمد متولي الشعراوي (١٣٢٩ - ١٤١٩ هـ) عالم دين ووزير أوقاف مصري سابق. له عشرات المؤلفات، من بينها عدة تفاسير وبحوث قرآنية، من قبيل (المنتخب في تفسير القرآن الكريم)، (خواطر قرآنية)، (معجزة القرآن)، (من فيض القرآن).

٢. الشعراوي: قصص الأنبياء، ص ٨٢.

قال «تعالى»: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا،
 إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا،
 يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا،
 يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا،
 يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا،
 قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي
 مَلِيًّا،

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا،
 وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي
 شَقِيًّا﴾^(١).

وقد ذكر العلامة المجلسي^(٢) أن عند الشيعة روايات تدل على القولين،
 معتبراً أن ما جاء فيها مخالفاً لرأي الشيعة صدر تقيّة، قال: (الأخبار الدالة
 على إسلام آباء النبي «صلوات الله عليهم» من طرق الشيعة مستفيضة بل
 متواترة، وقد عرفت إجماع الفرقة المحقة على إسلام والد إبراهيم بنقل
 المخالف والمؤلف، فالأخبار الدالة على أنه كان آباء حقيقة محمولة على
 التقيّة)^(٣).

١. سورة مريم: ٤١-٤٨.

٢. محمد باقر بن محمد تقي المجلسي. فقيه إمامي ومحدث. (١٠٣٧ هـ - ١١١١ هـ). له
 مؤلفات كثيرة في شتى المجالات، أشهرها موسوعته الفريدة (بحار الأنوار الجامعة لدرر
 أخبار الأئمة الأطهار)، (مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول)، (حلية المتقين).

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٩.

ولكن ما الداعي للتقية في مثل هذا الأمر؟ وهل يصل الخوف بالإمام «عليه السلام» إلى هذه الدرجة بحيث لا يُفصح عن أن آزر كان عمّاً لإبراهيم؟ وهل تجوز التقية في أمر يفترض به أن يكون من العقائد بحيث يُربك الناس في معتقداتهم ويتلبّس عليهم الأمر؟

كما أنه يمكن القول أن العلامة المجلسي بالغ بقوله أن الروايات في هذا الشأن متواترة، بل إن يد التلاعب والتحريف في بعضها بين، وذلك من قبيل ما رواه الراوندي في قصص الأنبياء عن الصدوق بسنده: (عن أبي بصير، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: كان آزر عم إبراهيم «عليه السلام» منجماً نمرود، وكان لا يصدر إلا عن رأيه...) (١).

بينما في رواية الصدوق في كمال الدين: (عن أبي بصير، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: كان أبو إبراهيم منجماً نمرود بن كنعان، وكان نمرود لا يصدر إلا عن رأيه...) (٢).

لاحظ التشابه الكبير بين النصين، والتلاعب بتبديل كلمة مكان الأخرى، فأيهما الأصل وأيهما التحريف؟ وقد التفت العلامة المجلسي نفسه إلى ذلك بعد أن نقل الروايتين بشكل متعاقب فقال: (الظاهر أن ما رواه الراوندي وفيه أن آزر عم إبراهيم (هو هذا الخبر بعينه) أي نفس رواية الصدوق في كمال الدين (وإنما غير) أي الراوندي (ليستقيم على أصول الإمامية!) (٣).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٢.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤١.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٢.

وهذا يعني أن الأصل هو ما جاء بلفظ (الأب)، مع التنبيه إلى أن هذا لا يعني بشكل مؤكد أنه والده. ولم يرتض صاحب الحاشية على البحار هذه التعليقة من المجلسي فقال: (هذا تدليس، والراوندي من أعظم العلماء، وهو أجل من ذلك، فلعله وجد الخبر هكذا)^(١). نعم، لعل بعض النساخ عبثوا بالنص فوصل الراوندي بتلك الصورة، فنقلها في كتابه، ولعل الأمر كما قال المجلسي.

بعد هذا الاستعراض لأدلة الموافقين والمانعين، يصعب في نهاية المطاف حسم المسألة بشكل قاطع، وإن كانت بعض الأدلة والقرائن تميل لصالح القول بأن أزر المذكور في القرآن لم يكن والد إبراهيم، والله أعلم.

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ ظهور مصطلح «الأديان الإبراهيمية» الذي يشمل رسالات سماوية عديدة، بل وبعض الأديان المنحولة أيضاً، مؤشراً على مكانة هذا النبي الكريم.

○ استعمل القرآن الكريم مصطلح: «مِلَّة إبراهيم»، والمِلَّة هي الاتجاه العام للسنة والطريقة المتبعة من قبل بعض الناس، والناشئة عن المتبني الفكري والتشريعي والأخلاقي، أما الشريعة فهي الطريقة الخاصة المسلمة من قبل الملتزمين بدين ما بكل ما فيها من تفاصيل وخصوصيات.

○ جاء في التوراة أن اسمه الأصلي (أبرام) ومعناه أبو العلاء أو ما يقرب من ذلك المعنى، وأن الله أبدل اسمه باسم أو لقب قريب ليصبح (إبراهيم)

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٢.

للدلالة على أنه أبو الأمة أو أبو الجمهور، ولا نملك دليلاً أكيداً على ذلك كله.

○ اسم أمه بحسب التلمود (أمتلاي بنت كرنيبو)، وتعدّد اسمها في المصادر الإسلامية، ولا يمكننا التأكد من كلّ ذلك.

○ صرّح القرآن الكريم بأن اسم أبيه آزر، إلا أن في البين بعض الإشكالات التي تجعلنا نميل إلى أن آزر لم يكن والده، بل كان هذا الرجل بمثابة الوالد من حيث العناية به ورعاية شئونه، لاسيما مع التعبير عنه بعنوان (الأب) لا (الوالد)، ولكن يصعب حسم المسألة بشكل أكيد. وإن صحّ ذلك، فاسم والده قد يكون (تارح) كما جاء في التوراة.

خصله و مقاماته

خصاله ومقاماته

• موضوعات هذا الفصل:

- إطلالة على خصال إبراهيم «عليه السلام» المذكورة في القرآن الكريم، من قبيل الحلم والتصديق والشجاعة والكرم.
- عرض مقامات النبي إبراهيم كما جاءت في القرآن الكريم، كالنبوة والإمامة والخلة واستجابة الدعاء وإنزال الصحف عليه.
- فعند تتبع الآيات القرآنية التي ذكرت إبراهيم «عليه السلام»، سنجد أنها قدّمت وصفاً لعدد من خصاله الذاتية ومقاماته عند الله «سبحانه وتعالى»، ونبدأ بعرض الخصال أولاً، ومن ثم ننتقل إلى المقامات، وفي الفصل الثالث سنذكر مجموعة من صفاته وملامحه الخلقية.

• خصاله في القرآن:

- **أَوَّاهٌ حَلِيمٌ:** قال «تعالى»: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾^(١). والأَوَّاه هو كثير التأوّه لكمال رأفته وشفقته ورحمته بنفسه وبغيره، والحليم هو الصبور الذي لا يتصرّف بسفه عندما يُستفز أو يصيبه أذى من أحد أو شيء، ولا

١. سورة التوبة: ١١٤.

يعاجل العقوبة والانتقام. وقد ذكرت الآية هاتين الصفتين بعد ذكر مسألة استغفاره لأبيه على الرغم من استمراره في الشرك.

قال القرطبي^(١): (اختلف العلماء في الأَوَاهِ على خمسة عشر قولاً) ثم ذكرها كالتالي: الأول، أنه الدعاء الذي يُكثر الدعاء... الثاني، أنه الرحيم بعباد الله... الثالث، أنه الموقن... الرابع أنه المؤمن؛ بلغة الحبشة... الخامس، أنه المسيح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة... السادس، أنه الكثير الذكر لله «تعالى»... السابع، أنه الذي يُكثر تلاوة القرآن... الثامن، أنه المتأوّه... التاسع، أنه الفقيه... العاشر، أنه المتضرع الخاشع^(٢).

○ منيب: قال الله «سبحانه وتعالى»: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^(٣). المنيب هو الذي يُكثر الرجوع إلى الله «عز وجل» بمعرفته ومحَبَّته والإقبال عليه والإعراض عمن سواه.

قال العلامة الطباطبائي: (والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة: «يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ» وفيه مدح بالغ لإبراهيم «عليه السلام» وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا، وكان كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم، مراجعاً إلى الله في نجاتهم)^(٤). وهذا على خلاف

١. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الخزرقي القرطبي (٦٠٠هـ - ٦٧١هـ). فقيه ومفسر ومحدث سلفي المنهج. له عدة مصنفات أشهرها تفسيره (الجامع لأحكام القرآن).

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص ٤٠١-٤٠٢.

٣. سورة هود: ٧٥.

٤. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٣٣٩.

أمنيات وسلوكيات بعض المسلمين ممن يسارعون إلى تمنى الهلاك حتى بالمسلمين الذي يختلفون معهم المذهب.

○ أمة، قانت، حنيف، شاكِر، مجتبي، مُهتدي: قال «تعالى»: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

قال الراغب الأصفهاني^(٢) في كتابه المفردات في غريب القرآن: (وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة)^(٣). ويحتمل أن يكون المعنى أنه الإمام المقتدى به. والقنوت: الإطاعة والعبادة، أو دوامها.

والحنف: الميل من الطرفين إلى الوسط، وهو الاعتدال.

والاجتباء من الجباية وهو الجمع، واجتباء الله الإنسان هو إخلاصه لنفسه وجمعه من التفرق في المذاهب المختلفة.

وقد صار كذلك لأنه كان قانتاً حنيفاً موحداً شاكراً لنعم الله.

○ صديق: قال الله «عز وجل»: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾^(٤).

١. سورة النحل: ١٢٠-١٢١.

٢. الحسين بن محمد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب، (ت ٥٠٢هـ) أديب وعالم، أصله من أصفهان، وعاش ببغداد. صنّف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة، أشهرها (المفردات في غريب القرآن)، وله (جامع التفاسير).

٣. الراغب: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٣.

٤. سورة مريم: ٤١.

قال العلامة الطباطبائي: (الظاهر أن الصديق اسم مبالغة من الصدق، فهو الذي يبالغ في الصدق فيقول ما يفعل ويفعل ما يقول، لا مناقضة بين قوله وفعله، وكذلك كان إبراهيم «عليه السلام» قال بالتوحيد في عالم وثني وهو وحده، فحاج أباه وقومه وقاوم ملك بابل وكسر الآلهة وثبت على ما قال حتى أُلقي في النار ثم اعتزلهم وما يعبدون كما وعد أباه أول يوم)^(١).

ثم طرح العلامة احتمالاً آخر: (وقيل: إن الصديق اسم مبالغة للتصديق، ومعناه: أنه كان كثير التصديق للحق، يصدقه بقوله وفعله)^(٢).

وقال بعد ذلك أن هذا المعنى وإن وافق المعنى الأول في نهاية المطاف، لكن الأول أقرب، وذلك لندرة مجيء صيغة المبالغة من المزيد فيه، وهي كلمة «تصديق»، بخلاف ما لو قلنا بأنها صيغة مبالغة لكلمة «صدق».

○ وفي: قال الله «تعالى» في كتابه الكريم: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾^(٣).

قال العلامة الطباطبائي: (والتوفية تأدية الحق بتمامه وكماله، وتوفيته «عليه السلام» تأديته ما عليه من الحق في العبودية أتم التأدية)^(٤).

○ حكيم: قال الله «تعالى»: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(٥).

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٥٦.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٥٦.

٣. سورة النجم: ٢٧.

٤. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٤٥.

٥. سورة النساء: ٥٤.

الحكمة هي حسن تقدير الأمور وحسن التصرف والتطبيق والفعل وردّ الفعل. وهذه الآية وإن ذكرت عنوان آل إبراهيم، إلا أنها تشملته أيضاً.

○ الرُّشد: قال الله «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾^(١).

الرشد خلاف الغي، وهو إصابة الواقع، وهو في إبراهيم «عليه السلام» اهتداؤه بصفاء فطرته ونور بصيرته من حقيقة التوحيد وسائر المعارف الحقة من غير تعليم معلم أو تذكير مذكر أو تلقين ملقّن.

○ الشجاعة وقوة الإرادة: وهذا ما تكشف عنه قصته مع تحطيم الأصنام والتي سنذكرها بالتفصيل لاحقاً ضمن فصول هذا الكتاب، قال «عز وجل»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ، قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾^(٢). ولا يصدر مثل هذا الفعل الذي يعرضه إلى الموت إلا الشجاع قوي القلب والإرادة.

○ سلامة القلب: قال «عز وجل»: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٣)، ولم يوصف أحد بهذا الوصف في القرآن الكريم إلا نبي الله

١. سورة الأنبياء: ٥١.

٢. سورة الأنبياء: ٥١-٥٨.

٣. سورة الصافات: ٨٣-٨٤.

إبراهيم «عليه السلام»، وقد ظهرت سلامة قلبه في القرآن من خلال عدة مواقف جمعها الله بعد ذكره لهذه الصفة، وهي:

١. إنكار الشرك.
٢. الدعوة للتوحيد.
٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٤. الثبات على الدين.
٥. الهجرة فراراً بالدين.
٦. تقديم حب الله على كل حب سواه.
٧. تربية ولده على الاستجابة لأمر الله وإعانتته على طاعته مهما كلف الأمر.
٨. امتثاله هو لأمر الله مهما كان صعباً وشديداً على النفس.
٩. الإحسان.
١٠. الإيمان الصادق.

○ التسليم لله: قال «تعالى»: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١). وقد مرّ بنا قبل قليل ما يرتبط بتفسير مستوى هذا التسليم، وفي قصصه المعروضة في القرآن - من الهجرة وترك الديار وإسكان إسماعيل في واد غير ذي زرع والسعي لذبح ابنه وغير ذلك - خير دليل على مدى ومستوى التسليم عنده لله «سبحانه».

○ الكرم: قال «تعالى»: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ

دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ
بِعِجْلِ سَمِينٍ^(١). كان إبراهيم «عليه السلام» كريماً جداً، حتى أنه لما أرسل
الله «عز وجل» إليه الملائكة بصورة البشر، ولربما كانوا ثلاثة، ذبح لهم عجل
سمين، وشواه لهم، وكان يقطر ماءً وسمناً بسبب سمنته، وهذا ما عبّرت عنه
الآية القرآنية بصورة بليغة حيث قال «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ
بِالبُّشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ﴾^(٢).

قال العلامة الطباطبائي: (والحنيز^(٣) فعيل بمعنى المفعول أي المحنود،
وهو اللحم المشوي على حجارة محماة بالنار، كما أن القديد هو المشوي على
حجارة محماة بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين، وذكر بعضهم أنه المشوي

١. سورة الذاريات: ٢٤-٢٦.

٢. سورة هود: ٦٩.

٣. الحنيز اليوم يُطلق على واحدة من أشهر الأكلات الخليجية الشعبية، ومن أقدم الوجبات
في تاريخ جزيرة العرب، ويعتبر طريقة لطهي اللحوم، ويُطبخ عادةً في إقليم تهامة وأجزاء
من اليمن والسرّة، ويتم إعدادُه عبر وضعه داخل حفرة في الأرض أو باستخدام التنور
المعروف في بعض المناطق باسم (الميفا)، وهو في الأصل طبق يمّني لكنه انتشر في دول
الخليج العربي. الفكرة من الحنيز هي أن ينضج اللحم بالحرارة وأن يندى الدهن على
اللحم وما تلاه من الأسفل من أرز أو غيره، والأصل فيه أن يؤخذ كبش أو تيس بوزن لا يقل
عن ٧٠ كيلوغراماً، لأنه إن كان غير ذلك فسوف ينسلخ اللحم عن العظم من شدة الحرارة
ويفقد الطبق منظره وطعمه، ويُتَبَّل بالإضافات قبل وقت مناسب من بدء الطهي، ثم يُشك
بسيخ مصلّب من الرقبة إلى الإلية ليعلق مقلوباً في التنور المبني تحت الأرض والمعد لهذه
الغاية، على أن تكون نار التنور عظيمة وقد مات فيها اللهب واستحالت جمرًا متوهجاً، وجعل
فوقها حلّة كبيرة فيها ما يراد طبخه من الأرز أو الفريك مع الماء وما يضاف إلى مثل ذلك،
ثم يعلق الكبش من سقف التنور كما ورد ذكره، ويظمر غطاء التنور بالتراب ويترك لثلاث أو
أربع ساعات، ويُقدّم في طبق التقديم. بهذه الطريقة يندى الدهن من الإلية في الأعلى على
ما تلاها من اللحم وينساب إلى الأسفل على الأرز أو الفريك.

الذي يقطر ماء وسمناً، و قيل: هو مطلق المشوي، وقوله «تعالى» في سورة الذاريات في القصة: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لا يخلو من تأييد ما للمعنى الثاني^(١) أي أنه العجل المشوي الذي يُقَطَّر ماء وسمناً.

وفي سفر التكوين ذكر لهذا الحدث، وحُسن ضيافة إبراهيم وكرمه، ولكن الضيوف - بحسب النص التوراتي - أكلوا، وذلك على خلاف ما جاء في القرآن الكريم، قال «تعالى»: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾^(٢). فالالتقاء من حيث ذبح العجل السمين وتقديمه إليهم، والاختلاف من حيث أنهم لم يأكلوا في النص القرآني مما جعله يستغرب من ذلك ويستنكر فعلتهم لأنها مخالفة للطبيعة البشرية بلحاظ أنهم مسافرون مما يستدعي كونهم جوعى، وأن طبيعة ذلك الطعام تكون شهية، فلماذا لا يمدّون أيديهم ليأكلوا.. هل لديهم نية مسبقة لخيانة مضيفهم أو إيذائه؟ في المقابل نجد أن النص التوراتي يذكر أنهم أكلوا من ذلك الطعام. وسنذكر هذه القضية في الفصل الخاص بعرض سيرته «عليه السلام» عند هجرته إلى أرض كنعان^(٣).

وفي الكافي بالسند عن زيد الشحام، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن إبراهيم «عليه السلام» كان أبا أضياف، فكان إذا لم يكونوا عنده خرج

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٣٢٠.

٢. سورة الذاريات: ٢٤-٢٨.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨: ١-٨.

يطلبهم وأغلق بابه وأخذ المفاتيح يطلب الأضياف...) (١).

• مقاماته في القرآن :

○ خليل الله: قال الله «تعالى»: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٢).

قال السعدي (٣): (والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم «عليهما الصلاة والسلام»، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به، وصبر على ما ابتلي به) (٤).

○ المصطفى من قبل الله: قال «تعالى»: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥). قال العلامة الطباطبائي: (الاصطفاء أخذ صفوة الشئ وتمييزه عن غيره إذا اختلط، وينطبق هذا المعنى بالنظر إلى مقامات الولاية على خلوص العبودية وهو أن يجري العبد في جميع شؤونه على ما يقتضيه مملوكيته وعبوديته من التسليم الصرف لربه، وهو التحقق بالدين في جميع

١. الكليني: الكافي، ج ٤، ص ٤٠.

٢. سورة النساء: ١٢٥.

٣. أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي الناصري التميمي، (١٨٨٩م-١٩٥٦م). عالم وفقه ومفسر على المذهب السلفي. صنّف كتاباً أهمها كتابه في تفسير القرآن (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان).

٤. السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٠٦.

٥. سورة البقرة: ١٣٠.

الشؤون فإن الدين لا يشتمل إلا على مواد العبودية في أمور الدنيا والآخرة وتسليم ما يرضيه الله لعبده في جميع أموره كما قال الله «تعالى»: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)، فظهر: أن مقام الاصطفاء هو مقام الاسلام بعينه ويشهد بذلك قوله «تعالى»: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) فإن الظاهر أن الظرف متعلق بقوله: اصطفيناه، فيكون المعنى أن اصطفائه إنما كان حين قال له ربه: أسلم، فأسلم لله رب العالمين فقوله «تعالى»: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بمنزله التفسير لقوله: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾^(٣).

○ أتباع ملته: قال «تعالى»: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤). وأمر الناس منذ بعثته «عليه السلام» إلى يوم القيامة بأن يكونوا أتباعاً للملة الإبراهيمية على اختلاف الرسالات والأزمنة - بما في ذلك أتباع الرسالة المحمدية - لشرف عظيم ومقام رفيع لهذا النبي الكريم، وباتباع ملته ينال الإنسان شرف الانتساب إليه، فملته هي الملة المائلة عن طريق الشرك، المستقيمة على طريق التوحيد.

○ الإمامة: قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٥).

١. سورة آل عمران: ١٩.

٢. سورة البقرة: ١٢١.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٣٠٠.

٤. سورة آل عمران: ٩٥.

٥. سورة البقرة: ١٢٤.

والإمامة هنا تحتل أكثر من معنى، واختلف المفسرون في تأويلها، ولربما هي إمامة الدين، وجعلها الله له في زمانه، وزاده بأن أعطاه هذا المقام لمن بعده من الناس من حيث أن ملته هي الملة التي أمرنا باتباعها إلى يوم الدين.

○ التأسّي به: قال «تعالى»: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(١). وحيث أن التأسّي يعني الاتباع والافتداء، فقد جعل الله إبراهيم من خلال - ملته وسيرته - مثلاً أعلى في ذلك.

○ إجابة دعواته: وهو «عليه السلام» القائل: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾^(٢)، وستمّر بنا موارد عديدة من دعائه خلال استعراض سيرته، ومن بينها قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾^(٣)، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(٤)، وقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وتحقّق ذلك في النبي محمد ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥).

١. سورة الممتحنة: ٤.

٢. سورة إبراهيم: ٤٠.

٣. سورة إبراهيم: ٣٥.

٤. سورة إبراهيم: ٣٧.

٥. سورة البقرة: ١٢٧-١٢٩.

○ جعل النبوة في ذريته من إسماعيل وإسحاق: قال «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(١)، وقال «تعالى»: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢). وقال «تعالى» ذاكراً بعضاً منهم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ ذكر العلامة الطباطبائي أن الضمير في «ذريته» راجع إلى نوح ظاهراً، لأنه المرجع القريب لفظاً، ولأن في المعدودين من ليس هو من ذرية إبراهيم مثل لوط^(٣)، ومع هذا فإن غالبية الأسماء الآتية هي من لأنبياء من ذريته ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤).

○ إتيانه الكتاب: ونبيله مقام النبوة والرسالة أنزل الله عليه صحفاً، قال «تعالى»: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(٥).

١. سورة الحديد: ٢٦.

٢. سورة العنكبوت: ٢٧.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٢٤٢.

٤. سورة الأنعام: ٨٤-٨٧.

٥. سورة الأعلى: ١٤-١٩.

قال المجلسي: (وفيه دلالة على أن إبراهيم «عليه السلام» كان قد أنزل عليه الكتاب، خلافاً لمن يزعم أنه لم ينزل عليه كتاب. وروي عن أبي ذر عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: «أنزل الله مائة وأربعة كتب: منها على إبراهيم «عليه السلام» عشر صحائف». وفي الحديث إنه كان في صحف إبراهيم: «ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً لسانه، عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه». وقيل: إن كتب الله كلها أنزلت في شهر رمضان^(١).

وفي الكافي: بإسناده عن أبي عبد الله «عليه السلام»: قال: (قال النبي «صلى الله عليه وآله»: «أنزل صحف إبراهيم «عليه السلام» في أول ليلة من شهر رمضان^(٢)).

وفي الخصال للشيخ الصدوق^(٣) بالسند - وإسناد الرواية عن طريق أهل السنة - عن أبي ذر عن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (أنزل الله على إبراهيم عشرين صحيفة، قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالاً كلها، وكان فيها: «أيها الملك المبتلى المغرور إنني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً) أي بالمرض أو بالعدو أو

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٥٩.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٧٥. وقال صاحب الحاشية على البحار أنه لم يجد هذه الرواية في الكافي.

٣. أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (حدود ٣٠٦ هـ - ٣٨١ هـ / ٩٢٣ م - ٩٩١ م). عالم فقيه ومحدث كبير عند الشيعة الإمامية. نسب إليه ما يقارب من ٣٠٠ مصنف، ولكن الكثير منها مفقودة. من أشهر مؤلفاته (من لا يحضره الفقيه)، (الخصال)، (الاعتقادات)، (علل الشرائع)، (كمال الدين وتمام النعمة).

بالمصائب أو على عقله (أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه «عز وجل»، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيما صنع الله «عز وجل» إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال، فإن هذه الساعة عون لتلك الساعات، واستجمام للقلوب وتوزيع لها، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه فإن من حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مرمةً لمعاش، أو تزود لمعاد، أو تلذذ في غير محرم». قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى «عليه السلام»؟ قال: كانت عبراً كلها، وفيها: «عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ ولمن أيقن بالنار لم يضحك؟ ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها لم يطمئن إليها؟ ولمن يؤمن بالقدر كيف ينصب؟ ولمن أيقن بالحساب لم لا يعمل؟». قلت: يا رسول الله، هل في أيدينا مما أنزل الله عليك شئ مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: يا أبا ذر اقرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى، بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(١) (٢).

كما ونجد إشارة أخرى إلى صحف إبراهيم وبعض ما فيها وذلك في سورة النجم حيث قال «تعالى»: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى، وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى، أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى، وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى،

١. سورة الأعلى: ١٤-١٩.

٢. الصدوق: الخصال، ج ٢، ص ١٠٤ - ١٠٥.

وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى،
وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْآخِرَى، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى، وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى، وَأَنَّهُ
أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى، وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى، وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ
وَأَطْغَى، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى، فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى، فَبَآئٍ آلَاءُ رَبِّكَ تَتَمَارَى^(١).

والسؤال هنا، هل كل ما جاء بعد الإشارة إلى صف إبراهيم وموسى هنا
قد ذكر فيهما، أم نتوقف عند قوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾؟

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره لآية ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾:
(والآية بيان ما في صف إبراهيم وموسى «عليهما السلام»، وكذا سائر
الآيات المصدرة بـ «أن» و «أن» إلى تمام سبع عشرة آية)^(٢) أي إلى الآية ٥٥.

أما ابن عاشور فقد اعتبر أنَّ ما كان في صف إبراهيم وموسى يختص
بما جاء في الآيات برقم ٣٨-٤٨ فقط. قال في تفسيره بخصوص آية ﴿وَأَنَّهُ هُوَ
رَبُّ الشَّعْرَى﴾: (فهذه الجملة لا يجوز اعتبارها معطوفة على جملة ﴿أَلَّا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ «النجم ٣٨» إذ لا تصلح لأن تكون مما في صف موسى
وإبراهيم، لأن الشعرى لم تُعبد في زمن إبراهيم ولا في زمن موسى «عليهما
السلام» فيتعين أن تكون معطوفة على ما الموصولة من قوله ﴿بِمَا فِي صُحُفِ
مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ﴾^(٣).

ولا أدري كيف جزم ابن عاشور بعدم عبادة الشعرى في ذلك الزمان،
علماً بأن قدماء المصريين قدسوه لارتباطه بفيضان النيل، لذلك أسموه

١. سورة النجم: ٣٢-٥٥.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٤٦.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ١٥٠.

(نجم إيزيس)، وترتبط ممرّات في نصوص الأهرام إيزيس بـ (سوبديت) Sopdet الإلهة المتمثلة في نجم الشعري اليمانية^(١).

كما أن بعض الآثاريين اعتبروا أن الإله (نينورتا) في بلاد ما بين النهرين حيث وُلد وعاش النبي إبراهيم هو ذاته نجم الشعري^(٢)، والذي كان يُعرف في اللغة الأكادية باسم Šukūdu، بمعنى السهم، علماً بأنه في التصاوير القديمة، كثيراً ما يظهر نينورتا ممسكاً بقوس وسهم، وهذا ما يجعل من احتمال ذكّر الشعري في صحف إبراهيم وموسى وأنّ الله هورب الشعري، وأنّ هذا النجم ليس بإله احتمالاً وارداً من الناحية التاريخية، وهو ما يساعد على صحّة رأي العلامة الطباطبائي.

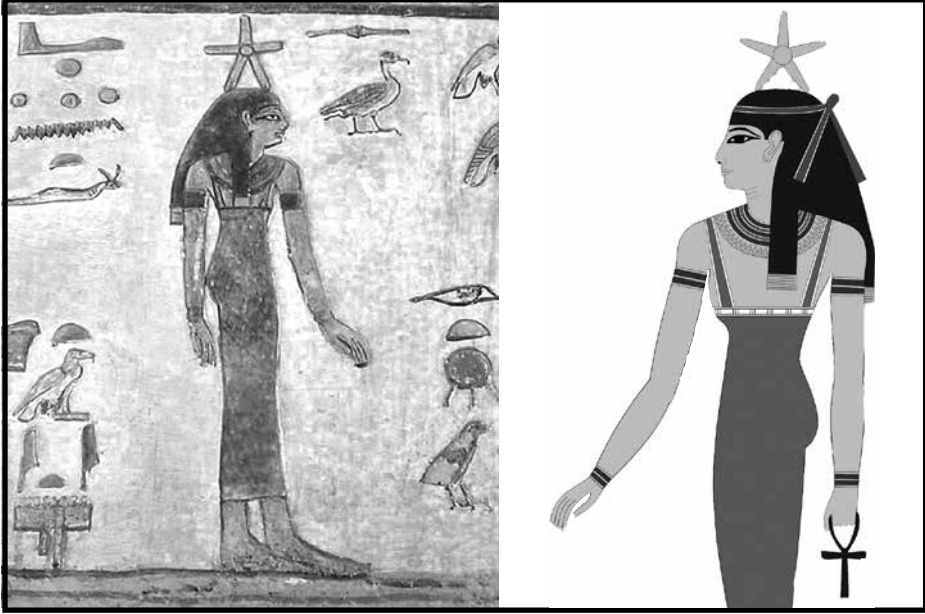
نعم، ما قد يساعد على ترجيح رأي ابن عاشور هو أننا عندما نعود إلى التوراة الحاضرة بين أيدينا، فإننا وإن كنّا نجد ذكراً لقوم نوح وقوم لوط، حيث قيل أن المؤتفكة، أي المنقلبة، هي ديار قوم النبي لوط «عليه السلام»، وقد ذُكرت في التوراة، إلا أننا لا نجد فيها ذكراً لقومي عاد وثمود وقصة النبيين الكريمين هود وصالح «عليهما السلام»، إذ أن صحف موسى هي التوراة بحسب الظاهر. قال العلامة الطباطبائي: (﴿صُحُفِ مُوسَى﴾ التوراة)^(٣)، وقال ابن عاشور: (﴿صُحُفِ مُوسَى﴾ هي التوراة)^(٤)، كما أننا لا نجد فيها

1. Griffiths, J. Gwyn. The Origins of Osiris and His Cult. Brill.P12.

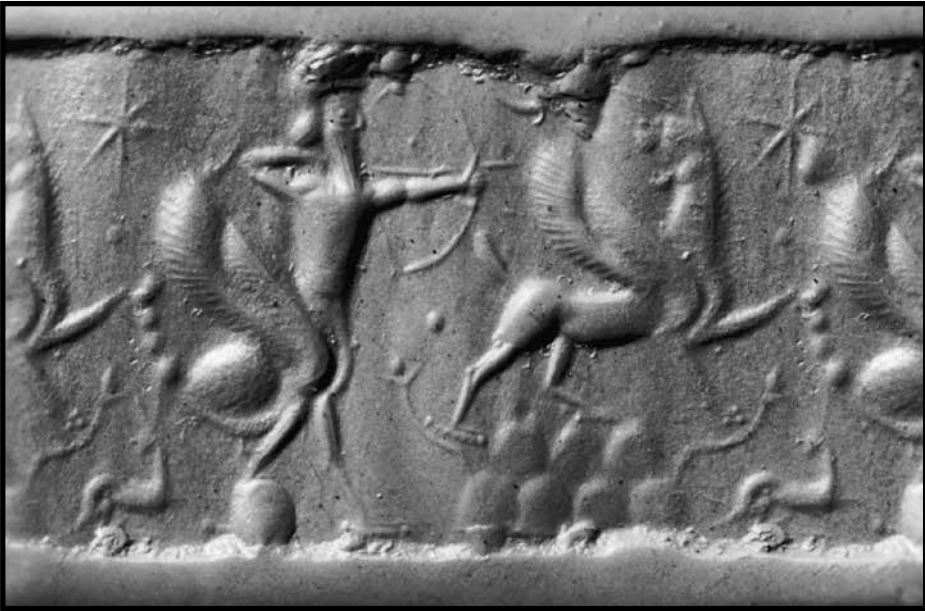
2. van der Toorn, Karel; Becking, Bob; van der Horst, Pieter Willem (1999), Dictionary of Deities and Demons in the Bible (second ed.), Grand Rapids, Michigan: William B. Eerdmans Publishing Company, P628.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٤٥.

٤. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٢٧، ص ١٢٩.



الإلهة سوبديت وتظهر نجمة الشعرى فوق رأسها



الإلهة نينورتا ممسكة بالقيوس

ذِكْراً للشُّعْرى أيضاً، وهذا يرجِّح رأي ابن عاشور، إلا إذا قلنا بأن التحريف إذ طال التوراة، فقد حُذِفَ منها - فيما حُذِفَ - ذِكْرُ عاد وشمود، وذِكْرُ ما مؤداه أن الله ربُّ الشُّعْرى.

• نتائج الفصل وخلاصته :

- عند تتبُّع الآيات القرآنية التي ذكرت إبراهيم «عليه السلام»، سنجد أنها قدِّمت وصفاً لعدد من خصاله الذاتية ومقاماته عند الله «سبحانه وتعالى».
- من بين خصاله كما جاءت في القرآن: الأَوَّاه، الحليم، المنيب، الأمة، القانت، الصديق، الوفي، الحكيم، الرشيد، الشجاع، الكريم، سليم القلب.
- من بين مقاماته كما جاءت في القرآن: خليل الله، المصطفى من قبل الله، الإمامة، اتِّباع ملته، الأسوة عبر الأجيال والقرون المتعاقبة، استجابة دعواته، جعل النبوة في ذريته من فرعيه الإسماعيلي والإسحاق.

صفاته الخلقية

صفاته الخلقية

• موضوعات هذا الفصل:

- بحث مختصر حول القيمة العلمية لكتاب قصص الأنبياء للراوندي ومدى إمكانية الاعتماد على رواياته.
 - عرض ما جاء في الروايات من صفات خلقية للنبي إبراهيم.
 - نقد رواية عرض صور وتمثيل الأنبياء، بمن فيهم النبي إبراهيم من قبل قيصر الروم، ومصادر هذه الصور والتماثيل.
 - علماً بأنه لم يتعرض القرآن الكريم ولا الكتاب المقدس لملامح النبي إبراهيم «عليه السلام» الخلقية وهيئته الخارجية، ولكننا نجد في مجموعة من الروايات بعضاً منها، وسنستعرض تلك الروايات ونقرأها بعين فاحصة.
 - وحيث أن الرواية الأولى التي ستأتي معنا مذكورة في كتاب قصص الأنبياء، لذا سأبدأ بنقل ما ذكره المحقق الشيخ محمد آصف محسن^(١) في
-
١. الشيخ محمد آصف محسن القندهاري الأفغاني (١٩٣٥م-٢٠١٩م). مرجع ديني ومحقق ومتخصص في علم الرجال، من مؤيدي التقريب بين المذاهب الإسلامية، وترأس شورى علماء الشيعة في أفغانستان، كما كان له نشاط جهادي ضد الاحتلال السوفيتي. من مصنفاته (بحوث في علم الرجال) و (مشرعة بحار الأنوار).

كتابه بحوث في علم الرجال^(١) حول هذا المصنف، وذلك تحت عنوان: «حول أسناد قصص الأنبياء».

• كتاب قصص الأنبياء:

قال: (ألف الشيخ قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي «رحمه الله» كتاباً ربّما ينهاه بعضهم إلى ستّة وخمسين كتاباً، منها كتابه في قصص الأنبياء، وقد أكثر فيه النقل عن الشيخ الصدوق «رضي الله عنه» لكنّه لم يذكر تفصيلاً أسناده إلى الصدوق في كلّ رواية، ولم يذكر أيضاً في أوّل كتابه سنداً عاماً لجميع ما ينقله عن الصدوق، حتّى يتّضح حال الروايات المعتبرة سنداً من قبل الصدوق، وأنها معتبرة أو ضعيفة؛ لأجل من بعد الصدوق «رحمه الله»، بل ذكر في بعض الروايات سنده تفصيلاً، وفي بعضها إجمالاً، وفي الأكثر قال: «عن ابن بابويه» أو «وعن ابن بابويه»، بزيادة كلمة: الواو العاطفة. وربّما يقول «بإسناده عن فلان»، والضمير المجرور في الكلّ أو في الأكثر يرجع إلى الصدوق، وربّما يقول غير ذلك. وهذا الكتاب لم يُطبع ظاهراً، وبقي مخطوطاً إلى قبل عشرة أشهر، فتصدّى بعض الفضلاء - شكر الله سعيه - لطبعه في شهر رجب عام ١٤٠٩).

١. طبع الكتاب سنة ١٣٩٩ هـ في مدينة مشهد في إيران باسم (الفوائد الرجالية)، ثم طبع في قم سنة ١٤٠٢ هـ - مع تصحيح وتكميل - باسمه الحالي، وصدر مجدداً في إسلام آباد الباكستان وبضممية كتاب (عدالة الصحابة) سنة ١٤١٧ هـ بعد إضافات وتغييرات للمؤلف. ويشتمل الكتاب على ٤٦ بحثاً في علم الرجال وتشتمل على قواعد كلية ومعايير لإحراز وثيقة وصدق الراوي، وضوابط للتصديق والتضعيف، وأمارات للتوثيق والجرح، كما تشتمل على مناقشة وثيقة مشايخ الرواية والإجازة وتوثيقاتهم، وتوثيقات بعض أعلام الطائفة لما جاء من طرق في مصنفاتهم.

وبعد أن بيّن محسني توثيقاته للرواة المذكورة أسماؤهم في الكتاب ورأيه في الروايات المرسلة قال: (ثم إنّ هنا بحثاً أعمق وأسبق، وهو اعتبار أصل الكتاب وإحراز اتّصاله إلى مؤلّفه بالسند المتّصل المعتبر) وبحث ذلك في فصل آخر وجاء كالتالي: (قال الشّيخ منتجب الدّين^(١) في فهرسته: الشّيخ الإمام قطب الدين أبو الحسين سعد - قيل: سعيد - ابن هبة الله بن الحسن الراوندي، فقيه عين صالح ثقة له تصانيف ... ثمّ ذكر كتبه. وقال ابن شهر آشوب^(٢) في معالِم العلماء في حقّه: شيخ أبي الحسين سعد بن هبة الله له كتب فذكر كتابين له. وهذان الفاضلان لم يذكرنا كتاب قصص الأنبياء له. وقال الحر العاملي^(٣) في تذكرة المتبحرين في ترجمته: وقد رأيت له كتاب قصص الأنبياء أيضاً.... ونسب المجلسي قصص الأنبياء المذكور أولاً إليه على ما يظهر من أسانيد الكتاب واشتهر أيضاً، ثمّ قال: ولا يبعد أن يكون تأليف فضل الله بن علي بن عبيد الله الحسن الراوندي^(٤)، كما يظهر من بعض

١. الشّيخ أبو الحسن علي بن عبيد الله بن الحسن القميّ المعروف بمنتجب الدين (٥٠٤هـ - ٥٨٥هـ). عالم ومحدّث. من مصنفاته (فهرست أسامي علماء الشيعة ومصنّفاتهم).

٢. محمد بن علي بن شهر آشوب السّروي المازندراني (٤٨٨هـ - ٥٨٨هـ). فقيه ومحدّث. له مصنّفات كثيرة، منها: (مناقب آل أبي طالب)، (معالِم العلماء).

٣. محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن الحسين المعروف بالشّيخ الحر العاملي (١٠٣٢هـ - ١١٠٤هـ)، محدّث وفقه إمامي. من مصنفاته (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة) المعروف بكتاب وسائل الشيعة، وهو مصدر للأحاديث التي يُعتمد عليها في الاستنباط الفقهي.

٤. السيد ضياء الدين أبو الرضا فضل الله بن علي الحسن الراوندي (٥٥١هـ)، فقيه وأديب. من مصنفاته (ضوء الشهاب في شرح الشهاب)، (مقاربة الطيبة إلى مقارنة النية)، (الأربعين في الأحاديث)، (نظم العروض للقلب المروض)، (الكافي في التفسير).

أسانيد السيد ابن طاووس، وقد صرح بكونه منه في رسالة النجوم، وكتاب فلاح السائل. والأمر فيه هيئ؛ لكونه مقصوداً على القصص، وأخباره جلّها مأخوذة من كتب الصدوق «رحمه الله».

ولم يرتضِ المحقق محسني كلام المجلسي بأن الأمر هيئ، قال: (وعندي أنّ الأمر ليس فيه هيئ؛ لحرمة انتساب الشيء إلى الأئمة «عليهم السلام» وإلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإلى الله «تعالى» ما لم يثبت صحّته بالعلم الوجداني أو التعبدي، وإن كان هذا الشيء المنسوب من أهون الأشياء).

ثم أضاف: (وذكر صاحب الوسائل، هذا الكتاب في ضمن مصادر وسائله في الفائدة الرابعة من خاتمة كتابه واعتمد عليه، ولكن الظاهر إنّ الكتاب لم يصل إليه وإلى المجلسي «رحمهما الله» بسند متصل، فلا بدّ من إثبات شهرة الكتاب بين العلماء في الزمان الفاصل بين مؤلّفه وبينهما).

وختم محسني رأيه بإثارة إشكالية أخرى تواجه الكتاب حيث قال: (ثمّ إنّ المسلم أنّ جل أخبار القصص رويت عن الصدوق «رحمه الله»؛ وأمّا أنّها مأخوذة من كتبه، فهو محتاج إلى شاهد أو تتبع. والثمرة بين القولين كبيرة جدّاً؛ إذ على الثاني لا يحتاج الحكم باعتبار الروايات إلى إحراز وثاقة الوسائط بين مؤلّف القصص والصدوق، وعلى الأوّل يحتاج، ويضرّ جهالتهم باعتبار الروايات؛ وأمّا البحث عن أسانيد مؤلّف القصص إلى الصدوق، فقد تقدّم في بعض البحوث السابقة. وهنا شيء آخر وهو عدم وجود تلك الروايات بتمامها في كتب الصدوق، وهذا أمر عجيب^(١)).

١. محسني: بحوث في علم الرجال، ص ٤٣٦-٤٣٧.

• عرض الروايات:

بعد هذه المقدمة حول كتاب قصص الأنبياء ننتقل لعرض مجموعة من الروايات الواردة في المصادر المختلفة والتي أشارت إلى بعض من صفات النبي إبراهيم «عليه السلام» الخلقية وملامحه الظاهرية.

○ **قصص الأنبياء للراوندي:** عن الصادق «عليه السلام» قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: رأيتُ إبراهيم وموسى وعيسى «عليهما السلام») ولا يذكر الخبر متى وكيف وهل لهذا علاقة بقصة المعراج مثلاً أم بماذا (فأما موسى فرجل طوال سَبَط) السَّبَط الشعر المسترسل غير الجعد (يشبه رجال الزط) وهم الفجر وأصلهم من نواحي الهند وكانوا يوصفون بالطول وسمرة البشرة (ورجال أهل شنوءة) أزد شنوءة أو أزد شنوءة قبيلة عربية عُرف رجالها بكمال القوة والبنية الجسدية (وأما عيسى فرجل أحمر جعد رُبعة) متوسط القامة (قال: ثم سكت، فقليل له: يا رسول الله فإبراهيم؟ قال: انظروا إلى صاحبكم. يعني نفسه «صلى الله عليه وآله»)(^١).

○ **صحيح البخاري**(^٢): وفيه ما يقارب هذا الكلام ولكن مع تحديد زمن الرؤية والمناسبة: (عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة «رض» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ليلة أُسري بي رأيتُ موسى وإذا هو رجل ضَرْبٌ نحيف (رَجُلٌ) دهين الشهر مسترسله (كأنه من رجال شنوءة،

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٠.

٢. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ هـ - ٢٥٦ هـ / ٨١٠ م - ٨٧٠ م). من أهم علماء الحديث وعلوم الرجال والجرح والتعديل والعلل عند أهل السنة. له مصنفات كثيرة أبرزها كتاب الجامع الصحيح، المشهور باسم صحيح البخاري.

صفاته الخلقية

ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس) حمّام (وأنا أشبه ولد إبراهيم «صلى الله عليه» به^(١).

○ السيرة النبوية لابن هشام^(٢): وينقل فيه عن محمد بن إسحاق^(٣) أنه: (زعم الزُّهري) وفي هذا التعبير ما فيه (عن سعيد بن المسيب أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» وصّف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رأهم في تلك الليلة) أي المعراج (فقال: أما إبراهيم، فلم أَر رجلاً أشبه قط بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب) نحيف (جعد أقتى) قَتَا الْأَنْفُ: احْدِيدَابُ وَسَطِهِ (كأنه من رجال شنوءة، وأما عيسى بن مريم، فرجل أحمر، بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه) الشامات (كأنه خرج من ديماس) الحمّام لاحمرار وجهه ونضارته (تخال رأسه يقطر ماء، وليس به ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي)^(٤).

ولو صحّ هذا المضمون، فمن أراد معرفة صفة النبي إبراهيم «عليه السلام» فعليه أن يعود للنصوص التي تصف رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وقد جاء في صفة النبي «صلى الله عليه وآله» عن أمير المؤمنين علي «عليه السلام»: (لم يكن النبي «صلى الله عليه وآله» بالطويل ولا بالقصير، شَتْنُ

١. صحيح البخاري، ح ٣٢١٤.

٢. أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨ هـ). كاتب سير ومؤرخ. كما كان عالماً بالأنساب واللغة. له كتاب (السيرة النبوية).

٣. محمد بن إسحاق بن يسار المدني (٨٠ هـ - ١٥١ هـ / ٦٩٩ م - ٧٦٩ م). حافظ ومحدث ونسابة، ويعد من قدماء مؤرخي العرب. له (السيرة النبوية) هذبها واختصرها ابن هشام.

٤. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٠١.

الكفين والقدمين) أي ممتليء الأصابع (ضخم الرأس) بما يتناسب مع جسده (ضخم الكراديس) رؤوس العظام أو مجتمعها كالركبة والمنكب (طويل المسربة)^(١) أي الشعر الدقيق الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرة.

وعن الإمام الحسن بن علي «عليه السلام» قال: (سألت خالي هند بن أبي هالة)^(٢)، وكان وصافاً عن حلية النبي «صلى الله عليه وآله»، وأنا أشتهي أن يصف لي منه شيئاً أعلق به، فقال: كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» فخمًا مفخمًا، يتلأل وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع (المتوسط بين الطول والقصر) (وأقصر من المشدب) الطويل البائن الطول (عظيم الهامة، رجل الشعر) في شعره تشن قليل، ليس شديد الاسترسال، ولا شديد التجعد (إن انفردت عقيصته فرق، وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن) له حاجبان غزيرا الشعر، طال طرفاهما وامتدا إلى مؤخر العين من غير اقتران (بينهما عرق يدره الغضب، أقتى العرنين) فنا الأنف: احدياب وسطه، والعرنين: ما صلب من عظم الأنف (له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم) شمم الأنف: ارتفاع قصبه الأنف وحسنها (كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب) أبيض الأسنان رقيقها (مفلج الأسنان) متباعدة (دقيق المسربة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادن متماسك، سواء

١. الترمذي: السنن، ج ١٠، ص ٨٠.

٢. هند بن هند بن النباش بن زرارة التميمي، ابن السيدة خديجة بنت خويلد، وريب النبي، وأخو فاطمة الزهراء من أمها، وخال الحسن والحسين، كان فصيحاً بليغاً، قيل أنه شهد بدرًا، وقيل بل شهد أحدًا، استشهد مع الإمام علي يوم الجمل سنة ٣٦ هـ.

البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين) عريض أعلى الظهر (ضخم الكراديس، أنور المتجرد) أي المواطن التي لا شعر فيها من جسمه تظهر كأن لها نور (موصول ما بين اللبّة) موضع القلادة من الصدر (والسرّة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، سبط القصب) القصب: الساعدان والساقان، والسبط بمعنى عدم وجود نتوء أو تعقّد (شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف) ممتد الأصابع طوال غير منعقدة ولا متثنية (خُصّان الأخصمين) أي شديد تباعد أخصص القدم عن الأرض (مسيح القدمين) أملسهما مستويهما لينهما بلا تكسر ولا تشقق جلد (ينبو عنهما الماء) أي يسيل ويمر سريعاً إذا صب عليهما^(١).

○ تفسير علي بن إبراهيم القمي^(٢): روى بالسند عن عبد الملك بن هارون عن أبي عبد الله «عليه السلام»، عن آبائه «عليهم السلام» قال في رواية طويلة تتحدث عن الصراع بين أمير المؤمنين «عليه السلام» ومعاوية وإطّلاع ملك الروم على ذلك: (وبلغ ذلك ملك الروم وأخبر أن رجلين قد خرجا يطلبان الملك، فسأل: من أين خرجا؟... ثم كتب إلى معاوية أن ابعث إليّ أعلم أهل بيتك، وكتب إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» أن ابعث إليّ أعلم أهل بيتك،

١. الطبراني: المعجم الكبير، ج ٢٥، ص ٢٤٦.

٢. علي بن إبراهيم بن هاشم القمي (ت ٣٢٩هـ). فقيه ومحدّث. كان من أصحاب الإمام علي الهادي. يعتبر من مشايخ الكليني وعلي بن بابويه والد الشيخ الصدوق. له مصنفات عديدة أهمها كتاب التفسير، والذي لم تثبت النسخة الموجودة حالياً أنها له. للمزيد انظر الجزء الثاني من كتابي (في عمق التاريخ).

فأسمعُ منهما، ثم أنظر في الإنجيل كتابنا، ثم أخبركما من أحق بهذا الأمر، وخشي على مُلكه، فبعث معاوية يزيدَ ابنَه) وهل كان يزيد العاثر اللاهي أعلم أهل بيته؟ وهل كان معاوية بهذه السذاجة ليفضح نفسه من خلال ابنه يزيد؟ (وبعث أمير المؤمنين الحسن ابنه «عليه السلام»).

وتشرح الرواية ما جرى في بداية اللقاء بين الأطراف ثم قال: (ثم أخرج من خزائنه ثلاثمائة وثلاثة عشر صندوقاً فيها تماثيل الأنبياء، وقد زُيّنت بزينة كل نبي مرسل).

ثم تذكر الرواية أن ملك الروم بدأ يُخرج التماثيل الواحدة تلو الأخرى ويعرضها على يزيد والحسن، ويطلب من كل واحد على حدة أن يُخبره عن اسم النبي الذي يكون التمثال على صورته، ثم قال: (ثم عرض عليه آخر فقال:) أي الإمام الحسن (هذه صفة إبراهيم عريض الصدر طويل الجبهة).

وهكذا يستمر الملك في عرض التماثيل إلى أن يقول الراوي: (فلما أخبر الحسن «عليه السلام» بصفة ما عرض عليه من الأصنام وتفسير ما سألته، التفّت الملك إلى يزيد بن معاوية وقال: أشعرت أن ذلك علم لا يعلمه إلا نبي مرسل أو وصي مؤازر، قد أكرمه الله بمؤازرة نبيه أو عترة نبي مصطفى، وغيره فقد طبع الله على قلبه وآثر دنياه على آخرته وهواه على دينه وهو من الظالمين. قال: فسكت يزيد وخمد. قال: فأحسن الملك جائزة الحسن وأكرمه وقال له: ادع ربك حتى يرزقني دين نبيك، فإن حلاوة الملك قد حالت بيني وبين ذلك، وأظنه سماً مُردياً وعذاباً أليماً) وكأنه - بحسب هذه الرواية - يبرر عدم إيمانه بالرسالة المحمدية.

أضاف الراوي: (قال: فرجع يزيد إلى معاوية. وكتب إليه الملك أنه من آتاه الله العلم بعد نبية وحكم التوراة وما فيها، والإنجيل وما فيه، والزبور وما فيه، والفرقان وما فيه، فالحق والخلافة له، وكتب إلى علي «عليه السلام» أن الحق والخلافة لك، وبيت النبوة فيك وفي ولدك، فقاتل من قاتلك يعذب الله بيده، فإن من قاتلك نجده في الإنجيل أن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وعليه لعنة أهل السماوات والأرضين)^(١).

والرواية بأكملها موضوعة، وقد تحدثت عن حال تفسير علي بن إبراهيم القمي في بحوث سابقة، وكيف أن النسخة المتوفرة غير مسندة إليه، وأنها لا تشتمل على تفسيره فقط، بل وهناك إضافات من مصدر آخر على الأقل.

كما أن في سند الرواية ضعف، حيث أن الحسين بن عبد الله السكيني مجهول، وأبا سعيد البجلي مجهول عندنا، وإذا كان هو عمرو بن جرير كما هو مذكور عند أهل السنة - فهو متروك متهم بالكذب. أما عبد الملك بن هارون الشيباني فهو ثقة عين عند النجاشي... بينما كان يضع الحديث، متروك، ولا يحل كتابة حديثه بحسب توثيقات أهل السنة.

○ سير أعلام النبلاء للذهبي^(٢): وفيه رواية شبيهة برواية تفسير القمي، ويبدو لي أنها أصل هذه الرواية من حيث الفكرة العامة، وإن اختلفت معها في

١. القمي: تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٦٨-٢٧٢.

٢. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (٦٧٣ هـ - ٧٤٨ هـ / ١٢٧٤م - ١٢٤٨م). محدث ورجالي وحافظ ومؤرخ. من مصنفاته (التاريخ الكبير)، (سير أعلام النبلاء)، (ميزان الاعتدال)، (تهذيب التهذيب).

بعض الشخصيات والتفاصيل. فعن هشام بن العاص الأموي^(١) قال: (بُعِثْتُ أنا ورجل من قريش إلى هرقل ندعوه إلى الإسلام) وذلك على عهد أبي بكر (فنزّلنا على جبلة بن الأيهم الغساني) ملك الغساسنة (فدخلنا عليه، وإذا هو على سرير له، فأرسل إلينا برسول نكلمه، فقلنا: والله لا نكلم رسولاً، إنما بُعِثنا إلى الملك، فأذن لنا وقال: تكلموا. فكلّمته ودعوته إلى الإسلام، وإذا عليه ثياب سواد، قلنا: ما هذه؟ قال: لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام. قلنا: ومجلسك هذا، فو الله لناخذنه منك، ولناخذن مُلْكَ الملك الأعظم إن شاء الله) أي قيصر الروم (أخبرنا بذلك نبئنا. قال: لستم بهم، بل هم قوم يصومون بالنهار، فكيف صومكم؟ فأخبرناه، فملاً وجهه سواداً وقال: قوموا، وبعث معنا رسولاً إلى الملك) أي قيصر الروم (فخرجنا حتى إذا كنا قريباً من المدينة، قال الذي معنا: إنّ دوابكم هذه) الإبل (لا تدخل مدينة الملك، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال؟ قلنا: والله لا ندخل إلا عليها. فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون، فدخلنا على رواحنا متقلّدين سيوفنا، حتى انتهينا إلى غرفة له، فأنخنا في أصلها، وهو ينظر إلينا، فقلنا: لا إله إلا الله والله أكبر. والله يعلم لقد تنقّضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق نخلة أو غصن شجرة (تصفقه الرياح، فأرسل إلينا: ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم، وأرسل إلينا أن ادخلوا، فدخلنا عليه، وهو على فراش له، وعنده

١. هشام بن العاص بن وائل السهمي صحابي، أبوه العاص بن وائل السهمي وأخو عمرو بن العاص وخاله أبو جهل. أسلم بمكة قديماً، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية. عاد إلى مكة حين علم بهجرة النبي إلى المدينة للحاق به، لكن سجنه أبوه، وقومه. رحل إلى المدينة بعد غزوة الخندق. استشهد في معركة اليرموك (١٥هـ/٦٣٦م)، وقيل في غيرها.

بطارفته من الروم) رتبة لرجال الدين المسيحي (وكل شيء في مجلسه أحمر، وما حوله حُمرة، وعليه ثياب من الحُمرة، فدنوا منه، فضحك وقال: ما كان عليكم لو حييتموني بتحيتكم فيما بينكم. فإذا عنده رجل فصيح بالعربية، كثير الكلام، فقلنا: إِنَّ تَحِيَّتَنَا فيما بيننا لا تحل لك، وتحيتك التي تُحيّا بها لا يحلّ لنا أن نحْييك بها. قال: كيف تحيتكم فيما بينكم؟ قلنا: السلام عليكم. قال: فبِمَ تُحيّون مَلَكُكُمْ؟ قلنا: بها. قال: وكيف يَرُدُّ عليكم؟ قلنا: بها. قال: فما أعظم كلامكم؟ قلنا: لا إله إلا الله والله أكبر. فلما تكلمنا بها قال: والله يعلم لقد تنقّضت الغرفة، حتى رفع رأسه إلينا فقال: هذه الكلمة التي قَلتموها حيث تنقّضت الغرفة كلما قَلتموها في بيوتكم تنقض بيوتكم عليكم؟ قلنا: لا، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك. قال: لوددت أنكم كلما قلتم تُنقِضُ كُلَّ شيءٍ عليكم، وأني خرجت من نصف مُلكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسر لشأنها، وأجدر ألا يكون من أمر النبوة، وأن يكون من حيل الناس. ثم سألنا عما أراد، فأخبرنا، ثم قال: كيف صلاتكم وصومكم؟ فأخبرناه، فقال: قوموا، فقمنا، فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير، فأقمنا ثلاثاً، فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه، فاستعاد قولنا، ثم دعا بشيء كهيئة الرُبعة) نوع من الصناديق (العظيمة، مُذهّبة فيها بيوت صغار، عليها أبواب، ففتح بيتاً وقُفلاً، واستخرج حريرة سوداء فنشرها، فإذا فيها صورة حمراء، وإذا فيها رجل ضخّم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا ليست له لحية، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله، قال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا آدم «عليه السلام»، ثم فتح لنا باباً آخر، فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها

صورة بيضاء، وإذا له شعر كشعر القطط، أحمر العينين ضخمة الهامة حسن اللحية، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا نوح «عليه السلام»، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين) واضح الجبين واسعه (طويل الخد أبيض اللحية كأنه يتبسم، فقال: هل تعرفون هذا؟ قلنا: لا. قال: هذا إبراهيم «عليه السلام»، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة بيضاء وإذا والله رسول الله «صلى الله عليه وآله»، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وبكىنا. قال: والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس وقال: والله إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو، كأنما ننظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما إنه كان آخر البيوت، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم) واستمر في إخراج الرسومات إلى أن انتهى برسمه للنبي عيسى (فقلنا: من أين لك هذه الصور؟ لأننا نعلم أنها على ما صوّرت، لأننا رأينا نبينا «صلى الله عليه وآله» وصورته مثله، فقال: إن آدم سأل ربه «تعالى» أن يريه الأنبياء من ولده، فأنزل عليه صورهم، وكانت في خزانة آدم عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس، فدفعتها إلى دانيال «عليه السلام»، يعني فصوّرها دانيال في خرق من حرير، فهذه بأعيانها التي صوّرها دانيال. ثم قال: أما والله لوددت أن نفسي طابت بالخروج من مُلكي، وأني كنت عبداً لشرّكم مَلَكَةً حتى أموت. ثم أجازنا بأحسن جائزة وسرّحنا. فلما قدمنا على أبي بكر «رضي الله عنه» حدثناه بما رأيناه، وما قال لنا، فبكى أبو بكر وقال: مسكين، لو أراد الله به خيراً لفعل، ثم قال: أخبرنا رسول الله

«صلى الله عليه وآله» أنهم واليهود يجدون نعت محمد «صلى الله عليه وآله» عندهم).

ثم علّق الذهبي على الرواية قائلاً: (وهذه القصة قد رواها الزبير بن بكار، عن عمه مصعب بن عبد الله، عن أبيه، عن جده، عن أبيه مصعب، عن عبادة بن الصامت: بعثني أبو بكر الصديق في نفر من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى هرقل ملك الروم لدعوه إلى الإسلام، فخرجنا نسير على رواحلنا حتى قدمنا دمشق. فذكره بمعناه. وقد رواه بطوله علي بن حرب الطائي فقال: حدثنا دلهم بن يزيد قال: حدثنا القاسم بن سويد قال: حدثنا محمد بن أبي بكر الأنصاري، عن أيوب بن موسى قال: كان عبادة بن الصامت يُحدث، فذكر نحوه^(١). وهذه الرواية لا تعدو أن تكون من قصص القصاصين وهي تشتمل على ما لا يمكن تصديقه من كيفية نزول الصور من عند الله ثم تحوّلها إلى رسومات وتناقلها عبر الأجيال واستخراجها من مغرب الشمس على يد ذي القرنين ووصولها إلى قيصر الروم، فضلاً عن اهتزاز القصر عند ذكر الله وأمثال ذلك. ويبدو أن واضع تفسير القمي أخذ الفكرة منها وتلاعب بها وقدمها كما يحلو له.

○ **قصص الأنبياء للراوندي عن الصدوق بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام** أنه قال: (لما دخل يوسف «صلوات الله عليه» على الملك يعني نمرود، قال: كيف أنت يا إبراهيم؟ قال: إنّي لست بإبراهيم أنا يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: وهو صاحب إبراهيم الذي حاج إبراهيم

1. https://islamweb.net/ar/library/index.php?page=bookcontents&id-from=6417&idto=6417&bk_no=60&ID=6244

في ربه. قال: وكان) أي النمرود (أربعمائة سنة شاباً)^(١).

وإنما جيء بهذا البيان في نهاية الرواية كي يُفسر بقاؤه حياً كل هذا الزمن. ولو صحت هذه الرواية - وهذا بعيد بلحاظ ما ذكر حول عمر نمرود وبقائه شاباً ٤٠٠ سنة^(٢) - فإن إبراهيم «عليه السلام» قد كان بجمال يوسف الذي جاء ما يدل عليه في قوله «تعالى»: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(٣).

• نتائج الفصل وخلاصته:

○ سترد معنا في هذا الكتاب روايات عديدة مأخوذة عن كتاب (قصص الأنبياء) المنسوب لقطب الدين الراوندي، وقد شكك عدد من المحققين في نسبة هذا الكتاب إليه، ولعله لفضل الله الراوندي. وعلاوة على ذلك فإن كثيراً من روايات الكتاب منقولة عن الشيخ الصدوق بينما لا نجد لها أثراً في مصنفاته.

١. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ١٤٠.

٢. انظر بحثي حول عمر النبي نوح وأعمار الناس عبر التاريخ في الجزء الثاني من كتابي (في عمق التاريخ).

٣. سورة يوسف: ٣٠-٣٣.

○ الروايات التي جاءت في عدد من كتب المسلمين حول الصفات الخلقية للنبي إبراهيم «عليه السلام» تتحدث عن الشبه بينه وبين نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، فإن صحَّ ذلك، أمكننا العودة إلى ما روي حول الصفات الخلقية للنبي لنستكشف ذلك بصورة إجمالية.

○ وفي البين رواية أخرى تتحدث عن الشبه الكبير بين النبي يوسف «عليه السلام» وجد أبيه إبراهيم «عليه السلام» بحيث لم يستطع الملك (نمرود) من التمييز بينهما، ولكن في الرواية جزئية ترتبط بعمر هذا الملك بحيث لا يمكن قبولها، والأقرب أنها من وضع القصّاصين.

○ خبر الرسومات أو التماثيل الخاصة بالأنبياء - ومن بينها صورة أو تمثال النبي إبراهيم - والتي عرضها قيصر الروم على وفد المسلمين أو على الإمام الحسن «عليه السلام» ويزيد بن معاوية خبر موضوع لا يمكن قبول مضمونه لأكثر من سبب.

الأوليات الإبراهيمية

الأوليات الإبراهيمية

• موضوعات هذا الفصل:

كثرت الروايات التي نسبت إلى إبراهيم «عليه السلام» أول فعل أو أول ظاهرة أو أول نمط سلوكي خاص قام به أحد من الناس، بل حتى الاتصاف ببعض الصفات الطبيعية في البشر، وسأستعرض في هذا الفصل مجموعة من هذه الأوليات، مع بعض التعليقات، ومن بينها:

- أول مضيف، وأول معانق، وأول مصافح.
- أول من شاب شعره بدعائه للتمييز بينه وبين ولده إسحاق.
- وقوع أول حالة للموت بسبب المرض (ببركة دعائه).
- أول من اتخذ النعال.
- أول من اتخذ اللباس الداخلي (الشورت).
- أول المقاتلين في سبيل الله، حيث قاتل الروم!
- ظهور أول جزرة في التاريخ على وجه الأرض بسببه.
- أول من فرق الشعر، وغير ذلك.

• أول مضيف:

○ روى المجلسي عن الطوسي^(١) في كتابه الأمالي: (.....) عن الرضا، عن آبائه، عن علي «عليه السلام» قال: كان إبراهيم أول من أضاف الضيف.....^(٢) وهل يُعقل أن البشرية لم تعرف ضيافة الضيوف قبل ذلك، وقد سبقت البشرية ولادة إبراهيم بآلاف السنين على أقل تقدير، إن لم نقل مئات الآلاف من السنين؟

• أول من شاب شعره:

○ وفي تنمة الرواية السابقة عن الإمام علي «عليه السلام»: (كان إبراهيم..... وأول من شاب، فقال: ما هذه؟ قيل: وقار في الدنيا، ونور في الآخرة)^(٣).

○ وروى الصدوق في كتابه علل الشرائع بالسند عن حفص بن البختري، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان الناس لا يشيرون، فأبصر إبراهيم «عليه السلام» شيباً في لحيته، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال: هذا وقار، فقال: رب زدني وقاراً)^(٤) أي أنه طلب بذلك زيادة الشيب.

١. أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي (٢٨٥-٤٦٠هـ/٩٩٥-١٠٥٠ م) المعروف بشيخ الطائفة. فقيه ومحدث وموسوعي. أسند إليه الخليفة العباسي كرتي كلام بغداد. أثر بشكل كبير على مسار البحوث الفقهية والأصولية في المدرسة الإمامية. صنف كتباً كثيرة من أهمها (تهذيب الأحكام)، (الاستبصار فيما اختلف من الأخبار)، (النهاية).

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤.

٤. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ١٠٤.

○ وروى الصدوق في كتابه علل الشرائع بالسند عن خالد بن إسماعيل بن أيوب المخزومي، عن جعفر بن محمد «عليه السلام» أنه سمع أبا الطفيل^(١) يحدث أن علياً «عليه السلام» يقول: (كان الرجل يموت وقد بلغ الهرم ولم يشب، فكان الرجل يأتي النادي فيه الرجل وبنوه فلا يعرف الأب من الابن، فيقول: أيكم أبوكم؟ فلما كان زمان إبراهيم قال: اللهم اجعل لي شيئاً أعرف به، قال: فشاب وابيض رأسه ولحيته)^(٢).

وهذا الخبر يتعارض مع ما سبقه من جهتين:

الجهة الأولى: أن الشيب كان بطلب من النبي إبراهيم «عليه السلام».

الجهة الثانية: أنه لم يسأل عندما رأى الشيب: (ما هذا؟) لأنه هو الطالب.

ولهذه المقولة مرجعية تلمودية، ففي الترجمة الإنجليزية للباب الثاني (بابا متسيعا/الباب الأوسط) من القسم الرابع من التلمود البابلي (نزيقين/الأضرار)، الفصل السابع ضمن قصة ولادة إسحاق - ما ترجمته إلى الإنجليزية - أن الله ألقى عليه شبه أبيه إبراهيم، وبلحاظ عدم ظهور علامات الشيخوخة على الناس، كان هذا سبباً للخلط بينه وبين أبيه:

Until Abraham, there was no aging, i.e., old age was not physically

١. أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني (٢-١٠٢هـ)، هو آخر من توفي من الصحابة. كان سيداً من سادات قومه وأشرفهم، ووُصف بأنه كان رجلاً فاضلاً عاقلاً حاضر الجواب فصيحاً وشاعراً محسنًا. ناصر علياً وكان من المقربين من أصحابه والمؤمنين لديه. قدم أبو الطفيل يوماً على معاوية فقال له: كيف وجدك على خليك أبي الحسن؟ قال: كوجد أم موسى على موسى، وأشكو إلى الله التقصير.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ١٠٤.

recognizable. Consequently, one who wanted to speak to Abraham would mistakenly speak to Isaac, and vice versa: An individual who wanted to speak to Isaac would speak to Abraham, as they were indistinguishable. Abraham came and prayed for mercy, and aging was at last noticeable, as it is stated: "And Abraham was old, well stricken in age" (Genesis 24:1), which is the first time that aging is mentioned in the Bible.

إلى زمن إبراهيم، لم تكن هناك شيخوخة، أي أن الشيخوخة لم تكن معروفة - مشخصة - جسدياً. وبالتالي، فإن من أراد التحدث إلى إبراهيم سيتحدث عن طريق الخطأ إلى إسحاق، والعكس صحيح، فإن من أراد التحدث إلى إسحاق سيتحدث إلى إبراهيم، لأنه لا يمكن التمييز بينهما. دعا إبراهيم طلباً للرحمة، فأصبحت الشيخوخة - أخيراً - مشهودة، كما جاء بيان ذلك في سفر التكوين (٢٤: ١): (وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الْيָمِ)، وهي المرة الأولى التي يتم فيها ذكر الشيخوخة في الكتاب المقدس^(١).

وللأسف فإن النسخة العربية من التلمود البابلي خالية في هذا الجزء من التلمود من مقطع كبير يتناول جوانب متعلقة بالنبي إبراهيم «عليه السلام»، ومنها هذا المقطع، بينما نجدها حاضرة في النسخة العبرية والإنجليزية، وهي ليست الحالة الوحيدة التي واجهتها عند مراجعة التلمود بنسخه الثلاث. ويوضح المدرش - أي مجموعة الشروحات والتعليقات على التناخ - أن الآية السابقة المشار إليها من سفر التكوين تعني ظهور إبراهيم بمظهر الرجل

1. https://www.sefaria.org/Bava_Metzia.87a?lang=bi

العجوز، وتحول شعره إلى اللون الرمادي. وأنه عندما اشتكى إبراهيم من ذلك، أجابه الله بأن هذا الشعر الرمادي هدية من عنده.

• أول عناق بين البشر:

لم يكتف بعض القصّاصين أو الرواة بنسبة الضيافة إلى إبراهيم كأول مضيف، بل جعل منه أول إنسان يُعانق إنساناً من باب التحية والمحبة!

○ قصص الأنبياء للراوندي: (كان على عهد إبراهيم «عليه السلام» رجل يقال: له ماريّا بن أوس، قد أتت عليه ستمائة سنة وستون سنة، وكان يكون في غيضة له) مجتمع الشجر في بقعة وسط الماء (بينه وبين الناس خليج من ماء غمر) فيها عمق (وكان يخرج إلى الناس في كل ثلاث سنين فيقيم في الصحراء في محراب له يصلي فيه، فخرج ذات يوم فيما كان يخرج فإذا هو بغنم كان عليها الدهن) كناية إما عن سمنها أي ملئت دهناً، أو صفائها أي طليت به (فأعجب بها، وفيها شاب كان وجهه شقة قمر، فقال: يا فتى، لمن هذا الغنم؟ قال: لإبراهيم خليل الرحمن، قال: فمن أنت؟ قال أنا ابنه إسحاق. فقال ماريّا في نفسه: اللهم أرني عبدك وخليك حتى أراه قبل الموت. ثم رجع إلى مكانه، ورفع إسحاق ابنه خبره إلى أبيه فأخبره بخبره، فكان إبراهيم يتعاهد ذلك المكان الذي هو فيه ويصلي فيه، فسأله إبراهيم عن اسمه وما أتى عليه من السنين فخبّره، فقال: أين تسكن؟ فقال: في غيضة، فقال إبراهيم: إني أحب أن آتي موضعك فأنظر إليه وكيف عيشك فيها، قال: إني أبيع من الثمار الرطب ما يكفيني إلى قابل) سنة (لا تقدر أن تصل إلى ذلك الموضع فإنه خليج وماء غمر، فقال له إبراهيم: فما لك فيه معبر؟ قال:

الأوليات الإبراهيمية

لا، قال: فكيف تعبر؟ قال: أمشي على الماء، قال إبراهيم: لعل الذي سخر لك الماء يسخره لي، قال: فانطلق وبدأ ماريا فوضع رجله في الماء وقال: بسم الله، قال إبراهيم: بسم الله، فالتفت ماريا وإذا إبراهيم يمشي كما يمشي هو، فتعجب من ذلك فدخل الغيضة فأقام معه إبراهيم ثلاثة أيام لا يعلمه من هو، ثم قال له: يا ماريا، ما أحسن موضعك! هل لك أن تدعو الله أن يجمع بيننا في هذا الموضع؟ فقال: ما كنت لأفعل، قال: ولم؟ قال: لأنني دعوته بدعوة منذ ثلاث سنين لم يجبني فيها، قال: وما الذي دعوته؟ فقص عليه خبر الغنم وإسحاق، فقال إبراهيم: فإن الله قد استجاب منك، أنا إبراهيم. فقام وعانقه، فكانت أول معانقة^(١).

• أول مصافحة بين البشر:

○ في أمالي الطوسي أن أول مصافحة بين الناس تمت على يده أيضاً، وذلك حين التقى بذي القرنين، فقد روى الشيخ الطوسي بالسند عن الثمالي، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (أول اثنين تصافحا على وجه الأرض ذو القرنين وإبراهيم الخليل، استقبله إبراهيم فصافحه، وأول شجرة على وجه الأرض النخلة)^(٢).

• أول قتال في سبيل الله:

○ في كتاب النوادر للراوندي بالإسناد عن موسى بن جعفر عن آبائه «عليهم السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (أول من

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٩-١٠.

٢. الطوسي: الأمالي، ص ١٢٤.

قاتل في سبيل الله إبراهيم الخليل «عليه السلام» حيث أسرت الروم لوطاً «عليه السلام»، فنفر إبراهيم «عليه السلام» واستنقذه من أيديهم^(١).

وأصل خبر أسر النبي لوط صحيح، ولكن لم يكن آنذاك روم، وإنما غزا الروم الأرض التي عاش فيها لوط - الأردن - بعد أكثر من ١٧ قرناً. وسنحدث عن هذه الواقعة ضمن تفاصيل سيرة النبي إبراهيم «عليه السلام» ولوط «عليهما السلام» لاحقاً.

• أول نعال:

وهكذا تزداد الأوليات حتى تصل إلى النعال!

○ روى الكليني في الكافي بالسند عن السكوني، عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: (أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَ النِّعْلَيْنِ إِبْرَاهِيمُ «عليه السلام»)^(٢).

• أول لباس داخلي:

ويصل الدور إلى الملابس الداخلية!

○ روى الصدوق في علل الشرائع بالسند عن محمد الواسطي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (أوحى الله «عز وجل» إلى إبراهيم «عليه السلام» أن الأرض قد شكت إليّ الحياء من رؤية عورتك، فاجعل بينك وبينها حجاباً، فجعل شيئاً هو أكثر من الثياب) قال المجلسي: أي زائد على سائر أثوابه، والظاهر: «هو أكبر من الثبان»، قال في النهاية: الثبان: سراويل صغيرة تستر

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٩-١٠.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٢.

العورة المغلظة فقط، ويكثر لبسه الملاحون^(١) (ومن دون السراويل) الطويلة، كالبنطال (فلبسه، فكان إلى ركبتيه)^(٢).

• أول جزر ولفث وذرة:

○ روى الصدوق في علل الشرائع بإسناد العمري إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: (إن النبي «صلى الله عليه وآله» سئل: مما خلق الله «عز وجل» الجزر؟ فقال: إن إبراهيم «عليه السلام» كان له يوماً ضيف، ولم يكن عنده ما يُمَوِّن ضيفه، فقال في نفسه: أقوم إلى سقفي فأستخرج من جذوعه فأبيعهُ من النجار فيعمل صنماً، فلم يفعل، وخرج ومعه إزار إلى موضع وصلى ركعتين، فجاء ملك وأخذ من ذلك الرمل والحجارة فقبضه في إزار إبراهيم «عليه السلام» وحمله إلى بيته كهيئة رجل) أي أن الملك ظهر في صورة رجل (فقال لأهل إبراهيم «عليه السلام») أي زوجته (هذا إزار إبراهيم فخذه، ففتحوا الإزار فإذا الرمل قد صار ذرة، وإذا الحجارة الطوال قد صارت جزراً، وإذا الحجارة المدورة قد صارت لفتاً)^(٣).

• أول موت بالمرض:

وبحسب الرواية التالية فإن دعاءه كان السبب في حصول الموت عن طريق الإصابة بالمرض!

○ روى الكليني بالسند عن سعد بن ظريف عن أبي جعفر «عليه السلام» قال:

١. أي ما يطلق عليه (السليب).

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٩٥.

٣. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٨٨.

(كان الناس يُعْتَبَطُونَ اعتباطاً) يموتون شباباً بلا مرض (فلما كان زمان إبراهيم «عليه السلام» قال: يا رب اجعل للموت علةً يُوجَرُ بها الميت ويُسَلَّى بها عن المصائب، قال: فَأَنْزَلَ اللَّهُ «عز وجل» الموم، وهو البرسام) التهاب الحجاب الحاجز (ثم أنزل بعده الداء)^(١). وعلمياً لا يمكن قبول ذلك مطلقاً.

• أول الجياد العربية :

ومن الأوليات الأسطورية التي نسبت للنبي إبراهيم «عليه السلام» كحدث مرتبط برفع القواعد من البيت هو ترويض الخيول العربية.

○ روى الصدوق في علل الشرائع بالسند عن مجاهد، عن ابن عباس قال: (كانت الخيل العرب) الأصيلة غير الهجينة (وحوشاً بأرض العرب، فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت قال الله: إني قد أعطيتك كنزاً لم أعطه أحداً كان قبلك. قال: فخرج إبراهيم وإسماعيل حتى صعدا جياداً) إحدى الجبال المطلة على الكعبة ويبدو أن الهمزة سقطت من النسخ (فقالا: ألا هلاً ألا هلم، فلم يبق في أرض العرب فرس إلا أتاه وتذلل له وأعطت بنواصيها، وإنما سميت جياداً لهذا، فما زالت الخيل بعدُ تدعو الله أن يُحَبِّبَهَا إلى أربابها، فلم تزل الخيل حتى اتخذها سليمان، فلما ألهمته أمر بها أن يمسح رقابها وسوقها) أي يقطعها (حتى بقي أربعون فرساً)^(٢).

وما ذنب الخيول كي تقتل، لأنَّ الفرض أن المكلف هو النبي سليمان «عليه السلام»، فهل يُعقل صدور مثل هذا التصرف من نبي حكيم؟

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٢-١٤.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٤.

• أوليات بالجملة :

○ روى ابن كثير في البداية والنهاية بالسند عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: (كان إبراهيم أول من تسرول، وأول من فرق) أي شعره (وأول من استحد) احتلق بالة حادة (وأول من اختتن بالقدوم) أداة تستعمل في النجارة والنحت (وهو ابن عشرين ومائة سنة، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة، وأول من قرى الضيف، وأول من شاب)^(١).

وحيث أن سند الرواية توقف عند أبي هريرة ولم يسند إلى النبي «صلى الله عليه وآله» لذا قال ابن كثير: (هكذا رواه موقوفاً، وهو أشبه بالمرفوع خلافاً لابن حبان، والله أعلم)^(٢). ويبدو أنه مما تلقاه عن كعب الأحبار لا عن النبي كما هو المعهود عنه في عديد مما روى ونسبه أحياناً إلى النبي. وسنتحدث عن الختان في بحث لاحق خاص بهذا العنوان.

○ وفي نفس المصدر في رواية لاحقة عن سعيد بن المسيب الذي روى عن أبي هريرة الخبر السابق إضافة لأولية حيث قال: (كان إبراهيم أول من أضاف الضيف، وأول الناس اختتن، وأول الناس قص شاربه، وأول الناس رأى الشيب)^(٣).

• نتائج الفصل وخلاصته :

○ كثرت الروايات التي نسبت إلى إبراهيم «عليه السلام» أول فعل أو أول

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٠١.

٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٠١.

٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٠٢.

ظاهرة أو أوّل نمط سلوكي خاص قام به أحد من الناس، بل حتى الاتّصاف ببعض الصفات الطبيعية في البشر، من قبيل كونه أوّل مضيف، وأوّل من عانق وصافح عند التحية، وأوّل من شاب شعره من بين الناس، وكانت أوّل حالة للموت نتيجة المرض ببركة دعائه، حيث كان الناس قبل ذلك يموتون فجأة، وأنه أوّل من صنع النعال ولبسه، وأوّل من اتخذ اللباس الداخلي، وهو أوّل من فرّق الشعر، وغير ذلك.

○ لم يصح معنا شيء مما سبق من الروايات الإسلامية في هذا الباب، بل إن بعضاً منها كان نتيجة التأثير بالتراث التلمودي والكتابي، كما أن بعضاً منها بلغ حداً من السُّخف بحيث أنه يمثّل إساءة لهذا النبي الكريم ولا يمكن اعتباره فضيلة بحال من الأحوال.

۵

ولادتہ

ولادته

• موضوعات هذا الفصل:

- زمن ولادته التقريبي مقارنة بين النصوص الكتابية والمعطيات التاريخية لاسيما في ظل غياب نص قرآني، ونص روائي يمكن الوثوق به.
- هل عاصر إبراهيم جده الأكبر نوحاً كما توحى به معطيات التوراة؟
- عرض الأقوال المختلفة حول مكان ولادته والمتردة ما بين جنوب ووسط العراق وجنوب تركيا وبلاد الشام، وما هي مرجّحات القول الأقرب للقبول.
- استعراض ظروف ولادته و(غيبته) في الكهف لسنوات طوال خوفاً من قتله على يد الملك (النمرود) الذي أمر بقتل كل مولود ذكر بعد الاطلاع على نبوءة مفادها أن هذا المولود سيهدم ملكه، وكيف استطاعت والدته أو والداه التخلص من هذا الفرمان الجائر وإنقاذ المولود المبارك من الموت.
- التحقيق في الروايات التي تدّعي أن إبراهيم كان يتغذى من خلال أصابعه على اللبن والتمر والزبد ومواد غذائية أخرى خلال غيبته في الكهف وهو طفل رضيع، والمصدر الإسرائيلي لهذه المرويات في كتب السنة والشيعة.

سنقسم الحديث حول ولادته ضمن ثلاثة عناوين: زمن الولادة، محل الولادة، ظروف الولادة. ولنبدأ مع محاولة تحديد زمن الولادة، وبالطبع فإن القرآن الكريم لن يُسَعِّفنا في هذا المجال إلا بمقدار محدود مرتبط بالتحديد التقريبي لعصره وذلك بسبب معاصرته للنبي لوط «عليه السلام» ومحاولة استكشاف الزمان والمكان المرتبطين بإنزال العذاب على قومه من خلال الدلائل الآثارية والتي ستقودنا - كما سيأتي في الفصل الخاص بعذاب قوم لوط - إلى أنه من المحتمل أن إبراهيم «عليه السلام» ولد في القرن التاسع عشر قبل ميلاد السيد المسيح «عليه السلام»، وهو ما سيلتقي أيضاً مع ما في التراث اليهودي من أنه ولد قبل ١٨١٣ سنة من ميلاد السيد المسيح.

وستأتي معنا في الروايات اليهودية والإسلامية نصوصٌ عملت على تحديد الشهر واليوم الذي وُلد فيه إبراهيم «عليه السلام»، وحيث أننا لا نملك دليلاً على صحة هذه المرويات في التراثين معاً، لاسيما مع الكم الهائل من الوضع والتحريف في النصوص، علاوة على ما نلاحظه من عدم اتفاق على مواليده الأئمة «عليهم السلام» في اليوم والشهر والسنة، والذين لا يبتعد عهد بعضهم عنا أكثر من ١٢٠٠ سنة، فكيف يمكننا الوثوق بتحديداتها لمولد إبراهيم؟

• زمن ولادته:

○ في الكافي بالسند عن سهل، عن بعض أصحابنا، عن أبي الحسن الأول «عليه السلام» قال: (في أول يوم من ذي الحجة وُلد إبراهيم خليل الرحمن «عليه السلام»)^(١). وهي ضعيفة السند من جهتين، الأولى بسهل، والثانية

بمجهولية «بعض أصحابنا». ثم هل كانت الأشهر مقسمة بهذه المسميات؟

كانت للعرب وغيرهم مسميات مختلفة ومتعددة للأشهر القمرية، مثل مؤتمر وناجر وملحان وناقق وغيرها. وروي أنه في سنة ٤١٢ م، وقبل البعثة النبوية بـ ١٥٠ سنة وفي مكة المكرمة على وجه التحديد، اجتمع العرب -سواء من رؤساء القبائل أو الوفود في حج ذاك العام- أيام كلاب بن مرة الجد الخامس للنبي «صلى الله عليه وآله»، وذلك لتحديد أسماء جديدة للأشهر يتفق عليها جميع العرب وأهل الجزيرة العربية بعد أن كانت القبائل تُسمي الأشهر بأسماء مختلفة، فتوحدوا على الأسماء الحالية، وجعل الشهر الذي هم فيه شهر ذي الحجة، لأنه كان وقت حجهم.

وقد وُلد إبراهيم «عليه السلام» قبل زمن تحديد الأسماء الجديدة بألفين ومائتي سنة تقريباً، فكيف نقبل مقولة أنه وُلد في ذي الحجة؟ إلا أن يُقال أن المقصود بذلك أنه وُلد فيما يعادل شهر ذي الحجة.

أما في التراث اليهودي فإنّ مولد إبراهيم كان في عام ١٩٤٨ بعد خلق الوجود كله، وهذا باطل حتماً، فعمر الكون قرابة ١٣,٨ مليار سنة، وعمر الكرة الأرضية قرابة ٤,٥٤ مليار سنة، وعمر الحياة عليها قرابة ٣,٥ مليار سنة، فأين هذه الأرقام من تلك المأخوذة عن التوراة والتي تتحدث عن خلق الكون قبل أقل من ستة آلاف سنة فقط، حيث تم تحديد نقطة بداية الزمان بظهور الهلال الأول، أي اليوم الأول من التقويم اليهودي، في يوم الإثنين، ٧ أكتوبر ٣٧٦١ قبل الميلاد.

وهذا ما دفع بعض الباحثين اليهود إلى البحث عن مخارج لهذا التعارض

الواضح بين الأرقام، ويكفيك أن تبحث عبر الإنترنت عن هذا الموضوع لتجد مئات المواقع التي تناقش هذا الموضوع ويسعى القارئون عليها لتقديم حلول تأويلية لا تلغي النص الديني ولا تتعارض مع المعطى العلمي الحديث.

أما إذا قورن تاريخ مولد إبراهيم «عليه السلام» بميلاد عيسى بن مريم «عليهما السلام»، فقد وقع قبله بـ ١٨١٣ سنة، وهذا معقول جداً كما ذكرت في بداية هذا الفصل.

والذي لاحظته خلال البحث المستمر في التناخ أنه يبتعد عن المعطيات الواقعية أو المقبولة بالعقل والعلم فيما له علاقة بالأزمنة والأمكنة والشخصيات كلما ابتعد عن عهد أول أسفاره - أي التوراة - فما قبل، بينما تكون خلاف ذلك عندما تتحدث عن عهد النبي موسى «عليه السلام» فما بعد.

هذا، وقد اختلفت المصادر اليهودية في تحديد شهر مولده هل هو شهر نيسان/أبريل الذي يشار إليه في التوراة كأول أشهر السنة، أم شهر تشرية/تشرين/أكتوبر الذي هو أول أشهر السنة بحسب التقويم اليهودي المعاصر الذي يرجع تصميمه إلى سنة ٣٥٩ للميلاد.

ومن خلال سفر التكوين يمكن استخلاص أن بين إبراهيم ونوح «عليهما السلام» والمنحدر من وُلد سام ثمانية آباء، وأنه عندما وُلد إبراهيم، كان سام يبلغ من العمر ٣٩٠ عاماً، وكان والده نوح يبلغ من العمر ٨٩٢ عاماً. وحيث أن نوحاً عاش - بحسب التوراة - ٩٥٠ سنة، لذا فإن إبراهيم عاصر نوحاً «عليه السلام».

بل وفي التراث الحاخامي أنه ترعرع في بيت نوح^(١)، وكان يبلغ من العمر ٦٠ عاماً^(٢) عندما توفى نوح. أما إذا أخذنا بعين الاعتبار السنتين بعد الطوفان في قوله: (هذه مواليد سام: لما كان سام ابن مئة سنة ولد أرفكشاد، بعد الطوفان بسنتين)^(٣) كما سيأتي، فهذا يعني أن المائة سنة تقريبية، والأدق أن يقال أن ساماً ولد أرفكشاد حين كان عمره ١٠٢ سنة، وعليه فإن عمر إبراهيم «عليه السلام» حين توفى نوح كان ٥٨ سنة وليس ٦٠، والفارق بسيط، ولن يغير من حقيقة أن التوراة تقول أن إبراهيم عاصر نوحاً جدّه الأكبر. وبحسبة بسيطة وبالرجوع إلى ما هو مذكور بالنص في التوراة سنجد ما يلي:

- (وَكَانَ نُوحٌ ابْنُ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ. وَوَلَدَ نُوحٌ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ)^(٤).
- (هذه مواليد سام: لما كان سام ابن مئة سنة ولد أرفكشاد، بعد الطوفان بسنتين)^(٥). وهذا يعني أن عمر نوح حين ولد أرفكشاد : ٦٠٠ سنة، ولربما ٦٠٢ سنة إذا أخذنا بعين الاعتبار السنتين.
- (وَعَاشَ أَرْفَكْشَادُ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ شَالِحَ)^(٦). وهذا يعني أن عمر نوح حين ولد شالح : ٦٣٥ سنة، ولربما ٦٣٧ سنة.

1. https://www.chabad.org/library/article_cdo/aid/112063/jewish/Abraham-Early-Life.htm

٢. سأذكر سبب الاختلاف في الأسطر القادمة.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١ : ١٠.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٥ : ٣٢.

٥. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١ : ١٠.

٦. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١ : ١٢.

○ (وَعَاشَ شَالِحٌ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ عَابِرٌ)^(١). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ عابر : ٦٦٥ سنة، ولربما ٦٦٧ سنة.

○ (وَعَاشَ عَابِرٌ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ فَالَجٌ)^(٢). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ فالج : ٦٩٩ سنة، ولربما ٧٠١ سنة.

○ (وَعَاشَ فَالَجٌ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ رَعُو)^(٣). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ رعو : ٧٢٩ سنة، ولربما ٧٣١ سنة.

○ (وَعَاشَ رَعُو اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ سَرُوجٌ)^(٤). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ سروج : ٧٦١ سنة، ولربما ٧٦٣ سنة.

○ (وَعَاشَ سَرُوجٌ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ نَاحُورٌ)^(٥). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ ناحور : ٧٩١ سنة، ولربما ٧٩٣ سنة.

○ (وَعَاشَ نَاحُورٌ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَوَلَدَ تَارَحٌ)^(٦). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ تارح : ٨٢٠ سنة، ولربما ٨٢٢ سنة.

○ (وَعَاشَ تَارَحٌ سَبْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ)^(٧). وهذا يعني أن عمر نوح حين وُلِدَ أبرام (= إبراهيم) : ٨٩٠ سنة، ولربما ٨٩٢ سنة.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ١٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ١٦.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ١٨.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٠.

٥. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٢.

٦. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٤.

٧. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٦.



• محل ولادته :

٢. شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٥٧٤ هـ - ٦٢٦ هـ) كان من خدام بعض التجار ببغداد يُعرف بعسكر الحموي، وبه لُقّب. أديب ومؤلف وخطّاط. من أهم مصنفاته (معجم البلدان)، (معجم الأدباء).



موقع برزة

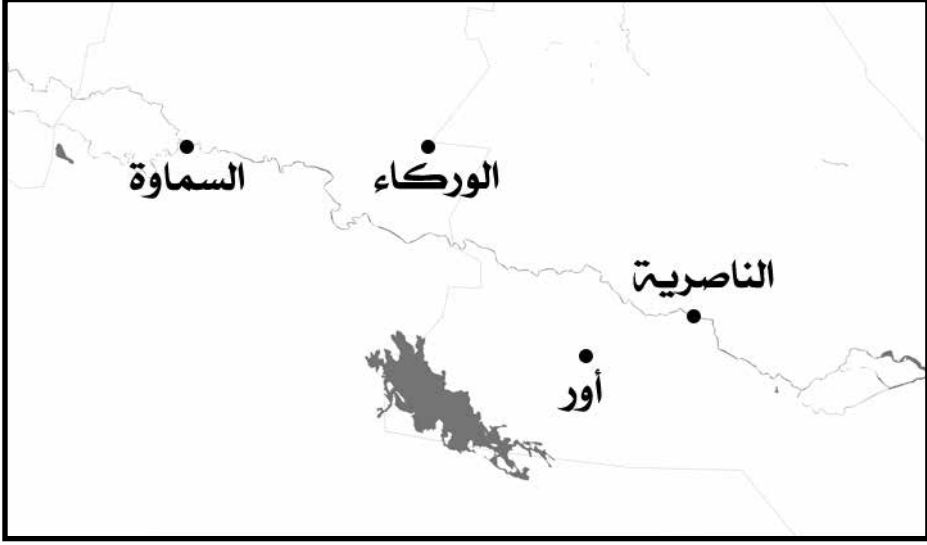
إبراهيم «عليه السلام» وُلد في غوطة دمشق في قرية يقال لها برزة، في جبل قاسيون^(١). وقد علّق ابن عساكر^(٢) على هذا الخبر بقوله: (والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء مُعيناً للنبي لوط «عليه السلام»)^(٣). وسيمر معنا في الفصل الخاص بالحرب التي خاضها النبي إبراهيم لتحرير النبي لوط ما يدل على أنه بلغ هذه المنطقة فعلاً. وأما أن الصحيح أنه ولد ببابل فسيُتبيّن لنا مدى صحته تدريجياً خلال هذا البحث.

٢. الوركاء: أو أوروك بالسومرية. مدينة تقع على ضفاف نهر الفرات، وتبعد

١. الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٤.

٢. أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي (٤٩٩هـ - ٥٧١ هـ)، حافظ ومحدث ومؤرخ. له أكثر من مصنف أشهرها موسوعة باسم (تاريخ دمشق) الذي صار نموذجاً للتأليف في تاريخ المدن، يحتضنه المؤلفون في المنهج والتنظيم.

٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٧٨.



موقع الوركاء - أور

حوالي ٣٠ كم شرق السماوة. وفي التراث السومري الأدبي أن «جلجامش» ابن الملك «لوكال بندا» المعروف من خلال أسطورة «ملحمة جلجامش» كان خامس ملوكها. كانت المدينة مقراً لعبادة الإله «أنو» إله السماء وكبير الآلهة السومرية، وقد لعبت المدينة دوراً هاماً في «ملحمة جلجامش».

٣. أور: مدينة كانت تقع قرب مدينة الناصرية الحالية، وكانت عاصمة للدولة السومرية عام ٢١٠٠ ق.م، وكانت تقع على نهر الفرات، إلا أنها حالياً تقع في منطقة نائية بعيدة عن النهر وذلك بسبب تغير المجرى. وهي بحسب التنخ مولد تارح والد إبراهيم «عليه السلام». وذكر بعض الباحثين أن «أور» تطلق على مدينتين، «أور الكلدانيين» وتقع بالقرب من بابل، و «أور» السومريين القريبة من الناصرية.

٤. **كُوثى أو كوثى ربّى**: وبحسب بعض الباحثين هي «أور الكلدانيين»، وتقع على بُعد ٥٠ كم شمال شرق مدينة الحلة، و٤٥ كم شمال شرق مدينة بابل التاريخية، وتعرف أطلالها اليوم باسم «تل إبراهيم». وتعد مدينة كوثى من أبرز المدن في تلك النواحي قبل نهوض بابل نفسها، وكانت تقع على نهر الفرات بحدود الألف الثالث قبل الميلاد وهو المجرى الشرقي القديم المعروف بمجرى كوثى قبل أن يتغير مجراه إلى موقعه الحالي. ومعنى (ربّى/ربّا) العظيم أو العظيمة، ليصبح المعنى كوثى العظيمة.

٥. **بابل**: وقد مر معنا - عند الحديث عن ادّعاء مولد إبراهيم «عليه السلام» في قرية برزة - تعليق ابن عساكر حيث قال: (والصحيح أنه ولد ببابل)^(١). ولعل المراد بذلك أنه ولد ضمن حدود هذه المملكة لا في المدينة ذاتها، وبذا يكون المراد ولادته في أور الكلدانيين أو كوثى ربّى القريبة من بابل نفسها، والتي تقع على بعد ٥ كم شمال مدينة الحلة.

٦. **حرّان**: مدينة قديمة في بلاد ما بين النهرين تقع حالياً جنوب تركيا قرب الحدود السورية عند منبع نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات. ذُكرت في التوراة على أنها المدينة التي استقر فيها النبي إبراهيم بعد هجرته من أور الكلدانيين.

٧. **سوس أو شوش**: مدينة تقع في محافظة خوزستان بجنوب إيران، وهي من أقدم المدن في إيران حيث كانت عاصمة لإيران في عهد داريوس وخلفائه. وفيها مرقد النبي دانيال «عليه السلام».

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٧٨.



موقع كوثر

٨. كُسكر أو كشكر: بلدة تاريخية على نهر دجلة بسواد العراق. بناها شاپور الأول الساساني^(١) كمركز لتوطين الأسرى الروم خلال حملاته في سورية بمنتصف القرن الثالث الميلادي. ورد ذكرها في بعض المصادر المسيحية كإحدى أولى البلدات التي اعتنقت المسيحية. قال ياقوت الحموي: (كورة واسعة يُنسب إليها الفراريج العسكرية لأنها تكثر بها جداً، رأيتها أنا، تباع فيها أربعة وعشرون فروجاً كبيراً بدرهم واحد، قال ابن الحجاج:

ما كان قطُّ غذاؤها إلا الدجاج المصدّر

وقصبتها اليوم واسط القصبية التي بين الكوفة والبصرة)^(٢).

١. شاپور بن أردشير أو شاپور الأول (٢١٥م-٢٧٠م)، كان ملكاً ساسانياً في إيران.

٢. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١.



موقع حران - شوش

أدى تحول مجرى دجلة وبناء الحجاج لمدينة واسط على الضفة المقابلة لها إلى تضائل أهميتها فاخفت أبرشيّتها - مركز أو وحدة دينية مسيحية - وهُجرت البلدة بشكل نهائي بحلول القرن الثاني عشر الميلادي.

والذي يقوِّي الاحتمال الرابع، وقد يلتقي بالمراد من الاحتمال الثالث أيضاً ما دلّت عليه مجموعة من الروايات الإسلامية وبعض النصوص الكتابية من أن «كوثى» أو «كوثى ربّى» هي مسقط رأس إبراهيم «عليه السلام» ومحل ولادته وبعض الآثار المنسوبة إليه هناك، كما أن ما جاء في التنخ وفي مجموعة أخرى من الروايات الإسلامية من أن محل ولادته «أور» أو «أور الكلدانيين» لا يتعارض مع القول بولادته في كوثر ربّى كما سيتبيّن معنا. وفيما يلي عرض لبعض هذه النصوص:

○ روى الكليني في الكافي بالسند عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول، والرواية طويلة جداً، وسأقسمها ضمن عناوين مختلفة ستأتي معنا تباعاً: (إن إبراهيم «عليه السلام» كان مولده بكوثر ربّي)(^(١)).

○ قال المجلسي: (كوثر ربّي كانت قرية من قرى الكوفة كما ذكره المؤرخون، والذي ذكره اللغويون هو كوثر، قال الجزري: كوثر العراق هي سرّة السواد، وبها وُلد إبراهيم الخليل «عليه السلام»)(^(٢)).

○ قال ياقوت الحموي: (وكوثر في ثلاثة مواضع: بسواد العراق في أرض بابل، وبمكة وهو منزل بني عبد الدار وكوثر العراق كوثيان: أحدهما كوثر الطريق، والآخر كوثر ربّي، وبها مشهد إبراهيم الخليل «عليه السلام»، وبها مولده، وهما من أرض بابل، وبها طُرح إبراهيم في النار، وهما ناحيتان، وسار سعد من القادسية في سنة عشر ففتح كوثر)(^(٣)).

أما في التراث اليهودي فإننا نجد مثلاً في الفصل الخامس من الباب الثالث «بابا باترا أي الباب الأخير» من القسم الرابع «نزيقين أي الأضرار» من التلمود البابلي ما تُرجم إلى العربية كالتالي: (ذكر الحبر حنان باسم راب فضلاً عن ذلك: لقد سُجن أبانا) المفروض أبونا (إبراهيم لمدة عشر سنوات، ثلاث سنوات في كوثر وسبع في كاردو. لكن الحبر ديمي علمنا الترتيب

١. الكليني: الكافي، الروضة، ص ٣٧٠ - ٣٧٣.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٧.

٣. الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٨٧.

معكوساً: قال الحبر حيسدا: إن الجانب الصغير من كوٲا يُعدّ ذيل تشالديس مسقط رأس إبراهيم^(١). أما في الترجمة الإنجليزية فقد جاء النص كالتالي:

And Rav Hanan bar Rava says that Rav says: Our forefather Abraham was imprisoned for ten years, because he rejected the idol worship that was accepted in his land. He was imprisoned for three years in the city of Khuta, and seven years in Karddu. And Rav Dimi of Neharde'a teaches the opposite, that he was imprisoned seven years in Khuta and three in Karddu. Rav Hisda said: The small passage of Khuta, this is Ur of the Chaldeans^(٢).

وترجمة العبارة عن الترجمة الإنجليزية للنص العبري: (وقال الربّي حنان بن رابا أنّ راب قال: إنّ جدنا الأكبر إبراهيم سُجن لمدة عشر سنوات، لأنّه رفض عبادة الأوثان المعبودة في موطنه. سُجن لمدة ثلاث سنوات في مدينة كوٲا وسبع سنوات في كاردو. ويعلمنا الربّي ديمي من نهاردي عكس ذلك، أنّه سُجن سبع سنوات في كوٲا وثلاثة في كاردو. قال الربّي حيسدا: الممر) أو الجانب (الصغير لكوٲا، هذا هو أور الكلدانيين).

والاختلاف الرئيس بين الترجمتين في النسخة العربية من التلمود وترجمة النسخة الإنجليزية هو استبدال كلمة أور الكلدانيين بكلمة تشالديس غير المفهومة، وإضافة عبارة مسقط رأس إبراهيم في الترجمة العربية.

١. التلمود البابلي، ج ١٢، ص ١٨٥.

2. https://www.sefaria.org/Bava_Batra.91a.15?ven=William_Davidson_Edition_-_English&vhe=Wikisource_Talmud_Bavli&vside=Wikisource_Talmud_Bavli&with=Versions

ولكن بالرجوع إلى التنخ سنجد أن أور الكلدانيين هي مسقط رأس إبراهيم (وَمَاتَ هَارَانُ قَبْلَ تَارَحَ أَبِيهِ فِي أَرْضِ مِيلَادِهِ فِي أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ) ^(١)، (أَنْتَ هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ الَّذِي اخْتَرْتَ أَبْرَامَ وَأَخْرَجْتَهُ مِنْ أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ) ^(٢). أي أن أور الكلدانيين جزء من كوثى.

وجاء في الموسوعة اليهودية أن الحاخامات الفلسطينيين في القرن الثاني رووا قصة مولد إبراهيم في موطنه الكلداني، ثم تطورت القصة بعد ذلك تحت تأثير التراث الشعبي البابلي. وأن إبراهيم وُلد في كوثى، وهو الاسم الآخر لأور الكلدانيين. وذكرت الموسوعة ما جاء في النص التلمودي السابق مصدراً لذلك ^(٣). وسواء أقلنا باتحاد المكانين أو كون أور الكلدانيين جزء من كوثى، فهذا يقودنا في نهاية المطاف إلى ترجيح ولادته شمال شرق بابل.

• ظروف ولادته :

تحدثت بعض الروايات الإسلامية عن ظروف مولده «عليه السلام»، وهي شبيهة بقصة النبي موسى «عليه السلام» من حيث ترقب السلطان لذلك، واتخاذ الإجراء المانع للولادة أو التخلص من المولود، ثم التمكن من تخليص المولود من هذا الإجراء القمعي والجريمة البشعة، مع فارق واحد مهم مرتبط بالبيئة التي سيتربّع فيها النبي إبراهيم في طفولته.

ففي حين أن النبي موسى قد تربّع في قصر فرعون، نجد أن جده

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٨.

٢. الكتاب المقدس: سفر نحميا، الأصحاح ٩: ٧.

3. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/360-abraham>

إبراهيم قد ترعرع في غار أو حفيرة ضيقة ليس لها إلى مخرج واحد. ولا أثر لهذه القصة في القرآن الكريم، ولا في التناخ، ولكنها مروية في التراث اليهودي، ومن المحتمل أنه من خلال ذلك دخلت إلى الروايات الإسلامية في مصادر السنة والشيعية معاً، وصارت عند الكثيرين كالمسلّمات.

ولنطالع أولاً ما جاء في التراث اليهودي حول قصة ولادته «عليه السلام»، ثم ننتقل إلى الروايات الإسلامية ونقارن فيما بينها.

○ جاء في الموسوعة اليهودية أن مجموعة من أصدقاء تارح - الذي كان من مستشاري ومنجمي نمرود - تواجدوا في منزله ليلة مولد إبراهيم، وعندما همّوا بالمغادرة في وقت متأخر من الليل شاهدوا نجمة وهي تبتلع أربعة نجوم من الأرجاء الأربعة للسموات.

سارع الرجال فوراً وقالوا لنمرود أن من المحتوم أن طفلاً قد وُلد وسيغزو هذا العالم والعالم الآخر، ولذا فإن عليك أن تعطي لوالديه مقداراً كبيراً من المال^(١) كما يتمنون في مقابل تنازلهم عن الولد، ثم تقتله. إلا أن تارح الذي كان متواجداً بينهم قال لهم إن كلامكم يذكرني بقصة البغل الذي قال له رجل: سأعطيك بيتاً مليئاً بالشعير إذا أذنت لي بأن أقطع رأسك! فردّ عليه البغل قائلاً: سأكون أحقماً إذاً... فما نفع الشعير لي إن قطعت رأسي؟

ثم قال تارح: لذا أقول لكم، إن قتلتم الولد فمن الذي سيرث المال الذي ستعطونه لوالديه؟

١. جاء في موسوعة الفلوكلور والتراث اليهودي (لرافائيل بتاي) أن المستشارين اقترحوا أن يعطي نمرود لوالدي الطفل ما يساوي قيمة بيت مليء بالذهب والفضة.

قال سائر المستشارين: من كلامك ندرك أن الولد ولدك. قال تارح: نعم، لقد وُلد لي صبي هذه الليلة ولكنه قد مات. ثم غادر تارح نحو منزله وخبأ الولد في غار لمدة ثلاث سنوات^(١).

○ وجاء في **موسوعة الفلكلور والتراث اليهودي** لمصنّفه **رفائيل بتاي** أن هناك قصة أخرى لولادة إبراهيم - من الضروري أن نتتبع القصص المختلفة لنذكر مصدر الروايات الإسلامية المختلفة أيضاً حول ولادته وجذورها الإسرائيلية - حيث تذهب إلى أنه وُلد في الكهف حيث كانت تختبئ الأم من الملك نمرود، والذي أمر بقتل كل المواليد الذكور في ذلك العام، بعد أن رأى في النجوم أن هذا المولود سينزله من عرشه.

بعد ولادة إبراهيم ملأ نور وجهه أرجاء الكهف، وتركته أمّه لرحمة ربه، فأرسل الله جبرائيل للعناية بالطفل بأن يجعل إبهامه الأيمن - وبصورة إعجازية - مصدراً للبن. لم يكن هذا اللبن مصدراً لتغذية الطفل فحسب، بل إنه أدى إلى أن يكبر في غضون أيام بحيث صار قادراً على المشي والكلام^(٢).

○ وعلى موقع Chabad التعليمي لليهود، نجد رواية المولد تتضمن إخبار المنجّمين نمرود أن ابن وزيره تارح الذي وُلد حديثاً سيشكل يوماً ما خطراً على عرشه.

أمر نمرود تارح أن يأتي بالطفل ليقتله، إلا أن تارح خدع الملك، وجاء بطفل مولود في نفس الليلة لأحد العبيد ليُقتل بدلاً عن ابنه. قتل نمرود الطفل بيديه،

1. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/360-abraham>

2. Encyclopedia of Jewish Folklore and Traditions, By Raphael Patai, v 1, p4.

معتقداً أنه أصبح آمناً من التهديد. أما الطفل إبراهيم فقد خبأه الأب - في كهف - بمعية والدته وحاضنة له، وذلك لمدة عشر سنوات^(١).

وبالعودة إلى **كتب المسلمين**، فسنجد روايات قريبة جداً من المضمون السابق ككل، مما يثير - بقوة - شبهة مصدرها اليهودي.

○ ففي **تفسير بحر العلوم** للسمرقندي^(٢): (ويقال: إن نمرود بن كنعان قالت له كهنته: يولد في هذه السنة غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة. ويقال: رأى في المنام أن كبشاً دخل عليه فتطح سريره بقرنه فسأل المعبرين، فأخبروه أنه يولد غلام ينازعك في ملكك، فأمر بذبح كل غلام يولد، فحملت أم إبراهيم بإبراهيم ولم يتبين حملها ولم يعرف أحد أنها حامل حتى أخذها الطلق فخرت إلى جبل من الجبال ودخلت في غار فولدت إبراهيم وخرجت ووضعت صخرة على باب الغار، فجاءه جبريل «عليه السلام» ووضع إبهامه في فمه، وكان يمصّه ويخرُج منه اللبن، وكان يجعل سبّابته في فمه فيمصّها ويخرج منها العسل) يبدو أن الرواي أحب إضافة شيء جديد ومثير على الرواية الإسرائيلية (حتى كبر وأدرك في أيام قليلة)^(٣).

1. https://www.chabad.org/library/article_cdo/aid/112063/jewish/Abra-hams-Early-Life.htm

٢. أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي (ت ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م). وصف بالإمام، الفقيه، المحدث، الزاهد، الملقب بإمام الهدى. صاحب تفسير القرآن الكريم الذي سمّاه بـ «بحر العلوم». وله كتاب في التصوف الإسلامي باسم «بستان العارفين» وكتاب «تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين».

٣. السمرقندي: بحر العلوم، ج ١، ص ٤٩٥-٤٩٦.

○ وفي المنتظم من تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي^(١) قصة مقارنة للقصة السابقة وفيها بعض الإضافات: (قال العلماء بالسَّير: لم يكن بين نوح وإبراهيم نبيُّ إلا هود وصالح) ويذكر النبوءة وذبح الأطفال ووضع إبراهيم في المغارة (وكان آزر قد سألها عن حملها، فقالت: ولدتُ غلاماً فمات، فسكت عنها. فكان إبراهيم يشب في شهر شباب سنة)^(٢).

○ وفي رواية ابن إسحاق: (وكان اليوم - فيما يذكرون - على إبراهيم في الشباب كالشهر، والشهر كالسنة فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهراً ثم قال لأمه أخرجيني)^(٣) أي كان عمره الحقيقي ١٥ شهراً، بينما في الظاهر ١٥ سنة.

○ وفي شرح البخاري للسفيري^(٤): (... فانطلق بها إلى أرض بين البصرة والكوفة فأنزلها في سَرَب من الأرض) حَفِيرٌ تَحْتَ الْأَرْضِ (... فولدت إبراهيم فيه، وشبَّ فكان ابن سنة كابن ثلاثين سنة، وكانت أمه كلما دخلت عليه وجدته يمص أصابعه، فقالت ذات يوم: نظرت إليه فوجدته يمص من إصبع ماء ومن إصبع لبناً ومن إصبع عسلاً ومن إصبع زبداً ومن إصبع سمناً..... واختُلف

١. أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري، يعود نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق (٥١٠هـ-٥٩٧هـ). فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم. بلغت مصنفاته نحو الثلاثمائة، شملت الكثير من العلوم والفنون كال تفسير والحديث والتاريخ واللغة والطب والفقه، ومن أشهرها (زاد المسير في علم التفسير)، (صفة الصفوة).

٢. ابن الجوزي: المنتظم من تاريخ الأمم، ج ١، ص ٢٥٩-٢٦٠.

٣. الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج ٥، ص ٢٤٥.

٤. محمد بن عمر بن أحمد السفيري، شمس الدين: عالم بالحديث، من الشافعية (٨٧٧ - ٩٥٦ هـ). له كتب، منها (شرح الجامع الصحيح للبخاري).

في إقامة إبراهيم في الغار وقيل: سنة، وقيل: خمسة عشر شهراً، وقيل: سبعة أشهر^(١).

○ وفي تفسير الثعلبي^(٢) استبدال الزبد بالتمر: (وقال أبو روق^(٣): كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم وجدته يمص أصابعه، فقالت ذات يوم: لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من إصبع ماء، ومن إصبع عسل، ومن إصبع لبناً، ومن إصبع تمرأ، ومن إصبع سمناً^(٤)).

○ وفي تفسير القمي بالسند عن ابن مسكان قال: قال أبو عبد الله «عليه السلام»: (.... واعتزلت في غار، ووضعت بإبراهيم «عليه السلام» وهيأته وقمطته ورجعت إلى منزلها وسدت باب الغار بالحجارة، فأجرى الله لإبراهيم «عليه السلام» لبناً من إبهامه، وكانت تأتيه أمه.... وكان يشب إبراهيم «عليه السلام» في الغار يوماً كما يشب غيره في الشهر، حتى أتى له في الغار ثلاث عشرة سنة، فلما كان بعد ذلك، زارته أمه، فلما أرادت أن تفارقه تشبث بها فقال: يا أمي أخرجيني....)^(٥).

○ الرواية الأخرى رواها الشيخ الصدوق في كمال الدين بالسند عن أبي

١. السفيري: شرح البخاري، ج ١، ص ٣٢٢-٣٢٣.

٢. أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت ٤٢٧ هـ)، مفسر، من أهل نيسابور له اشتغال بالتاريخ. من مصنفاته (الكشف والبيان في تفسير القرآن) والذي يُعرف بعنوان تفسير الثعلبي، (عرائس المجالس) وهو في قصص الأنبياء.

٣. أبو روق، واسمه عطية بن الحارث الهمداني، كوفي وأصله من البصرة. وهو صاحب كتاب تفسير. يروي عن الضحاك وغيره. قيل عنه أنه صدوق.

٤. الثعلبي: تفسير الثعلبي، ج ٤، ص ١٦٣.

٥. القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ٢٠٦-٢٠٧.

بصير، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (.... وبأشرف إبراهيم امرأته فحملت به، فظن أنه صاحبه، فأرسل إلى نساء من القوابل لا يكون في البطن شئ إلا علمن به، فنظرن إلى أم إبراهيم فألزم الله «تبارك وتعالى ذكره» ما في الرحم الظهر، فقلت: ما نرى شيئاً في بطنها، فذهبت به إلى غار ثم أرضعته، ثم جعلت على باب الغار صخرة، ثم انصرفت عنه، فجعل له رزقه في إبهامه، فجعل يمصها فيشرب لبناً، وجعل يشب في اليوم كما يشب غيره في الجمعة، ويشب في الجمعة كما يشب غيره في الشهر، ويشب في الشهر كما يشب غيره في السنة، فمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إن أمه قالت لأبيه: لو أذنت لي أن أذهب إلى ذلك الصبي فأراه فعلت، قال: ففعل، فأتت الغار فإذا هي بإبراهيم «عليه السلام» وإذا عيناه تزهران كأنهما سراجان، فأخذته وضمته إلى صدرها وأرضعته ثم انصرفت عنه....)^(١).

لاحظ ما جاء في أواخر الرواية من مضمون قريب مما جاء في رواية **موسوعة الفلكلور والتراث اليهودي** مع اختلاف بسيط، فهنا عيناه (تزهران كأنهما سراجان)، وهناك (ملاً نور وجهه أرجاء الكهف).

○ وفي كتاب **روضة الواعظين** للفتال النيسابوري^(٢) عن مجاهد، عن أبي عمرو وأبي سعيد الخدري، عن النبي «صلى الله عليه وآله» في خبر طويل قال: (إن إبراهيم «عليه السلام» هرب به أبوه من الملك الطاغى، فوضعت به

١. الصدوق: كمال الدين، ص ٨٢ - ٨٣.

٢. أبو علي، محمد بن الحسن بن علي بن أحمد بن الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ). متكلم وفقهه. من مؤلفاته (روضة الواعظين وبصيرة المتعظين)، (التنوير في معالم التفسير).

أمه بين أثلاث، بشاطئ نهر، يتدفق بين غروب الشمس وإقبال الليل^(١)، فلما وضعته واستقر على وجه الأرض قام من تحتها يمسح وجهه ورأسه، ويكثر من شهادة أن لا إله إلا الله، ثم أخذ ثوباً فامتسح به وأمّه تراه، فذعرت منه ذعراً شديداً، ثم مضى يهرول بين يديها ماداً عينيه إلى السماء....^(٢).

ويلاحظ على الروايات السابقة أن أمر إخفاء المولود في الغار في نفسه معقول وممكن، ولكن عندما تكون قصة مولده «عليه السلام» بهذه الغرابة وفيها هذا التحدي للإرادة الإلهية من قبل الملك فإن من المتوقع أن يشار إليها في القرآن - أو التنخ على الأقل - لبيان نفاذ الإرادة الإلهية في مقابل إرادة الطغاة، وهو ما نجده مثبتاً بالنسبة إلى قصة النبي موسى «عليه السلام» دون قصة النبي إبراهيم «عليه السلام».

والأمر الآخر هو وجود التعارض بين المرويات في تفاصيل الأحداث بشكل كبير، وإن اتحدت في أصل فكرة إخفائه في الغار أو السرب. وهذا بمجموعه يجعلنا نتوقف في قبول القصة ونتردد في مصداقيتها ونوكل علمها إلى رب العالمين «سبحانه وتعالى».

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ يبتعد التنخ عن المعطيات الواقعية أو المقبولة بالعقل والعلم فيما له علاقة بالآزمنة والأمكنة والشخصيات كلما ابتعد عن عهد أول أسفاره - أي

١ . جاءت العبارة في بحار الأنوار نقلاً عن الكتاب كالتالي: (فوضعت أمه بين تلال بشاطئ نهر متدفق يقال له حزران من غروب الشمس إلى إقبال الليل).

٢ . الفتال النيسابوري: روضة الواعظين، ص ٨٢.

التوراة - فما قبل، بينما تكون خلاف ذلك عندما تتحدث عن عهد النبي موسى «عليه السلام» فما بعد.

○ في التراث اليهودي كان مولد إبراهيم «عليه السلام» في عام ١٩٤٨ بعد خلق الوجود كله، وهذا باطل حتماً، فعمر الكون قرابة ٨, ١٣ مليار سنة، وعمر الكرة الأرضية قرابة ٤, ٥٤ مليار سنة، وعمر الحياة عليها قرابة ٥, ٣ مليار سنة. أما إذا قورن تاريخ مولده بميلاد عيسى بن مريم «عليهما السلام»، فقد وقع قبله بـ ١٨١٣ سنة، وهذا معقول جداً. كما وتذكر هذه المصادر أيضاً أنه عاصر جده النبي نوح لمدة ٦٠ سنة تقريباً.

○ اختلفت المصادر اليهودية في تحديد شهر مولد النبي إبراهيم، هل هو شهر نيسان/أبريل الذي يشار إليه في التوراة كأول أشهر السنة، أم شهر تشرية/تشرين/أكتوبر الذي هو أول أشهر السنة بحسب التقويم اليهودي المعاصر الذي يرجع تصميمه إلى سنة ٣٥٩ للميلاد.

○ أما في التراث الإسلامي، فنجد رواية غير تامة السند تتحدث عن أنه ولد في أول يوم من شهر ذي الحجة.

○ هناك اختلاف كبير في تحديد الموضع الذي وُلد فيه النبي إبراهيم، ما بين وسط وجنوب العراق الحالي، والشام، وجنوب تركيا، وخوزستان في إيران الحالية، والأرجح بين الآراء أن يكون مولده بالقرب من مدينة الحلة في مدينة كانت تُعرف باسم (كوثر ربي).

○ تحدثت بعض الروايات الإسلامية عن ظروف مولده «عليه السلام»،

وقدّمته في قالب شبيه بقصة ولادة النبي موسى «عليه السلام» من حيث ترقّب السلطان لذلك المولود، والتخلص منه، ثم تمكّن الأم من تخليص المولود من هذا الإجراء القمعي والجريمة البشعة، مع فارق واحد مهم مرتبط بالبيئة التي يترعرع فيها النبي إبراهيم، وهي الغار أو الكهف المنعزل عن المدينة، مقارنة بقصر فرعون في قصة النبي موسى.

○ هذا السيناريو مأخوذ عن المصادر اليهودية، والذي يجعلنا نستبعد الأمر عدم وجود أية إشارة في القرآن إلى هذا الحدث على الرغم من بعده الغيبي المتمثل في الرعاية الإلهية، وحديث القرآن عن ظروف ولادة النبي موسى وإغفال ذلك في قصة النبي إبراهيم.

○ تتحدث المصادر اليهودية عن بعض الكرامات الخاصة بالمولود، وعن إرسال الله لجبرائيل للعناية به، وبجعل إبهامه الأيمن مصدراً للبن، وقد انتقلت هذه الصور إلى الروايات الإسلامية مع إضافات عديدة تزيدها غرابة.

الختان

الختان

• موضوعات هذا الفصل:

○ هل ولد النبي إبراهيم مختوناً كما تدل على ذلك مجموعة من الروايات الإسلامية، أم أنه اختتن بعد أن نزل تشريع الختان وفق ما جاء في التوراة وفي بعض الروايات؟

○ ما علاقة الختان بالطهارة بحث أصبحت كلمة (طهور) و(تطهير) تُطلق على هذه السنّة؟ وهل لمثل هذا التعبير أصل شرعي أم لغوي أم أنه من المفاهيم الموروثة من أهل الكتاب؟

○ التحقيق في القصة التوراتية التي تدّعي أن النبي يعقوب بمعية أولاده ارتكبوا بحق بعض أهل كنعان مجزرة، وارتباط ذلك بمسألة الختان.

• نظرة مقارنة:

من الأوليات التي ارتبطت بالنبي إبراهيم - كما ذكرنا من قبل - مسألة ختان الذكور، باعتباره أوّل من ألزم بالختان لنفسه ولذريته ومَن في بيته من العبيد والخدم. وقد اعتُبرت هذه المسألة من التشريعات الملزمة منذ عهده إلى هذا اليوم، وهو تشريع يعمل به اليهود والمسلمون معاً، وتركه النصارى.

وهناك الكثير من الروايات الإسلامية التي تحدثت عن هذا الموضوع، إلا أن فيما بينها تعارضٌ بين، ففي حين تلتقي بعضها مع الرواية اليهودية التي تذهب إلى أن إبراهيم ألزم بهذا التشريع وهو في شيخوخته، فامتثل لذلك واختن وختن أولاده ومن في بيته من الذكور كما في النص التوراتي التالي: (وَمَا كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ تِسْعَ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ.... وَقَالَ اللَّهُ لِأِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ..... يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتَخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلَامَةً عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ»^(١)، إلا أننا نجد أن روايات أخرى تذهب إلى أنه وُلد مختوناً، أو أن قطعة اللحم التي تُزال بالختان سقطت تلقائياً بعد بضعة أيام من الولادة. فلنستعرض فيما يلي بعضاً من الروايات الإسلامية التي تلتقي مع - أو تخالف - الرواية اليهودية.

○ روى المجلسي عن الصدوق في كتابيه علل الشرائع، وعيون أخبار الرضا: (سأل الشاميُّ أمير المؤمنين «عليه السلام» عمَّن خلق الله «عز وجل» من الأنبياء مختوناً، فقال: خلق الله «عز وجل» آدم مختوناً، وُولد شيث مختوناً، وإدريس ونوح وسام بن نوح وإبراهيم وداود وسليمان ولوط وإسماعيل وموسى وعيسى ومحمد «صلى الله عليه وآله». وسأله عن أول مَنْ أُمِر بالختان، فقال: إبراهيم «عليه السلام»^(٢)).

تعليق: هذه الرواية تختلف مع الرواية اليهودية في خصوص إبراهيم، وتلتقي معها في أن التشريع بدأ معه.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٧: ١-١١.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣.

○ روى الصدوق في كتابيه علل الشرائع: عن محمد بن قزعة^(١) قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: إِنَّ مَنْ قَبَلْنَا يَقُولُونَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ خَتَنَ نَفْسَهُ بِقَدُومٍ عَلَى دَنْ) بِرَمِيلٍ (فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَيْسَ كَمَا يَقُولُونَ، كَذَبُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام»، فَقُلْتُ لَهُ: صِفْ لِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ «عليهم السلام» كَانَتْ تَسْقُطُ عَنْهُمْ غُلْفُهُمْ مَعَ سُرْرِهِمْ يَوْمَ السَّابِعِ، فَلَمَّا وَلَدَ لِإِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ هَاجِرَ عَيَّرَتْهَا سَارَةُ بِمَا تُعَيِّرُ بِهِ الْإِمَاءُ) مِنْ حَيْثُ الْمَقَامُ وَالْمَنْزِلَةُ وَلَرَبِّمَا مَجْهُولِيَّةُ النَّسَبِ (فَقَالَ: فَبَكَتْ هَاجِرُ وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَلَمَّا رَأَاهَا إِسْمَاعِيلُ تَبْكِي بِكَيْ لِبِكَاءِهَا. قَالَ: فَدَخَلَ إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام» فَقَالَ: مَا يَبْكِيكَ يَا إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَ: إِنَّ سَارَةَ عَيَّرَتْ أُمِّي بِكَذَا وَكَذَا فَبَكَتْ فَبَكَيْتُ لِبِكَائِهَا، فَقَامَ إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام» إِلَى مَصْلَاهُ، فَتَاجَى رَبَّهُ «عَزَّ وَجَلَّ» فِيهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يُلْقِيَ ذَلِكَ عَنْ هَاجِرَ) أَيْ يُخَفِّفَ عَنْهَا هَمَّهَا وَحَزْنَهَا بِسَبَبِ تَعْيِيرِ سَارَةَ إِيَّاهَا (قَالَ: فَأَلْقَاهُ اللَّهُ «عَزَّ وَجَلَّ» عَنْهَا).

وتبدأ الرواية بسرد الكيفية التي اختارها الله في ردِّ اعتبار هاجر، وذلك عن طريق ابتلاء ذريتها بعدم سقوط غلْفهم عنهم يوم السابع تلقائياً وحاجتهم إلى الختان، قال: (فلما ولدت سارة إسحاق، وكان يوم السابع، سقطت من إسحاق سرِّته ولم تسقط غلْفته، قال: فَجَزَعْتُ مِنْ ذَلِكَ سَارَةُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام» قَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمَ، مَا هَذَا الْحَادِثُ الَّذِي قَدْ حَدَثَ فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ وَأَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ؟ هَذَا ابْنُكَ إِسْحَاقُ قَدْ سَقَطَتْ عَنْهُ سَرِّتُهُ وَلَمْ تَسْقُطْ عَنْهُ غُلْفَتُهُ! فَقَامَ إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام» إِلَى مَصْلَاهُ فَتَاجَى رَبَّهُ

١. في البحار: محمد بن عرفة. وفي الوسائل محمد بن عذقة.

«عز وجل»، قال: يا رب ما هذا الحادث الذي قد حدث في آل إبراهيم وأولاد الأنبياء؟ هذا إسحق ابني قد سقطت سرّته ولم تسقط عنه غلّفته! قال: فأوحى الله «تعالى» إلى إبراهيم: هذا لما عيّرت سارة هاجر، فأليت أن لا أسقط ذلك عن أحد من أولاد الأنبياء بعد تغييرها لهاجر، فاخن إسحاق بالحديد وأذقه حرّ الحديد) وما ذنب الأولاد بما ارتكبه الأم أو الجدّة بحسب الفرض؟ قال: فخن إبراهيم «عليه السلام» إسحاق بحديدة، فجرت السنّة بالختان في الناس بعد ذلك^(١).

وعلق المجلسي قائلاً: (بينه وبين خبر الشامي تناف ظاهراً) لأن الخبر الثاني يستدعي وجود الغلف، بينما الأول يصرّح بأنهم يولدون من دونها، ثم قال: (.... ويُحتمل أن يكون تبقى لغلّفهم بقية تسقط في اليوم السابع)^(٢). وهذه المحاولة من المجلسي لا تستقيم، فالعبارة لا تحتل ذلك، وهي محاولة واقعة تحت تأثير منهج عدم رفض الخبر ما أمكن، وهذا المنهج كلفنا كثيراً على مستوى الفقه والعقيدة والتاريخ والأخلاق والعلوم والطب والجغرافيا وغير ذلك من المجالات التي تناولتها الأخبار المروية عن النبي «صلى الله عليه وآله» وآله «عليهم السلام».

○ قال عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري^(٣) في نزهة المجالس

١. الصدوق: علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٠٥.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٢.

٣. عبد الرحمن بن عبد السلام بن عثمان الصفوري الشافعي (ت ٨٩٤هـ) مؤرخ وأديب، نسبته إلى صفورية في الأردن. من كتبه (المحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة)، (نزهة المجالس ومنتخب النفائس)، (صلاح الأرواح والطريق إلى دار الفلاح).

ومنتخب النفائس وهو من مصادر أهل السنة: (من سنن إبراهيم عليه الصلاة والسلام) الختان، وتقدم في مناقب الحسن والحسين، وهو أول من اختتن من الرجال، وأول من اختنت من النساء هاجر، وأول من ثقب أذنّها. وقد ولد جماعة من الأنبياء «عليهم السلام» مختونين، آدم وشيث وادريس ونوح ولوط و يوسف وموسى وشعيب وسليمان ويحيى وعيسى ومحمد أي شاء الله لهم الختان فكان إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون^(١).

تعليق: وهو يقصد أن الغُلف تتكوّن لهم بدءً ولكنها تزول وتسقط بأمر الله فجأة في وقت ما دون تحديد منه لليوم. وهذه المقولة - من جهة - تلقي مع الرواية السابقة، وتختلف معها في نفس الوقت. أما الالتقاء ففي مقولة سقوط غلف بعض الأنبياء «عليهم السلام» عنهم تلقائياً، وبأمر من الله «عز وجل»، وأما الاختلاف فمن جهة عدم شمولية ذلك لإبراهيم «عليه السلام»، مما جعله يختن، كما تقول الرواية التوراتية.

○ قال الشوكاني^(٢) في نيل الأوطار: (عن أبي هريرة «رضي الله عنه» أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: «اختتن إبراهيم خليل الرحمن بعدما أتت عليه ثمانون سنة، واختتن بالقدوم». متفق عليه. إلا أن مسلماً لم يذكر السنين)^(٣).

١. الصفوري: نزهة المجالس ومنتخب النفائس، ج ١، ص ٢٨١.

٢. محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الملقب ببدر الدين (١١٧٣هـ-١٢٢٩هـ)، فقيه. ولي قضاء صنعاء. له مؤلفات كثيرة تجاوزت مائة وأربعة عشر، من بينها (نيل الأوطار) في الحديث، (فتح القدير) في التفسير، (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول).

٣. الشوكاني: نيل الأوطار، ج ١، ص ١٢٧-١٢٩.

تعليق: قال النووي^(١) في كتابه **المجموع**: (في القدوم روايتان، التخفيف والتشديد، والأكثران رووه بالتشديد: وعلى هذا هو اسم مكان بالشام. ورواه جماعة بالتخفيف، وقيل إنه قول أكثر أهل اللغة. واختلفوا على هذا فقيل: المراد به أيضاً موضع بالشام، وأنه يجوز فيه التشديد والتخفيف. وقال الأكثران المراد به آلة النجار وهي مخففة لا غير)^(٢). وهذه الرواية تلتقي مع الرواية اليهودية في تحقق الاختتان، وتختلف معها في تحديد السن.

• الختان والطهارة:

يُطلق الناس على الختان مصطلح الطهور، فهل لهذا الإطلاق خلفية شرعية أم خلفية لغوية تسبق العهد الإسلامي؟ وإذا كانت لغوية سابقة للعهد الإسلامي وليست شرعية، فما علاقة الطهارة بالختان؟ وهل كان غير المختون يُعدّ نجساً في عرف الجاهليين؟ أم أن المسألة مرتبطة بمفهوم معين لدى أهل الكتاب وانتقل منهم إلى المسلمين؟

لغوياً نجد في معجم **لسان العرب** لابن منظور^(٣): (وطهر فلان، إذا أقام سنة ختانه، وإنما سماه المسلمون تطهيراً) أي أن الكلمة لم تستعمل في اللغة

١. أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف الحزامي النووي الشافعي (٦٣١هـ - ٦٧٦هـ). مُحدّث وفقه لغوي. له مصنفات عديدة في الفقه والحديث واللغة وتراجم الرجال، من بينها (رياض الصالحين)، (الأربعين النووية)، (منهاج الطالبين).

٢. محيي الدين النووي: **المجموع**، ج ١، ص ٢٩٧-٢٩٨.

٣. محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الأفرقي (٦٣٠ هـ - ٧١١ هـ) أديب ومؤرخ وعالم في الفقه الإسلامي واللغة العربية. من أشهر مصنفاته: معجم (لسان العرب).

العربية قبل الإسلام للدلالة على الختان (لأن النصارى لما تركوا سنة الختان، غَمَسُوا أولادَهُمْ فِي ماءٍ صُبِغَ بِصُفْرَةِ يُصْفَرُ لَوْنُ المولود، وقالوا: هذه طُهرَةٌ أولادِنَا التي أمرنا بها، فَأَنْزَلَ اللهُ «تعالى»: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، أي اتَّبِعُوا دينَ اللهِ وفطرتَه وأمرَه، لا صبغة النصارى. فالختان هو التطهير لا ما أحدثه النصارى من صبغة الأولاد^(١).

فقد اعتبر المسيحيون - بعد عهد النبي عيسى «عليه السلام» - أن تغطيس الإنسان في الماء، أي التعميد، بديل عن الختان، وأن التطهير للطفل أو لمن يدخل في المسيحية يتم بذلك، ولا حاجة للتطهير بالختان.

في كتاب الكنز الجليل في تفسير الإنجيل للدكتور وليم إدي في شرح النص التالي من إنجيل يوحنا: (فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ يَقْبَلُ الْخِتَانَ فِي السَّبْتِ، لئَلَّا يُنْقَضَ نَامُوسُ مُوسَى، أَفَتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لِأَنِّي شَفَيْتُ إِنْسَانًا كُلَّهُ فِي السَّبْتِ؟)^(٢). قال: (أي إذا كان السبت اليوم الثامن من أيام الولادة. وذكر المسيح ذلك لأنه كان شائعاً بينهم ومقبولاً واشتركوا فيه جميعاً، لكن الختان لم يكن سوى عمل خارجي ورمز يشير إلى التطهير، لا تطهيراً حقيقياً في الباطن)^(٣).

قال نصر بن محمد السمرقندي في تفسير: (﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ يعني أي دين أحسن من دين الله «تعالى»، وهو دين الإسلام ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ يقول اثبتوا على ذلك، وقوله «تعالى» ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أي

١. ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٥٠٦.

٢. الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا، الأصحاح ٧، الآية ٢٣.

3. <https://mfa.gov.il/MFAAR/InformationaboutIsrael/TheJewishReligion/ChildrenOfAbraham/Pages/Over%20Jewish%20life.aspx>

موحِّدون مُقَرَّون، وذلك أن النصارى إذا وُلِدَ لأحدهم ولد غَمَرُوهُ في اليوم السابع في ماء لهم ليطهرُوهُ بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان، وهم صنف من النصارى يُقال لهم المعمودية. قال الله «تعالى» ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أي مطيعون ولنا الختان طهور، طهَّرَ الله «تعالى» به إبراهيم «عليه السلام». وروي عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة «رضي الله عنه» قال: «اختتن إبراهيم «عليه السلام» بالقدوم وهو ابن مائة وعشرين سنة». والقدوم موضع بالشام، ثم عاش بعد ذلك ثمانين سنة. وقال القتيبي: هذا من الاستعارة حيث سُمي الختان صبغة، لأنهم كانوا يصبغون أولادهم في ماء. قال الله «تعالى» ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ لا صبغة النصارى، يعني اتبعوا دين الله والزموا دين الله^(١).

أما في الأحاديث فلم أجد - بالمقدار الذي بحثت فيه - ما يدل على استعمال كلمة الطهور أو التطهير بديلاً عن الختان، لا في المصادر السنية ولا الشيعية إلا في رواية واحدة. ولكنني وجدت في بعض الروايات القليلة ما يدل على أن الطهارة تتحقق من خلال الختان.

○ في الكافي للكليني بسنده عن السكوني، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (طهَّروا أولادكم يوم السابع، فإنه أطيب وأسرع لنبات اللحم، وإن الأرض تتجس من بول الأغلف أربعين صباحاً)^(٢).

١. السمرقندي: بحر العلوم، ج ١، ص ١٢٤.

٢. الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٢٥.

تعليق: قال المجلسي في **مرآة العقول** تعليقاً على الخبر: (ضعيف على المشهور. قوله «صلى الله عليه وآله» «تنجس»، قال الوالد العلامة رحمه الله: في البالغ، لمخالفته لله «تعالى»، وفي الطفل لمخالفة أبيه لسنة رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكأنها تنجس ولا تطهر أربعين^(١)). ولا أدري ما معنى أن الأرض تنتجس أربعين صباحاً بهذا البول، وهل في الفقه ما يدل على عدم إمكانية تطهير الأرض من هذا البول إلا بعد الأربعين؟ ثم ما علاقة الطفل وبوله بمخالفة والديه للسنة؟ وما علاقة وجود الغلفة بقوة نجاسة البول؟

○ وفي **الكافي** أيضاً عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (اختنوا أولادكم لسبعة أيام، فإنه أظهر وأسرع لنبات اللحم، وإن الأرض لتكره بول الأغلف)^(٢).

تعليق: قال المجلسي في **مرآة العقول** تعليقاً على الخبر: (ضعيف)^(٣). ولم تستعمل فيه كلمة تطهير أو ظهور كبديل عن الختان، بخلاف الخبر الأول، وفيه ربط بينهما، ولكن قد يكون المراد من الأطهرية هنا تحقق النظافة في تلك المنطقة بشكل أفضل، وهو ما تدل عليه الدراسات الطبية الحديثة:

(يمكن أن تكون للختان العديد من الفوائد الصحية التي تشمل:

١. سهولة تنظيف المنطقة. يسهل الختان من غسيل القضيب. ولكن يمكن تعليم الأولاد الذين لم يخضعوا للختان غسل ما تحت القلفة بانتظام.

١. المجلسي: **مرآة العقول**، ج ٢١، ص ٦٢.

٢. الكليني: **الكافي**، ج ٦، ص ٢٥.

٣. المجلسي: **مرآة العقول**، ج ٢١، ص ٦٢.

٢. انخفاض خطر عدوى المسالك البولية. إن خطر عدوى المسالك البولية لدى الذكور ضعيف، ولكن تنتشر هذه العدوى بدرجة أكبر لدى الذكور الذين لم يخضعوا لعملية الختان. ويمكن أن تؤدي العدوى الشديدة في وقت مبكر من العمر إلى مشكلات الكلى فيما بعد.

٣. انخفاض خطر العدوى المنقولة جنسياً. ربما ينخفض خطر عدوى معينة منقولة جنسياً لدى الذكور الذين خضعوا لعملية الختان، ويشمل ذلك مرض نقص المناعة البشرية. ومع ذلك، تبقى الممارسات الجنسية الآمنة ضرورية.

٤. الوقاية من مشكلات القضيب. في بعض الأحيان، قد يكون من الصعب أو المستحيل إرجاع القلفة على القضيب الذي لم يتعرض للختان - تضيق الفوهة- قد يؤدي ذلك إلى التهاب القلفة أو رأس القضيب.

٥. انخفاض خطر الإصابة بسرطان القضيب. بالرغم من ندرة الإصابة بسرطان القضيب، إلا أنه يقل انتشاره بين الرجال الذين خضعوا لعملية الختان. بالإضافة إلى ذلك، يقل انتشار سرطان عنق الرحم لدى زوجات الرجال الذين خضعوا لعملية الختان^(١).

○ في كمال الدين للشيخ الصدوق بالسند عن أبي أحمد محمد بن زياد الأزدي - يعني ابن أبي عمير - قال: (سمعت أبا الحسن موسى بن جعفر «عليه السلام» يقول لما ولد الرضا «عليه السلام»: إن ابني هذا ولد مختوناً

1. <https://www.mayoclinic.org/ar/tests-procedures/circumcision/about/pac-20393550>

طاهراً مطهّراً، وليس من الائمة «عليه السلام» أحد يولد إلا مختوناً طاهراً مطهّراً، ولكننا سنُمرّ عليه موسى لإصابة السنّة واتّباع الحنيفية^(١).

تعليق: الرواية ضعيفة السند على الأقل بمحمد بن الحسين بن يزيد فهو مجهول، لم تستعمل كلمة الطهور أو الطهارة كبديل عن الختان، وإن دلّت الرواية على أن الختان يحقق الطهارة، ولكن ضعف سندها يجعلنا في شك من صدور هذا الربط غير المباشر بين عنواني الختان والطهور من قبل الإمام.

○ في الكافي بالسند عن عبدالله بن جعفر أنه كتب إلى أبي محمد «عليه السلام» أنه روي عن الصادقين «عليهما السلام»: (أن اختنوا أولادكم يوم السابع يطهروا، وإن الأرض تضج إلى الله من بول الأغلف، وليس جعلت فداك لحجامي بلدنا حذق بذلك ولا يختنونه يوم السابع، وعندنا حجام اليهود، فهل يجوز لليهود أن يختنوا أولاد المسلمين أم لا إن شاء الله؟ فوقّع «عليه السلام»: السنّة يوم السابع، فلا تخالفوا السنن إن شاء الله)^(٢).

تعليق: قال المجلسي في مرآة العقول: (صحيح. قوله عليه السلام: «السنّة»، لعل المعنى أن المهم فيه إنما هو وقوعه يوم السابع، وأما إسلام الحجام فلا يُعتبر)^(٣).

وقد دلّت الرواية على أن الختان يحقق الطهارة، ولم تستعمل الكلمة كبديل عن الختان.

١. الصدوق: كمال الدين، ص ٤٣٣.

٢. الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٣٦.

٣. المجلسي: مرآة العقول، ج ٢١، ص ٦٣.

○ روى الطبرسي^(١) في مكارم الأخلاق رواية غير مسندة عن الصادق «عليه السلام» أنه قال: (قال الله «عز وجل» لإبراهيم: تطهّر. فأخذ شاربته، ثم قال: تطهّر. فتنف من إبطيه، ثم قال: تطهّر. فقلّم أظفاره، ثم قال: تطهّر. فحلق عانته، ثم قال: تطهّر. فاختنن)^(٢).

تعليق: بالإضافة إلى مجهولية السند، فإن هذه الرواية لا تدل على أن كلمة تطهير أو طهور بديلة عن كلمة ختان. وعند أهل السنة رواية قريبة منها، وهي كالتالي:

○ روى ابن عطية الأندلسي^(٣) في المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز والواحي^(٤) في تفسيره والمحجب الطبري^(٥) في غاية الأحكام في أحاديث الأحكام وآخرون عن ابن عباس أنه قال: (أوحى الله «تعالى» أن تطهّر، فتمضمض، فأوحى الله إليه أن تطهر فاستنشق، فأوحى الله «تعالى» إليه أن تطهّر فاستاك، فأوحى الله «تعالى» إليه أن تطهّر فأخذ من شاربته،

١. الحسن بن الفضل الطبرسي. من أعلام القرن السادس الهجري. فقيه ومحدث، من أشهر كتبه (مكارم الأخلاق).

٢. الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٦٠.

٣. أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمن المحاربي. (٤٨١هـ-٥٤١هـ). فقيه ومفسر ومحدث وأديب وشاعر. له مصنفان: (فهرس ابن عطية)، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز).

٤. أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت ٤٦٨ هـ)، مفسر وأديب ومؤرخ وشاعر. من مصنفاته (أسباب النزول)، وله ثلاثة تفاسير (البيسط)، (الوسيط)، (الوجيز).

٥. محب الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم الطبري (٦١٥هـ - ٦٩٤هـ). حافظ وفقه ومحدث. من مصنفاته (السير في أحوال سيد البشر)، (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين)، (ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى).

فأوحى الله إليه أن تطهر ففرّق شعره، فأوحى الله إليه أن تطهر فاستنجدى، فأوحى الله إليه أن تطهر فحلق عانته، فأوحى الله إليه أن تطهر فتنف إبطيه، فأوحى الله إليه أن تطهر فقلّم أظفاره، فأوحى الله إليه أن تطهر فأقبل على جسده ينظر ما يصنع، فاختن بعد مائة وعشرين سنة^(١).

تعليق: هذه الرواية غير مسندة عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ولعل الروايات السابقة التي في مجملها تربط بين الختان والطهارة والتطهير هي مصدر هذه التسمية البديلة للختان عند المسلمين، وفي البين احتمال آخر.

فتحن إذا رجعنا إلى التراث اليهودي وجدنا الربط بين الختان والطهارة بشكل قوي وأوضح بكثير مما نجده في التراث الإسلامي، مما يثير الاحتمال أن المصطلح دخیل على التراث الإسلامي من خلال تأثير الثقافة الإسرائيلية، فافتحم كتب الحديث ومصادر الروايات بفعل بعض الرواة المتأثرين بذلك.

فلنستعرض ما جاء في التراث اليهودي حول مسألة الختان، ثم نتبين علاقتها بالطهارة.

جاء في كتاب ذرية إبراهيم.. مقدمة عن اليهودية للمسلمين تأليف ريوغن فايرستون^(٢) Reuven Firestone: (تفرض التوراة ختان كل الذكور في اليوم الثامن من ولادتهم «التكوين ١٧: ١٤-١، اللاويون ١٢: ٣...» يُسمّى

١. المحب الطبري: غاية الأحكام في أحاديث الأحكام، ج ١، ص ٤٤٢.
٢. أستاذ متخصص في الدراسات اليهودية والإسلامية في العصور الوسطى في الكلية اليهودية العبرية، المعهد اليهودي للدين. حصل على درجة الدكتوراه في اللغة العربية والدراسات الإسلامية من جامعة نيويورك في عام ١٩٨٨. تركّز منحه الدراسية على الكتاب المقدس وتفسيره، القرآن وتفسيره، الظواهر الدينية، مقارنة الأديان والحوار الديني.

حفل الختان بالعبري «بريت ميلاه» بمعنى «عهد الختان». جاء الختان ليكون مفهوماً بأنه علامة العهد الذي بين الله وبني إسرائيل منذ قصة إبراهيم في سفر التكوين. تقع فريضة الختان على الأب إلا أنه ينبغي عنه عادة خبيراً للقيام به^(١).

والختان - بحد ذاته - في التراث اليهودي مسألة حساسة جداً، فهو عهد الله وميثاقه. وهو فريضة لازمة على الأب تجاه أولاده الذكور. وتكرر ذكره في التنخ مرات كثيرة، وصار بمثابة العلامة المميزة لليهود على من سواهم.

كانت البداية - بحسب التوراة الحاضرة - مع قصة النبي إبراهيم «عليه السلام» حين بلغ ٩٩ سنة، وبشره الله بأنه سيكثر نسله وأنهم سيكونون الوارثين للنبوّة من بعده، وغير اسمه إلى إبراهيم.

في سفر التكوين: (وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ.... وَقَالَ اللَّهُ لِأِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلَامةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلَيْدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنٍ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خَتَانًا وَلَيْدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. وَأَمَّا الذَّكَرُ الْأَغْلَفُ الَّذِي لَا يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتَقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكثَ عَهْدِي»....

1. <https://mfa.gov.il/MFAAR/InformationaboutIsrael/TheJewishReligion/ChildrenOfAbraham/Pages/Over%20Jewish%20life.aspx>

فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ ابْنَهُ، وَجَمِيعَ وَلَدَانِ بَيْتِهِ، وَجَمِيعَ الْمُتَبَاعِينَ بِفَضَّتِهِ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ، وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنَهُ كَمَا كَلَّمَهُ اللَّهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ حِينَ خُتِنَ فِي وَلَحْمِ غُرْلَتِهِ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنَهُ خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ. وَكُلُّ رِجَالِ بَيْتِهِ وَلَدَانِ الْبَيْتِ وَالْمُتَبَاعِينَ بِالْفِضَّةِ مِنْ ابْنِ الْغَرِيبِ خُتِنُوا مَعَهُ^(١).

وفي الأصحاح ٣٤ من سفر التكوين نجد قصة من قصص النبي يعقوب «عليه السلام» في التنخ، ترتبط بالختان، ولكنها لا تتسق وأخلاق الأنبياء.

تتلخص القصة في أن يعقوب «عليه السلام» استقر في مدينة نابلس وكان اسمها آنذاك شكيم، وكان حاكم أو سيّد تلك القرية رجل اسمه حموروله ابن اسمه شكيم على اسم المدينة، فاعتدى الولد على ابنة يعقوب.

ثم تعلق قلبه بها وأحبها، وطلب من أبيه أن يخطبها له من يعقوب، وكان له ذلك، وأبدى الاستعداد لدفع أي مهر في مقابل الزواج منها.

تدخل أبناء يعقوب في الأمر - وقد علموا ما فعله الولد بأختهم - قائلين: («لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ هَذَا الْأَمْرَ أَنْ نُعْطِيَ أُخْتَنَا لِرَجُلٍ أَغْلَفَ، لَأَنَّهُ عَارٌ لَنَا») لاحظ حساسية أمر الختان بحسب هذه القصة (غَيْرَ أَنَّنا بهذا نُؤَاتِيكُمْ: إِنْ صِرْتُمْ مِثْلَنَا بِخَتْنِكُمْ كُلَّ ذَكَرٍ. نُعْطِيكُمْ بَنَاتِنَا وَنَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِكُمْ، وَنَسْكُنُ مَعَكُمْ وَنَصِيرُ شُعْبًا وَاحِدًا. وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لَنَا، أَنْ تَخْتَنُوا، نَأْخُذُ ابْنَتَنَا وَنَمْضِي).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٧: ١-٢٧.

تقول الرواية التوراتية أن القوم أعجبهم الاقتراح ووافقوا عليه وبادروا إلى تنفيذه فوراً: (فَحَسُنَ كَلَامُهُمْ فِي عَيْنَيِ حَمُورَ وَفِي عَيْنَيِ شَكِيمَ بْنِ حَمُورَ. وَلَمْ يَتَأَخَّرِ الْغُلَامُ أَنْ يَفْعَلَ الْأَمْرَ، لِأَنَّهُ كَانَ مَسْرُورًا بِابْنَةِ يَعْقُوبَ. وَكَانَ أَكْرَمَ جَمِيعِ بَيْتِ أَبِيهِ. فَأَتَى حَمُورُ وَشَكِيمُ ابْنَهُ إِلَى بَابِ مَدِينَتِهِمَا، وَكَلَّمَا أَهْلَ مَدِينَتِهِمَا قَائِلِينَ: «هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ مُسَالِمُونَ لَنَا. فَلْيَسْكُنُوا فِي الْأَرْضِ وَيَتَجَرُّوا فِيهَا. وَهُوَذَا الْأَرْضُ وَاسِعَةُ الطَّرْفَيْنِ أَمَامَهُمْ. نَأْخُذُ لَنَا بَنَاتِهِمْ زُوجَاتٍ وَنُعْطِيهِمْ بَنَاتِنَا. غَيْرَ أَنَّهُ بِهَذَا فَقَطْ يُوَاتِينَا الْقَوْمُ عَلَى السَّكَنِ مَعَنَا لِنَصِيرَ شَعْبًا وَاحِدًا: بَخْتِنَا كُلَّ ذَكَرٍ كَمَا هُمْ مَخْتُونُونَ. أَلَا تَكُونُ مَوَاشِيَهُمْ وَمَقْتَنَاهُمْ وَكُلُّ بَهَائِمِهِمْ لَنَا؟ نُوَاتِيهِمْ فَقَطْ فَيَسْكُنُونَ مَعَنَا». فَسَمِعَ لِحَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ جَمِيعُ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاخْتَنَ كُلُّ ذَكَرٍ. كُلُّ الْخَارِجِينَ مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ).

وجاءت اللحظة التي ينتظرها أولاد يعقوب للانتقام لأختهم بطريقة وحشية دون رافة بالأبرياء: (فَحَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ، شَمْعُونَ وَلَاوِي أَخَوَيْ دِينَةَ، أَخَذَا كُلَّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلَا كُلَّ ذَكَرٍ. وَقَتَلَا حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ، لِأَنَّهُمْ نَجَسُوا أَخْتَهُمْ. غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. وَسَبَّوْا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرَوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ، وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ).

لم يمانع النبي يعقوب - بحسب هذه الرواية التوراتية - في أصل الانتقام، بهذا الصورة الوحشية والتي تمتد إلى الأبرياء، ولكنه كان يخاف من ردة فعل القاطنين في المدن والقرى والبلدات القريبة منهم: (فَقَالَ يَعْقُوبُ لِشَمْعُونَ

وَلَاوِي: «كَدَرْتُمَانِي بِتَكْرِيهِكَمَا إِيَّايَ عِنْدَ سُكَّانِ الْأَرْضِ الْكَنَعَانِيِّينَ وَالْفِرِزِيِّينَ، وَأَنَا نَفَرٌ قَلِيلٌ. فَجِجْتُمَعُونَ عَلَيَّ وَيَضْرِبُونَنِي، فَأَيِّدُ أَنَا وَبَيْتِي» فهو لم يمانع قتلهم غدرًا وتحميل الجميع وزر ما فعله أحدهم، بل خاف من ردات الفعل من قبل أهالي سائر المدن أصحاب الأرض، والحال أن يعقوب وأبناءه وافدون عليها (فَقَالَا: «أَنْظِرْ زَانِيَةً يَفْعَلُ بِأُخْتِنَا؟».... ثُمَّ رَحَلُوا، وَكَانَ خَوْفُ اللَّهِ عَلَى الْمَدْنِ الَّتِي حَوْلَهُمْ) أي ألقى الله الرعب في قلوب المدن الأخرى (فَلَمْ يَسْعَوْا وَرَاءَ بَنِي يَعْقُوبَ) ^(١).

وهكذا نجد في الرواية التوراتية التالية أن للختان علاقة مرة بحدث مفصلي في تاريخ بني إسرائيل. فبعد وفاة النبي موسى «عليه السلام» قاد **يوشع بن نون** «عليه السلام» بني إسرائيل وأخذهم ناحية نهر الأردن، وحيث استقر عند أريحا أمره الله بختان كل الذكور الذين معه، لأن المولودين خلال فترة التيه على عهد موسى «عليه السلام» لم يختنوا من قبل.

في سفر يشوع: (قَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «اصْنَعْ لِنَفْسِكَ سَكَكَيْنِ مِنْ صَوَّانٍ، وَعُدَّ فَاخْتَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ثَانِيَةً»). فَصْنَعَ يَشُوعُ سَكَكَيْنِ مِنْ صَوَّانٍ وَخَتَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي تَلِّ الْقَلْفِ. وَهَذَا هُوَ سَبَبُ خَتَنِ يَشُوعَ إِيَّاهُمْ: أَنَّ جَمِيعَ الشَّعْبِ الْخَارِجِينَ مِنْ مِصْرَ، الذُّكُورَ، جَمِيعَ رِجَالِ الْحَرْبِ، مَاتُوا فِي الْبَرِّيَّةِ عَلَى الطَّرِيقِ بِخُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ. لِأَنَّ جَمِيعَ الشَّعْبِ الَّذِينَ خَرَجُوا كَانُوا مَخْنُونِينَ، وَأَمَّا جَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْقَفْرِ عَلَى الطَّرِيقِ بِخُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ فَلَمْ يُخْتَنُوا. لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَارُوا أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْقَفْرِ حَتَّى فَنِيَ جَمِيعُ الشَّعْبِ، رِجَالُ الْحَرْبِ

الْخَارَجِينَ مِنْ مِصْرَ، الَّذِينَ لَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِ الرَّبِّ، الَّذِينَ حَلَفَ الرَّبُّ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يُرِيهِمُ الْأَرْضَ الَّتِي حَلَفَ الرَّبُّ لِآبَائِهِمْ أَنْ يُعْطِيَنَا إِيَّاهَا، الْأَرْضَ الَّتِي تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا. وَأَمَّا بَنُوهُمْ فَأَقَامَهُمْ مَكَانَهُمْ. فَإِيَّاهُمْ خَتَنَ يَشُوعُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قُلُفًا، إِذْ لَمْ يَخْتَنُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ. وَكَانَ بَعْدَ مَا انْتَهَى جَمِيعُ الشَّعْبِ مِنَ الْاِخْتِتَانِ، أَنَّهُمْ أَقَامُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ فِي الْمَحَلَّةِ حَتَّى بَرِئُوا^(١).

هذه القصص التي لها علاقة بالختان وغيرها من القصص الأخرى العديدة في التناخ، وكذلك في العهد الجديد، بالإضافة إلى النصوص التشريعية في الكتاب المقدس ككل والمتعلقة بالختان تؤكد من حيث المضمون والتكرار، أن مسألة الختان عند اليهود مسألة مهمة وحساسة وبمثابة الهوية إليهم.

ولكن نعود إلى السؤال الذي طرحناه بدءاً: هل هناك علاقة بين الختان والطهارة عند اليهود حتى يكون المسلمون هم من أخذوا هذا المصطلح عنهم؟

تحت عنوان تفسير العلاقة بين الختان والتطهير Interpreting Circumcision as Purification كتب الدكتور ديفيد برنات Dr. David Bernat^(٢) ما ترجمته: (تذكر التوراة أن الختان سيكون علامة على العهد) أي الميثاق بين المؤمن وربّه (لكنها لم تذكر شيئاً حول أهمية الفعل نفسه. بعض المفسرين اليهود عملوا على ملء هذا الفراغ من خلال الربط اللغوي بين كلمة ختان من جهة وكلمة «טָמֵא» وتلفظ «طوماه» وتعني النجاسة (وكلمة

١. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الأصحاح ٥: ٢-٨.

٢. الدكتور ديفيد بيرنات هو المدير التنفيذي لمجلس كنيس ماساتشوستس ومحاضر في الدراسات اليهودية بجامعة ماساتشوستس في أمهرست. يحمل شهادة الدكتوراه في التفسير الكتابي من جامعة برانديز، مؤلف كتاب «توقيع العهد: الختان في التقاليد الكهنوتية».

«٦٦٦٥») وتلفظ «طهاره» وتعني الطهارة (ولكن هل هذا التطهير الذي يتم بالختان تطهير مادي أم روحي؟).

ثم تحت العنوان الفرعي **الختان كطقوس تطهير** أضاف: (يظهر الارتباط بين عملية الختان والتطهير في عدد من المصادر اليهودية المبكرة حيث يتم وصف القلفة بأنها مصدر للنجاسة. أما في الكتاب المقدس العبري فلا أثر لمثل هذا الوصف).

من هنا يذهب الكاتب إلى أن لهذا الارتباط مصدراً آخر، قال: (الترجمات اليونانية القياسية للختان «١-٦-٦» هي Peritemno وتعني حرفياً «قطع ما حول الشيء» to cut around، وغير المختون «٦-٦-٦» هي Akrobusfia وتعني حرفياً «ما يغطي النهاية» what covers the end، مثل القلفة.... ولكننا نجد في ترجمة يونانية تعود للقرن الثاني قبل الميلاد استعمال كلمة katharos/ katharizo للدلالة على الختان. وجذر هذه الكلمة يدل على النقاء، والتنقية، أو التطهير. استعمال هذه الكلمة يُشير إلى أن هؤلاء المترجمين فهموا الختان كطقس للتطهير)^(١).

ومن خلال ذلك صارت أيضاً بعض الترجمات الإنجليزية مثلاً تستعمل كلمة التطهير بدلاً عن الختان في نص الكتاب المقدس.

لاحظ المقارنة بين النصوص التالية:

1. <https://www.thetorah.com/article/interpreting-circumcision-as-purification>

وَهَذَا هُوَ سَبَبُ حَتَّى يَشُوعَ إِيَّاهُمْ^(١).

English Standard Version: (And this is the reason why Joshua circumcised them).

Brenton Septuagint Translation: (And this is the way in which Joshua purified the children of Israel)^(٢).

واعتبر الكاتب أن النصوص التي تربط الختان بالطهارة قليلة، ولا توجد نصوص قديمة تقدم وصفاً عاماً للختان كطقوس للتطهير، والقلقة كعامل للنجاسة. ولكن عند وقوع صراع ثقافي مع الثقافة اليونانية المحتلة التي تعتبر الختان تشويهاً للخلق، سعى اليهود للدفاع عن تشريع الختان.

وواحدة من المبررات التي قدّموها أن القلقة نجاسة والختان يحقق الطهارة للجسد. وحيث كان كشف العورة أمراً معيباً في الوسط الذي ترعرعت فيه اليهودية، فلم يكن اليهود بحاجة إلى الدفاع بشدة عن عملية الختان، ولكن مع انتشار الثقافة اليونانية الهيلينية، والسيطرة الميدانية لليونان على المجتمع اليهودي والتي لم تر في كشف العورة عيباً كما هو المشهود في التماثيل المنتشرة، أصبح الختان شكلاً من أشكال التشويه، مما أثار إشكالية كبرى في وجه ممارسة الختان من قبل اليهود، مما أجبرهم على التفكير في هذه الطقوس والدفاع عنها.

وبالتالي فمن المحتمل أنه بالإضافة إلى أية مبررات أخلاقية أو روحية

١. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الصالح ٥: ٤.

2. <https://biblehub.com/joshua/5-4.htm>

كانوا يقدمونها لتسويغ الختان، تطوّر فهم الختان باعتباره تطهيراً، والقلقة كأنها نجاسة، مما أعطى أهمية أكبر لممارسة يهودية مهمة بالفعل.

• نتائج الفصل وخلاصته:

- من الأوّليات التي ارتبطت بالنبي إبراهيم مسألة ختان الذكور.
- تعتبر مسألة الختان من التشريعات الملزمة منذ عهده إلى هذا اليوم، وهو تشريع يعمل به اليهود والمسلمون معاً، وتركه النصارى.
- بعض الروايات الإسلامية تلتقي مع الرواية اليهودية التي تذهب إلى أن إبراهيم ألزم بهذا التشريع وهو في شيخوخته، فامتثل لذلك واختتن، بينما تذهب روايات أخرى إلى أنه ولد مختوناً، أو أن القطعة التي تُزال بالختان سقطت لوحدها في اليوم السابع لولادته.
- يشيع استعمال كلمة (طهور) و (طهارة) و (تطهير) كمرادف للختان عند المسلمين واليهود معاً.
- المصادر الأولى لدى اليهود لم تعبّر عن الختان بأنه طهور، ولم تربط بينه وبين التطهير.
- دخل هذا الربط على الخط في فترة قد تكون بعد غزو الإسكندر للأراضي التي كان يقطنها اليهود في القرن الرابع قبل الميلاد، فأصبح الختان طهوراً.
- ومن الثقافة اليهودية انتقل المصطلح إلى الثقافة المسيحية والإسلامية أيضاً، دون أن يكون مصطلحاً أصيلاً فيهما.

رؤية ملكوت السموات

رؤية ملكوت السماوات

• موضوعات هذا الفصل:

○ كيف رأى الخليل إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؟ هل كان ذلك بالقدرة الطبيعية للعين ومن خلال التفكير في المخلوقات؟ أم أن المسألة ترتبط بأمر غيبي وكشف للحُجُب؟ أم أنها تعني إعطاءه قدرة إبصار خارقة؟ أم كانت بمثابة نوع من المعراج في السماء؟

○ متى وقعت هذه الحادثة؟ قبل النبوة أم بعدها؟ وفي بداية خروجه من الغار بعد غيبةٍ لعدة سنوات أم بعد ذلك بكثير؟

○ ما علاقة هذه الحادثة بمقولاته المتعددة حول ربوبية الشمس والقمر والكوكب؟ أم أنهما حادثتان منفصلتان؟ وهل يعتبر كلامه هذا نوعاً من الكذب أو التورية أو التقية أو التمثيل، أم أنه صدر على نحو الحقيقة؟

○ ما علاقة ذلك بتحطيم الأصنام بعد مواجهة قومه ومحاجتهم بشأن الشرك والتوحيد؟

○ عرض لدور الوعّاظ و(الصالحين) في وضع الحديث لغايات نبيلة، وحُكم ذلك من ناحية دينية وأخلاقية.

• أسئلة عديدة:

قال «تعالى»: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونُ مِنَ الْمُوَقِّنِينَ﴾^(١)... هناك عدة أسئلة ترتبط بهذه الآية الشريفة:

متى كان ذلك؟ في بداية عمر التكليف؟ أم بعد النبوة؟ ماذا رأى إبراهيم «عليه السلام» في هذه الحادثة؟ وهل كشف له شيء من عالم الغيب؟ ما ارتباط هذه الحادثة بموقف النبي إبراهيم من الأصنام وتحطيمها بعد ذلك؟ وهل لهذه الآية ارتباط بالآيات اللاحقة حيث يقول «تعالى»: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

• الروايات تصف الحدث:

لو عدنا إلى الروايات فسنجدها متضاربة في تحديد زمن وقوع الحادثة وطبيعتها وارتباطها بالآيات اللاحقة، وفيما يلي بعض النماذج مما روي في هذا الباب:

○ نجد في رواية تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق «عليه السلام» التي مرّت بنا حول ولادته وبقائه في الغار إلى أن بلغ الثالثة عشرة: (فقال: يا أمي

١. سورة الأنعام: ٧٥.

٢. سورة الأنعام: ٧٦-٧٩.

أخرجيني، فقالت له: يا بني، إنَّ الملك إنَّ عَلمَ أنك وُلدت في هذا الزمان قتلك، فلما خرَّجَتْ أمُّه خرج من الغار وقد غابت الشمس نظر إلى الزهرة في السماء فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، فلما غابت الزهرة فقال: لو كان هذا ربي ما تحرَّك ولا برح، ثم قال: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ والآفل: الغائب. فلما نظر إلى المشرق رأى وقد طلع القمر قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ هذا أكبر وأحسن، فلما تحرك وزال قال: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، فلما أصبح وطلعت الشمس ورأى ضوءها وقد أضاءت الشمس الدنيا لطلوعها قال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ وأحسن، فلما تحركت وزالت أي الشمس (كشط الله عن السماوات حتى رأى العرش ومن عليه وأراه الله ملكوت السماوات والأرض، فعند ذلك قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فجاء إلى أمه وأدخلته دارها وجعلته بين أولادها...)^(١) ثم تتحدث الرواية عما جرى بين إبراهيم وآزر، وبينه وبين قومه حول عبادة الأصنام، وسنتحدث عن ذلك لاحقاً.

تعليق: المستفاد من هذه الرواية أنَّ:

١. هذا كان وهو في الثالثة عشرة من عمره، وبالتالي قبل النبوة.
٢. ارتباط إراءته ملكوت السماوات والأرض بالآيات اللاحقة.
٣. معنى إراءة ملكوت السماوات هو نحو من الإطلاع الغيبي على العرش وعالم الملائكة وغير ذلك.

١. القمي: تفسير القمي، ص ١٩٥.

○ الرواية التالية في تفسير الإمام العسكري «عليه السلام»، عنه عن أبيه «عليه السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إن إبراهيم الخليل لما رُفِعَ في الملكوت وذلك قول ربي: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قَوَّى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى أبصر الأرض وَمَنْ عليها ظاهرين ومستترين، فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة، فدعا عليهما بالهلاك فهلكا، ثم رأى آخرين فدعا عليهما بالهلاك فهلكا، ثم رأى آخَرَيْنَ فدعا عليهما بالهلاك فهلكا، ثم رأى آخَرَيْنَ فدعا عليهما بالهلاك فآوَحَى الله إليه: يا إبراهيم، اكفِّ دعوتَكَ عن عبادي وإمائي، فإني أنا الغفور الرحيم الجبار الحليم، لا تضرني ذنوب عبادي، كما لا تنفعني طاعتهم، ولست أسوسهم بشفاء الغيظ كسياستك، فاكفِّ دَعْوَتَكَ عن عبادي فإنما أنت عبدٌ نذير، لا شريك في المملكة، ولا مهيمن علي ولا على عبادي، وعبادي معي بين خِلَالِ ثلاث: إما تابوا إلي فتبتُ عليهم وغفرتُ ذنوبهم وسترْتُ عيوبهم، وإما كففتُ عنهم عذابي لعلمي بأنه سيخرج من أصلابهم ذرياتٌ مؤمنون فأرفقُ بالآباء الكافرين، وأتأني بالأمهات الكافرات، وأرفع عنهم عذابي ليخرج ذلك المؤمن من أصلابهم، فإذا تزايلوا حقَّ بهم عذابي وحقَّ بهم بلائي، وإن لم يكن هذا ولا هذا فإنَّ الذي أعددتُه لهم من عذابي أعظم مما تريدُهم به، فإنَّ عذابي لعبادي على حسب جلالِي وكبريائي. يا إبراهيم، فخلَّ بيني وبين عبادي، فإني أرحم بهم منك، وخلَّ بيني وبين عبادي فإني أنا الجبار الحليم العلام الحكيم، أدبرهم بعلمي، وأنفذ فيهم قضائي وقدري^(١).

تعليق: قدّمت هذه الرواية صورة مختلفة عن الرواية السابقة:

١. فإراءة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض كان عبارة عن عروج بالجسد إلى السماء.

٢. لم تُقدّم ربطاً بين الحدث وبين الآيات اللاحقة.

٣. لم تُحدّد الرواية متى تمّ ذلك، ولكن يبدو أنها وقعت بعد النبوة، لما فيها من خصوصية المعراج، ولورود عبارة (فإنما أنت عبدٌ نذير).

٤. فيها مضمون أقرب إلى قصص الوعظ، وكان بعض الوعّاظ يضعون الحديث وينسبونه إلى النبي «صلى الله عليه وآله» أو غيره لغايات «خيرة». ويغلب الظن أن هذه نماذج من قصص القصاصين الذين كانوا يعتمدون أحياناً على الموعظة لكسب اهتمام الناس وتبرير كذبهم فيما يأتون به من قصص من وحي خيالاتهم، أو من تراث سائر الأمم، كما أن بعض «الصالحين» كانوا يضعون الأحاديث والقصص وغايتهم من ذلك وعظ الناس، معتبرين أن الغاية تبرر الوسيلة.

قال ابن قتيبة^(١): (فإن القصّاص يُميلون وجوه العوام إليهم، ويستدرّون ما عندهم بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه عجباً خارجاً عن فطر العقول، أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستغزر العيون)^(٢).

١. أبو محمد عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٢ هـ - ٢٧٦ هـ). أديب وفقيه ومؤرخ. له العديد من المصنفات من أشهرها (عيون الأخبار)، (أدب الكاتب).

٢. ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، ص ٢٥٥.

قال **الرافعي**^(١): (والقصاص كانوا منذ القديم وعبر التاريخ ، إلا أنهم مع ظهور الإسلام كانوا يقصّون على الناس ويكون من علمهم التفسير والأثر والخبر عن الأمم البائدة وغيرهم للتعليم والموعظة، ولم يكن ذلك في القرن الأوّل مردولاً لأن فنونه ترجع إلى القرآن والحديث، إلا ما كان يشوبه ممّا كانوا يسمّونه بالعلم الأوّل، وهو ما يتعلّق بأخبار الأمم السالفة وأكثره يأخذونه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن أسلم منهم كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه)^(٢).

قال **محمود أبو رية**^(٣): (لم يكن وضع الحديث على رسول الله مقصوراً على أعداء الدين وأصحاب الأهواء فحسب - كما بيّنا - وإنما كان الصالحون من المسلمين يضعون كذلك أحاديث على رسول الله، ويجعلون ذلك حجة لله بزعمهم، ويحسبون أنهم بعملهم هذا يحسنون صنعا، وإذا سألهم سائل. كيف تكذبون على رسول الله؟! قالوا: نحن نكذب له، لا عليه! وإن الكذب على من تعمّده! روى مسلم في كتابه عن يحيى بن سعيد القطان قال: «لم نر الصالحين في شئ أكذب منهم في الحديث»، وفي رواية: «لم نر أهل الخير في شئ أكذب منهم في الحديث»، يعني أنه كما قال مسلم: «يجري على لسانهم

١. مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي العمري (١٢٩٨ هـ - ١٣٥٦ هـ). أديب مصري. له مؤلفات عديدة من بينها (تاريخ آداب العرب)،

(وحي القلم)، (ديوان الرافعي)، (ديوان النظرات)، (ديوان الإنشاء).

٢. الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج ١، ص ٣٨٠.

٣. محمود أبو رية، (١٨٨٩م - ١٩٧٠م). باحث اشتهر بنقده للسنة القولية، وهو أحد أركان المدرسة الإصلاحية التجديدية التي بدأت مع الشيخ محمد عبده. من مؤلفاته (أبو هريرة شيخ المضيرة)، (صيحة جمال الدين الأفغاني)، (قصة الحديث المحمدي).

ولا يتعمدون الكذب»... قال الحافظ ابن حجر: «وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث الترغيب والترهيب وقالوا: نحن لم نكذب عليه، بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته».... قال عبد الله النهاوندي: «قلت لغلام أحمد، من أين لك هذه الأحاديث التي تحدث بها في الرقائق؟ فقال وضعناها لنرقق بها قلوب العامة». قال ابن الجوزي عن غلام أحمد هذا: «إنه كان يتزهد ويهجر شهوات الدنيا، ويتقوت بالاقلاء صرفاً، وغلقت أسواق بغداد يوم موته». وكان أحمد بن محمد الفقيه المروزي من أصلب أهل زمانه في السنة، وأكثرهم مدافعة عنها، ويحقر كل من خالفها، وكان مع ذلك يضع الحديث ويقلبه. وأخرج البخاري في التاريخ الأوسط عن عمر بن صبيح بن عمران التميمي أنه قال: «أنا وضعت خطبة النبي». وأخرج الحاكم في المدخل بسنده إلى أبي عمار المروزي، أنه قيل لأبي عصمة: «من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة، وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقهِه أبي حنيفة، ومغازي ابن إسحاق، فوضعت هذا الحديث حسبة» (أي احتساباً للأجر^(١)).

وأما الرواية التالية فهي لا تبتعد عن الثانية من حيث الفكرة، ولكنها تضيف أحداثاً أخرى، وكأن الراوي لم تكفه الأحداث التي وردت في الرواية السابقة وأراد أن يضيف إليها المزيد من الإثارة.

○ في علل الشرائع للصدوق بالسند عن أبي بصير، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض التفت

١. أبو رية: أضواء على السنة المحمدية، ص ١٢٨.

فرأى رجلاً يزني، فدعا عليه فمات، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات، حتى رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا، فأوحى الله «عز وجل» إليه: يا إبراهيم، دَعَوْتُكَ مجابة، فلا تدعو على عبادي فإنني لو شئت لم أخلقهم، إني خلقت خلقي على ثلاثة أصناف، عبداً يعبدني لا يشرك بي شيئاً فأثيبه، وعبداً يعبد غيري فلن يفوتني، وعبداً يعبد غيري فأخرج من صلبه من يعبدني. ثم التفت فرأى جيفة على ساحل البحر بعضها في الماء وبعضها في البر، تجيء سباع البحر فتأكل ما في الماء، ثم ترجع فيشتمل بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً، ويجيء سباع البر فتأكل منها فيشتمل بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً، فعند ذلك تعجب إبراهيم مما رأى وقال: يا رب، أرني كيف تحيي الموتى. هذه أمم يأكل بعضها بعضاً! قال: أو لم تؤمن؟ إلخ الرواية^(١).

تعليق: يُلاحظ على هذه الرواية عدة أمور:

١. لم تتطرق إلى الكيفية التي استطاع من خلالها إبراهيم «عليه السلام» أن يرى ملكوت السماوات والأرض.

٢. لم تُقدِّم ربطاً بين الحدث وبين الآيات اللاحقة.

٣. فيها إضافة ترتبط بآية ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

١. الصدوق: علل الشرائع: ص ١٩٥.

سَعْيًا وَاعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾، وهي لم تأت في سياق الآيات السابقة، وسندرسها لاحقاً على حدة.

٤. لم تحدّد الرواية متى تمّ ذلك.

○ في تفسير علي بن إبراهيم: عن هشام، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كُشِطَ لَهُ عَنِ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَعَنِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهَا، وَالْمَلَكُ الَّذِي يَحْمِلُهَا) أي الملك الذي يحمل السماء وهذا مضمون غريب (والعرش وَمَنْ عَلَيْهِ، وَفَعَلَ ذَلِكَ بِرَسُولِ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» وأمير المؤمنين «عليه السلام»)(٢).

تعليق: هذه الرواية تتحدث عن عملية كشط كما جاء في الرواية الأولى، وفيها إضافة لا تخصّ النبي إبراهيم «عليه السلام».

• تعليق العلامة المجلسي:

ونتوقف عند تعليق العلامة المجلسي حول معنى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، حيث قسّم الاحتمالات في تأويل الآية بعد عرض مجموعة الروايات السابقة كالتالي:

١. أن تكون الرؤية ببصر العين، بأن يكون الله «تعالى» قوياً بصره، ورفع له كل منخفض، وكُشِطَ لَهُ عَنِ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى رَأَى مَا فِيهِمَا ببصره.

١. سورة البقرة: ٢٦٠.

٢. القمي: تفسير القمي، ص ١٩٢.

٢. أن يكون المراد رؤية القلب، بأن أنار قلبه حتى أحاط بها علماً.
٣. أنه رأى الكواكب وما خلقه الله في الأرض على وجه الاعتبار والاستبصار، رؤية اعتيادية، واستدل بها على إثبات الصانع.
- ثم اعتبر العلامة المجلسي أن الاحتمال الأول أظهر بحسب النقل - أي إذا التزمنا بظاهر العبارات في الآيات والأحاديث - وأن الاحتمال الثاني أظهر عقلاً، بينما استبعد الاحتمال الثالث لابتعاد ظاهر الأخبار عنه.
- ثم قال: (والظاهر على التقديرين) أي الاحتمالين الأول والثاني (أنه أحاط علماً بكل ما فيهما من الحوادث والكائنات)^(١). ولا أدري كيف استفاد هذا المعنى من الآية والروايات.

• تعليق العلامة الطباطبائي:

وقد اعتبر العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان أن الآية غير منفصلة عن الآية السابقة لها، وهي قوله «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا تَعْبُدُ أَصْنَامًا آَلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٢)، والآيات اللاحقة لها، وأن إبراهيم أرى ملكوت السماوات والأرض، ثم حاج قومه، ثم رأى كوكباً وأبدى رأياً، ثم القمر... إلخ... فكيف فهم ذلك بالترتيب المعكوس لترتيب الآيات الشريفة؟

ذكر العلامة أن مفتاح فهم الارتباط بين الآيات وترتيبها هو: كلمات

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٦١-٦٢.

٢. سورة الأنعام: ٧٤.

(كذلك) و(نري) و(فلما)، وبالصورة التالية:

١. كلمة (كذلك) تدل على أنه: كما رأى إبراهيم الأمر واضحاً في بطلان عبادة الأصنام، كذلك سيرى الأمر واضحاً فيما يخص ملكوت السماوات والأرض.

٢. (نري) هنا بمعنى (أرينا) التي تدل على الماضي، أي: أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكُشف له ضلالهم.

٣. (فلما): أي في مرة من المرات - وبسبب المدد الإلهي بإراءة الملكوت - لما جنَّ عليه الليل ورأى كوكباً.... إلخ.

قال: (ظاهر السياق أن تكون الإشارة بقوله: «كذلك» إلى ما تضمّنته الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَأْتَنِي أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ﴾ إلخ، أنه «عليه السلام» أرى الحق في ذلك، فالمنعنى: على هذا المثال من الإراءة نري إبراهيم ملك السماوات والأرض) أي كما رأى الأمر واضحاً في بطلان عبادة الأصنام، كذلك سيرى الأمر واضحاً فيما يخص ملكوت السماوات والأرض (وبمعونة هذه الإشارة ودلالة قوله في الآية التالية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ الدالة على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله: «نري» لحكاية الحال الماضية كقوله «تعالى»: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(١). فالمنعنى: أنا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكُشف له ضلالهم، وكنا نمدّه بهذه

العناية والموهبة، وهي إراءة الملكوت، وكان على هذه الحال حتى جَنَّ عليه الليل ورأى كوكباً^(١).

ثم خطأ العلامة الطباطبائي رأي من قال أن آية ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي﴾ كالمعتضة بين الآية السابقة لها والآيات اللاحقة، وأنها لا ترتبط بما قبلها ولا بما بعدها. وكذلك خطأ رأي من قال أن إراءة الملكوت تمَّ أولاً لما جن عليه الليل فرأى كوكباً..... إلخ.

ثم أول معنى الإراءة هنا بأنَّ الله «تعالى» وجَّه نفس إبراهيم الشريفة إلى مشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه، وإذ كان استناداً لا يقبل الشركة، سارع إبراهيم إلى أن يحكم بأن لا رب لهذا الوجود ولا مدبر لهذا النظام سوى الله، فالأصنام تماثيل عملها الإنسان وسمّاها أسماء لم يُنزل الله عليها من سلطان، وما كان هذا شأنه فإنه لا يستطيع أن يكون رباً للإنسان ولا أن يملكه، كما أن الأجرام العلوية كالنجوم والقمر والشمس تبدل أحوالها، فتغيب عن الإنسان بعد حضورها، وما كان هذا شأنه لا يمكن أن يكون له الملك وتولي التدبير تكويناً^(٢).

• تعليق العلامة فضل الله :

وهكذا اعتبر العلامة فضل الله في تفسيره من وحي القرآن أن: (الرؤية التي يتحدث عنها القرآن في قوله «تعالى»: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هي الرؤية الواعية الفاحصة المدققة التي تثير في

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ١٦٩-١٧٠.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ١٧٢.

النفس المزيد من التأمل والحوار والاستنتاج، بدليل قوله «تعالى»: ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ﴾ ما يوحي بأنها الرؤية التي تبعث على القناعة واليقين^(١).

وهو الاحتمال الثالث الذي استبعده المجلسي مسبقاً وقال به العلامة الطباطبائي من بعد.

• كذب أم تمثيل؟

وقد طرح العلامة المجلسي إشكالية أخرى ترتبط بالآيات اللاحقة والتي قال فيها النبي إبراهيم ﴿هَذَا رَبِّي﴾، فكيف يمكن تصوّر صدور مثل هذا الكلام عن نبي من الأنبياء ولوقبل أن يُبعث، فالمفترض عصمته عن ذلك كما هو المثبت في محله؟

وقدّم المجلسي عدة احتمالات كإجابة على هذا الإشكال نعرضها كالتالي:

١. قال النبي إبراهيم «عليه السلام» ذلك عند كمال عقله في زمان مهلة النظر، فإنه «تعالى» لما أكمل عقله وحرك دواعيه على الفكر والتأمل رأى الكوكب فأعظمه وأعجبه نورُه وحسنُه وبهاؤه، وقد كان قومه يعبدون الكواكب فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على سبيل الفكر، فلما غاب علم أن الأفول لا يجوز على الإله، فاستدل بذلك على أنه مُحدث مخلوق، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس، وقال في آخر كلامه: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله «تعالى» وعلمه بأن صفات المحدثين لا تجوز عليه، ويُحتمل أن يكون هذا قبل البلوغ والتكليف وبعده، والأول هو مختار

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ٦، ص ١٦٢.

الأكثر وهو أظهر، وإلى هذا الوجه يشير بعض الأخبار السالفة، ويمكن حملها على بعض الوجوه الآتية. ويؤيد هذا الاحتمال ما جاء في الرواية التالية: (سئل أبو عبد الله «عليه السلام» عن قول إبراهيم: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لغير الله هل أشرك في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾؟ فقال: مَنْ قال هذا اليوم فهو مشرك) لأن الحجج قد قامت على بطلان ذلك (ولم يكن من إبراهيم شرك، وإنما كان في طلب ربه، وهو من غير شرك) أي كان في حالة البحث والتفكير ولم يكن قد آمن بها.

٢. أنه «عليه السلام» كان عارفاً بعدم صلاحيتها للربوبية، ولكن قال ذلك في مقام الاحتجاج على عبدة الكواكب على سبيل الفرض الشائع عند المناظرة، فكأنه أعاد كلام الخصم ليلزم عليه المحال، ويؤيده قوله «تعالى» بعد ذلك: ﴿تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

٣. أن يكون المراد: (هذا ربي في زعمكم واعتقادكم)، تماماً كما يقول الموحد لمن يؤمن بالتجسيم: (إنَّ إلهك جسم محدود) أي في زعمه واعتقاده، وكما في قوله «تعالى»: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾^(٢)، فهو ليس إلهاً حقيقياً.

٤. أن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار، إلا أنه أسقط حرف الاستفهام عنه كما هو الشائع، وكأنَّ النبي إبراهيم قال: (أ هذا ربي؟)

٥. أن يكون القول مضمرأ فيه، والتقدير: (يقولون هذا ربي)، ومثل هذا الإضمار في القول كثير، كقوله «تعالى»: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ

١. سورة الأنعام: ٨٣.

٢. سورة طه: ٩٧.

الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴿٦﴾ أَي: ﴿يَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾.

٦. أن يكون قوله ذلك على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليلٍ سادَ قومًا: (هذا سيدكم!) على وجه الهزؤ.

٧. أنه «عليه السلام» أراد أن يُبطل قولهم بربوبية الكواكب، إلا أنه كان قد عرف أنه لو صرّح بالدعوة إلى الله لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع الحجة، وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم، مع أن قلبه كان مطمئناً بالإيمان، فكأنه بمنزلة المُكره على إجراء كلمة الكفر على اللسان، وذلك على سبيل المصلحة^(١).

ولم يقتصر طرح الإشكال على الشيعة فقط، حيث نجد مثلاً في تفسير البغوي^(٢) قوله: (واختلفوا في قوله ذلك: فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم «عليه السلام» مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفقه الله «تعالى» وآتاه رشده فلم يضره ذلك في حال الاستدلال، وأيضاً كان ذلك في حال طفوليته قبل قيام الحجة عليه، فلم يكن كفراً. وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأخبر عنه فقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٣)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أفتراه

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٥٠-٥١.

٢. أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي (ت ٥١٦هـ). حافظ وفقه ومفسر. من مصنفاته (شرح السنة)، (مجموعة الفتاوى)، (التهذيب في فقه الإمام الشافعي).

٣. سورة الصافات: ٨٤.

أراه الملكوت ليقون فلما أيقن رأى كوكباً قال: هذا ربي معتقداً؟ فهذا ما لا يكون أبداً^(١). ثم نقل البغوي أربعة أوجه لحل الإشكال وهي من ضمن ما نقله المجلسي من أوجه لذلك.

• رواية طريفة:

وقبل أن نختم هذا البحث نطالع هذه الرواية الطريفة. ففي تفسير العياشي^(٢) عن الحارث، عن علي بن أبي طالب «عليه السلام» قال: (إن نمرود أراد أن ينظر إلى ملك السماء فأخذ نسوراً أربعة فربّاهن وجعل تابوتاً من خشب وأدخل فيه رجلاً، ثم شد قوائم النسور بقوائم التابوت، ثم جعل في وسط التابوت عموداً وجعل في رأس العمود لحماً، فلما رأى النسور اللحم طرن وطرن بالتابوت والرجل) ولك أن تتخيل الوزن الذي يمثله التابوت والرجل، وقد يصل إلى قرابة طن، فهل يمكن للنسور الأربعة أن تحمل هذا الوزن دون أن تنفصل قوائمها عن أجسادها؟ هذا إذا طارت أصلاً (فارتفعن إلى السماء فمكث ما شاء الله، ثم إن الرجل أخرج من التابوت رأسه فنظر إلى السماء فإذا هي على حالها، ونظر إلى الأرض فإذا هو لا يرى الجبال إلا كالذر، ثم مكث ساعة فنظر إلى السماء فإذا هي على حالها، ونظر إلى الأرض فإذا هو لا يرى إلا الماء، ثم مكث ساعة فنظر إلى السماء فإذا هي على حالها، ونظر إلى الأرض فإذا هو لا يرى شيئاً، ثم وقع في ظلمة لم ير ما فوقه وما تحته ففزع

١. البغوي: معالم التنزيل، ج ٢، ص ١٦١.

٢. أبو النصر أو أبو النصر محمد بن مسعود العياشي السمرقندي (ت ٢٢٠هـ). فقيه ومفسر ومحدث. من مصنفاته (الأسارى والغلول)، (نكاح المماليك)، (البداء).

فألقي اللحم فاتبعته النصور منقضّات، فلما نظرت الجبال إليهن وقد أقبلن منقضّات وسمعت حفيفهن فزعت وكادت أن تزول مخافة أمر السماء) وهي للجبال وعي؟ (وهو قول الله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(١)).

والآية وإن جاءت في سورة إبراهيم ولكن لا علاقة لها بقصته، وهي ضمن السياق التالي: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ، وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ، وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾^(٢). وقد شاءت مخيلة الراوي ربطها بقصة إبراهيم من خلال نسبتها إلى الملك الذي عاصره، وهو نمرود.

ثم هل تعد محاولة استكشاف الأرض والسماء والبحر نوعاً من المكر المذموم أم تأتي متوافقة مع قوله «عز وجل»: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣)؟

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ تحدثت الآية ٧٥ من سورة الأنعام عن أن الله «عز وجل» أرى إبراهيم «عليه السلام» ملكوت السماوات والأرض، دون تحديد زمني ولا مكاني

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٣-٤٤.

٢. سورة إبراهيم: ٤٤-٤٦.

٣. سورة آل عمران: ١٩١.

للحدث، ولا عن طبيعة هذا الحدث وارتباطه بالنبوة أو بتعطيم الأصنام، أو بالآية السابقة واللاحقة لها.

○ هذا الغموض دفع مفسري القرآن الكريم للانقسام في آرائهم عند محاولة الإجابة على هذه التساؤلات أو على بعض منها، لاسيما بلحاظ اختلاف المرويات أيضاً في هذا الباب.

○ الأرجح لدي من بين هذه الآراء أن المراد من الرؤية هي الرؤية الواعية الفاحصة المدققة التي تثير في النفس المزيد من التأمل والاستنتاج وفتح المجال للحوار مع النفس ومع الآخرين حول حقيقة الألوهية والربوبية ورفض الشرك والإيمان بتوحيد الله.

○ وبترجيح هذا القول يمكننا استنتاج أن هذه المقولة من إبراهيم «عليه السلام» لم تكن تمثيلاً ولم يصدر عنه على نحو الكذب ليطرب عليه إشكال نسبة ذلك لنبي قبل أو بعد بعثته.

○ من الصعب ترجيح أو تصحيح أي من الروايات التي تتحدث عن الزمن والمكان الخاصين بهذا الحدث، وإن كان الأقوى أن هذا الأمر تم قبل النبوة.

○ كان للوعاظ ومن أطلق عليهم عنوان (الصالحين) دور خطير في وضع الحديث لغايات (نبيلة)، تمثلت في الرغبة في (هداية) الناس إلى العمل الصالح والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة.

٨

تخطيم الأصنام

تحطيم الأصنام

• موضوعات هذا الفصل:

- التفصيل في محاججات النبي إبراهيم مع قومه من خلال ما جاء في التراث الكتابي والقرآن الكريم والروايات الإسلامية.
- لجوء النبي إبراهيم إلى تحطيم الأصنام واتهام الصنم الأكبر بذلك.
- هل صدر عن إبراهيم الكذب حين اتهم الصنم الأكبر؟ ما هي الأقوال المختلفة التي قدمها المفسرون من السنة والشيعية في تأويل هذه المسألة؟
- محاولة لتحديد الزمان والمكان المرتبطين بحادثة تحطيم الأصنام، وعلاقة ذلك بالسعي لإحراق النبي إبراهيم ونجاته من الإحراق.
- هل صدر الأمر بالإحراق على يد الملك (النمرود)؟ ما هي المعطيات القرآنية حول هذه القصة؟
- كيف تم إنقاذ إبراهيم من النار؟ وهل آمن (النمرود) بسبب ذلك؟
- نقد أسطورة الوزغ والصفدع في حادثة الإحراق وبيان مصدرها التلمودي، وتأثير ذلك على روايات الأمر بقتل الوزغ.

تحطيم الأصنام

دخل النبي إبراهيم «عليه السلام» في جدالات متعددة مع قومه وأبيه أزر حول الشرك وعبادة الأصنام والكواكب، وتحدث القرآن الكريم عن بعض منها، وما ترتّب على ذلك من تأثير على مستقبله في مسقط رأسه، كما نجد في بعض المرويات وأقوال بعض المفسرين ارتباط هذه الجدالات بما نقله القرآن من تطلّع النبي إبراهيم في الكوكب - ولعله الزهرة - والقمر والشمس، ورفضه ألوهيتها كما مرّ بنا، وكما سيأتي، بالإضافة إلى ما جاء في المصادر الكتابية من تفاصيل وروايات حول هذا الموضوع.

• في القرآن الكريم :

○ قال «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ثم تستعرض الآيات إراءته ملكوت السماوات والأرض، وقوله بحق الكوكب - بدءً - هذا رب، ثم للقمر، ثم للشمس، ثم توجهه إلى الله «عز وجل» وحده. ثم أعقب ذلك قوله «تعالى»: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

ولدينا في القرآن تصوير ثانٍ لمحاجته قومه، ثم تحطيمه الأصنام، وما ترتّب على ذلك من حاجة لاحقة فضحتهم ودفعتهم لاتخاذ إجراء حاسم للتخلّص من هذا الفتى «المزعج» الذي فضحهم وحطّم معبوداتهم.

○ قال «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ، قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَقَالَ لِلَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، فَقَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وتختتم الآيات باقتراح حرقه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

المورد الثالث مما عرضه القرآن الكريم من المحاججات يعود إلى نفس القصة الواردة في سورة الأنبياء:

○ قال «تعالى» بعد الحديث عن النبي نوح «عليه السلام»: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ

١. سورة الأنبياء: ٥١-٦٧.

٢. سورة الأنبياء: ٦٨-٧١.

لِإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَنْصَكُوا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ، قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١﴾.

• في الروايات الإسلامية :

○ في رواية تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق «عليه السلام» التي مرّت بنا حول ولادته وبقائه في الغار إلى أن بلغ الثالثة عشرة: (فلما أدخلت أم إبراهيم إبراهيم دارها نظر إليه آزر فقال: من هذا الذي قد بقي في سلطان الملك والملك يقتل أولاد الناس؟ قالت: هذا ابنك) وهذه الرواية تعتبر أن آزر والد إبراهيم الصليبي (ولدتّه وقت كذا وكذا حين اعتزلت) أي تركت بيت الزوجية لفترة وكانت قريبة عهد بالولادة ولم يبن عليها الحمل فولدت إبراهيم دون علم والده (فقال: ويحك إن علم الملك هذا زالت منزلتُنا عنده، وكان آزر صاحب أمرٍ نمرود ووزيرَه، وكان يتخذ الأصنام له وللناس) أي يصنعها (ويدفعها إلى ولده فيبييعونها، وكان على دار الأصنام، فقالت أم إبراهيم لآزر: لا عليك، إن لم يشعر الملك به بقي لنا ولدُنا، وإن شعر به كفيْتُكَ الاحتجاج عنه. وكان آزر كلما نظر إلى إبراهيم أحبه حباً شديداً، وكان يدفع إليه الأصنام ليبييعها كما يبيع إخوته، فكان) إبراهيم (يُعلّق في أعناقها الخيوط

ويجرها على الأرض ويقول: مَنْ يشتري ما لا يضره ولا ينفعه؟! ويُغرقها في الماء والحمأة) الطين الأسود المنتن (ويقول لها: اشربي وتكلمي، فذكر إخوته ذلك لأبيه، فنهاء فلم ينته، فحبسه في منزله ولم يدعه يخرج. ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ فقال إبراهيم ﴿أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي بين لي ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ثم قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ نَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي أنا أحق بالأمن حيث أعبد الله أو أنتم الذين تعبدون الأصنام؟^(١).

وفي بعض الروايات وأقوال المفسرين أن إبراهيم بدأ بالمحاجة وهو في الغار، وفي بعضها بمجرد خروجه منه، وفي بعض العبارات بدل الغار «السَّرب»، أي حفير تحت الأرض لا منفذ له.

○ جاء في تفسير البغوي: (قالوا: فلما شب إبراهيم «عليه السلام» وهو في السَّرب قال لأمه: مَنْ رَبِّي؟ قالت: أنا، قال: فمن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت: نمروذ، قال: فمن ربه؟ قالت له: اسكت، فسكت، ثم رجعت إلى زوجها، فقالت: رأييت الغلام الذي كنا نُحدث أنه يُغيّر دين أهل الأرض؟ فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال، فأتاه أبوه آزر، فقال له إبراهيم «عليه السلام»: يا أبتاه، مَنْ ربي؟ قال: أمك، قال: ومن رب أمي؟ قال: أنا قال: ومن ربك؟ قال: نمروذ قال: فمن رب نمروذ؟ فلطمه لطمه وقال له: اسكت)^(٢). ثم تتحدث

١. القمي: تفسير القمي، ص ١٩٥.

٢. البغوي: معالم التنزيل، ج ٢، ص ١٦١.

تحطيم الأصنام

الرواية عن نظره إلى الكوكب والقمر والشمس .. إلخ.

○ في تفسير علي بن إبراهيم القمي حول آيات سورة الأنبياء ما يلي: (قال:)
والقائل هو الإمام الصادق فهذه الرواية تنتم للرواية التي تناولناها من قبل
(فلما نهاهم إبراهيم «عليه السلام» واحتج عليهم في عبادتهم الأصنام فلم
ينتهوا حضر عيدٌ لهم، وخرج نمرود وجميع أهل مملكته إلى عيد لهم، وكره)
آزر (أن يخرج إبراهيم معه، فوكله ببيت الأصنام، فلما ذهبوا عمد إبراهيم
إلى طعام فأدخله بيت أصنامهم، فكان يدنو من صنم صنم فيقول له: كُلْ
وتكلم، فإذا لم يجبه أخذ القدوم فكسر يده ورجله، حتى فعل ذلك بجميع
الأصنام، ثم علّق القدوم في عنق الكبير منهم الذي كان في الصدر، فلما رجع
الملك ومَن معه من العيد نظروا إلى الأصنام مكسرة، فقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا
بِالْهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فقالوا ههنا: ﴿فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾
وهو ابن آزر، فجاءوا به إلى نمرود... إلخ^(١).

• هل كذب إبراهيم ؟

بعد نقل الروايات في هذا الباب، تعرّض العلامة المجلسي إلى إشكالية
قول النبي إبراهيم «عليه السلام»: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ حيث أن الواقع
خلاف ذلك، والفاعل هو نفسه، فكيف يجوز له أن يقول خلاف الواقع، وبمعنى
آخر كيف يمكن تصوّر صدور الكذب عنه «عليه السلام»، وهل يجوز للنبي أن
يكذب؟ ونقل المجلسي وجوهاً لتأويل ذلك بما يرفع الإشكال، وهي كالتالي:

١. ما ذكره السيد المرتضى، وهو أن الخبر مشروط غير مطلق، لأنه قال: ﴿إِنْ

كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿١﴾ ومعلوم أن الأصنام لا تتطق، وأن النطق مستحيل عليها، فما عُلّق بهذا المستحيل من الفعل أيضاً سيكون مستحيلاً. وهدف النبي إبراهيم «عليه السلام» من قوله هذا تنبيه القوم وتوبيخهم وتعنيفهم بعبادة مَنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَنْطِقُ وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ نَفْسِهِ بِشَيْءٍ. وكأنه قال: إن كانت هذه الأصنام تنطق فهي الفاعلة للتكسير، لأنَّ من يجوز أن ينطق يجوز أن يفعل، وإذ عُلِمَ استحالة النطق عليها عُلِمَ استحالة الفعل، وعُلِمَ باستحالة الأمرين أنه لا يجوز أن تكون آلهة معبودة، وأنَّ مَنْ عبدها ضالٌّ مُضِلٌّ، ولا فرق حينئذ بين قوله: (إنهم فعلوا ذلك إن كانوا ينطقون) وبين قوله: (إنهم ما فعلوا ذلك ولا غيره، لأنهم لا ينطقون ولا يقدرُونَ). وأما قوله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ﴾ فإنما هو أمر بسؤالهم أيضاً على شرط ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، فكأنه قال: (إن كانوا ينطقون فاسألوهم).

٢. أنه لم يكن قصد إبراهيم نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد أنه هو الفاعل، ولكنه في نفس الوقت أراد التعريض بالأصنام من خلال نسبة الأمر إليها. كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط جميل: (أنت كتبت هذا؟) وصاحبك أمي لا يعرف الكتابة، فقلت له: (بل كتبت أنت!) كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء، لا نفيه عنك.

٣. أن إبراهيم «عليه السلام» غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصفوفة مرتبة، فكان غيظه من الصنم الأكبر أشدَّ لما رأى من زيادة تعظيمهم لها، فأسند الفعل إليه باعتبار أنه كان الدافع الأكبر لتحطيم الأصنام، علماً بأن الفعل كما يُسند إلى الفاعل المباشر، كذلك يُسند إلى الدافع عليه.

تحطيم الأصنام

٤. أن يكون كلامه حكاية لما يلزم على مذهبهم، كأنه قال: (نعم، ما تُتَكرون أن يفعله كبيرهم؟ فإن من حق من يُعبد أو يُدعى إلهاً أن يقدر على هذا وأشد منه)، أو (يلزمكم على قولكم أن لا يقدر على كسرهم إلا إله أكبر منهم، فإن غير الإله لا يقدر أن يكسر الإله).

٥. أنه كناية عن غير مذكور، وكأن العبارة كالتالي: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟﴾ وكان ردّه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ﴾ دون تحديد للفاعل. ثم تبتديء جملة جديدة كالتالي: ﴿كَبِيرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

٦. يجب قراءة النص كالتالي: ﴿قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمُ؟ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ وعن نفسه، لأن الإنسان أكبر من كل صنم، ثم قال: ﴿هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

وعلق المجلسي بعد ذلك مضيفاً قولاً سابعاً، أو قولاً متداخلاً مع بعض الوجوه السابقة. قال: (ويظهر من كثير من الأخبار أن هذا صدر عنه «عليه السلام» على وجه التورية والمصلحة، ويمكن توجيه التورية ببعض الوجوه المتقدمة)^(١). ثم جاء المجلسي ببعض الروايات الدالة على جواز الكذب في بعض الظروف، وهي كالتالي:

○ عن الكليني بالسند عن عطا، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: لا كذب على مُصلح. ثم تلا ﴿أَيُّهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فقال: والله ما سرقوا وما كذب، ثم تلا ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ثم قال: والله ما فعلوه وما كذب).

○ الرواية الثانية أيضاً عنه بالسند عن الحسن الصيقل قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام» إنا قد روينا عن أبي جعفر «عليه السلام» في قول يوسف «عليه السلام»: ﴿أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؟ فقال: واللّٰه ما سرقوا وما كذب، وقال إبراهيم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، فقال: واللّٰه ما فعلوا وما كذب. قال: فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا فيها إلا التسليم، قال: فقال: إنّ الله أحب اثنين، وأبغض اثنين، أحبّ الخطر فيما بين الصّفين) أي المشي تبخترًا، وهو مبغوض في الأوضاع الاعتيادية لأنه دلالة على الكبر والعجب (وأحبّ الكذب في الإصلاح، وأبغض الخطر في الطرقات، وأبغض الكذب في غير الإصلاح، إنّ إبراهيم «عليه السلام» قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ وهذا إرادة الإصلاح، ودلالة على أنهم لا يعقلون، وقال يوسف «عليه السلام» إرادة الإصلاح). وهذا يعني تعمّد إبراهيم الكذب، ولكن الغاية بررت ذلك.

○ الرواية الثالثة عن الكليني أيضاً بالسند عن أبي بصير قال: (قال أبو عبد الله «عليه السلام»: التقية من دين الله، قلت: من دين الله؟ قال: إي والله من دين الله. قال يوسف: ﴿أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، والله ما كانوا سرقوا شيئاً، ولقد قال إبراهيم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ واللّٰه ما كان سقيماً^(١)).

وترد نفس الإشكالية على قول إبراهيم: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كما حكته الآيات الشريفة. وقد جمع العلامة المجلسي الآراء في تأويل ذلك كالتالي:

١. أنه «عليه السلام» نظر في النجوم فاستدل بها على وقت حمى كانت تعتوره،

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٥٢-٥٥.

تحطيم الأصنام

فقال ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أراد أنه قد حضر وقت علته وزمان نوبتها، فكأنه قال: إني سأسقم لا محالة وحان الوقت الذي يعتريني فيه الحمى، وقد يسمى المشارف للشئ باسم الداخل فيه، قال الله «تعالى»: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

٢. أنه نظري في النجوم كنظرهم لأنهم كانوا يتعاطون علم النجوم فأوهمهم أنه يقول بمثل قولهم فقال عند ذلك: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فتركوه ظناً منهم أن نجمه يدل على سقمه.

٣. أن يكون الله أعلمه بالوحي أنه سيُسقمه في وقتٍ مستقبل، وجعل العلامة على ذلك إمّا طلوع نجم على وجه مخصوص، أو اتصاله بآخر على وجه مخصوص، فلما رأى إبراهيم تلك الامارة قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تصديقا لما أخبره الله «تعالى».

٤. أن معنى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إني سقيم القلب أو الرأي حُزناً من إصرار القوم على عبادة الأصنام وهي لا تسمع ولا تبصر، ويكون على هذا معنى نظره في النجوم فكرته في أنها مُحدثة مخلوقة مُدبرة، وتعجبه في أنه كيف ذهب على العقلاء ذلك من حالها حتى عبدوها.

تعليق: جاء في تفسير علي بن إبراهيم ما يؤيد هذا المعنى، فعن أبي بصير، عن أبي جعفر «عليه السلام» (قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: «والله ما كان سقيماً وما كذب، وإنما عنى سقيماً في دينه مرتاداً»^(١) ارتاد الشئ: طلبه، أي طالباً للحق ودينه.

١. القمي: تفسير القمي، ص ٥٥٧.

٥. أن معناه: نظر في النجوم نظر تفكر فاستدل بها كما قصه الله في سورة الأنعام على كونها مُحَدَّثَةٌ غير قديمة ولا آلهة، وأشار بقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إلى أنه في حال مهلة النظر، وليس على يقين من الأمر ولا شفاء من العلم، وقد يسمى الشك بأنه سقم كما يسمى العلم بأنه شفاء. ذكره أبو مسلم، ولا يخفى ضعفه.

ثم علّق **المجلسي** على ما سبق قائلاً: (هذا ما ذكره القوم من الوجوه، وقد عرفت مما أوردنا من الأخبار في هذا الباب وباب العصمة أن الظاهر منها أنه «عليه السلام» أوههم بالنظر في النجوم موافقتهم وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ تورية، وقد وردت أخبار كثيرة في تجويز الكذب والتورية عند التقية وفيها الاستدلال بهذه الآية وبيان أنها لكونها على جهة التورية والمصلحة ليست بكذب، وما ذكر من الوجوه يصلح للتورية، وقد مرّ أنه كان مراده حزن القلب بما يُفعل بالحسين «عليه السلام»!) وهذا التأويل غريب (وقيل: يمكن أن يكون على وجه التعريض بمعنى أن كل من كُتِبَ عليه الموت فهو سقيم وإن لم يكن به سقم في الحال)^(١).

• متى جرى ذلك؟

الاتجاه المشهور في عرض سيرة إبراهيم «عليه السلام» يذهب إلى أنه على ضوء الموقف التصعيدي من قبل إبراهيم «عليه السلام» بتحطيم الأصنام وتوهمينها وتوهمين عبادتهم لها، تطوّرت الأحداث حيث تمّ رفع أمره إلى الملك الذي لم يذكر القرآن اسمه، ووُضعت الآية التالية في هذا السياق: ﴿أَلَمْ تَرَ

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٤٩-٥٠.

تحطيم الأصنام

إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿١﴾.

لكن لا بد أن ننتبه هنا إلى أمور:

١. الآية لم تأتِ في القرآن الكريم في سياق كسر الأصنام على يد إبراهيم «عليه السلام» وما ترتّب بعد ذلك من الأمر بإحراقه.

٢. الآية لم تذكر اسم الذي آتاه الله الملك، وهل هو ملك مسقط رأس إبراهيم، أم ملك آخر.

٣. بل نحن لا ندري هل كان في مسقط رأسه ملك أم لا؟ فربما عاش إبراهيم في مدينة تابعة لملك يعيش في مدينة أخرى.

٤. الروايات هي التي ذكرت ذلك، ولذا ستكون المسألة محلّ تحقيق وبحث.

٥. لو افترضنا صحة أن هذا الحوار مع الملك الذي يحكم مسقط رأسه، فمن المنطقي أن يكون ذلك بعد تحطيم الأصنام، وإلا لما قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ لأنه سيكون شخصاً مشهوراً آنذاك بناءً على موقفه مع الملك.

٧. وأما على فرض أنها ليست صحيحة، أو ليست حجة في المقام، لضعفها سنداً، أو لكثرة الإشكالات على مضامينها وتعارضها فيما بينها.

٨. حينئذ... سيكون احتمال قيام الحوار بين إبراهيم وبين أحد الملوك ممن التقى بهم في طريق هجرته حتى استقر في أرض كنعان - أو أُجبر على لقائه خلالها - احتمالاً قائماً، وينبغي دراسته بشكل مختلف. لا سيما بلحاظ أن نصوص التنخ والروايات تتحدث عن استقراره في حرّان، وفي مصر، وفي مناطق مختلفة من أرض كنعان، ولقائه بالعديد من ملوك تلك المناطق، وهو ما سنتناوله بالتدرّج لاحقاً ضمن الحديث عن سيرته.

٩. فمن جهة ليس بالضرورة أن يكون في مسقط رأس إبراهيم ملك حاضر، ففعل الملك يعيش في مدينة أخرى، ومسقط رأس إبراهيم من توابع ملكه. ومن جهة أخرى نجد بالقرب من مدينة حرّان التي سيهاجر إليها إبراهيم «عليه السلام» بحسب الرواية الكتابية مواقع تُنسب لنمرود - وهو الملك المفترض لإبراهيم - وآثارها باقية إلى اليوم في مدينة شانلي أورفا / أورفا. بالطبع فإن بالقرب من مدينة الحلة القريبة من مسقط رأس النبي إبراهيم «عليه السلام» آثار أخرى تُنسب إلى نمرود أيضاً. ولعل الادّعاء الذي مرّ بنا بأن حران هي مسقط رأس النبي إبراهيم «عليه السلام» حصل بسبب أن لقاءه مع الملك تم في هذه المدينة بحسب الرواية اليهودية مع ما جاء في بعض الروايات لدى المسلمين، ومن هنا افترض وحدة المكانين.

١٠. ثم فلنلاحظ أن القرآن الكريم عندما تحدّث عن محاولة إحراق إبراهيم، لم يُقحم الملك في المسألة، بل نسب الفعل إلى قومه في الموارد المختلفة، ولم يأت على ذكر الملك في أي مورد منها: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ



موقع حران - شانلي أورفا (أورفا)



عرش نمرود - شانلي أورفا (أورفا)

يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾. ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢).

وستكون لنا وقفة نحاول من خلالها تحديد شخصية هذه الملك بشكل تفصيلي ومن خلال بعض المعطيات الآثارية والتاريخية المقارنة.

• تفصيل الحدث في الروايات:

ولنستعرض الآن بعض الروايات التي تتحدث عن موقف النبي إبراهيم «عليه السلام» مع الملك.

○ في الكافي بالسند عن حجر، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (خالف إبراهيم «عليه السلام» قومه وعاب آلهتهم حتى أدخل على نمرود فخاصمهم، فقال إبراهيم «عليه السلام»: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾) (٣).

تعليق: ظاهر هذه الرواية أن حوارهم مع الملك تم قبل تحطيم الأصنام، حيث لم تأت على ذكر التحطيم. أما الرواية التالية فتخالف ما سبق وتذكر أن الحوار الذي دار مع الملك كان بعد نجاة إبراهيم من الإحراق، وليس قبل تحطيم الأصنام، ولا قبل محاولة إحراقه بالنار.

○ تفسير علي بن إبراهيم حول الآية ٢٥٨ من سورة البقرة: (فإنه لما

١. سورة العنكبوت: ٢٤.

٢. سورة الصافات: ٩٧-٩٨.

٣. الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٣٦٨.

ألقى نمرود إبراهيم في النار وجعلها الله عليه برداً وسلاماً قال نمرود: يا إبراهيم من ربك؟ قال: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قال له نمرود: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ قال: أعمد إلى رجلين ممن قد وجب عليهما القتل فأطلق عن واحد، وأقتل واحداً، فأكون قد أمت وأحييت، فقال إبراهيم: إن كنت صادقاً فأحي الذي قتلته، ثم قال إبراهيم: دع هذا فإن ربي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فكان كما قال الله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي انقطع وذلك أنه علم أن الشمس أقدم منه^(١).

○ وفي أعقاب رواية الكافي عن حجر عن الصادق التي مرّت بنا، ولا ندري هل أن الصادق «عليه السلام» يروي عن أبيه الباقر «عليه السلام» أم هي رواية أخرى، نجد الوصف التالي للأحداث دون حديث عن الحوار بين إبراهيم والملك: (وقال أبو جعفر «عليه السلام»: عاب آلهتهم ونظر نظرة في النجوم فقال: إني سقيم، قال أبو جعفر «عليه السلام»: واللّه ما كان سقيماً وما كذب، فلما تولوا عنه مدبرين إلى عيد لهم دخل إبراهيم «عليه السلام» إلى آلهتهم بقُدوم فكسرها إلا كبيراً لهم، ووضع القدوم في عنقه، فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا إلى ما صنع بها فقالوا: لا واللّه ما اجترأ عليها ولا كسرها إلا الفتى الذي كان يعيها ويبرأ منها، فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار، فجُمع له الحطب، واستجادوه، حتى إذا كان اليوم الذي يُحرق فيه، برز له نمرود وجنوده وقد بُني له بناء لينظر إليه كيف تأخذه النار، ووُضع إبراهيم «عليه السلام» في منجنيق وقالت الأرض: يا رب، ليس

١. القمي: تفسير القمي، ص ٧٦.

على ظهري أحد يعبدك غيره يُحرق بالنار، قال الرب: إِنَّ دَعَانِي كَفَيْتُهُ^(١).

○ وفي رواية **تفسير القمي** عن الصادق «عليه السلام» بعد أن اكتشف نمرود أن لآزر ولد: (فقال نمرود لآزر: خُنتني وكتمت هذا الولد عني، فقال: أيها الملك هذا عمل أمه وذكرت أنها تقوم بحجته) كما ذكرت أم إبراهيم ذلك لآزر من قبل (فدعا نمرود أم إبراهيم فقال لها: ما حملك على أن كتمتني أمر هذا الغلام حتى فعل بالهتنا ما فعل؟ فقالت: أيها الملك، نظراً مني لرعيّتك) أي رحمة منها بالناس (قال: وكيف ذلك؟ قالت: رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل، فقلت: إِنَّ كَانَ هَذَا الَّذِي يَطْلُبُهُ دَفَعْتُهُ إِلَيْهِ لِيَقْتَلَهُ وَيَكْفَ عَنْ قَتْلِ أَوْلَادِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَبَقِيَ لَنَا وَلَدُنَا. وَقَدْ ظَفَرْتَ بِهِ فَشَأْنُكَ، فَكُفَّ عَنْ أَوْلَادِ النَّاسِ. فَصَوَّبَ رَأْيَهَا، ثُمَّ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتِنَا﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ؟ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾. فقال الصادق «عليه السلام»: واللّه ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم، فقيل: فكيف ذلك؟ فقال: إنما قال: فعله كبيرهم هذا إِنَّ نطق، وإن لم ينطق فلم يفعل كبيرهم هذا شيئاً. فاستشار نمرود قومه في إبراهيم، فقالوا له: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فقال الصادق «عليه السلام»: كان فرعون إبراهيم وأصحابه لغير رُشدة، فإنهم قالوا لنمرود: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾، وكان فرعون موسى وأصحابه لَرُشدة، فإنه لما استشار أصحابه في موسى قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَا أَيُّهَا الْكَلْبُ سَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾. فحبس إبراهيم وجمع له الحطب حتى إذا كان اليوم الذي

تحطيم الأصنام

ألقى فيه نمرود إبراهيم في النار برز نمرود وجنوده، وقد كان بُني لنمرود بناءً يُنظر منه إلى إبراهيم كيف تأخذه النار، فجاء إبليس واتخذ لهم المنجنيق) أي أعلمهم إبليس صنعة المنجنيق، وبذا تكون هذه الوسيلة الحربية بحسب هذه الرواية من اختراعه (لأنه لم يقدر واحد أن يقرب من تلك النار عن غلوة سهم) الغلوة: مقدار رمية سهم وقد تصل تقريباً إلى ٢٠٠ م (وكان الطائر من مسيرة فرسخ يرجع عنها أن يتقارب من النار، وكان الطائر إذا مر في الهواء يحترق، فوضع إبراهيم «عليه السلام» في المنجنيق وجاء أبوه فلطمه لطمه وقال له: ارجع عما أنت عليه. وأنزل الرب ملائكته إلى السماء الدنيا، ولم يبق شيء إلا طلب إلى ربه) أي طلبوا التدخل لإنقاذ إبراهيم (وقالت الأرض: يا رب، ليس على ظهري أحد يعبدك غيره فيُحرق، وقالت الملائكة: يا رب، خليلك إبراهيم يُحرق، فقال الله «عز وجل»: أما إنه إن دعاني كفيته؟ وقال جبرئيل: يا رب، خليلك إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره، سلطت عليه عدوه يُحرقه بالنار. فقال: اسكت) هل هذا أسلوب إلهي في المخاطبة مع جبريل؟ (إنما يقول هذا عبدٌ مثلك يخاف الفوت، هو عبيدي آخذه إذا شئت، فإن دعاني أجبتة. فدعا إبراهيم «عليه السلام» ربه بسورة الإخلاص «يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد نجني من النار برحمتك»، فالتقى معه جبرئيل في الهواء وقد وُضع في المنجنيق، فقال: يا إبراهيم، هل لك إليّ من حاجة؟ فقال إبراهيم: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى رب العالمين فنعم، فدفع إليه خاتماً عليه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ألجأت ظهري إلى الله، أسندت أمري إلى الله، وفوضت أمري إلى الله) وما

دخل الخاتم في ما سيجريه الله من إرادته؟ وهل بالخواتم وما كُتب عليها؟ (فأوحى الله إلى النار ﴿كُونِي بَرْدًا﴾، فاضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتى قال: ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، وانحطَّ جبرئيل وجلس معه يحدثه في النار. ونظر إليه نمرود، فقال مَنْ اتخذ إلهاً فليتَّخذ مثلَ إله إبراهيم، فقال عظيم من عظماء أصحاب نمرود: إني عزمْتُ على النار أن لا تُحرِّقهُ) يريد أن ينسب الفضل لنفسه (فخرج عمود من النار نحو الرجل فأحرقته، فأمن له لوط وخرج مهاجراً إلى الشام. ونظر نمرود إلى إبراهيم في روضة خضراء في النار ومعه شيخ يحدثه) أي جبريل (فقال لآزر ما أكرم ابنك على ربه!)^(١).

تعليق: ليس في الرواية السابقة ذكر للحوار بين إبراهيم والملك. وفي رواية أخرى أن جبريل غضب في موقف أقرب إلى الاحتجاج على الإرادة الإلهية، فجاءه الرد عنيفاً من عند الله «سبحانه وتعالى».

○ روى الصدوق في أماليه، وفي عيون أخبار الرضا: بالسند عن الحسين بن خالد، عن الرضا «عليه السلام» قال: (إن إبراهيم «عليه السلام» لما وُضع في كفة المنجنيق غضب جبرئيل «عليه السلام»، فأوحى الله «عز وجل»: ما يُغضبك يا جبرئيل؟ قال: يا رب، خليلُك ليس من يعبدك على وجه الأرض غيره، سلَّطت عليه عدوك وعدوه، فأوحى الله «عز وجل» إليه: اسكت إنما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك، فأما أنا فإنه عبدي آخذه إذا شئت، قال: فطابت نفس جبرئيل «عليه السلام» فالتفت إلى إبراهيم «عليه السلام» فقال: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فأهبط الله «عز وجل» عندها خاتماً

تحطيم الأصنام

فيه ستة أحرف: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فوضت أمري إلى الله، أسندت ظهري إلى الله، حسبي الله» فأوحى الله «جل جلاله» إليه: أن تختّم بهذا الخاتم فإني أجعل النار عليك برداً وسلاماً^(١).

○ وفي تفسير فرات بن إبراهيم^(٢): علي بن محمد بن عمر الزهري معنعناً^(٣)، عن أبي عبد الله «عليه السلام» في قول الله «تعالى»: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ قال: (إن أول منجنيق عمل في الدنيا منجنيق عمل لإبراهيم بسور الكوفة في نهر يقال لها كوثن، وفي قرية يقال لها قنطانا، قال: عمل إبليس المنجنيق وأجلس فيه إبراهيم «عليه السلام» وأرادوا أن يرموا به في نارها....)^(٤).

• مصدر التفاصيل الموضوعية :

يمكننا أن نستخرج من مجموع الروايات السابقة عدة تفاصيل موضوعية في الروايات لا يمكن قبولها، وهي كالتالي:

١. غضب جبريل واحتججه والرد العنيف من الله بقوله لجبريل (اسكت). ولهذه المفردة أصل مذكور في المدرّاش^(٥) - وهي شروحات وتعليقات على

١. الصدوق: الأمالي، ص ٢٧٤، وعيون أخبار الرضا، ص ١٣٦.

٢. أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (ت ٢٥٢ هـ). مفسّر قال المجلسي: (تفسير فرات وإن لم يتعرض الأصحاب لمؤلفه بمدح ولا قبح، لكن كون أخباره موافقة لما وصل إلينا من الأحاديث المعتبرة وحسن الضبط في نقلها مما يعطى الوثوق بمؤلفه وحسن الظن به).
٣. أي عن فلان عن فلان.

٤. الكوفي: تفسير الفرات، ص ٩٧.

5. Midrash Ein Yaakov (Glick Edition) (עין יעקב (מאת שמואל צבי גליק) Pesakhim, Chapter 10

التنخ - وفيه ما ترجمته عن الترجمة الإنجليزية من كلام الربّي «سيمون» من «شيلو» R. Simon, of Shiloh: (في الوقت الذي كان فيه نمرود الشرير قد ألقى سيدنا إبراهيم في الفرن الناري، قال جبريل للقدّوس «سبحانه»: يا سيد الكون، أتوسّل إليك/ أدعوك أن تدعني أنزل وأبرد الفرن، وأنقل هذا الصالح من ذلك الفرن الناري. ثم قال له القدّوس «سبحانه»: «أنا الواحد في عالمي، وهو الواحد في عالمه. وإنما يتوخى الواحد من الواحد أن ينقذه». ولكن حيث أن القدّوس «سبحانه» لا يحرم أي مخلوق من المكافأة، لذا فقد قال لجبريل: «لأنّ نيّتك حسنة، سأعطيك امتيازاً بأن تنقذ ثلاثة من أحفاده»^(١).

٢. ومن هذه التفاصيل أيضاً ذكر الخاتم وما نُقش عليه، ولا أدري ما حجم الخاتم؟ وكيف استوعب كل هذه المضمون المنقوش الوارد في بعض الروايات؟ وما طبيعة الكتابة المستعملة؟ وهل كانت مسمارية كما هي المعهودة في تلك الحقبة والبيئة أم غير ذلك؟ كلها تساؤلات تثير الشبهات على مضمون الروايات التي اشتملت عليها.

٣. وهكذا الأمر بالنسبة إلى ادّعاء أن إبليس هو صاحب اختراع المنجنيق.

٤. وكلام الأرض مع الله اعتراضاً أو تشفعاً لإنقاذه.

• الضفدع والوزغ؛

من ضمن التفاصيل الدخيلة والغريبة في روايات إحراق إبراهيم

1. [https://www.sefaria.org/Ein_Yaakov_\(Glick_Edition\)%2C_Pesakh-im.10.17?ven=En_Jacob,_translated_by_SH_Glick,_1916&lang=bi&wi-th=all&lang2=en](https://www.sefaria.org/Ein_Yaakov_(Glick_Edition)%2C_Pesakh-im.10.17?ven=En_Jacob,_translated_by_SH_Glick,_1916&lang=bi&wi-th=all&lang2=en)

«عليه السلام» عند الشيعة والسنة، تلك التي تحدثت عن دور للضفدع في محاولة إطفاء النار، ومنها:

○ رواية الصدوق في الخصال بالسند عن داود الرقي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (لما أضرمت النار على إبراهيم «عليه السلام» شكّت هوام الأرض إلى الله «عز وجل» واستأذنته أن تصب عليها الماء، فلم يأذن الله «عز وجل» بشيء منها إلا للضفدع، فاحترق منه) أي من جلده (الثلاثان وبقي منه الثلث)^(١). وبالتالي ورثت الضفادع هذه الطبيعة لحالة الجلد المحروق إلى نسلها فيما بعد!

○ رواية تفسير القمي عن الصادق «عليه السلام» - التي قسّمناها من قبل إلى أجزاء - مقارنة بين سلوك الضفادع مع سلوك الوزغ: (وكان الوزغ ينفخ في نار إبراهيم، وكل الضفدع يذهب بالماء ليُطفئ به النار. قال: ولما قال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ لم تعمل النار في الدنيا ثلاثة أيام)^(٢).
تعليق: لمقولة نفخ الوزغ في النار الموضوعة على لسان الصادق «عليه السلام» أصل أسبق، حيث جاء في مرويات أهل السنة كالتالي:

○ في عدة مصادر من طريق ابن جرّيج، قال: (أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي أمية أن نافعاً مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: (اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم

١. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٣٢٧.

٢. القمي: تفسير القمي، ص ٤٣١.

«عليه السلام» النار. قال: وكانت عائشة تقتلهن^(١).

○ أيضاً في عدة مصادر عن نافع أيضاً: (أن امرأة دخلت على عائشة، فإذا رمح منصوب. فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ. ثم حدثت عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن إبراهيم لما أُلقي في النار، جعلت الدواب كلها تطفيء عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه). قال ابن عساكر: (اسم المرأة سائبة)^(٢).

○ وفي رواية ثالثة عن نافع أيضاً ولكن هذه المرة يرويها عن أم سيابة الأنصارية، عن عائشة: (أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» حدثها أن إبراهيم لما أُلقي في النار كانت الدواب كلها تطفيء عنه النار إلا الوزغة، فإنها كانت تنفخ عليه، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» بقتلها)^(٣).

○ وفي رواية رابعة أن الوزغ لم يكن قبل هذه الحادثة بهذا الشكل، وإنما جرى له ذلك عقوبة له، أو نتيجة إصابته بالحريق فورث ذلك لنسله، فعن معاذ عن عائشة قالت: (دخل رسول الله «صلى الله عليه وآله» عليّ وفي يدي عُكَّازٌ فيه زُجٌّ) حديدة في رأس الرمح (فقال: يا عائشة ما تصنعين بهذا؟ قلت: أقتل به الوزغ في بيتي. قال: إن تفعلين فإن الدواب كلها حين أُلقي إبراهيم الأزرقي في أخبار مكة (٢/ ١٥٠)، والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٣٨١)، وأبو صالح في نسخة عبد الله بن صالح كاتب الليث (ص: ١٢١) ح ١٥٩١، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٥٢٠) ح ١١١٣، وأحمد في مسنده (٤٢/ ٤٣٠) ح ٢٥٦٤٣، وابن المخلص في المخلصيات (١/ ٢٨٩) ح ٢٨٠٥ - (٥٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ١٨٦).

٢. أخرجه أحمد في مسنده (٤٣/ ٢٤-٢٥) ح ٢٥٨٢٧ ومن طريقه ابن عساكر في (تاريخ دمشق (٦/ ١٨٥).

٣. يحيى بن سلام: تفسير القرآن، ج ١، ص ٢٢٥/ ج ٢، ص ٨٢٨.

تحطيم الأصنام

«صلى الله عليه وآله» في النار كانت تُطفئ عنه وإن هذا كان ينفخ عليه فصم وبرص^(١).

○ وفي رواية خامسة نجد للضفدع حضوراً، فعن عروة عن عائشة: (أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: كانت الضفادع تُطفئ النار عن إبراهيم، وكان الوزغ ينفخ فيه، فنهى عن قتل هذا، وأمر بقتل هذا)^(٢).

○ وفي رواية سادسة نجد أن الحدث لا علاقة له بقصة النبي إبراهيم، بل بحادثة أخرى. فعن كثير بن عبيد قال: (إني لجالس عند عائشة إذ رأت وزغاً فقالت: اقْتُلْ اقْتُلْ. قيل: ما شأنه؟ فقالت: إنه كان ينفخ النار يوم احترق بيت المقدس) المقصود حرقه في السبي البابلي على الأكثر، ولربما لاحقاً على يد الرومان (وكان الضفدع يُطفئ)^(٣).

○ وفي رواية سابعة لا علاقة لها أيضاً بقصة إحراق النبي إبراهيم، بل بقصة النبي موسى وإحدى آياته، فعن عكرمة عن ابن عباس قال: (لم يكن شيء أشد على آل فرعون من الضفادع، كانت تأتي القدور وهي تغلي من اللّحمَان) أي اللحوم (فتلقي أنفسها فيها، فأشابهها الله برّد الماء والثرى إلى يوم القيامة)^(٤).

ولكي نفهم الرواية السابقة أكثر نطالع هذه الرواية عن عكرمة أيضاً قال: (قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الضفادع، فإنها لما أرسلت على بني إسرائيل

١. الجاحظ: الحيوان، ج ٤، ص ٢٨٧.

٢. عبد الرزاق: المصنف، ج ٤، ص ٤٤٥-٤٤٦.

٣. إسحاق بن راهويه: المسند، ج ٢، ص ١٠١٩.

٤. ابن أبي الدنيا: العقوبات، ص: ٦٢، وابن أبي حاتم: تفسير القرآن، ج ٥، ص ١٥٤٨.

انطلق ضفدع منها، فوقع في تنور فيه نار، طلبت بذلك مرضاة الله) انتحارية على طريقة الكاميكازي، حيث أن إرسال الضفادع كان لجعل حياة أعداء موسى صعبة جداً، فأثارت هذه الضفدعة أن تدخل في التنور حتى لا يبقى مكان إلا وفيه ضفدع (فأبدلهن الله أبرد شيء تعلمه، الماء، وجعل نقيقهن التسبيح)^(١).

تعليق: برأيي أن أصل رواية الوزغ موضوعة على لسان أم المؤمنين عائشة. ثم تطوّرت بإقحام الضفدع من خلال روايات أخرى جاءت عن طريق عكرمة عن ابن عباس وابن عمرو ومرتبطة بقصة النبي موسى لا بقصة النبي إبراهيم. وهو ما يجعلنا نحتمل أنها من الإسرائيليات، لاسيما بلحاظ أن إحداها مروية عن عبد الله بن عمرو بن العاص الذي أخذ عن كعب الأحبار، كما أن كثيراً مما يقال على لسان ابن عباس هو من هذا الباب.

لاحظ ما قاله ابن كثير في تفسيره: (قال كعب وقتادة والزهري: ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه)^(٢). وهكذا نعلم أن المصدر هو كعب أحبار اليهود.

• مصدر الأسطورة اليهودية :

وعندما نعود إلى فلوكلور العصور الوسطى سنجد أن هناك علاقة بين السلمندر - الذي يصوّر بهيئة شبيهة بالوزغ - وبين النار، وهذه العلاقة جاءت من خلال تطور مجموعة من الأساطير حول هذا المخلوق على مرّ القرون.

١. ابن أبي الدنيا: العقوبات، ص: ٦٢، وابن أبي حاتم: تفسير القرآن، ج ٥، ص ١٥٤٥.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٦، ص ١٧١.

تحطيم الأصنام

يروى بلينيوس الأكبر^(١) العديد من الصفات حول السلمندر من بينها قدرته على إخماد الحريق ببرودة جسده، وهي صفة اعتبرها أرسطو - من قبل - مجرد إشاعة.

ونجد في الباب الثاني عشر (حجيجاه/تقدمات الأعياد) من القسم الثاني (موعيد/الأعياد) من النسخة العربية من التلمود البابلي في أنه: (قال الحاخام أباهو أن الحاخام إلعيزر قد قال: ليس لدى نار جهنم أية سلطة على طلاب العلم، إنه استنتاج «إد ماجوس» يُستدل عليه من حيوان السمندر. إذاً الآن في حالة حيوان السمندر الذي هو فقط عبارة عن ذرية النار، فإن الشخص الذي يقوم بدهن نفسه بدمه لا يتأثر بالنار، فكم سيكون أكثر من ذلك لطلاب العلم الذين أجسادهم بأكملها من النار، لأنه مكتوب: «أليس كلمتي مثل النار؟» قال الإله^(٢)).

وحيث أن العبارة ليست واضحة بالتمام، لذا سنعود إلى الترجمة الإنجليزية عن العبرية، ونجد فيها العبارة التالية:

Apropos the coating of the altar, the Gemara cites an Aggadic teaching: Rabbi Abbahu said that Rabbi Elazar said: The fire of Gehenna has no power over Torah scholars. This can be derived by an a fortiori inference from the salamander [salamandra], a

١. إبليني الأكبر واسمه ايوس بلينيوس سكوندوس Gaius Plinius Secundus (ت ٧٩م). أشهر مؤرخ روماني، كتب الكثير من الأعمال الجغرافية والتاريخية والطبيعية والفنية التي لم يتبق منها سوى ٣٧ مجلداً حول التاريخ الطبيعي، ولها حيّز كبير في إثراء الثقافة الرومانية في تلك الحقبة. كانت كتبه مرجعاً في العصور الوسطى.

٢. التلمود البابلي، ج ٧، ص ٣٦٠.

creature created out of fire and immune to its effects, and whose blood is fireproof: If a salamander, which is merely a product of fire, and nevertheless when one anoints his body with its blood, fire has no power over him, all the more so should fire not have any power over Torah scholars, whose entire bodies are fire, as it is written: "Surely My words are as fire, says the Lord" (Jeremiah 23:29), and the words of Torah become part of the Torah scholars' very bodies.^(١)

وتعريبها أن: (الربي أباهو قال أن الربّي أليعازر قال: أن نار جهنم لا تؤثر في علماء التوراة. ويمكن تفهم ذلك من خلال السلمندر، وهو كائن مخلوق من النار، ومحصّن تجاه آثاره ودمه مضاد للنار. فإذا كان السلمندر - المخلوق من النار وفوق ذلك دهن جسده بدمه - لا تؤثر به النار، كذلك فإنه لن يكون أي تأثير على علماء التوراة الذين أجسادهم كلها نار، كما جاء في سفر أرميا «أَلَيْسَتْ هَكَذَا كَلِمَتِي كَنَارٍ، يَقُولُ الرَّبُّ» «٢٣: ٢٩»، وكلمات التوراة تصبح جزء من أجساد علماء التوراة)^(٢).

ويقول الربّي راشي (ت ١١٠٥م) وهو المعلق الرئيس في التلمود: أن السلمندر الواحد ينتج عن إشعال النار في نفس المكان لمدة سبع سنوات^(٣).

وهكذا تتضح العلاقة التلمودية بفكرة الوزغ والنار في قصة النبي إبراهيم. أما الضفدع فهو من الآيات التسع المرتبطة بقصة النبي موسى

1. <https://www.sefaria.org/Chagigah.27a.1-9?lang=bi>

2. <https://www.sefaria.org/Chagigah.27a.7?lang=bi&with=all&lang2=en>

3. Salamandra and the Flames of Hell, by Reb Chaim HaQoton.

تحطيم الأصنام

«عليه السلام» والتي ذكرها القرآن: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾^(١)، وفي سفر الخروج من التوراة: (فَيَفِيضُ النَّهْرُ ضَفَادِعَ. فَتَصْعَدُ وَتَدْخُلُ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى مَخْدَعِ فِرَاشِكَ وَعَلَى سَرِيرِكَ وَإِلَى بُيُوتِ عِبِيدِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ وَإِلَى تَنَانِيرِكَ) الْأَفْرَانِ (وَإِلَى مَعَاجِنِكَ)^(٢) أي مواضع عجن الخبز.

ويعتبر الضفدع مخلوقاً مُلهماً في الثقافة اليهودية، حيث أن الله - بحسب الروايات الحاخامية - أمرها بأن تلقي بنفسها في أفران المصريين، ففعلت دون تردد.

وقد ذكر آري كاهن في كتابه أصداء عدن أن الضفادع تُعتبر مخلوقاً مُلهماً للأجيال اللاحقة من اليهود التي واجهت ظروفًا عصيبة، حيث أن الله - بحسب الروايات الحاخامية - أمر الضفادع بأن تلقي بنفسها في أفران المصريين، ففعلت دون تردد^(٣).

ونجد في التلمود - بعد ذكر الآية السابقة من سفر الخروج - ما يشير إلى هذه الفكرة، حيث تقول العبارة في الباب الثالث (فسحيم/عيد الفصح) من القسم الثاني (موعيد/الأعياد) من النسخة العربية من التلمود البابلي أنه: (متى يتم العثور على أحواض العجن بالقرب من الفرن؟ عندما يكون الفرن ساخناً، نحن الذين أمرنا فيما يتعلق بتقديس الاسم، والأكثر من هذا)^(٤).

١. سورة الأعراف: ١٣٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الأصحاح ٨: ٢.

3. Echoes of Eden: Sefer Shmot, by Ari D. Kahn, P 37.

٤. التلمود البابلي، ج ٥، ص ٢٠٢.

وحيث أن العبارة غير مفهومة - كما هي العادة في النسخة العربية من التلمود - لذا سنلجأ إلى النسخة الإنجليزية، وفيها:

When are kneading bowls found near the oven? You must say that it is when the oven is hot. If in fulfilling the command to harass the Egyptians, the frogs entered burning ovens, all the more so, we, who are commanded concerning the sanctification of the name of God, should deliver ourselves to be killed in the fiery furnace for that purpose.^(١)

وترجمته إلى العربية كالتالي: (متى يتم العثور على أوعية العجن بالقرب من الفرن؟ يجب أن تقول أنه عندما يكون الفرن ساخناً. إذا كانت الضفادع - لتنفيذ الأمر بمضايقة المصريين - دخلت الأفران المحترقة، فمن باب أولى لنا نحن المكلفين بتقديس اسم الله، يجب أن نسلم أنفسنا للموت في الفرن الناري تقديساً لاسمه).

ومن هنا أدخل كعب الأحبار مفردة الضفدع والتضحية ضمن قصة إحراق النبي إبراهيم «عليه السلام» بالنار، ثم تغلغت في الروايات المختلفة حتى وصلت إلى كتب الشيعة بعنوان قال الباقر وقال الصادق.

• تعطيل النار:

من ضمن التفاصيل الأخرى الأسطورية الملحقة بقصة إحراق إبراهيم «عليه السلام» ما مرّ معنا من أن النار لم تعمل في الدنيا لمدة ثلاثة أيام،

1. <https://www.sefaria.org/Pesachim.53b.8?lang=bi>

تحطيم الأصنام

والسبب أن الله «تعالى» قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١).

○ وفي رواية الصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله «عليه السلام» إضافة حيث قال: (لما ألقى إبراهيم في النار أوحى الله «عز وجل» إليها: وعزتي وجلالي لأن أذيتك لأعذبَنَّك. وقال: لما قال الله «عز وجل»: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ما انتفع أحد بها ثلاثة أيام، وما سخنت ماؤهم)^(٢).

تعليق: لماذا يهدد الله النار، وهي من خلقه وتحت أمره؟ وكيف يعذبها؟ هل لها إحساس كالكائنات الحية؟ ولماذا يشمل الأمر الإلهي كل النيران والمطلوب أن ينعدم تأثيرها الإحراقي بخصوص إبراهيم «عليه السلام»؟ وهل تعجز الإرادة الإلهية عن تعطيل تأثير نار محددة؟ ظاهر الآية يخالف ذلك، إذ الأمر خاص بإبراهيم: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ فلماذا يشمل الكل؟

وحقيقة الأمر أن الرواية في الأساس من **الإسرائيليات**، ففي تفسير ابن كثير: (قال **كعب الأحبار**: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه)^(٣). ثم دخلت في كتب الشيعة تحت عنوان قال الصادق «عليه السلام»، حالها في ذلك حال كثير مما مرّ بنا في بحوثنا السابقة في قصص الأنبياء على مدى السنوات الماضية.

١. سورة الأنبياء: ٦٩.

٢. الصدوق: **علل الشرائع**، ص ٢٤.

٣. ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص ١٦٧.

وتهويل حجم النار وقوتها كما مرّ في عدة روايات أمر لا داعي له ولا مبرر، فيكفي أن تُشعل نار في ساحة متر مربع مع وضع بعض الحواجز والأغلال في اليد والرجلين أو الربط بعمود ليتم المطلوب. مع ملاحظة أن القرآن تحدث عن بناء بنيان خاص لهذا الأمر، مما يدل على بناء ما يشبه الفرن أو الغرفة الخاصة بذلك، وليس بالضرورة أن يكون هذا البنيان شيئاً ضخماً وهل يمكن للضفدع أن تسعى لإطفاء النار، بينما النار تشوي الطير في السماء؟

وحتى إذا قيل أن كلمة «الجحيم» الواردة في قوله «تعالى»: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾^(١) تدل على عظم هذه النار، إلا أنه ليس بالضرورة أن تكون وفق الوصف المذكور في بعض الروايات. ولعل سبب هذه المبالغة هورغبة القصاصين أو الرواة في التهويل للإثارة، أو الوقوع تحت تأثير مرويّات إسرائيلية.

• الأصل في ترتيب الأحداث:

وعموماً، فإننا عندما نرجع إلى التراث اليهودي خارج نطاق التنخ، فالتنخ ساكت تماماً عن هذه الحادثة، سنجد أن ترتيب الأحداث وفق ما جاء في الروايات موجود فيها، وهذا ما يجعلنا نحتمل أنها هي مصدر تقديم هذا التصور فيها.

نجد في الموسوعة اليهودية تحت عنوان (يحطّم الأصنام) أن تارح كان مُصنّعاً للأصنام وكان يبيعها، وفي يوم من الأيام عندما كان تارح

تحطيم الأصنام

غائباً وقد ترك إبراهيم لتولي مسؤولية المتجر، جاء رجل عجوز، ولكنه قوي، لشراء صنم. سلّمه إبراهيم الصنم الذي كان في الأعلى، فأعطاه الرجل الثمن المطلوب. وسأله إبراهيم: كم عمرك؟ أجابه الرجل: سبعون سنة. تابع إبراهيم: أنت أحمق! كيف يمكنك أن تعبد إلهاً أصغر منك بكثير؟ لقد وُلدت قبل سبعين عاماً، وهذا الإله صُنِعَ أمس. ألقى المشتري الصنم واسترد أمواله. اشتكى أبناء تارح الآخرون لوالدهم من أن إبراهيم لا يعرف كيف يبيع الأصنام، وهكذا قيل لإبراهيم أن يعمل ككاهن للأصنام. ذات يوم، أحضرت امرأة وجبة للأصنام، وحيث كانوا لا يأكلون، صرخ قائلاً: لديهم فم، ولكنهم لا يتكلمون! لديهم عيون ولكنهم لا يرون، ولديهم آذان ولكنهم لا يسمعون، ولديهم أيدي ولكنهم لا يُمسكون بها. أرجو أن يكون صانعوها مثلها، وكل من يثق بهم. ثم قام إبراهيم بتحطيمها إلى أشلاء وأحرقها. تم إحضار إبراهيم إلى نمرود، الذي قال له: أأست تعلم أنني إله وحاكم العالم؟ لماذا دمرت تماثيلي؟ قال إبراهيم: إذا كنت إلهاً وحاكماً للعالم، فلماذا لم تجعل الشمس تشرق الشمس من المغرب وتغرب في المشرق؟ إذا كنت إلهاً وحاكماً للعالم، أخبرني بكل ما يدور في ذهني الآن، وما سأفعله في المستقبل. ذُهل نمرود، واستمر إبراهيم قائلاً: أنت ابن كوش، إنسان مثله، لا يمكنك إنقاذ والدك من الموت، ولا يمكنك الهروب من الموت. قال نمرود: اعبد النار! فقال له إبراهيم: ولماذا لا أعبد الماء التي تطفئ النار؟ قال نمرود: جيد جداً، اعبد الماء. قال إبراهيم: لماذا لا أعبد الغيوم التي تبتلع الماء؟ قال نمرود: فليكن: اعبد الغيوم. قال إبراهيم: دعني أعبد الريح التي تهب على الغيوم. قال نمرود: فليكن:

صلّ للريح. قال إبراهيم: لكن يمكن للإنسان أن يقف ضد الريح أو أن يحمي نفسه خلف جدران منزله. قال نمرود: إذاً اعبديني. عندها أمر نمرود بإلقاء إبراهيم في فرن. كان لديه كومة من الخشب في محيط بقدر خمسة ياردات وأضرم فيها النيران، وألقى فيها إبراهيم. لكن الله نفسه نزل من السماء لينقذه. لذلك ظهر له الرب بعد ذلك قائلاً: أنا الرب الذي أخرجك من نار الكلدانيين. عندئذ كلف الله إبراهيم أن ينشر الحق في جميع أنحاء العالم^(١).

ولذا نحن بحاجة إلى قراءة للأحداث في ترتيبها بعيداً عن تأثير هذا الموروث اليهودي على الروايات الإسلامية، وحينذاك قد نصل إلى صورة مغايرة للصورة المعهودة، ولربما يقودنا ذلك إلى نتائج أخرى من قبيل تحديد شخصية الملك الذي تحدثت عنه آية سورة البقرة وحاج إبراهيم في ربه، وهل له دور في إحراق إبراهيم أم لا، وأمور أخرى ستأتي تباعاً بإذن الله.

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ دخل النبي إبراهيم «عليه السلام» في جدالات متعددة مع قومه وأبيه آزر حول الشرك وعبادة الأصنام والكواكب، وأفضت في النهاية إلى اتخاذه موقفاً حاسماً بتحطيم الأصنام في المعبد عند تشاغل قومه بالاحتفال بإحدى الأعياد، ونسب الفعل لأكبر تلك الأصنام لإلقاء الحجة عليهم.

○ طرحت بعض الروايات وعدد من العلماء إشكالية صدور الكذب من النبي إبراهيم حين نسب تحطيم الأصنام للصنم الأكبر، وكذلك ادعاؤه أنه سقيم، وقاموا بتوجيه ذلك بطرق مختلفة، من بينها أن كلامه صدر على وجه

1. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/360-abraham>

التورية، أو التعليق على الشرط وغير ذلك. ولا ضير من القول بأن كلامه «عليه السلام» صدر بنية صدمهم بحقيقة أن ما هم عليه باطل ووهم، ولا يعدّ هذا من نوع الكذب الممنوع الذي يستلزم النتائج السلبية.

○ ربطت بعض الروايات هذا الحدث بالمحاجة المذكورة في القرآن بين النبي إبراهيم والملك، ومن ثم الأمر بإحراقه، ولا نملك دليلاً أكيداً على هذا التسلسل الثلاثي في الأحداث، ولذا نكتفي بربط تحطيم الأصنام بالأمر بحرقه، مع التأكيد على أن الروايات أدخلت الكثير من التفاصيل غير المقبولة والتي تتضمن أحياناً الإساءة إلى الذات الإلهية والأمين جبريل.

○ تعود بعض هذه الإضافات إلى نصوص تلمودية وغيرها، ومن ذلك دور الضفادع في إطفاء النار والوزغ في تهيجها، وتعطيل النار، ولكعب أحبار اليهود أيضاً دور في إقحام شيء من ذلك في الروايات الإسلامية.

من هو نمرود ؟

من هو نمرود؟

• موضوعات هذا الفصل:

○ نظرة عامة وتعريفية حول تاريخ ما بين النهرين والأمم والحضارات والثقافات التي ظهرت ما بعد التاريخ إلى عهد النبي إبراهيم.

○ من هم الأموريون؟ وأين ظهوروا؟ وكيف انتشروا في الجزيرة العربية وما بين النهرين وبلاد الشام؟ وما علاقة النبي إبراهيم بهم؟ وما علاقتهم بالهكسوس الذين غزوا مصر وحكموها في القرن الثامن عشر قبل الميلاد؟
○ هل نمرود اسم أم لقب؟ ما هي صفات نمرود وامتداد ملكه وجبروته في المصادر الكتابية والإسلامية؟ وكيف أخذت الروايات الإسلامية عن المصادر الكتابية جانباً مما له علاقة بنمرود؟

○ محاولة تطبيق شخصية نمرود على الملك الآشوري (شمشي أدد) ومدى توافق عهده مع عهد النبي إبراهيم وصفاته مع صفات نمرود بحسب ما جاء في المصادر الإسلامية والكتابية.

○ النظر في أن نمرود هو سرجون الأول الأكادي أو حفيده نارام سين، وكلاهما حكما إمبراطورية ضخمة، وقد ادّعى الثاني الألوهية أيضاً.

• نظرة عامة :

لكي نقرب من تحديد هوية الملك الذي حاوره إبراهيم «عليه السلام»، لابد من مقدمة تعريفية بالثقافات والحضارات التي قامت في بلاد الرافدين - ما بين النهرين - ولو بشكل مختصر جداً. ويجب أن نلتفت إلى أن حديثنا عن هذه البلاد لا يقتصر على العراق بحدوده السياسية الحالية، بل يشمل أجزاء من تركيا والشام أيضاً. كما أن حديثنا عن ثقافة أو مملكة قائمة في تلك المنطقة لا يعني أنها تحكمها بأكملها، فقد تكون هناك عدة ثقافات أو ممالك متوازية ومتوزعة في أنحاء منها. وهكذا فإن بعض الممالك - أو الثقافات - قد تحكم لفترة ثم تنهزم من قبل جهة أخرى منافسة، ثم تعود مجدداً بعد مئات السنين لتحكم بنفس الاسم السابق.

هذا، وقد اعتمد الإنسان القديم قبل عدة آلاف من السنين على الصيد والالتقاط في تأمين طعامه، واستقر في الكهوف وغيرها من المساكن المشكلة طبيعياً، إلى أن ظهرت الزراعة وتخزين الحبوب وتدجين الحيوانات في أنحاء من وادي الرافدين وبلاد الشام وغرب إيران وجنوب تركيا، ليمثل ذلك بداية الانقلاب الأول في طبيعة الحياة البشرية وتكوين الحضارات وتشكل الثقافات وتكوين الممالك والدول. ومن الصعب تحديد الزمن الدقيق لهذا التحول، وهناك تباين طفيف في الفرضيات بحسب المعطيات الأثرية، وتذهب إحداها إلى أن ذلك بدأ قبل ١٢,٠٠٠ سنة تقريباً^(١).

1. <https://www.npr.org/sections/thesalt/2016/07/15/485722228/where-did-agriculture-begin-oh-boy-its-complicated>

أما الانقلاب الآخر في تاريخ البشرية - والذي وقع بدوره أيضاً في بلاد الرافدين - ودفع بأهل الاختصاص إلى تقسيم التاريخ البشري إلى مرحلتين رئيسيتين وأدّى إلى ظهور الحضارات والثقافات، فمرتبط باكتشاف الكتابة، حيث يتم تقسيم التاريخ البشري بهذا اللحاظ إلى:

١. مرحلة ما قبل التاريخ، والتي تنقسم بدورها إلى مراحل، آخرها «مرحلة العصر النحاسي الحجري/ كاكوليت: ٥٨٠٠ ق.م - ٢٨٠٠ ق.م».

٢. مرحلة ما بعد التاريخ، والتي تبدأ مع اختراع الكتابة جنوب وادي الرافدين. وسنركز على نشوء الثقافات والشعوب التي كانت تعيش في شمال ما بين النهرين ثم جنوبها وانقسامها وانتشارها في الاتجاهات المختلفة، وما نتج عنها من ممالك وحضارات مختلفة، مع التنبيه على أن هناك أكثر من نظرية في تشخيص كيفية نشوء وتشكل بعضها وتوزعها جغرافياً وتفاعلها وتداخلها مع بعضها البعض.

واحدة من هذه النظريات تتحدث عن حركة نزوح متعددة تمت من منطقة **تَل حَلَف**^(١) الواقعة حالياً شمال سورية، باتجاه وسط العراق «سامراء» وجنوبه حيث مدينة أريدو.

١. تقع تَل حَلَف شمال سورية غربي مدينة رأس العين، وذلك في منطقة ينابيع نهر الخابور؛ أكبر روافد نهر الفرات. وتَل حَلَف هو الاسم المعاصر للموقع الذي كان يدعى باسم غوزانا في الألف الأول ق.م؛ وهو موقع مدينة أثرية في سورية تمثل فترة زمنية في تاريخ بلاد الرافدين. اكتشف في هذا الموقع أولى الآثار من العصر الحجري الحديث، وسميت الحضارة المنسوبة إلى تَل حَلَف بالحضارة الحلفية. تتميز بالفخاريات المزججة المزينة برسوم هندسية ورسوم حيوانات. تعود آثار الموقع للألف السادس قبل الميلاد.



موقع تل حلف و أوريدو



من آثار تل حلف

نتيجة هذه الهجرات واختلاط المهاجرين - أحياناً - مع بعض الشعوب القاطنة سلفاً في هذه المنطقة، ظهرت مجموعة من الثقافات، أهمها بالنسبة إلينا ثقافة **أريدو** «٥٠٠٠-٤٥٠٠ ق.م»، حيث ظهرت أول مدينة في التاريخ بالمعنى العلمي الدقيق للمدينة وتسمى اليوم **أبو شهرين**^(١).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن مجموعة من المعطيات تشير إلى أن مدينة **أريدو** كانت حيث جنة عدن «جنة آدم»، وفيها ظهر **آدم** الذي تشير إليه بعض النصوص السومرية باسم **آدابا** وأنه أول الحكماء السبعة الذين حكموا تلك الأرض وعلموا البشرية - قبل الطوفان - ووضعوا أسس المدن والحضارة.

وبعد ثقافة **أريدو** ظهرت ثقافة **حجي محمد** نسبة إلى قلعة «حجي محمد» جنوب غربي **الوركاء** / **أوروك** بحدود ١٨ كم.

ثم ثقافة **العُبيد** «شعب أمورو: ٤٥٠٠-٣٨٠٠ ق.م» غرب مدينة **أور** بحوالي ٧ كم، والتي امتدت ثقافتها إلى كل وادي الرافدين وأغلب غرب آسيا بما في ذلك شمال العراق وشمال جزيرة العرب، ووصلت جنوباً إلى **عُمان**.

ثم ظهرت ثقافة **أوروك** و **جمدت نصر** «٣٨٠٠-٣١٠٠ ق.م» على يد **السومريين** الذين نزلوا من سامراء نحو جنوب العراق في حدود «٣٨٠٠ ق.م» واستقروا في مدن **أريدو** و **أوروك** وغيرهما، واخترعوا الكتابة وظهرت بالتالي الحضارة السومرية.

من جهة أخرى، فقد ظهرت في شمال وادي الرافدين ثقافة **السوبريين**

١. وهناك رأي حديث يقوم على اكتشافات أخيرة (٢٠١٨م) يذهب إلى أن أول مدينة بالمعنى الحقيقي لها تشكلت في منطقة بحرة شمال الكويت



موقع أور - أريدو - أوروك - كيش - بحرّة

«٥٠٠٠ ق.م» والتي انبثقت منها لاحقاً مملكة كيش بالقرب من تل الأحيمر التي تمركزت في وسط العراق، كما انبثق منهم الأكاديون «٢٢٣٤-٢١٣٠ ق.م» الذين استطاعوا أن يشكلوا مملكة ممتدة من كيش إلى سواحل الخليج العربي على يد سرجون ثم التوسع إلى حد تأسيس أول إمبراطورية في التاريخ. ويعود السومريون إلى الحكم من جديد «العهد السومري الحديث: ٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م» ويتدفق الأموريون/العموريون «البدو» باتجاه وادي الرافدين والمدن السومرية، وشكلوا مع الأكاديين أكتريّة ساميّة في مقابل الأقلية السومرية غير الساميّة، وحيث تمركزوا شمال بغداد الحالية صاروا يضغطون على السومريين من الشمال والغرب إلى أن أسقطوا دولتهم.

ويعود شعب أمورو/الأموريون الذين ذكرناهم ضمن ثقافة العُبيد إلى

الواجهة من جديد. والتسمية أكادية، وتعني الغرب، وكانت تُطلق على كل سورية، والبحر المتوسط: بحر أمورو العظيم. واحتمل بعض الباحثين أن اسم **أمورو** كان في الأصل لقبيلة قوية، أو مجموعة من القبائل، ثم عُمم بعد ذلك وأصبح يُطلق على كل البدو القاطنين في بادية الشام والفرات الأوسط وجميع أنحاء الهلال الخصيب. وجاء وصف الأموري في النصوص السومرية والأكادية كالتالي:

- يعيش في خيمة معرضاً للرياح والمطر.
- يحضر الأرض بحثاً عن الكمأة عند سفح الجبل.
- لا يثني ركبتيه.
- يأكل طعامه نيئاً.
- لا يعرف الحبوب.
- لا يعرف المنازل والمدن.
- الرجل الجلف الذي يعيش في الجبال لكي يحضر ضأناً وأغناماً.
- الذي له قوة دفع الرياح الجنوبية.
- المغيرون وذوو الغرائز الحيوانية مثل الذئاب^(١).

ثم تظهر سلالة أمورية حاكمة في بابل، ويعلن **حمورابي** «حكم بين عامي ١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م» من بابل نفسه بأنه **ملك الأموريين**، وصار يُطلق عليهم

١. الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٢٥٥.

البابليون نسبة إلى المدينة العظيمة التي أصبحت عاصمتهم.

ومن الأموريين تشعّب الكنعانيون الذين قدّموا من سواحل الخليج العربي وشمال الجزيرة العربية. كما تشعّب منهم قسم استوطن شمال العراق وسورية وأطلق عليهم الآراميون. ويمكن القول أن الأموريين أصل العرب والعبرانيين والآراميين - ومنهم النبط - والكليديين والآشوريين.

وباحتكاكهم بالأكاديين والسومريين تعلم الأموريون الحضارة واستقروا في المدن وأسسوا ممالك صغيرة منتشرة في العراق الحالي وأنحاء من الشام، متفاوتة في القوة والنفوذ. أشهرها في العراق ممالك:

○ إيسن (بالقرب من عَفْك والقادسية)

○ إشنونة (بالقرب من بعقوبة)

○ آشور (شمال العراق: الموصل)

○ بابل (شمال الحلة)

وفي سورية ممالك:

○ ماري (قرب البوكمال)

○ يمحاض (حلب)

○ والألاخ (بالقرب من أنطاكية)

○ قطنا (بالقرب من حمص).

ويُرجّح أن عدداً من القبائل الأمورية كانت تؤلف جزءاً من القبائل التي

احتلت مصر منذ أواخر القرن الثامن عشر ق.م، وتمكّنت من السيادة عليها لقراءة القرنين من الزمان، وقد عُرفت تلك القبائل باسم الهكسوس، وهو - من المحتمل جداً - عهد النبي يوسف «عليه السلام».

وهذا العنوان، أي الهكسوس، يتكوّن بحسب كثير من الباحثين من مقطعين، هما (هيك) وتعني ملك، و(سوس) وتعني راعي، أي أنهم الملوك الرعاة، بينما ذهب المؤرخ اليهودي (يوسيفوس) إلى أن (هيك) تعني أسير، فيكون المعنى الأسرى الرعاة.

أما الدكتور محمد بيومي مهران فاعتبر أن الكلمة قد جاءت من اصطلاح مصري قديم هو (حقا-خست) الذي يُجمع بصيغة (حقاو-خوست) بمعنى رئيس البلد الأجنبية الجبلية، وهي تشير إلى الحكام وحدهم، وليس إلى الجيش ككل^(١).

والأرجح بحسب مجموعة من القرائن ستظهر تدريجياً خلال البحث في عدة فصول من هذا الكتاب أن عهد إبراهيم «عليه السلام» هو عهد حكم الأموريين في مسقط رأسه، وكان هو في نفسه من الأموريين، وسيفيدنا هذا لاحقاً في حل لغز مرتبط بهجرة إبراهيم ولوط - نحو ١٨٠٠ ق.م - وفي السعي لتحديد اسم الملك الذي عاصره إبراهيم «عليه السلام».

• شخصية نمرود:

كما مرّ بنا من قبل، فإن القرآن الكريم لم يذكر اسم الذي آتاه

١. الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٣٤٦.

الله الملك وحاج إبراهيم في ربه، والذي تصفه الروايات اليهودية والإسلامية أنه ذات الملك الذي كان يحكم مسقط رأس النبي إبراهيم «عليه السلام» - ونحن غير متأكدين من ذلك بعد - ونجد اسمه في الروايات الإسلامية نمرود/النمرود. كما نجد ذلك متطابقاً مع ما في التراث اليهودي.

فهل كان هذا اسم أو لقب الملك بالفعل؟ وماذا يعني؟ وهل لنمرود ذكر في الآثار المكتشفة في عموم العراق؟ أم أنه من مختلقات اليهود ومن خلالهم دخل الاسم إلى التراث الإسلامي كما هو الحال في كثير من الموارد؟

وإذا كان كذلك، فمن هو الملك الوارد ذكره في قصة النبي إبراهيم «عليه السلام» القرآنية؟

كي نصل إلى إجابات ونتائج مقبولة حول التساؤلات السابقة، ولا أقول حتمية، لابد من ذكر مجموعة من المقدمات الهامة - مع الأخذ بعين الاعتبار ما ذكرناه خلال الصفحات الماضية - والتي لها مدخلة في إعادة تكوين تصوّرنا للشخصيات ودورها في الأحداث.

١. **الأصل اللغوي للكلمة:** قال الزبيدي^(١) في تاج العروس تحت عنوان «نمرود»: (نَمْرُودٌ، بِالضَّمِّ وإِهْمَالِ الدَّالِّ وإِعْجَامِهَا، وَفِي الْمُزْهَرِ بِالْوَجْهِينِ) أي يصح بالذال وبالذال (وَصَرَّحَ الْعِصَامُ وَغَيْرُهُ بِأَنَّهُ بِالْمُعْجَمَةِ) أي بالذال (اسمٌ

١. محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق، ينتهي نسبه إلى أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. اشتهر بالسيد المرتضى الحسيني الزبيدي اليماني الواسطي العراقي الحنفي، ويكنى أبا الفيض وأبا الجود وأبا الوقت (ت ١٢٠٥هـ). محدّث وأديب. خلف أكثر من ١٠٠ عمل أدبي، أهمها وأضخمها كتابه في اللغة المسمى (تاج العروس من جواهر القاموس)، ومنها (إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي).

مَلِكٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، مَعْرُوفٌ، قَالَهُ ابْنُ سَيِّدِهِ فِي الْمُحْكَمِ، وَكَأَنَّ ثَعْلَبًا ذَهَبَ إِلَى اسْتِقَاقِهِ مِنَ التَّمَرْدِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا ثَلَاثِي^(١) فَيَكُونُ مُشْتَقًّا مِنْ «مرد».

وتذكر **الموسوعة اليهودية** تحت عنوان **نمرود** أنه بحسب التراث الحاخامي، يمثل نمرود النموذج الأول للمتمردين، ويتم تفسير اسمه على أنه «هو الذي جعل جميع الناس متمردين ضد الله». وحيث تذكر التوراة أنه كان الصياد الأول، لذا فقد استنتج من ذلك أنه كان أول من أدخل أكل اللحوم من قبل الإنسان، على اعتبار أن آدم كان نباتياً. كما كان أول من شنّ الحرب على الشعوب الأخرى^(٢).

وبغض النظر عن مدى صحة هذه الأوليات، إلا أنه يمكن أن نقول أن نمرود صفة أو لقب تم إطلاقه على صاحب هذه الشخصية، للدلالة على التمرد، وأن كلمة نمرود في ذاتها اشتقاق من «مرد» كما قال ثعلب، وهو أصل لغوي مشترك بين العبرية والعربية في اللفظ والدلالة.

٢. امتداد ملك نمرود: وجاء في المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم للخوري بولس الفغالي^(٣) تحت عنوان (نمرود): (هناك تقليد يهودي محفوظ في «تك ٨: ١٠، ١٠-١٢»، يعتبر أن نمرود أسس مملكة تضم مدن بلاد

١. الزبيدي: تاج العروس، ج ٩، ص ٢٤٠.

2. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/11548-nimrod>

٣. الدكتور بولس الفغالي، كاهن في أبرشية البترون المارونية بلبنان. حائز على دكتوراه في اللاهوت من الجامعة الكاثوليكية في باريس. ودكتوراة فلسفة من السوربون. درس في الجامعة اللبنانية حوالي عشرين سنة. جاوزت مصنفاته المائتي كتاب، منها: (المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم)، (المدخل الى الكتاب المقدس).

الرافدين الجنوبية: بابل، أرك، أكاد، كلنه. ومدّ نمرود سلطانه فاحتل آشور، وبَنَى نينوى، كلخ - كالح^(١) - رحوبوت عير، راسن^(٢).

٣. ذكره في الكتاب المقدس: نجد في العهدين القديم والجديد ذكر نمرود بالاسم والصفة، ولكن لم يتم ربط هذه الشخصية بالنبي إبراهيم «عليه السلام» وقصته بأية صورة، وإن كنا نجد في التراثين اليهودي والمسيحي خارج إطار الكتاب المقدس نصوصاً عديدة تربط بينهما، حتى صار الأمر كالمسلّم به. وعندما نعود إلى المصادر اليهودية حول هذا الملك سنجد ما يلي: في سفر التكوين: (وهذه مواليد بني نوح: سامٌ وحامٌ ويافثٌ. ووُلِدَ لَهُمْ بَنُونَ بَعْدَ الطُوفَانِ.... وَبَنُو حَامَ: كُوشٌ وَمِصْرَايِمُ وَفُوطٌ وَكَنْعَانُ. وَبَنُو كُوشَ: سَبَأٌ وَحَوِيلَةُ وَسَبْتَةُ وَرَعْمَةُ وَسَبْتَكَا. وَبَنُو رَعْمَةَ: شَبَا وَدَدَانُ. وَكُوشُ وَلَدَ نِمْرُودَ الَّذِي ابْتَدَأَ يَكُونُ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ، الَّذِي كَانَ جَبَّارَ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ. لِذَلِكَ يُقَالُ: «كَنِمْرُودَ جَبَّارُ صَيْدٍ أَمَامَ الرَّبِّ». وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَمْلَكَتِهِ بَابِلَ وَأَرْكَ وَأَكَدَ وَكَلْنَةَ، فِي أَرْضِ شَنْعَارَ) أجزاء من العراق الحالي من الصعب تحديد امتدادها الجغرافي (مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ خَرَجَ أَشُورُ) جاء في شرح الكتاب المقدس للقمص أنطونيوس فكري في شرح هذه الفقرة أن الأرجح هي الترجمة الأخرى لها ويصير المعنى «وخرج إلى أرض آشور» ويكون المقصود هو أن نمرود لم يكتف بأرضه، وخرج كجبار يفتح مدناً أخرى في أرض آشور. وعندما يُطلق هذا العنوان، فقد يراد به اسم مدينة واقعة شمال العراق على بعد ٦٠ كم تقريباً جنوب الموصل، كما قد يراد به المملكة/ الحضارة التي قامت في تلك المدينة، وتوسعت في الألفية

١. كالح هذه أطلق عليها اسم مدينة نمرود لاحقاً.

٢. الفغالي: المحيط الجامع، ص ١٢٢٢.

الثانية ق.م وامتدت شمالاً لتشمل مدن نينوى، كالح، وخورسباد^(١) (وَبَنَى نَيْنَوَى وَرَحُوبُوتَ عَيْرَ وَكَالَحَ وَرَسَنَ، بَيْنَ نَيْنَوَى وَكَالَحَ، هِيَ الْمَدِينَةُ الْكَبِيرَةُ)^(٢). وبذا يكون اسمه بحسب التنخ: نمرود بن كوش بن حام بن نوح.

٤. ذكره في الروايات الإسلامية: تضاربت الروايات الإسلامية في اسمه وتاريخه، وهذه نماذج من تلك الروايات:

○ في كتاب الاختصاص المنسوب للشيخ المفيد^(٣) بالسند عن عمر بن أبان، عن بعضهم^(٤) قال: (كان خمسة من الأنبياء سريانين..... ومَلَك الدنيا) هل هذا يشمل العالم الجديد بالإضافة إلى أوروبا وكل أفريقيا والصين وأندونيسيا وأستراليا..... إلخ؟ هذا هو ظاهر العبارة وهو خلاف الحقيقة حتماً (مؤمنان وكافران: فالْمُؤْمَنَانِ: ذو القرنين وسليمان «عليه السلام»، وأما الكافران فنمرود بن كوش بن كنعان وبخت نصر)^(٥).

1. [https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Taf-seer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-10.html#11](https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefr-El-Takween/Taf-seer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-10.html#11)

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٠: ١-١٢.

٣. محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام الحارثي المذحجي العكبري، المعروف بابن المعلم، والمفيد، كنيته أبو عبد الله، (٢٣٦ هـ - ٤١٣ هـ). فقيه ومتكلم وعالم موسوعي. يبلغ مجموع مصنفاته نحو ٢٠٠ كتاب، من بينها (الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد)، (تصحيح اعتقاد الإمامية)، (المسائل العكبرية)، (الفصول العشرة في الغيبة).

٤. قال النجاشي: عمر بن أبان الكلبي، أبو حفص مولى كوفي، ثقة، روى عن أبي عبد الله «عليه السلام». ولذا فقلوه (عن بعضهم) قد يراد به الإمام الصادق.

٥. المفيد: الاختصاص، ص ٢٦٤.

○ في تاريخ الطبري^(١): (نمرود بن كوش بن كنعان بن حام بن نوح)^(٢).

○ في قصص الأنبياء المسمى عرائس القرآن ونفائس الفرقان وفراديس الجنان لمحمد بن بسطام الخوشابي^(٣): (نمرود بن كنعان بن سنحاريب بن كوش بن حام بن نوح)^(٤).

وحول موت نمرود تقول بعض الروايات أن حشرة دخلت أنفه ومات بسبب ذلك.

○ في الاحتجاج للطبرسي^(٥): (قال الصادق «عليه السلام» في حكمة خلق الأشياء: فأما البعوض والبق فبعض سببه أنه جعل أرزاق الطير، وأهان بها جباراً تمرّد على الله وتجبر، وأنكر ربوبيته فسلط الله عليه أضعف خلفه ليريه قدرته وعظمته وهي البعوض فدخلت في منخره حتى وصلت إلى دماغه فقتلته)^(٦).

أما الرواية التالية فتحدد مسار الأحداث بالتوقيت:

١. محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الشهير بأبي جعفر الطبري (٢٢٤هـ-٣١٠هـ)، مفسّر ومؤرّخ وفقه. م مصنفاته (جامع البيان في تأويل القرآن) المعروف بتفسير الطبري، (تاريخ الأمم والملوك)، المعروف بتاريخ الطبري، (تهذيب الآثار)، (كتاب القراءات).

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١، ص ١٢٢.

٣. محمد بن بسطام الخوشابي الحسيني الرومي المعروف بالواني أفتدي (ت ١٠٩٦هـ).

٤. الخوشابي: عرائس القرآن، ج ١، ص ٢٧٥.

٥. أبو منصور، أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت نحو ٥٦٠هـ). فقيه ومحدّث. من مصنفاته (الكافي في الفقه)، (الاحتجاج على أهل اللجاج)، (مفاخر الطالبية).

٦. الطبرسي: الاحتجاج، ص ١٨٧.

○ الصدوق في علل الشرائع: (قال أمير المؤمنين «عليه السلام» في جواب أسئلة الشامي: يوم الأربعاء ألقى إبراهيم الخليل «عليه السلام» في النار، ويوم الأربعاء وضعوه في المنجنيق، ويوم الأربعاء سلط الله على نمرود البقة، ويوم الأربعاء خرّ عليهم السقف من فوقهم) (١).

إشارة إلى قوله «تعالى»: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢).

○ وفي تفسير الطبري: (وقد يقول «تعالى ذكره»: قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين الذين يصدّون عن سبيل الله، مَنْ أَرَادَ اتِّبَاعَ دِينَ اللَّهِ، فَرَامُوا مِغَالِبَةَ اللَّهِ بِنَاءَ بَنَوِهِ، يَرِيدُونَ بَزْعَمَهُمُ الِارْتِفَاعَ إِلَى السَّمَاءِ لِحَرْبٍ مِنْ فِيهَا، وَكَانَ الَّذِي رَامَ ذَلِكَ فِيمَا ذُكِرَ لَنَا جِبَارَ مِنْ جِبَابَةِ النَّبْطِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ نَمْرُودُ بْنُ كَنْعَانَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ بَخْتَنَصْرٌ.... وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي ذُكِرَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ) (٣).

أي في قوله «تعالى»: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ، وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤).

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٩٩.

٢. سورة النحل: ٢٦.

٣. الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج ١٤، ص ١٤٩.

٤. سورة إبراهيم: ٤٥-٤٦.

والحقيقة أن ما جاء في الروايات الإسلامية هو انعكاس للنصوص اليهودية من جديد، وعمدتها دخلت عن طريق رواية وهب بن منبه. ومثال ذلك:

○ في كتاب **التيجان في ملوك حمير** لوهب بن منبه: (كان ملكهم نمرود بن كنعان بن كوش بن حام، وهو الذي أرسل إليه إبراهيم الخليل «صلوات الله عليه». قال: قد كان ادعى الربوبية)^(١).

○ وروى الدميمري^(٢) في كتابه **حياة الحيوان الكبرى** أنه: (قال وهب بن منبه: لما أرسل الله «تعالى» البعوض على النمرود، اجتمع منه في عسكره ما لا يحصى عدداً، فلما عاين النمرود ذلك، انفرد عن جيشه ودخل بيته وأغلق الأبواب وأرعى الستور ونام على قفاه مفكراً، فدخلت بعوضة في أنفه وصعدت إلى دماغه فعذب بها أربعين يوماً حتى إنه كان يضرب برأسه الأرض وكان أعز الناس عنده من يضرب رأسه ثم سقطت منه كالفرخ وهي تقول كذلك يسلط الله رسله على من يشاء من عباده ثم هلك حينئذ)^(٣).

٥. **التحقق التاريخي:** ثم إننا لو بحثنا من خلال علم الآثار والدراسات التاريخية الحديثة، فلن نجد ضمن سلاسل الملوك الذين عاصروهم النبي

١. وهب بن منبه: **التيجان**، ص ٢٢٧.

٢. أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى بن علي الملقب بالديميري نسبة إلى بلدة ديمير بمصر (ت ٨٠٨ هـ). فقيه ومحدث. كان في أول أمره يعمل خياطاً ثم غلبه حب العلم فتأبر على تلقيه حتى برز فيه فأفتى ودرس بالقاهرة، ثم انتقل إلى مكة للمجاورة والتدريس بها قبل أن يعود للقاهرة مرة أخرى. صنف العديد من الكتب إلا أن أهمها وأشهرها (حياة الحيوان الكبرى) ويعتبر هذا الكتاب مزيجاً من العلم والأدب والفلسفة والتاريخ والحديث. وقد تمت ترجمته إلى العديد من اللغات واقتبس منه العديد من الغربيين.

٣. الدميمري: **حياة الحيوان الكبرى**، ج ١، ص ١٢٤.

إبراهيم «عليه السلام» أو الذين حكموا تلك الديار قبل ذلك مَلِكاً يحمل هذا الاسم أو هذا اللقب، لأنه لقب أطلق عليه من قبل النصوص الدينية اليهودية. ومن المحتمل جداً أن لقب نمرود أطلق توراتياً على أوّل ملك جبار ظالم مفسد في تلك الديار بعد طوفان نوح «عليه السلام»، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هو الملك المذكور في قصة إبراهيم ضمن أحداث المحاججة أو الإحراق، بل قد يكون ملكاً عاش قبل إبراهيم «عليه السلام» بزمان، وعلم التاريخ والبحوث الأثرية تدل على وجود ملوك كثير ظلموا وأفسدوا قبل عهد إبراهيم «عليه السلام». وصار هذا اللقب - مثلاً - حصل مع لقب فرعون - قابلاً أن يُطلق على كل حاكم حكم ما بين النهرين، أو على خصوص من تجبر منهم وطغى بشكل كبير. وعليه فلن نجدنا أن نبحث في الدراسات الحديثة عن الملك الذي تحدثت عنه الآية القرآنية من خلال الاسم **نمرود**، بل من خلال العصر الذي عاش فيه إبراهيم، والديار التي تنقل فيها، والصفات التي عُرف بها ملوك ذلك العصر.

والذي أرجّحه - من خلال بعض القرائن السابقة والآتية - أن الملك الآشوري «شمشي/شمسي أدد/حدد/عضد/هدد الأول» الذي كان من أصل أموري/عموري^(١) كإبراهيم، هو الذي حاج إبراهيم في ربه، ولقد حكم هذا الملك مدينة آشور عام ١٨١٣ ق.م^(٢).

١. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٤٥٧.

٢. استولى حمورابي ملك بابل الأموري على آشور لاحقاً عام ١٧٦٠ ق.م. إلا أن الملك الآشوري شلمنصر الأول استولى على بابل وهزم الميتانيين عام ١٢٧٣ ق.م. ثم استولت آشور ثانية على بابل عام ١٢٤٠ ق.م. وفي عام ١٠٠٠ ق.م استولى الآراميون لاحقاً على آشور.

ويمكن أن نلخص القرائن الدالة على ذلك بالتالي:

١. عصره: عاش في القرنين ١٩ و ١٨ قبل الميلاد، وتوفي سنة ١٧٧٦ ق.م، وهو متوافق مع عصر النبي إبراهيم «عليه السلام» كما رجّحنا من قبل، وكما سيتبين معنا عند الحديث في بحث العذاب النازل على قوم لوط «عليه السلام»، ومع الأخذ بعين الاعتبار أن:

○ عمر إبراهيم «عليه السلام» - بحسب التوراة إن صحّ ما جاء فيها - أقل من ٧٥ سنة حين غادر العراق، لأنه غادر حران التي هي أول محطات هجرته حين كان في الخامسة والسبعين: (وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ)^(١).

○ ولما وُلِدَ له إسحاق كان عمر إبراهيم ١٠٠ عام: (وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةٍ سَنَةٍ حِينَ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ)^(٢).

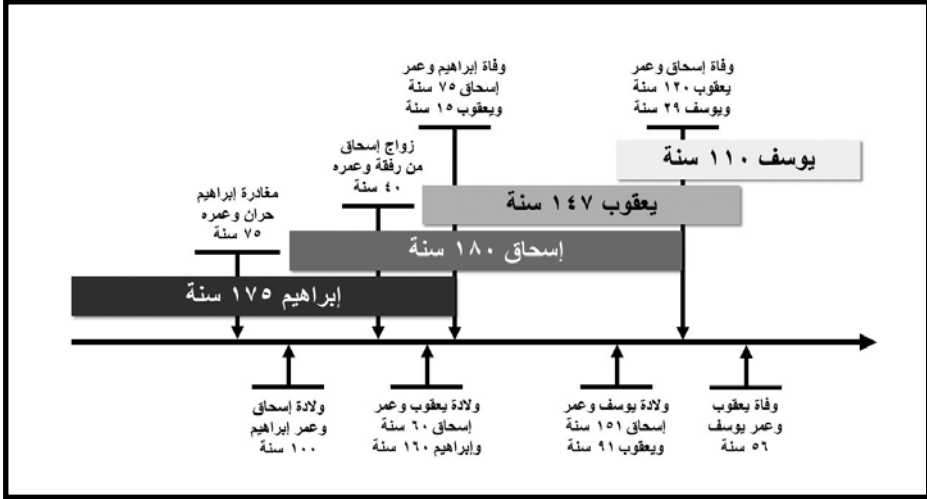
○ وتزوج إسحاق وعمره ٤٠ سنة، أي أصبح عمر إبراهيم ١٤٠ سنة: (وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، رِفْقَةَ بِنْتُ بَثُوثِيلَ الْأَرَامِيِّ، أُخْتُ لَأَبَانَ الْأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانٍ أَرَامٍ)^(٣).

○ ووُلِدَ يعقوب بينما كان إسحاق في الستين من عمره، أي كان عمر إبراهيم حينها ١٦٠ سنة، ففي خبر ولادة يعقوب وتوأمه عيسو: (فَلَمَّا كَمَلَتْ أَيَّامُهَا لِنَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوَّامَانِ. فَخَرَجَ الْأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلَّهُ كَفَرَوَةٌ شَعْرٌ، فَدَعَا

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٥.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ٢٠.



مخطط زمني لمواليد ووفيات الأنبياء إبراهيم / إسحاق / يعقوب / يوسف

اسْمُهُ «عِيسُو». وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقَبِ عِيسُو، فَدَعِيَ اسْمُهُ «يَعْقُوبَ». وَكَانَ إِسْحَاقُ أَبْنِ سَتَيْنِ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا^(١).

○ وبحسب الظاهر أن عمر يعقوب حين وُلِدَ له يوسف ٩١ سنة^(٢)، أي بعد ٧٦ سنة من وفاة إبراهيم، وحينذاك كان الهكسوس - الأموريون - الغزاة يحكمون مصر، وليس أهل مصر، وهو ما قد يُفهم من التعبير الوارد في القرآن عن الحاكم آنذاك بأنه ملك وليس فرعون، وحيث أن الهكسوس قد حكموا مصر ابتداء من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والفارق بين زمن

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ٢٤-٢٦.

2. <http://britishbibleschool.com/biblos/abraham-isaac-and-jacob-a-chronology>

<https://tben.wordpress.com/2010/08/21/the-timeline-of-the-lives-of-isaac-jacob-and-joseph/>

<http://hiswordsarepure.com/TheLifeOfJacob.htm>

مغادرة إبراهيم العراق وبين هذا التاريخ في حدود ٢٠٠ سنة، لذا فمن الممكن أن يكون شمشي أد هو الملك الذي تحدث عنه القرآن في قصة إبراهيم، وبتعبير آخر هو النمرود.

وأما ما ذهب إليه عدد من الباحثين بأن نمرود هو مؤسس الدولة الأكادية (سرجون الأول) فسيجعلنا نعود بالتاريخ إلى الوراء، حيث امتد حكمه ما بين (٢٣٣٤ - ٢٢٧٩ ق.م) أي قرابة الستة قرون ما بين عصر النبي إبراهيم وعصر النبي يوسف، وبالتالي عهد الهكسوس، وهذا مستبعد كثيراً كفاصل زمني بين جيل النبي إبراهيم وجيل ابن حفيده (يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)، هذا بالطبع إن صححنا أن عصر النبي يوسف كان عصر الهكسوس، وإن كان سرجون هذا صاحب إمبراطورية ضخمة بلغت شمالاً أجزاء من بلاد الأناضول (تركيا) ووصلت إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط، وغزا قبرص بأسطول بحري كبير، وكلل انتصاراته على بلاد سومر بالسيطرة على منطقة الخليج واستطاع أن يضمن منفذاً من أهم المنافذ في طرق التجارة الخارجية، وجاء في نصوصه التاريخية أن سفن (ملوخا) و (ومكان) - عُمان و (تلمون) - البحرين كانت ترسو في ميناء عاصمته (أكد)^(١)، بما يتوافق مع واحد من مميزات شمشي أد الأول التي جعلته يشعر بالقوة ويعيش حالة من الطغيان والاستكبار.

ومثل ذلك القول بأن نمرود هو حفيد سرجون الأول واسمه (نارام سين) حيث سيجعلنا نعود إلى ما قبل ٥٠٠ سنة تقريباً من عهد الهكسوس، لأن حكم

١. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٣٩٦.



سرجون الأول

نارام سين

نارام سين كان ما بين (٢٢٥٤ - ٢٢١٨) أو (٢٢٠٩ - ٢١٥٥) قبل الميلاد، ما يجعل الفاصل الزمني بين إبراهيم وابن حفيده يوسف قرابة الخمسة قرون، وهذا مستبعد أيضاً، وإن انطبقت عليه بعض الصفات التي تجعله مؤهلاً مبدئياً لأن يكون هو نمرود، بلحاظ ادعائه الألوهية وأُقسمت الأيمان باسمه، وبحسب الدكتور طه باقر فإن أول ما يجلب الانتباه في حكم نرام - سين أن هذا الملك أوجد بدعتين في نظام الحكم، أولاهما أنه صدر كتابة اسمه بالعلامة الدالة على الألوهية، وقد سار على هذا العُرف عدد من الملوك الذين جاءوا من بعده. وأكثر من هذا صار يلقب نفسه «إله أكاده»، وهذه بدعة، ولا سيما الشق الثاني منها، كانت أقرب ما تكون إلى الكفر والخروج على العُرف الديني، لأن الحكام في وادي الرافدين لم يتجاوزوا -وهم في أقصى



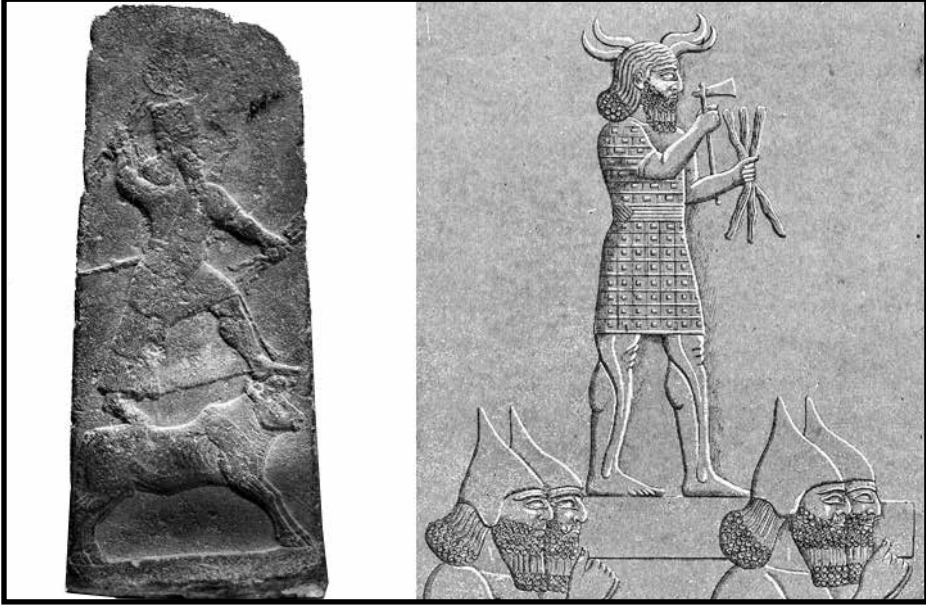
الإله شمش

تعاظمهم- حدّ التقديس والتأليه، وكونهم نواباً عن الآلهة في حكم البشر. أما البدعة الثانية فكانت اتخاذه لقب ملك الاتجاهات الأربعة. والمرجح أن نرام- سين تفرّد في تمثيله بالمنحوتات بارتداء لباس الرأس ذي القرون أو الأصح ذي القرنين، مما يخصّ لباس الآلهة^(١).

كل هذا بالإضافة إلى كونه صاحب حكم ممتد إقليمياً، وقوة عسكرية كبيرة هزم بها عدة ممالك، وضم لإمبراطوريته مناطق شاسعة.

٢. **امبراطوريته:** تمكّن شمشي أدد من تكوين امبراطورية شملت معظم بلاد ما بين النهرين وسورية وآسيا الصغرى، إلى أن سقطت بيد البابليين بقيادة حمورابي، وملوك آخرين اقتسموا امبراطوريته.

١. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٤٠١-٤٠٢.



الإله أدد

وهذا يناسب حالة الطغيان والملك التي جاء وصفها في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾^(١).

٣. اسمه أو لقبه: ذكر لعنوان شمشي أدد أكثر من تفسير، وإحداها تركيب اسمه من اسم إلهين: إله الشمس «شمش» ورمزه الشمس، وإله الجو والمطر والعواصف والرياح والبروق والخصب / الطقس «أدد» ورمزه الثور، وهو الإله الذي من خلاله يأتي المطر في الموسم المناسب، ويتسبب في أن تصبح الأرض

١. سورة البقرة: ٢٥٨.

خسبة، ومن ناحية أخرى، فإن العواصف التي يرسلها تسبب الفوضى والدمار «يحيي ويميت»^(١).

وإن صح ما جاء في **الموسوعة اليهودية** والذي مر معنا من قبل بأن الملك عندما حاج إبراهيم في ربه عرض عليه عبادة أمور قائلًا: (اعبد النار! فقال له إبراهيم: ولماذا لا أعبد الماء التي تطفئ النار؟ قال نمرود: جيد جداً، اعبد الماء. قال إبراهيم: لماذا لا أعبد الغيوم التي تبتلع الماء؟ قال نمرود: فليكن؛ اعبد الغيوم. قال إبراهيم: دعني أعبد الريح التي تهب على الغيوم. قال نمرود: فليكن؛ صلّ للريح. قال إبراهيم: لكن يمكن للإنسان أن يقف ضد الريح أو أن يحمي نفسه خلف جدران منزله)^(٢). هذه العناصر المذكورة هنا:

○ النار وارتباطها بالحرارة والشمس.

○ الماء.

○ الغيوم.

○ الريح.

١. ذكر لي الأستاذ الباحث محمد السعيد - وهو من المهتمين بتراث بلاد الرافدين ولاسيما بالرموز والأختام التي شاعت في تلك الأزمنة - وبعد أن استمع إلى الحلقة الخاصة بهذا العنوان أن كل الآلهة في بلاد الرافدين كان يرمز إليها بالشور، وأن الرمز الخاص بأدد يشابه حرف **U** في اللغة الإنجليزية، وأنه يعتبر بالإضافة إلى كونه إله المطر والطقس وما إلى ذلك، إلهاً للمعرفة، وحيث أنه إله البرق، لذا يربطونه بالمعرفة، لأن المعرفة تأتي كالبرق (بارقة). وأضاف أيضاً أن الإله أدد هو أصل الإله بعل لدى الفينيقيين، وأن بعل هو أصل الإله زيوس عند الإغريق، وأن أدد هو أصل الإله هبل عند العرب الجاهليين.

2. <http://www.jewishencyclopedia.com/articles/360-abraham>

بمجموعها مرتبطة بالإلهين «شمش» و«أدد». ولعل هذا ما يفسّر لنا التحدي الذي وجهه النبي إبراهيم «عليه السلام» له كما جاء في الآية بخصوص ما له علاقة بالإحياء والإماتة، وبحركة الشمس على وجه التحديد.

فقد تحداه أولاً من خلال الإحياء والإماتة لارتباط ذلك بالإله «أدد»، وهو المكوّن الثاني لاسمه / لقبه، ثم تحداه من خلال حركة الشمس لارتباط ذلك بالمكوّن الثاني لاسمه «شمش»، فهو التابع والمؤمن والمخلص للإلهين «شمش» و«أدد»، ولذا نُسب إليهما «شمشي أدد / شمسي أدد».

قال د. عيد مرعي^(١) في كتابه **معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم**: (.. ودخل اسمه في تركيب أسماء بعض ملوكهم كـ «أدد نيراري»: أدد مساعدي، و«شمشي أدد»: شمسي أدد)^(٢).

والذي أراه أن سيناريو الأحداث - وفقاً لما سبق - يتلخّص في أن إبراهيم «عليه السلام»:

١. جادل قومه، ثم حطّم الأصنام.
٢. توافق قومه على إحراقه، فأنجاه الله.
٣. قرر الهجرة إلى حيث أمره الله، وهي الأرض كثيرة الخيرات في كنعان.
٤. آمن له لوط «عليه السلام» فخرج معه مهاجراً ونجا كذلك مما كان يكيده به قومه.

١. باحث ومؤرخ سوري معاصر، له العديد من المصنفات.

٢. عيد مرعي: معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، ص ٥٢.

٥. كلفه الله بنشر كلمة التوحيد حيثما حلّ.

٦. حين استقر في إحدى المدن في طريق هجرته إلى الأرض المباركة، وقع بينه وبين الملك شمشي أدد الأول حوار حول الرب والربوبية أدّى إلى انتصار إبراهيم في منطقته وحجته.

ومن المحتمل أن الحاجة تمّت في مدينة حرّان، وهي المحطة الثانية التي استقر فيها إبراهيم ولوط لعدة سنوات بحسب التوراة، أو العاصمة آشور، ثم خرج إبراهيم ولوط مكملين مسيرتهما إلى أن وصلا إلى الأرض المباركة. وسنتحدث عن رحلته هذه بالتفصيل لاحقاً.

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ لكي نقرب من تحديد هوية الملك الذي حاوره إبراهيم «عليه السلام»، كان لابد من مقدمة تعريفية بالثقافات والحضارات التي قامت في بلاد الرافدين، وتوصلنا إلى أن الملك أموري/عموري الانتماء، كما أن إبراهيم كذلك.

○ نمرود لقب أطلق على هذا الملك، للدلالة على تمرده على الله، وقد استقرت من خلال مجموعة من القرائن أنه الملك الآشوري شمشي أدد الأول الذي عاش في القرنين ١٩ و ١٨ قبل الميلاد، وتوفي سنة ١٧٧٦ ق.م، وأسس امبراطورية شملت معظم بلاد ما بين النهرين وسورية وآسيا الصغرى.

الهجرات الإبراهيمية

الهجرات الإبراهيمية

• موضوعات هذا الفصل:

○ ما هي المحطات التي استقر فيها النبي إبراهيم بمعية النبي لوط منذ خروجهما من مسقط رأسيهما في وسط أو جنوب العراق؟ وما هي مصادرها في تحديد هذه المحطات؟

○ كيف تصرف إبراهيم مع ملك مصر عندما طمع في زوجته سارة؟ وما هي المؤخذات على القصة التوراتية والمرويات الإسلامية في هذا الباب؟

○ عناية النبي إبراهيم بتأسيس بيوت لله ومذابح للقرايين في المحطات التي استقر فيها، وتشابه هذا التصرف مع ما روي عن رسول الله في أسفاره وما نتج عن ذلك في مرحلة لاحقة.

○ ادعاء تكرار النبي إبراهيم ذات الخطأ الذي ارتكبه مع ملك مصر، وذلك حين طمع ملك (جرار) في زوجته سارة.

○ هل استقر النبي إبراهيم في النجف الأشرف؟ ما حكاية الزلازل التي كانت تصيب المنطقة؟ ولماذا اشترى إبراهيم قطعة أرض تحولت إلى مقبرة لليهود ثم للمسلمين؟ وهل اشتراها الإمام علي مرة أخرى؟

• الهجرة الإبراهيمية في القرآن:

تحدث القرآن الكريم بشكل إجمالي عن هجرة إبراهيم «عليه السلام»، وذلك بعد فشل محاولة إحراقه، وألحق به لوطاً «عليه السلام»، قال «تعالى»:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنَّ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ، فَأَمِنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا، قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾^(٣).

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأُسْفَلِينَ، وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^(٤).

ولا يقدم لنا القرآن الكريم شيئاً عن محطات هجرته «عليه السلام» إلا المقصد ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

١. سورة العنكبوت: ٢٤-٢٦.

٢. سورة الأنبياء: ٧١.

٣. سورة مريم: ٤٦-٤٨.

٤. سورة الصافات: ٩٧-٩٩.

بينما نجد في التنخ - والتراث اليهودي عموماً - تفاصيل عديدة لرحلته، وهي تذكر أن هذه الهجرة ضُمَّت أربعة أشخاص: إبراهيم وزوجته ساراي «التي سيتغير اسمها إلى سارة لاحقاً»، ووالده تارح بعد توبته، ولوط.

ففي سفر التكوين: (وهذه مَوَالِيدُ تَارَحَ: وَلَدَ تَارَحُ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ. وَوَلَدَ هَارَانُ لُوطًا. وَمَاتَ هَارَانُ قَبْلَ تَارَحَ أَبِيهِ فِي أَرْضِ مِيلَادِهِ فِي أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ. وَاتَّخَذَ أَبْرَامُ وَنَاحُورُ لِنَفْسِهِمَا امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ امْرَأَةِ أَبْرَامَ سَارَايُ، وَاسْمُ امْرَأَةِ نَاحُورَ مَلَكَةُ بَنَتْ هَارَانَ، أَبِي مَلَكَةَ وَأَبِي يَسَكَةَ. وَكَانَتْ سَارَايُ عَاقِرًا لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ. وَأَخَذَ تَارَحُ أَبْرَامَ ابْنَهُ، وَلُوطًا بَنَ هَارَانَ، ابْنَ ابْنِهِ، وَسَارَايَ كَنَنَتْهُ امْرَأَةً أَبْرَامَ ابْنِهِ، فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ)^(١).

ويذكر التنخ المحطات التي استقرَّ فيها إبراهيم ومرافقوه لفترة يُعتدُّ بها، وهي كالتالي:

• المحطة الأولى:

وهي محطة حَرَّان (= حارن) التي تقع حالياً جنوب تركيا بالقرب من الحدود مع سورية: (فَاتُوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا هُنَاكَ. وَكَانَتْ أَيَّامُ تَارَحَ مِئَتَيْنِ وَخَمْسَ سِنِينَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ. وَقَالَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ: «اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأَبَارِكَ وَأَعْظَمَ اسْمَكَ، وَتَكُونُ بَرَكَهً. وَأَبَارِكَ مُبَارِكَكَ، وَلَا عِنَكَ الْعَنَهُ. وَتَتَبَارَكَ فِيكَ جَمِيعُ قِبَائِلِ الْأَرْضِ»)^(٢).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٧-٣١.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٣١-٣٢، الأصحاح ١٢: ١-٣.

• المحطة الثانية:

وهي محطة شكيم (= نابلس) التي تقع في الضفة الغربية لنهر الأردن شمال أرض الكنعانيين حيث فلسطين الآن: (فَذَهَبَ أَبْرَامُ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ وَذَهَبَ مَعَهُ لُوطٌ. وَكَانَ أَبْرَامُ ابْنُ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً لَمَّا خَرَجَ مِنْ حَارَانَ. فَأَخَذَ أَبْرَامُ سَارَايَ امْرَأَتَهُ، وَلُوطًا ابْنَ أَخِيهِ، وَكُلَّ مُقْتَنِيَاتِهِمَا الَّتِي اقْتَنَيَا وَالنُّفُوسَ الَّتِي امْتَلَكَا فِي حَارَانَ. وَخَرَجُوا لِيَذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. فَاتَّوَا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الْأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُوطَةِ مُورَةَ^(١)) في قاموس الكتاب المقدس أن بلوطة مورة أو بلوطات مورة: اسم كنعاني معناه **بلوطة المعلم** وهو موضع بقرب شكيم - أي نابلس - وجبل عيبال وجرزيم^(٢) ويذكر القمص تادرس يعقوب أن مورة تعني أيضاً «العراف»؛ وأنها أخذت اسمها عن معلم أو عراف كان يسكن هناك، وكان الناس يلتقون به تحت شجرة البلوط^(٣) (وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الْأَرْضِ. وَظَهَرَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ وَقَالَ: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هَذِهِ الْأَرْضَ». فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ الَّذِي ظَهَرَ لَهُ)^(٤). وبحسب التوراة، سببقى النبي إبراهيم يتردد على هذه المحطة عدة مرات خلال استقراره في أرض الكنعانيين.

ويذكر القمص تادرس يعقوب أن إبراهيم «عليه السلام» أقام في بلوطات

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٣١-٣٢، الأصحاح ١٢: ١-٣.

٢. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٩٣٠.

3. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/01-Sefer-El-Takween/Tafseer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-12.html

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ٤-٧.

ممرًا مابين ١٥ و ٢٥ عاماً، ودخل في عهد مع ملوك الأموريين الذين كانوا يحكمون هناك^(١). ولنتذكر ما جاء في الفصل السابق أن الكنعانيين فرع من الأموريين، وأن إبراهيم في نفسه من الأموريين.

• المحطة الثالثة :

وهي محطة في أرض الكنعانيين تقع بالقرب من بيت إيل בית אל، وهو اسم عبري معناه بيت الله، وكانت قديماً محل إقامة ملوك الكنعانيين، وهي اليوم خرائب قرية بيتين العصرية، على بعد نحو ١٧ كم شمال القدس: (ثُمَّ نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلَ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتٌ إِيلَ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَايُ مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ)^(٢).

والملاحظ أن إبراهيم «عليه السلام» كان يتعمّد - حيث استقر به المقام ولو لفترة وجيزة - إقامة بيوت لله «عز وجل» تتضمن مذبحاً يقدم فيه قرابينه، وهذا يشبه ما كان يقوم به رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيثما كان يستقر في طريق سفر له، حيث يحدد مكاناً للصلاة يأخذ عنوان «مصلّى النبي»، وفي بعض الأحيان يتحول هذا المصلّى إلى مسجد في عهد لاحق.

• المحطة الرابعة :

هذه المحطة تقع جنوب المحطة الثالثة دون تحديد لاسمها، ويذكر القمص

1. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/01-Sefer-El-Takween/Tafseer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-12.html

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ٨.

تادرس يعقوب أنها صحراء النقب^(١): (ثُمَّ ارْتَحَلَ أَبْرَامُ ارْتِحَالًا مُتَوَالِيًا نَحْوَ الْجَنُوبِ)^(٢) أي جنوب كنعان.

• المحطة الخامسة:

وهي محطة مصر: (وَحَدَّثَ جُوعٌ فِي الْأَرْضِ، فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ، لِأَنَّ الْجُوعَ فِي الْأَرْضِ كَانَ شَدِيدًا)^(٣).

وتتحدث التوراة عما جرى لإبراهيم «عليه السلام» وزوجته سارة حين استقرا في مصر، وفي القصة تفاصيل لا يمكن قبولها مطلقاً لعدم تناسبها مع تصرفات رجل عاقل عنده شيء من كرامة، فضلاً عن أن يكون نبياً كإبراهيم: (وَحَدَّثَ لَمَّا قَرُبَ أَنْ يَدْخُلَ مِصْرَ أَنَّهُ قَالَ لِسَارَايَ امْرَأَتِهِ: «إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الْمَنْظَرِ. فَيَكُونُ إِذَا رَأَاكَ الْمِصْرِيُّونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هَذِهِ امْرَأَتُهُ. فَيَقْتُلُونَنِي وَيَسْتَبْقُونَكَ. قُولِي إِنَّكَ أُخْتِي، لِيَكُونَ لِي خَيْرٌ بِسَبَبِكَ تَحْيَا نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ»)^(٤).

وبالطبع فإن التوراة تدعي أن ساراي هي أخته لأبيه ومن أم ثانية، وعلى هذا فهو لم يطلب منها أن تكذب، بل أن تقول نصف الحقيقة، وما ذلك إلا ليحافظ على حياته، لأنه لو قال أنها زوجته فلربما قتلوه ليحظى بها أحدهم كزوجة له! جاء في سفر التكوين: (وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ

1. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/01-Sefer-El-Takween/Tafseer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-12.html

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ٩.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ١٠.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ١١-١٣.

أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةً أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً^(١).

ولكن أي رجل صاحب غيرة ومروءة يقبل بأن يضع زوجته في مثل هذا الموقف المستهجن رغبة في أن يبقى على قيد الحياة؟! وبدلاً من أن يؤكّد على أنها زوجته يطلب منها أن تذكر نصف الحقيقة، وهي أنها أخته، فلربما يُبقي بذلك على حياته، بل ويحصل على شيء ما في مقابل تقديمها لمن يدفع أكثر!!! وهل تتمثل المشكلة في النص في احتمالية الكذب الصادر عن إبراهيم «عليه السلام» فقط، أم بما يتعارض مع سلوك أي زوج ورجل له ذرة غيرة ومروءة؟ وهذا التصوير المعيب لقصة إبراهيم انتقل إلى بعض الروايات الإسلامية، كما جاء الصحيحين.

ففي صحيح البخاري بالسند عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً).

ثم نجد تنمة للرواية على لسان أبي هريرة، ولا نعلم هل المراد أنه سيروي عن النبي أم عن مصدر آخر ككعب الأحبار: (..... عن أبي هريرة «رضي الله عنه» قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله «عز وجل»، قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾. وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له إن ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال من هذه قال أختي فأتى سارة قال يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألتني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني فأرسل إليها فلما

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٠: ١٢.

دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت الله فأطلق ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال إنكم لم تأتونني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيا قالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر قال أبو هريرة تلك (أي هاجر) (أمكم يا بني ماء السماء) ^(١).

قيل: أنه في العبارة الأخيرة من روايته يخاطب العرب، وعرفوا بذلك لكثرة ملازمتهم الفلوات التي بها مواقع المطر لرعي دوابهم، وقال الخطابي وقيل إنما أراد زمزم أنبعها الله لهاجر فعاشوا بها فصاروا كأنهم أولادها. ولكن ليس كل العرب من نسل إسماعيل كي يُعمَّم عليهم هذا الكلام، ولذا فقد ذكر ابن حبان في صحيحه أن كل من كان من ولد هاجر يقال له ولد ماء السماء لأن إسماعيل ابن هاجر، وقد رُبي بماء زمزم، وهي ماء السماء الذي أكرم الله به إسماعيل حين ولدته هاجر، فأولادها أولاد ماء السماء، وقيل ماء السماء هو عامر جد الأوس والخزرج، سُمي بذلك لأنه كان إذا قحط الناس أقام لهم ماله مقام مطر.

وقد برّر الخطيب القسطلاني ^(٢) قول إبراهيم بحسب هذه الرواية:

١. صحيح البخاري، ح ٣٢٠٥.

٢. أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد بن حسين بن علي القسطلاني المصري الشافعي الملقب بشهاب الدين القسطلاني (٨٥١ هـ - ٩٢٣ هـ). محدّث. له عدة مصنفات من بينها (إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري)، (الأسعد في تلخيص الإرشاد من فروع الشافعية)، (تحفة السامع والقاري بختم صحيح البخاري).

(أختي): (أي في الإسلام، ولعله أراد بذلك دفع أحد الضررين بارتكاب أخفهما، لأن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة لكن إن علم أن لها زوجاً حملته الغيرة على قتله أو حبسه وإضراره بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً، فإن الغيرة حينئذ تكون من قبل الأخ خاصة لا من قبل الملك فلا يبالي به، وقيل خاف أنه إن علم أنها زوجته ألزمه بطلاقها)^(١) وهي تبريرات باردة غير مقبولة. والغريب أن التركيز في مناقشة الرواية منصب على الإشكال المطروح حول جواز نسبة الكذب للنبي إبراهيم «عليه السلام» وتعارض ذلك مع مقام النبوة والعصمة، وليس على تصرفه في حد ذاته، وإن تم المرور على الإشكالية الكبرى أحياناً، ولكن بشكل سريع كما في كلام القسطلاني.

نعود إلى القصة التوراتية التي تتحدث عما جرى إبراهيم وزوجته في مصر: (فَحَدَّثَ لَمَّا دَخَلَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ رَأَوْا الْمَرْأَةَ أَنَّهَا حَسَنَةٌ جَدًّا. وَرَأَاهَا رُؤَسَاءُ فِرْعَوْنَ وَمَدَحُوهَا لَدَى فِرْعَوْنَ، فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةَ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ، فَصَنَعَ إِلَى أَبْرَامَ خَيْرًا بِسَبَبِهَا، وَصَارَ لَهُ غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأَتْنٌ وَجِمَالٌ)^(٢). لا شك أن مثل هذا النص تأثيره السلوكي والأخلاقي على من يؤمن به، فإذا كان مثل إبراهيم يبرر هذا الفعل الشنيع بإبقائه على نفسه، فكيف بمن هم دونه مرتبة؟

أما بحسب القمص أنطونيوس فكري في شرح هذه القصة فإن: (هذه هي سقطة أبرام الكبرى. إخفاء جزء من الحقيقة - أنها زوجته - يعتبر كذباً

١. القسطلاني: إرشاد الساري، ج٧، ص ٢٨٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ١٤-١٦.

الهجرات الإبراهيمية

حتى لو كانت شقيقته من أبيه وليس من أمه. فهذا يعتبر خداع وكذب وضعف إيمان. والخداع هو نوع من الغواية يسقط فيه الإنسان ليحل مشكلة بطريقة سهلة فيجلب علي نفسه مشاكل عديدة. وبدء السقوط كان ضعف الإيمان الذي جعله ينزل إلى مصر) أي ما كان ينبغي لإبراهيم أن يترك أرض كنعان ولو حصلت مجاعة، لأن الله كان قد أمره بالبقاء فيها وأعطاه إياها: (وهذا امتد لضعف إيمان أن الله قادر علي حمايته وحماية زوجته. فالخطية تأتي ورائها بخطايا أخرى. والنتيجة أنه حُرِمَ من زوجته)^(١).

وجاء التدخل الإلهي إنقاذاً للموقف: (فَضْرَبَ الرَّبُّ فِرْعَوْنَ وَبَيْتَهُ ضَرْبَاتٍ عَظِيمَةً بِسَبَبِ سَارَايَ امْرَأَةِ أَبْرَامَ)^(٢).

عبارة القصة غير واضحة بخصوص ما جرى بالضبط بين فرعون وسارة، ولكن القمص فكري وضع عدة احتمالات لذلك: (الضربات استطاعت أن تُقنَع فرعون بأن الله غاضب إذ هو حاول أن ينال من ساراي. وربما أفهمت ساراي فرعون أنها زوجة إبرام وطلبت منه أن لا يمسه. وربما حاول فرعون فضربه الله. المهم أن الله في محبته لم يقبل أن يعيش إبرام معذب الضمير كل حياته في حالة أن فرعون مس ساراي زوجته. لذلك حفظها الرب من يدي فرعون بل ورد لأبرام غني وكرامة)^(٣).

1. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Taf-seer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-12.html#15

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ١٧.

3. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Taf-seer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-12.html#15

وهذا في حد ذاته لا يرفع إشكالية عدم الغيرة والسكوت وإيكال الأمر للأقدار كي تتدخل، فلربما ولربما.

(فَدَعَا فِرْعَوْنُ أَبْرَامَ وَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتَ بِي؟ لِمَاذَا لَمْ تُخْبِرْنِي أَنَّهَا امْرَأَتُكَ؟ لِمَاذَا قُلْتَ: هِيَ أُخْتِي، حَتَّى أَخَذْتُهَا لِي لَتَكُونَ زَوْجَتِي؟ وَالْآنَ هُوَ ذَا امْرَأَتِكَ! خُذْهَا وَادْهَبْ!»، فَأَوْصَى عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ رَجُلًا فَشَيَّعُوهُ وَامْرَأَتَهُ وَكُلَّ مَا كَانَ لَهُ) ^(١).

في المقابل نجد في رواية في الكافي بالسند عن الصادق «عليه السلام» حول هذه الرحلة ما يدل على الإفراط في الغيرة إلى حد غير معقول، وهي تأتي بعد أن تسرد ما جرى بين إبراهيم والنمرود: (.... فتحمّل إبراهيم «عليه السلام» بماشيته وماله وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة، وشد عليها الإغلاق غير أنه عليها، ومضى حتى خرج من سلطان نمرود وسار إلى سلطان رجل من القبط يقال له عرارة، فمرّ بعاشر له) يأخذ العُشر كضريبة (فاعترضه العاشر ليعشر ما معه، فلما انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم «عليه السلام»: افتح هذا التابوت حتى نعشر ما فيه، فقال له إبراهيم «عليه السلام»: قل) أي اطلب (ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتى نعطي عُشره ولا نفتحه، قال: فأبى العاشر إلا فتحه، قال: وغضب) ولعل الأنسب غصب (إبراهيم طع) على فتحه، فلما بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال إبراهيم: هي حرمتي وابنة خالتي، فقال له العاشر: فما دعائك إلى أن خبيتها في هذا التابوت؟

الهجرات الإبراهيمية

فقال إبراهيم «عليه السلام»: الغيرة عليها أن يراها أحد، فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أعلم الملك حالها وحالك، قال: فبعث رسولاً إلى الملك فأعلمه، فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت، فأتوا ليذهبوا به، فقال لهم إبراهيم «عليه السلام»: إني لست أفارق التابوت حتى يفارق روعي جسدي، فأخبروا الملك بذلك، فأرسل الملك أن يحملوه والتابوت معه، فحملوا إبراهيم «عليه السلام» والتابوت وجميع ما كان معه حتى أدخل على الملك، فقال له الملك: افتح التابوت، فقال له إبراهيم «عليه السلام»: أيها الملك إن فيه حرمتي وبنيت خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي، قال: فغضب الملك إبراهيم على فتحه، فلما رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مدّ يده إليها، فأعرض إبراهيم «عليه السلام» وجهه عنها وعنه غيرة منه وقال: اللهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي، فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه، فقال له الملك: إن إلهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم، إن إلهي غيور يكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردت من الحرام، فقال له الملك: فادع إلهك يرد عليّ يدي، فإن أجابك فلم أعرض لها، فقال إبراهيم «عليه السلام»: إلهي رد إليه يده ليكف عن حرمتي، قال: فرد الله «عز وجل» إليه يده، فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد بيده نحوها، فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللهم احبس يده عنها، قال: فبست يده ولم تصل إليها، فقال الملك لإبراهيم «عليه السلام»: إن إلهك لغيور، وإنك لغيور، فادع إلهك يرد عليّ يدي، فإنه إن فعل لم أعد، فقال إبراهيم «عليه السلام»: أسأله ذلك على أنك إن عدت لم تسألني أن أسأله، فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم: اللهم إن كان صادقاً

فردّ يده عليه. فرجعت إليه يده، فلما رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى ورأى الآية في يده عظم إبراهيم وهابه وأكرمه وأتقاه وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها أو لشئ مما معك. فانطلق حيث شئت، ولكن لي إليك حاجة، فقال إبراهيم «عليه السلام»: ما هي؟ فقال له: أحب أن تأذن لي أن أخدمها قبطية عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً، قال: فأذن له إبراهيم فدعا بها فوهبها لسارة وهي هاجر أم إسماعيل، فسار إبراهيم بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم إعظاماً لإبراهيم «عليه السلام» وهيبة له، فأوحى الله «تبارك وتعالى» إلى إبراهيم: أن قف ولا تمش قدّام الجبار المتسلط ويمشي وهو خلفك، ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظمه وهبه فإنه مسلط، ولا بد من إمرة في الأرض برّة أو فاجرة، فوقف إبراهيم «عليه السلام» وقال للملك: امض فإنّ إلهي أوحى إليّ الساعة أن أعظمك وأهابك وأن أقدمك أمامي وأمشي خلفك إجلالاً لك، فقال له الملك: أوحى إليك بهذا؟ فقال له إبراهيم: نعم، فقال له الملك: أشهد أن إلهك لرفيق حلیم كريم، وأنك ترغّبني في دينك، قال: وودّعه الملك فسار إبراهيم حتى نزل بأعلى الشامات، وخلف لوطاً «عليه السلام» في أدنى الشامات^(١).

هذه الرواية وإن لم تتضمن ما في القصة التوراتية وما في رواية أبي هريرة، ولكنها تشتمل على مبالغة كبيرة في الغيرة بادعاء حبس إبراهيم زوجته في تابوت في طريق سفر ممتد لأسابيع من وسط العراق إلى مصر. وهل غيرته تشرعن له مثل هذا التصرف اللاعقلاني؟

من الواضح أن مبالغات الرواة لا حدود لها، ومثل هذه المبالغات كانت تستهوي المستمعين والقراء. ولعل الرواية محاولة تصحيحية من الراوي لما ورد في سفر التكوين حول ذات القصة. ثم إن التدخل الغيبي من قبيل تجميد يد الملك وإرجاعها وما إلى ذلك محكوم بقوانين، فهل هذه الحادثة تخضع لهذه القوانين^(١)؟ كما أن المقطع الأخير المرتبط باحترام الملك وعدم التقدم عليه لربما يوحي بأن واضع الرواية أراد أن يتزلف إلى الملك بتقديم مثل هذه القصة وهذه العبارات، وإن حاول تبرير ذلك بكونها مقدمة لهداية الملك.

• المحطة السادسة:

ويبدأ الأصحاح ١٣ من سفر التكوين بالحديث عن عودة إبراهيم من جديد إلى الأرض التي باركها الله، وهي أرض الكنعانيين بعد أن جرى له ما جرى مع ملك مصر. وسيأتي معنا لاحقاً ضمن سيرة إبراهيم في التنخ أنه سيكرّر ذات التصرف مع أحد الملوك، وكأن الوضع أعجبه وراق له ما ناله من إكراميات وهدايا تبعاً لطريقة تعامله مع الموضوع والعياذ بالله!

(فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ) أي جنوب كنعان، ولربما إلى حيث كان من قبل في صحراء النقب (وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جَدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ)^(٢) ولا يخفى ما في هذا النص من إشارة للروح المادية التي تغلب على واضع النص وعكسها على إبراهيم «عليه السلام».

١. قد يقال ذلك على اعتبار أنها مقدمة لهداية الملك.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٣: ١-٢.

• المحطة السابعة :

وتتمثل في العودة إلى حيث استقر على الجبل المطل من الشرق على بيت إيل: (وَسَارَ فِي رِحَالَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خِيَمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلًا. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ) ^(١).

وينتقل النص للحديث عن النزاع الذي نشب بين إبراهيم ولوط، وهو نزاع غير مباشر، وحصل بين رعاية الأغنام التابعين لهما، ففضلاً فك الاشتباك والتفرق في الأرض.

• المحطة الثامنة :

حيث يستقر إبراهيم في قرية أربع عند بلوطات ممرا الأموري، وهي جزء من مدينة الخليل الآن. وقرية أربع هي التي سماها اليهود حبرون وتحور الاسم لاحقاً إلى حبري، وسماها المسلمون بعد ذلك باسم مدينة الخليل نسبة إلى النبي إبراهيم الخليل «عليه السلام». تقع المدينة في الضفة الغربية إلى الجنوب من القدس بحوالي ٣٥ كم. أسسها الكنعانيون في العصر البرونزي المبكر، وتعد اليوم أكبر مدن الضفة الغربية من حيث عدد السكان والمساحة، وفيها المسجد الإبراهيمي الذي يحوي مقامات للأنبياء إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وزوجاتهم. كانت تسمى بقرية أربع نسبة إلى ملك كنعاني اسمه أربع، وسميت بعدها حبرون نسبة للملك عفرون الحثي ^(٢) الذي كان يحكمها،

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ٣-٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٤: ١٣.

الهجرات الإبراهيمية

أو لأن يوشع بن نون غير اسمها إلى حبرون نسبة إلى أحد أولاد كالب بن يفتة. أما تسمية الخليل فلمدفن النبي إبراهيم الخليل فيها. تضم الخليل رفاة إبراهيم وزوجته سارة، ورفاة إسحق وزوجته ويعقوب وزوجته. أما ممرا فهو اسم أحد إخوة ثلاثة يقطنون - ولربما يحكمون - تلك البقعة من الأرض، والإخوة بحسب سفر التكوين هم: (مَمَرَا الْأُمُورِيِّ، أَخِي أَشْكُولَ وَأَخِي عَانِرَ. وَكَانُوا أَصْحَابَ عَهْدٍ مَعَ أَبِرَامَ)^(١).

حول هذه المحطة تقول التوراة: (وَلُوطُ السَّائِرُ مَعَ أَبِرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الْأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلَاكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. فَحَدَّثَتْ مُخَاصِمَةً بَيْنَ رِعَاةِ مَوَاشِي أَبِرَامَ وَرِعَاةِ مَوَاشِي لُوطَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الْأَرْضِ. فَقَالَ أَبِرَامُ لِلُّوطِ: «لَا تَكُنْ مُخَاصِمَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رِعَاتِي وَرِعَاتِكَ، لِأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. أَلَيْسَتْ كُلُّ الْأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالًا فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا». فَرَفَعَ لُوطُ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الْأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ، قَبْلَمَا أَخْرَبَ الرَّبُّ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ. حِينَمَا تَجِيءُ إِلَى صُوغَرَ) بالقرب من عمان العاصمة الأردنية حاليًا (فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الْأُرْدُنِّ، وَارْتَحَلَ لُوطُ شَرْقًا. فَاعْتَزَلَ الْوَاحِدُ عَنِ الْآخَرِ.

١. الحثيون شعب هندو-أوروبي سكنوا في آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام منذ ٣٠٠٠ ق.م، وهم من قبائل الأناضول الهندوآوروبية. ورد ذكرهم في النصوص المسمارية باسم بلاد ختي في مناطق الأناضول، وكان سكانها يسمون أنفسهم نسيين. واعتمدت النصوص الحديثة باللغة العربية صيغة الاسم الوارد في التوراة وهي الحثيون، وسماهم الرومان هيثي. ازدهر الحثيون عام (٢٠٠٠-١٢٠٠ ق.م) وأنشأوا دولة قوية عاصمتها خاتوشا حيث هي مدينة (بوغاز كوي) الحالية، على بعد ١٤٤ كم من أنقرة.

أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطُ سَكَنَ فِي مَدْنِ الدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا. وَقَالَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ، بَعْدَ اعْتِرَالِ لُوطَ عَنْهُ: «أَرْفَعُ عَيْنَيْكَ وَأَنْظُرَ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ شَمَالًا وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى الْأَبَدِ. وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَثْرَابَ الْأَرْضِ، حَتَّى إِذَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعِدَّ تَرَابَ الْأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضًا يُعَدُّ. قُمْ أَمْشِ فِي الْأَرْضِ طَوْلَهَا وَعَرَضُهَا، لِأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا». فَتَقَلَ أَبْرَامُ خِيَامَهُ وَآتَى وَأَقَامَ عِنْدَ بِلُوطَاتٍ مَمَرًا الَّتِي فِي حَبْرُونَ) مَدِينَةِ الْخَلِيلِ (وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ) (١).

• المحطة التاسعة :

وهي محطة جَرَار وتأتي مباشرة بعد قصة إنزال العذاب على قوم لوط، والنص في التناخ كالتالي: (وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ) مقارنة بموقع قرية أربع وهي ضمن امتداد أرض الكنعانيين (وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ) (٢).

فلنتعرف على الأماكن المذكورة في النص السابق ثم نعود إلى أحداث القصة.

قادش: المراد هنا قادش برنيع، لوجود قادش أخرى في سورية. وتقع جنوب فلسطين، وكانت تُدعى عين مشفاط. وكلمة قادش مشتقة من كلمة قدس، وفيها دلالة على التقديس، ويذكر بعض شراح التناخ أن حادثة انبثاق الماء لبني

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٢: ٥-١٨.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٠: ١.

الهجرات الإبراهيمية

إسرائيل والتي تحدث عنها القرآن أيضاً في قوله «تعالى»: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾^(١)، وفي قوله «تعالى»: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رَزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢) قد وقعت في هذه المنطقة.

وفي قاموس الكتاب المقدس أن بني إسرائيل -بحسب بعض الآيات التوراتية- تمركزوا في قادش مدة ٣٨ سنة من سني تيههم الأربعين، وأنهم -بحسب آيات أخرى- قضوا معظم تلك المدة خارج قادش، ولحل هذا التعارض يسوغ استنتاج أن خيمة الاجتماع وتابوت العهد ظلا فيها، كما سكن فيها موسى ورؤساء الشعب، فكانت مركزاً عاماً يرجع إليه الشعب لأجل العبادة والقضاء وحل المشاكل الكبرى، بينما سكن عامة الناس خارجها، لأنه لا يمكن لشعب كبير العدد أن يسكن مع مواشيه في بقعة محدودة كهذه. وفي قادش ماتت مريم أخت هارون وموسى^(٣).

شور: من الصعب تحديد مكانها على وجه الدقة، ولكن وُصفت في التَّنَخ بأنها أمام مصر، أي شرق مصر أو على حدودها الشرقية، أي في الجزء الشمالي الغربي لشبه جزيرة سيناء. وفي نص آخر أن النبي موسى قاد بني إسرائيل بعد عبور البحر الأحمر من شواطئ البحر إلى برية شور.

١. سورة الأعراف: ١٦٠.

٢. سورة البقرة: ٦٠.

٣. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٧٠٨.

جَرَار: جاء في قاموس الكتاب المقدس أنه اسم عبري، معناه «جرة»، وهي مدينة قديمة شهيرة في جنوب شرقي غزة، وربما كانت هي المكان المعروف الآن بخربة أم جرار^(١).

ونعود إلى القصة التوراتية في وصف ما جرى للنبي إبراهيم عندما وصل جرار التي يحكمها ملك يحمل اسم أو لقب **أبيمالك** فقد جاء في التعليق على الآية التالية أن أبيمالك لقب لكل حاكم هناك، وليس اسماً له أو لقباً خاصاً به: (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي») وهو نفس السيناريو السابق في مصر (فَأَرْسَلَ أَبِيمالكُ مَلِكُ جَرَّارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. فَجَاءَ اللَّهُ إِلَى أَبِيمالكِ فِي حُلُمٍ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مَتَزَوَّجَةٌ بِيَعْلٍ. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمالكُ قَدْ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، أُمَّةٌ بَارَةٌ تَقْتُلُ؟» أَي أَنَّهُ لَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْباً يُعَاقَبُ عَلَيْهِ وَإِنْ زَالَ الْعُقُوبَةُ بِلَا ذَنْبٍ يَعْدُ ظُلماً (أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضاً نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلَامَةِ قَلْبِي وَنِقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هَذَا). فَقَالَ لَهُ اللَّهُ فِي الْحُلُمِ: «أَنَا أَيْضاً عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلَامَةِ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هَذَا. وَأَنَا أَيْضاً أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيَّ، لِذَلِكَ لَمْ أَدْعَكَ تَمَسُّهَا. فَالآن رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، فَيُصَلِّي لَأَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ». فَبَكَرَ أَبِيمالكُ فِي الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هَذَا الْكَلَامِ فِي مَسَامِعِهِمْ، فَخَافَ الرِّجَالُ جِدًّا).

بعد ذلك استدعى الملك إبراهيم معاتباً ومستغرباً من تصرفه السابق الذي كاد أن يورطه بارتكاب فاحشة: (ثُمَّ دَعَا أَبِيمالكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ:

١. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٢٥٥.

الهجرات الإبراهيمية

«مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ وَبِمَاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيَّ وَعَلَى مَمْلَكَتِي خَطِيئَةً عَظِيمَةً؟ أَعْمَالًا لَا تَعْمَلُ عَمِلْتُ بِي». وَقَالَ أَبِييْمَالِكُ لِإِبْرَاهِيمَ: «مَاذَا رَأَيْتَ حَتَّى عَمِلْتَ هَذَا الشَّيْءَ؟» (أَيُّ مَا الذَّنْبُ الَّذِي اقْتَرَفْنَاهُ كَيْ تَحْقِدَ عَلَيْنَا وَتَوْرَطُنَا بِهِذِهِ الصُّورَةَ الَّتِي تَسْتَدْعِي أَنْزَالَ الْعَذَابِ عَلَيْنَا؟) (فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «إِنِّي قُلْتُ: لَيْسَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللَّهِ الْبَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِي لِأَجْلِ أَمْرَاتِي. وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةُ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً. وَحَدَّثَ لَمَّا أَتَاهُنِي اللَّهُ مِنْ بَيْتِ أَبِي) أَيُّ عِنْدَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْهَجْرَةِ مِنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ فَاسْتَجَابَ لَذَلِكَ وَصَارَ يَتَنَقَّلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرٍ (أَنِّي قُلْتُ لَهَا: هَذَا مَعْرُوفُكَ الَّذِي تَصْنَعِينَ إِلَيَّ: فِي كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِي إِلَيْهِ قَوْلِي عَنِّي: هُوَ أَخِي)).

وكَمَا فَعَلَ حَاكِمُ مِصْرَ مِنْ قَبْلُ، قَامَ أَبِييْمَالِكُ بِتَقْدِيمِ الْعَطَايَا لِإِبْرَاهِيمَ أَمْلًا فِي إِرْضَائِهِ وَدَفْعِ مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِ وَبِبِلَادِهِ وَبِقَوْمِهِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْغَضَبِ الْإِلَهِيِّ (فَأَخَذَ أَبِييْمَالِكُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لِإِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ أَمْرَاتِهِ. وَقَالَ أَبِييْمَالِكُ: «هُوَذَا أَرْضِي قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِي مَا حَسَنَ فِي عَيْنَيْكَ». وَقَالَ لِسَارَةَ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ أَخَاكَ أَلْفًا مِنَ الْفِضَّةِ. هَا هُوَ لَكَ غَطَاءٌ عَيْنَ) أَيُّ مَا يَمْلَأُ عَيْنَكَ فَتَرْضَى عَنَّا (مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَا عِنْدَكَ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، فَأَنْصِفَتْ). فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلَى اللَّهِ) أَيُّ دَعَا اللَّهَ أَنْ يَرْفَعَ عَنِ الْمَلِكِ وَنِسَاءِهِ مَا نَزَلَ بِهِمْ (فَشَفَى اللَّهُ أَبِييْمَالِكَ وَأَمْرَاتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدَنَ. لِأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِييْمَالِكَ بِسَبَبِ سَارَةَ أَمْرَاةِ إِبْرَاهِيمَ) أَيُّ حِفَاطًا عَلَيْهَا كَيْ لَا يَقْتَرِبَ مِنْهَا الْمَلِكُ، وَقَدْ وَعَدَهَا اللَّهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحْمِلَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَى الرِّغْمِ مِنْ كِبَرِ سِنِّهَا. (وَأَفْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ) أَيُّ جَاءَ إِلَيْهَا وَفِي إِحْدَى

الترجمات الإنجليزية And the LORD visited Sarah as he had said أي أن الله زار سارة كما قال لها من قبل (وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ) أي كما وعدها من قبل حيث وعدها أنها ستحمل (فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لِإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللَّهُ عَنْهُ) فقد وعدها الله أنها ستلد بعد سنة (وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ». وَخَتَنَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وَلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ) (١).

قال القمص أنطونيوس فكري في شرحه للكتاب المقدس معلقاً على النص السابق: (لا نعرف لماذا ذهب إبراهيم إلى جرار، وهناك من يقول أنه تأثر مما حدث في سدوم وعمورة إذ رأهما تحترقان. أو هو طلب مرعى آخر إذ كثرت مواشيه، أو لعل مجاعة جديدة حدثت فغادر بلوطات ممرا إلى جرار. وهنا نجد لحظة ضعف إيمان لأبو الإيمان، فيها تغيرت نظرة إبراهيم فبدلاً من أن ينظر للسماء بإيمان نظر لأهل جرار فرآهم أشرار فخاف منهم، وكرّر الخدعة الأولى التي فعلها مع فرعون بعد حوالي ٢٠ سنة. لكن هناك سؤال كيف ينظر ملك جرار إلى سارة وهي الآن تقترب من التسعين من عمرها!! هل كانت مازالت محتفظة بجمالها؟ الإجابة أن الله الذي أعطاهما نسلاً ضد الطبيعة وقد غير طبيعتها بل هي كانت ترضع إسحق هو نفسه أعطاهما حيوية تتحمل الولادة والرضاعة وتربية الطفل فهو الذي جدّد مثل النسر شبابها. وبنفس المفهوم نفهم كيف أن إبراهيم وقد اندهش أن يكون لابن مائة عام

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٠: ٢-١٨، والأصحاح ٢١: ١-٥.

قدرة أن ينجب قد استمر ينجب بعد أن تزوج قطورة وعمره ١٤٠ عاماً وأنجب منها ٦ أولاد) سنذكر هذه القضية لاحقاً (فعطايا الله دائمة لا يرجع فيها)^(١).

• المحطة العاشرة:

بحسب القصة التوراتية، أنه لما بلغ إبراهيم ١٠٠ سنة، وعمر إسماعيل ١٤ سنة، وقد وُلد إسحاق للتو، ضاقت سارة هاجر، وطلبت من زوجها إبراهيم أن يُبعدها وولدها إسماعيل، فأبعدهما إلى منطقة بريّة تقع جنوب شرق جرار، وهي المنطقة التي ستظهر فيها بعد ذلك مدينة بئر سبع (= بئر السبع)، وفي العبرية: כַּבֵּל וְתִלְפָז «بير شيبا»، وهي من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية، تقع على بُعد ٧١ كم جنوب غرب القدس. وهي كذلك أكبر مدن منطقة النّقب الصحراوية، وتسمّى أحياناً «عاصمة النّقب». وتعتبر المدينة، المركز الإداري والتجاري لهذه المنطقة التي تمتد جنوباً حتى مدينة إيلات. أي أننا نتحدّث عن نقل هاجر وابنها إلى منطقة ضمن الأراضي الفلسطينية. وعندما نراجع النص التوراتي الخاص بهذا الحدث نجد فيه نوعاً من عدم الوضوح ونقصان المعلومات، فالرواية تقول: (فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقَرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لَهَاجَرَ، وَاضْعَا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بَيْرِ سَبْعِ)^(٢).

وبعد أن توقفت في هذه البرية وانتهى ما لديها من ماء جلست تنتظر

1. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Tafsir-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-20.html

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ١٤.

رحمة الله أو موت ابنها من العطش، فناداها الملك وطمأنها أن الله قد سمع بكاء الغلام «إسماعيل»: (وَفَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بئرَ ماءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتْ الْقَرْيَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلَامَ) ^(١).

ما الذي جرى بعد ذلك؟ الآية التالية تقول: (وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبُرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ) ^(٢). وسنتحدث عن هذه القضية بشكل أكبر في فصل لاحق يحمل عنوان إسماعيل وهاجر.

وعموماً، فإن الذي نفهمه من هذا النص أن إسماعيل استقر في برية فاران الواقعة شرق مدينة بئر سبع، وسيتبين معنا من خلال التفاصيل اللاحقة أن إبراهيم انتقل بعد ذلك للسكن في بئر سبع نفسها لتكون هذه هي المحطة العاشرة في سلسلة هجرات إبراهيم «عليه السلام».

فالنص التوراتي يتحدث عن أن إبراهيم حين نزل في هذه المنطقة حضر فيها بئراً، فجاء عبيد أبيمالك لاحقاً واغتصبوا تلك البئر. ثم دار حوار بين إبراهيم وإبيمالك، حيث طلب الملك منه أن يعطيه ميثاقاً بعدم الغدر به والانقلاب عليه متى ما شعر إبراهيم بالقوة: (وَحَدَّثَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَنَّ أَبِيمَالِكَ وَفِيكُولَ رَئِيسَ جَيْشِهِ كَلَّمَا إِبْرَاهِيمَ قَائِلَيْنِ: «اللَّهُ مَعَكَ فِي كُلِّ مَا أَنْتَ صَانِعٌ» ولا نعلم ما الذي شاهدهما على وجه التحديد مما دفعهما لقول ذلك، ولكن لا بد أن بركات خليل الله كانت مشهودة، ودعواته مستجابة، وشخصيته

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ١٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٢٠-٢١.

الهجرات الإبراهيمية

مؤثرة (فَالآنَ أَحْلَفَ لِي بِاللَّهِ هَهُنَا أَنَّكَ لَا تَعْدُرُ بِي وَلَا بِنَسْلِي وَذُرِّيَّتِي، كَمَا مَعْرُوفِ الَّذِي صَنَعْتَ إِلَيْكَ تَصْنَعُ إِلَيَّ وَإِلَى الْأَرْضِ الَّتِي تَغَرَّبْتَ فِيهَا». فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «أَنَا أَحْلَفُ»^(١)).

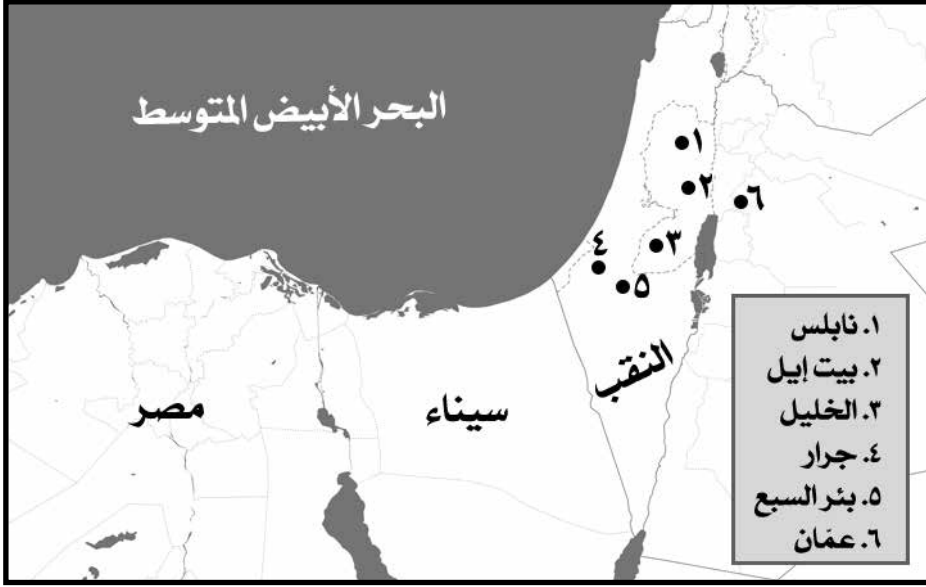
واستغل إبراهيم الفرصة ليسترجع حقه في البئر من عبيد الملك: (وَعَاتَبَ إِبْرَاهِيمُ أَبِيمَالِكَ لِسَبَبِ بُئْرِ الْمَاءِ الَّتِي اغْتَصَبَهَا عَبِيدُ أَبِيمَالِكَ. فَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «لَمْ أَعْلَمْ مَنْ فَعَلَ هَذَا الْأَمْرَ. أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْنِي، وَلَا أَنَا سَمِعْتُ سِوَى الْيَوْمِ»).

وهكذا استرجع إبراهيم البئر من أبيمالك وقطع كل منهما ميثاقاً تجاه الآخر بعدم الغدر بصاحبه، وقدم له إبراهيم هدايا من الأنعام، ومن بينها سبع نعاج وضعها على حدة لتكون شاهداً على هذا الميثاق، وهي عادة من عادات قوم إبراهيم كما سنبين: (فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَأَعْطَى أَبِيمَالِكَ، فَقَطَّعَا كِلَاهُمَا مِيثَاقًا. وَأَقَامَ إِبْرَاهِيمُ سَبْعَ نَعَاجٍ مِنَ الْغَنَمِ وَحَدَّهَا. فَقَالَ أَبِيمَالِكُ لِإِبْرَاهِيمَ: «مَا هِيَ هَذِهِ السَّبْعُ النَّعَاجُ الَّتِي أَقَمْتَهَا وَحَدَّهَا؟» فَقَالَ: «إِنَّكَ سَبْعَ نَعَاجٍ تَأْخُذُ مِنْ يَدِي، لِكَيْ تَكُونَ لِي شَهَادَةً بِأَنِّي حَفَرْتُ هَذِهِ الْبُئْرَ». لَذَلِكَ دَعَا ذَلِكَ الْمَوْضِعَ «بُئْرَ سَبْعَ»، لِأَنَّهُمَا هُنَاكَ حَلَفَا كِلَاهُمَا. فَقَطَّعَا مِيثَاقًا فِي بُئْرِ سَبْعَ، ثُمَّ قَامَ أَبِيمَالِكُ وَفِيكَوْلُ رَئِيسِ جَيْشِهِ وَرَجَعَا إِلَى أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ أَثْلًا فِي بُئْرِ سَبْعَ، وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ الْإِلَهِ السَّرْمَدِيِّ)^(٢).

جاء في شرح هذه الآيات من قبل القمص أنطونيوس فكري أن: (كلمة سبع بالعبرية Shevah وأصلها Savah أي يشبع ويمتلئ.... ومن نفس

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٢٢-٢٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٢٢-٢٣.



محطات هجرة النبي إبراهيم بين أرض كنعان ومصر

الأصل اشتقت كلمة يقسم أو يحلف، فهم كانوا يستخدمون للحلف سبع نعاج أو سبع خراف، فالبئر أسميت ببئر سبع، أي بئر القسم أو الحلف، لأنهم تعاقدوا بحلف بشأنها واستخدم في الحلف سبع نعاج. ومعنى السبع نعاج كمال القسم أو تمام الروابط بينهم (تك ٢٨: ٢١-٣١) لذلك نجد نفس الكلمة تستخدم كرقم سبع وتستخدم كقسم أو حلف^(١).

وبقي إبراهيم «عليه السلام» في بئر سبع مدة طويلة: (وَتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً)^(٢). وبحسب النصوص التوراتية ستكون هذه

1. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Taf-sir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Taf-seer-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-21.html

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٣٤.

المنطقة هي مستقر إسحاق ويعقوب وبنيه لاحقاً.

• المحطة الحادية عشرة:

عاد إبراهيم «عليه السلام» مجدداً في أواخر حياته إلى قرية أربع (= حبرون/الخليل)، وفيها توفي، وسنبحث هذا الموضوع مفصلاً في الفصل الأخير من الكتاب.

هذه هي أهم ملامح سلسلة هجرات إبراهيم «عليه السلام» التي استقيناها من خلال الكتاب المقدس، ويبقى أن نضيف إليها محطة مكة المكرمة بحسب النص القرآني. وعموماً ينبغي أن نلاحظ أنه لربما كانت له حركة تنقل بين هذه المقار المختلفة بلحاظ بعض الظروف وتعدد ممتلكاته وتوزعها في أنحاء من أرض كنعان. قال القمص أنطونيوس فكري: (كان إبراهيم يتنقل غالباً وله عدة مراكز بسبب أملاكه الوفيرة بين حبرون وبئر سبع)^(١).

• محطة النجف:

من بين ما جاء في كتب المسلمين عن هجرة النبي إبراهيم ما ذكره عدة من المؤرخين والجغرافيين ورواة الأثر من أنه «عليه السلام» نزل في أرض يقال لها **بانقيا** وهي التي تقع حالياً ضمن حدود مدينة **النجف الأشرف**. ومن بين هذه المصادر والأخبار ما يلي:

○ قال ياقوت الحموي في **معجم البلدان**: (**بانقيا** بكسر النون: ناحية من

1. https://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/01-Sefer-El-Takween/Tafsir-Sefer-El-Takwin__01-Chapter-23.html

نواحي الكوفة ذكرها في الفتوح. وفي أخبار إبراهيم الخليل «عليه السلام» ولا يذكر لنا مصدر الخبر ومن الراوي (خرج من بابل على حمار له ومعه ابن أخيه لوط يسوق غنماً ويحمل دلواً على عاتقه حتى نزل بانقيا وكان طولها اثني عشر فرسخاً) ٧٠ كم تقريباً وهذا غير متصور بحق مساحات المدن في ذلك الزمان حتى لو افترضنا أن المقصود من الطول هو المحيط، فقد كان محيط مدينة بابل التي يضرب بها المثل آنذاك ١٨ كم، ومحيط نينوى ٩ كم، وهي التي وصف الله سعتها لبيان ضخامتها في قوله ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾^(١)، والوركاء ٩ كم^(٢) (وكانوا يُزَلْزَلُونَ في كل ليلة، فلما بات إبراهيم عندهم لم يُزَلْزَلُوا. فقال لهم شيخ بات عنده إبراهيم «عليه السلام»: واللّه ما دُفِعَ عنكم إلا بشيخ بات عندي، فإني رأيته كثير الصلاة، فجأؤوه وعرضوا عليه المُقام عندهم، وبذلوا له البذول، فقال: إنما خرجت مهاجراً إلى ربي. وخرج حتى أتى النجف) النجف في اللغة: مكان مستطيل في بطن الوادي، أو في بطن من الأرض لا يعلوه الماء. والنجفة التي بظهر الكوفة، وهي كالمُسَنَّة تمنع ماء السيل أن يعلو منازل الكوفة ومقابرها^(٣) (فلما رآه رجع أدراجه -أي من حيث مضى- فتباشروا وظنوا أنه رغب فيما بذلوا له فقال لهم: لمن تلك الأرض؟ يعني النجف، قالوا: هي لنا. قال: فتبيعونيها؟ قالوا: هي لك، فوالله ما تُنبت شيئاً. فقال: لا أحبها إلا شراء. فدفع إليها غنيمات كن معه بها، والغنم يقال لها بالنبطية نقيا. قال: أكره أن آخذها بغير ثمن، فصنعوا

١. سورة الصافات: ١٤٧.

٢. شحيلات والحمداني: مختصر تاريخ العراق، تاريخ العراق القديم، ج ٣، ص ٢٩٨.

٣. ابن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٣٢٣.

ما صنع أهل بيت المقدس بصاحبهم، وهبوا له أرضهم، فلما نزلت بها البركة رجعوا عليه. وذكر إبراهيم «عليه السلام» أنه يُحشر من وُلده من ذلك الموضع سبعون ألف شهيد، فاليهود تنقل موتاهم إلى هذا المكان لهذا السبب^(١).

○ وجاء في كتاب تاريخ النجف الأشرف لمحمد حرز الدين^(٢): (اعتقد اليهود بفضل دفن الموتى في أرض النجف لما أشارت إليه كتبهم أن سيُبعث من هذه الأرض سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. وقد تقدّمت الإشارة في أسماء موضع النجف أن بانقيا أرض بالنجف دون الكوفة لم يزل اليهود يسكنونها عصر الخلافة الراشدة. أخرج السيّد الشريف محمد بن علي العلوي الحسن بن البطحاني) وذكر السند إلى أن قال: (حدّثنا الحسين بن كثير، عن أبيه، قال: كنّا في الرحبة جلوساً عند علي «عليه السلام» فأرسل إلى رأس الجالوت فقال له: يا رأس الجالوت) رئيس الجالية اليهودية (فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بال موتاكم يُجاء بهم من أطراف الأرض حتى يُدفنوا بظهر الكوفة؟ قال: إنّنا نجد في كتاب موسى أنّه يُبعث من ظهر الكوفة سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، قال: يا رأس الجالوت أولئك منّا وليسوا منكم، أولئك قوم لا يَسْتَرْقُونَ) يعني لا يسألون الناس أن يرقوهم (ولا يكتزون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، أولئك منّا وليسوا منكم. وأخرج أسلم بن سهل الواسطي في تاريخه، قال: حدّثنا محمد بن حرب، قال: حدّثنا

١. الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢١.

٢. محمد حسين بن علي بن محمد حرز الدين المسلمي، نسبة إلى القبيلة الفراتية بني مسلم (١٣٢٣هـ-١٤١٨هـ). عالم دين وأديب. له عدة مصنفات، من بينها (معارف الرجال)، (مشجّر الأنساب)، (تاريخ النجف الأشرف)، (العقيليون: نسبهم وأحوالهم).

علي بن عاصم، عن حصين، قال: سمعت عمرو بن حريث يقول: قالت اليهود أعداء الله: يُبعث منا من هذا المكان - يعني ظهر الكوفة - سبعون ألفاً يدخلون الجنة لا حساب عليهم. قال عمرو بن حريث: كذبوا والله، إننا لنرجو أن نكون نحن هم^(١).

○ وفي معجم ما استعجم للبكري الأندلسي^(٢): (بانقيا، بزيادة ألف بين الباء والنون، وكسر النون، بعدها قاف وياء معجمة باثنتين من تحتها: أرض بالنجف دون الكوفة، قال الأعشى:

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذا راح مفعما

وقال أيضاً:

قد طفت ما بين بانقيا إلى عدن وطل في العجم ترحالي وتسياري

قال أحمد بن يحيى ثعلب في شرحه لشعر الأعشى، عند ذكر هذا البيت: سبب بانقيا الذي سُميت به أن إبراهيم ولوطاً «عليه السلام» مرّا بها يريدان بيت المقدس مهاجرين، فنزلا بها وكانت تُزلزل في كل ليلة، وكانت ضخمة جداً فراسخ) نلاحظ هنا أنه لم يذكر المساحة على خلاف ما جاء في الخبر

١. حرز الدين: تاريخ النجف الأشرف، ج ١، ص ٨٩-٩٠.

٢. أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو الأندلسي البكري، نسبة لقبيلة بكر بن وائل (١٠٢٠م-١٠٩٤م). جغرافياً وموسوعياً وأديباً وعالم بالنبات. يعتبر أول الجغرافيين المسلمين في الأندلس. قيل إن ملوك الأندلس كانوا يتهدون كتبه. في عام ١٩٤٩م أطلقت وكالة الفضاء الأميركية ناسا اسمه على فوهة من فوهات القمر تقديراً لإسهاماته المتميزة في حقل الجغرافيا. له مصنفات عديدة من بينها (كتاب الإحصاء لطبقات الشعراء)، (المسالك والممالك)، (التدريب والتهذيب في دروب أحوال الحروب).

السابق (فلما باتا بها لم تزلزل، فمشى بعضهم إلى بعض تعجباً من عافيتهم في ليلتهم، فقال صاحب منزل إبراهيم: ما دُفع عنكم إلا بشيخ بات عندي كان يصلّي ليلته ويبيكي، فاجتمعوا إليه فسألوه المَقام عندهم على أن يجمعوا له من أموالهم فيكون أكثرهم مالاً، فقال: لم أؤمر بذلك) أي بالبقاء عندهم (وإنما أمرت بالهجرة. فخرج حتى أتى النجف، فلما رآه رجع أدراجه فتباشروا برجوعه وظنوا أنه رغب فيما عندهم، فقال: لمن تلك الأرض؟ يعنى النجف. قالوا: لنا. قال: فتبيعونيها؟ قالوا: هي لك، فوالله ما تُتبت شيئاً. فقال: لا أحب إلا أن تكون شراءً. فدفع إليهم غُنيّات كن معه، والغنم بالنبطية يقال لها نقيا. وذكر إبراهيم «عليه السلام» أنه يُحشر من ولده من ذلك الظهر سبعون ألف شهيد. فاليهود تنقل موتاهما إلى بانقيا لمكان هذا الحديث)^(١).

○ ولهذه المقولة التي جاء بها ياقوت الحموي وغيره أصل في الروايات، إذ نجد في **علل الشرائع للصدوق** في الخبر المرفوع إلى علي «عليه السلام» قال: (إن إبراهيم «صلى الله عليه» مرّ ببانقيا، فكان يُزلزل بها، فبات بها، فأصبح القوم ولم يزلزل بهم، فقالوا: ما هذا وليس حدث؟ قالوا: نزل ها هنا شيخ ومعه غلام له) ويفترض أنه لوط بحسب الرواية السابقة (قال: فأتوه، فقالوا له: يا هذا، إنه كان يُزلزل بنا كل ليلة ولم يزلزل بنا هذه الليلة، فبت عندنا، فبات فلم يُزلزل بهم، فقالوا: أقم عندنا ونحن نُجري عليك ما أحببت. قال: لا، ولكن تبيعوني هذا الظَّهر) أي النجف (ولا يُزلزل بكم، فقالوا: فهو لك، قال: لا آخذه إلا بالشراء. فقالوا: فخذ ما شئت. فاشترى سبع نعاج وأربعة

١. البكري الأندلسي: معجم ما استعجم، ج ١، ص ٢٢٢.

أحمره، فلذلك سمي بانقيا لأن النعاج بالنبطية نقيا. قال: فقال له غلامه: يا خليل الرحمن، ما تصنع بهذا الظهر ليس فيه زرع ولا ضرع. فقال له: اسكت، فإن الله «تعالى» يحشر من هذا الظهر سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، يشفع الرجل منهم لكذا وكذا^(١). من مجموع ما سبق، تبرز عدة تساؤلات:

١. لم تتضح فائدة شرائه الأرض، حيث يمكن أن تتحوّل إلى مقبرة من دون أن يملكها، فقد كانت أرضاً جرداء متروكة.

٢. وهل أخذ إبراهيم «عليه السلام» إجراءً ما حين تملكها كي تتحوّل إلى مقبرة للشهداء أو للصالحين مثلاً؟

٣. هل الدفن هو الذي سيكفل للمدفونين دخول الجنة بغير حساب - وهذا خلاف العدل الإلهي حتماً - أم أن المدفونين بها سيكونون من أصحاب هذا الامتياز الأخروي، والمكان مجرد جامع لمراقدهم؟

٤. هل سعى اليهود لدفن موتاهم في هذه الأرض سيجعلهم مشمولين في دخول الجنة بغير حساب؟

٥. وهل في النجف مدافن كثيرة لليهود؟

٦. وهل إذا دُفن فيها من غير ذرية إبراهيم لا ينالون هذا الامتياز؟

٧. هل تعرّض تلك المنطقة للزلازل يومياً أم مقبول علمياً أم لا؟ وهل يمكن التحقق ذلك في تلك الأرض لكونها على خط الزلازل مثلاً أو لوجود مسبب جيولوجي محدد؟ وحول هذا السؤال جاءني الجواب من د. عبدالسميع

١. الصدوق: علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٨٥.

بهبهاني كالتالي: (هناك خرائط رُسمت لمواقع الزلازل واحتمالاتها حسب حركة الصفائح الأرضية، وقد قيس فيها مركز عمق الزلزال الذي يتراوح من ٥٠ إلى ٤٠٠ كم تحت الأرض، فمثلاً خط زلزال جبال زاغروس الإيرانية الممتد إلى جبال تركيا الشرقية حيث تقع بالقرب منها مدينة كرمانشاه الإيرانية، عمق الزلزال فيه ٥٠ كم، وقوة زلزالها يصل إلى ٧ ريختر، أما صحراء النجف فتبعد عن هذا الخط مسافة ٤٠٠ - ٥٠٠ كم، فتأثرها بعمق هذا الزلزال يتراوح من ٣ - ٥ رختر، وتعتبر من المواقع المستقرة، وإن حدث الزلزال، وذلك لسمك الطبقات الرملية تحت النجف).

٨. ما علاقة وجود إبراهيم «عليه السلام» بإيقاف الزلازل؟ فإذا افترضنا أنها كانت من الآيات الإلهية، فينبغي أن يكون ذلك ملازماً لعملية إنذار وسعي لهداية، ولكن لا مؤشراً في ما ذكر على أن إبراهيم «عليه السلام» سعى لهداية القوم كي تتحقق الآية، ولا حديث عن إنذار مسبق.

وإذا افترضنا أن مجرد وجوده عندهم حقق ذلك، فلماذا لم يرفع الله الأمراض عن المسلمين حال وجود النبي «صلى الله عليه وآله» بين ظهرائهم؟ وإذا افترضنا أن وجوده ذو تأثير بهذه الصورة، فما علاقة شراء الأرض برفع الزلازل عن هذه الأرض؟

٩. لا معنى لتوجهه إلى بانقيا إذا كان طريق هجرته من كوثي ربّا - مسقط رأسه - إلى الشمال باتجاه حرّان، ومن ثمّ إلى أرض الكنعانيين، بحسب ما مرّ معنا في طريق هجرته، لأن بانقيا تقع جنوب كوثي ربّا، بل لا يصح ذلك حتى لو افترضنا خطأ ما جاء في التوراة من أنه ذهب إلى حرّان، لأنه كان



بأنقيا - أور - كوثى - حران - نابلس

سيتوجّه شمالاً على كل حال، لأن القرآن الكريم يخبرنا أنه هاجر إلى الأرض التي باركها الله، وهي أرض الكنعانيين بلا خلاف، وطريق الهجرة من جنوب بلاد الرافدين إلى أرض كنعان يكون بمحاذاة نهر الفرات باتجاه الشمال. إلا أن يقال أن مدينة أور هي مسقط رأسه، وهي بالقرب من الناصرية، فتكون بأنقيا في طريق هجرته إلى الشمال حيث حرّان.

١٠. ثم إننا نجد في بعض المصادر أن علياً «عليه السلام» اشترى أرضاً واسعة في تلك المنطقة، ففي كتاب الغارات للثقفي^(١): (اشترى أمير المؤمنين «عليه السلام» ما بين الخورنق إلى الحيرة إلى الكوفة. وفي رواية أخرى: ما

١. إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن مسعود الثقفي (ت ٢٨٣هـ). عالم ومؤرخ. له أكثر من خمسين مصنفاً، منها: (كتاب المغازي)، (السقيفة)، (الردة)، (مقتل عثمان)، (الشورى)، (الجمال)، (صفين)، (الحكماء)، (مقتل علي)، (أخبار يزيد).

بين النجف إلى الحيرة إلى الكوفة من الدهاقين بأربعين ألف درهم، وأشهد على شرائه، فقليل له في ذلك، فقال: سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: كوفان يُردُّ أولُّها على آخرها، يُحشر من ظهرها سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، فاشتريت أن يحشروا من ملكي^(١).

وفي أخبار أصبهان للأصبهاني: (اشترى علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» ما بين الخورنق إلى الحيرة بأربعين ألفاً من دهاقين الخورنق، فقليل له يا أمير المؤمنين اشتريت حجراً أصم لا يُنبئ شيئاً؟ قال: صدقتم، إني سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» ... إلخ^(٢)).

واعتبر البعض أن فعله تأكيد لشراء جده إبراهيم الأرض حتى لا يدعيها أحد^(٣).

ولكن إذا كان فعله «عليه السلام» تأكيداً لما فعله إبراهيم، فكيف يكون ملكاً له وهو ملك لإبراهيم؟ وهل يدفع الإمام كل هذا المبلغ لتلبية شيء يشتهي؟ وهل يتحقق شرعاً شراء قطعة أرض جرداء، وفي الفقه المتداول أن تملكها يكون بالإحياء لا بالشراء؟ وهل من يسكن ويتصرف ويشترى ويبيع في تلك المنطقة الواسعة اليوم يعتبر مُغتصباً لأُملاك إبراهيم «عليه السلام» أو علي «عليه السلام»؟ هذه التساؤلات العديدة تطرح إشكالية كبيرة على قبول هذه الروايات، والله أعلم بحقيقة الحال.

١. الثقفى: الغارات، ج ٢، ص ٨٤٥.

٢. الأصبهاني: أخبار أصبهان، ج ٢، ص ١٧٤.

3. سلسلة-القبائل-العربية-في-العراق-٢-العراق-<https://www.alameli.net/>

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ تحدث القرآن الكريم بشكل إجمالي عن هجرة إبراهيم «عليه السلام»، وذلك بعد فشل محاولة إحراقه، وألحق به لوطاً «عليه السلام»، ولم يرد في القرآن ذكر لمحطات هذه الهجرة سوى المستقر الأخير فيها، وهي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، بحسب الوصف القرآني.

○ تحدثت التوراة عن محطات هذه الرحلة، وأوصلنا الرئيسة منها إلى أحد عشر موضعاً، وهي تلتقي مع الصورة القرآنية في أن المحطة التي استقر فيها نهائياً هي الأرض المباركة أي أرض كنعان، وفيها مدفنه.

○ تضمنت التوراة تفاصيل غير مقبولة جاءت في إطار الحديث عن بعض هذه المحطات، ونسبت للنبي إبراهيم مواقف مخجلة، كررتها بعض الروايات الإسلامية، وهو ما لا يمكن قبوله بحال، وهي تناقض مروءة الإنسان العادي، فكيف بأبي الأنبياء؟

○ تحدثت بعض الروايات الإسلامية عن نزول النبي إبراهيم في موقع النجف الأشرف التي كانت تُزلزل ليلاً، فكان لنزوله فيها أثر في توقف الزلازل، مما دفع أهل تلك المنطقة أن يطلبوا منه الاستقرار عندهم، فرفض، واشترى منهم قطعة أرض لتكون مقبرة يُحشر منها سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وأن هذا دفع باليهود لدفن موتاهم فيها على مر الزمان.

○ كما تحدثت بعض الروايات عن قيام أمير المؤمنين علي «عليه السلام» لاحقاً بشراء الأرض مجدداً، لأنه «اشتهد» أن يُحشر أولئك من مُلكه!
○ طرحت عدة إشكالات على الروايتين، مما يُضعف دلالتها.

إبراهيم المقاتل

إبراهيم المقاتل

• موضوعات هذا الفصل:

- استعراض طبيعة الحرب التي قامت بين اتحادين امتدّا من (عيلام) في إيران إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.
- تمرّد المهزومين وأسر النبي لوط بيد قوات الاتحاد الأول.
- قيام النبي إبراهيم بحملة مضادة وتحرير النبي لوط من الأسر.
- رفض النبي إبراهيم الغنائم، وموقف الملك المؤمن - ملكي صادق - منه.
- الحديث حول البشارة بإسماعيل والتي جاءت بمثابة عطية إلهية مهداة لإبراهيم جزاءً على إنقاذه لوط وترفعه عن الغنائم المادية وإخلاصاً لله.
- علاقة آية الابتلاء بالبشارة بإسماعيل أو باختبار ذبحه.
- التحديد الزمني للبشارة بإسحاق من قبل الملائكة وعلاقة ذلك بإهلاك قوم النبي لوط.
- شبهة التجسيد الإلهي في التوراة، وورطة الحاخامات في تفسيرها.
- مجادلة النبي إبراهيم في مصير قوم لوط.

استقر المقام بإبراهيم «عليه السلام» في أرض كنعان، واختار البقاء في قسم من هذه الأرض كانت تحت حكم الحثيين - بني حث كما في التنخ - فأرض كنعان لم تكن محكومة من قِبَل مَلِك واحد، بل مقسّمة إلى ممالك صغيرة، وقد تكون القرية أحياناً مملكة في حد ذاتها. وهذه الحالة مشهودة اليوم في مدغشقر مثلاً، حيث ما زال لكل قبيلة ملك يحكمها.

ونحن مضطرون هنا إلى العودة إلى التنخ لمحاولة استكشاف أهم الأحداث التي واجهها إبراهيم «عليه السلام» في أرض كنعان، وتقييم النص التوراتي ضمن دراسة الأحداث ومن بينها:

○ إنزال العذاب على قوم لوط.

○ تبشيره بالذرية.

○ سعيه لذبح ابنه.

الحرب التي خاضها لتحرير النبي لوط.

○ وغير ذلك.

محاولين أن نرتّبها ترتيباً زمنياً معقولاً، وتصحيح بعض التصورات الخاصة بها. وأولى هذه الأحداث هي خوض إبراهيم الحرب ضد اتحاد الممالك الشرقية.

• الحربان الاتحاديتان:

بعد افتراق لوط عن إبراهيم «عليهما السلام»، تحدّث الأصحاح ١٤ من

سفر التكوين عن وقوع حرب بين الممالك المنتشرة من كنعان باتجاه الشرق، حيث تشكّل منها اتحادان متنازعان، شاركت في أحد طرفيه: مملكة سدوم، وكان يحكمها الملك بارع، ومملكة عمورة، وكان يحكمها الملك برشاع، وغيرهما من الممالك... وفي الطرف الآخر اتحاد بين مملكتي شنعار وعيلام^(١) وغيرهما من الممالك.

وقد قام الاتحاد الثاني بالاجتماع (مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمُقِ السَّدِيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمَلْحِ)^(٢) أي البحر الميت، وانتصروا على الاتحاد الأول، واستعبدوهم لمدة ١٢ سنة.

وفي السنة الثالثة عشرة تمرّدت الممالك المستعبدة: (فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدَمَةَ، وَمَلِكُ صَبُويِمَ، وَمَلِكُ بَالَعِ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمُقِ السَّدِيمِ....) وفشل التمرد (وَعُمُقُ السَّدِيمِ كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ) والعبارة في ترجمة أخرى للتوراة أوضح من هذه حيث تقول: «وكان وادي السديم مليئاً بآبار الزفت، فاندحر ملكا سدوم وعمورة وسقطا بينها» (وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلَاقِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا).

١. عيلام = إيلام، حضارة قديمة، امتدّت في الأراضي المنخفضة التي تُسمى الآن محافظة خوزستان ومحافظة عيلام، بالإضافة إلى جزء صغير جنوب العراق. كانت عيلام في عصر العيلاميين القديم مؤلفة من ممالك واقعة على الهضبة الإيرانية، تمركزت في إمارة أنشان، وتمركزت منذ منتصف الألفية الثانية قبل الميلاد في سوسة الموجودة في الأراضي المنخفضة في خوزستان. ويصعب تحديد امتداد مملكة شنعار على وجه الدقة، ولكنها مملكة قامت في أنحاء من العراق ما بين النهرين، وضمت بابل ومدن أخرى عديدة.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٤: ٣.

ومن بين النتائج التي أسفرت عنها هذه المواجهة وقمع التمرد أن وقع لوط «عليه السلام» في أسر الغزاة: (وَأَخَذُوا لُوطًا ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلَاكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ) ^(١).

• تحرير النبي لوط :

وتتحدث الرواية التوراتية عن بلوغ الخبر للنبي إبراهيم: (فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ) والأصح أن يقال ابن أخيه، وهو لوط كما جاء في ترجمة عربية أخرى عن التوراة، وقد يكون بمعنى الأخوة الإيمانية (سُبِّي، جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّينَ، وَلِدَانِ بَيْتِهِ، ثَلَاثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ) التي تقع بالقرب من مدينة بانياس في سورية (وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ) وهي تسمى الآن قرية حلبون (الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ. وَاسْتَرْجَعَ كُلُّ الْأَمْلَاكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطًا أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلَاكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ) ^(٢).

كان هذا الانتصار الذي حققه النبي إبراهيم «عليه السلام» على الغزاة مدعاة لابتهاج ملك سدوم: (فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لَاسْتِقْبَالِهِ... وَمَلِكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْرًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا لِلَّهِ الْعَلِيِّ) أي كان ملكي صادق مؤمناً ورجل دين موحد (وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «مُبَارَكُ أَبْرَامَ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ مَا لَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُبَارَكُ اللَّهُ الْعَلِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهُ عَشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ مَلِكُ سَدُومَ لِأَبْرَامَ: «أَعْطِنِي النُّفُوسَ، وَأَمَّا الْأَمْلَاكُ فَخُذْهَا لِنَفْسِكَ»).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٤: ٨-١٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٤: ١٤-١٦.

ترفع النبي إبراهيم عن أخذ الغنيمة، ولكنه أعطى شركاءه في الحرب أنصبتهم من الغنائم: (فَقَالَ أَبْرَامُ لِمَلِكٍ سَدُومَ: «رَفَعْتُ يَدِي إِلَى الرَّبِّ إِلَهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا أَخْذَنْ لَا خَيْطًا وَلَا شَرَاكَ نَعْلَ وَلَا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، فَلَا تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ. لَيْسَ لِي غَيْرُ الَّذِي أَكَلَهُ الْغُلَمَانُ، وَأَمَّا نَصِيبُ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا مَعِيَ: عَانِرٍ وَأَشْكُولٍ وَمَمَرَا، فَهُمْ يَأْخُذُونَ نَصِيبَهُمْ»^(١)).

• البشارة بإسماعيل:

كان هذا الموقف البطولي الشهم ثم الكريم من قبل النبي إبراهيم مدعاة للتكريم الإلهي له: (بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلًا: «لَا تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جَدًّا». فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا؟ وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدَّمَشْقِيُّ؟»^(٢)) وفي ترجمة أخرى: «ووارث بيتي هو أليعازر الدمشقي» أي أن عدم وجود ذرية لإبراهيم سيكون مدعاة لأن يرثه الدمشقي هذا، وهو كما سيأتي عبدٌ ولد في بيت النبي إبراهيم فاتَّخذه ولدًا بالتبني. هذا الوصف يشبه أيضًا وإلى - حدٍ بعيد - ما جرى لنبينا محمد «صلى الله عليه وآله» حيث مات أولاده الذكور صغاراً، فاتَّخذ من مملوكٍ لزوجته السيدة خديجة - وهو زيد بن حارثة - ولدًا له بالتبني.

(وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلًا، وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي») وفي

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٤: ١٧-٢٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٥: ١-٢.

ترجمة أخرى: «وها هو عبدٌ مولودٌ في بيتي يكون وارثي» (فَإِذَا كَلَّمَ الرَّبُّ إِلَيْهِ قَائِلًا: «لَا يَرِثُكَ هَذَا، بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ يَرِثُكَ». ثُمَّ أَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجٍ وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا». وَقَالَ لَهُ: «هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». فَأَمَّنَ بِالرَّبِّ، فَحَسِبَهُ لَهُ بَرًّا»^(١).

تحققت البشارة التي جاءت في الآيات التوراتية التي تناولناها بالأمس، إذ تتحدث القصة التوراتية عن ولادة إسماعيل «عليه السلام» من هاجر، بعد أن خرجت حال حملها هاربة إلى الصحراء إلى منطقة في طريق السفر إلى مصر، وذلك نتيجة غير سارة منها ومضايقتها لها.

وظهر لها الملك وهي جالسة عند عين ماء وطلب منها الرجوع إلى بيت إبراهيم: (فَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي إِلَى مَوْلَاتِكَ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرُ نَسْلِكَ فَلَا يَعُدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لَأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكَ»^(٢).

وإسماعيل اسم مركب من إسماع - من أصل يسمع - ومن إيل بمعنى الإله. وجاء الاسم كثيراً بنقوش اليمن: «ي س م ع إ ل»، وفي نقش واحد بصورة «إ س م ع ل»، وفي نقوش بوادي الشام بصورة «ي س م ع ل». وقد يكون اشتقاق اسم النبي إسماعيل من أن «الله سمع» دعاء إبراهيم ﴿رَبِّ هَبْ لِي

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٥: ٣-٦.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٦: ٩-١١.

مِنَ الصَّالِحِينَ»^(١)، فوهب له على كبر سنه ولداً هو إسماعيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٢). فقد تكون عبارة ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ إشارة لاشتقاق اسم النبي إسماعيل «عليه السلام».

ثم يقول النص التوراتي: (..... فَوَلَدَتْ هَاجِرُ لَأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجِرُ «إِسْمَاعِيلَ». كَانَ أَبْرَامُ ابْنِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ لَأَبْرَامَ)^(٣).

وبعد ثلاث عشرة سنة جاءت البشارة مجدداً في استمرار نسله من بعده، ومنهم من سيحمل الرسالة الإلهية كما حملها إبراهيم: (وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لَأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللَّهُ الْقَدِيرُ. سِرَّ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأَكْثُرَكَ كَثِيرًا جِدًّا». فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللَّهُ مَعَهُ قَائِلًا: «أَمَّا أَنَا فَهَؤُذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبَا لَجْمُهورٍ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَا يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدَ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبَا لَجْمُهورٍ مِنَ الْأُمَمِ»).

جاء في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس أن الله غير اسم أبرام، ويعني «الأب الرفيع» إلى إبراهيم، ويعني «أب لجمهور» ليعكس الاسم مركزه الجديد كأب للأمم، ومن تلك اللحظة فصاعداً أصبح يدعى إبراهيم: (وَأَثْمُرَكَ كَثِيرًا

١. سورة الصافات: ١٠٠.

٢. سورة إبراهيم: ٣٩.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٦: ١٥-١٦.

جَدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمًّا، وَمُلُوكُكَ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لَأَكُونَ إِلَهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأَعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلَكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونَ إِلَهُهُمْ». وَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ»^(١).

وذكرنا من قبل أن قوله «تعالى»: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢) قد يكون إشارة إلى جانب مما جاء في هذا النص التوراتي. فإن صحَّ ذلك فهذا يعني أن وقت جريان هذا الحوار كان عندما بلغ إبراهيم التاسعة والتسعين من عمره وهو في أرض كنعان.

وفي بعض الروايات أن الآية مرتبطة باختبار ذبح ابنه إسماعيل، ففي تفسير علي بن إبراهيم: (﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: هو ما ابتلاه الله به مما أراه في نومه بذبح ولده فأتمها إبراهيم «عليه السلام»^(٣). ويمكن الجمع بين الأمرين، كما سيأتي في بحث «الذبيح» أن الله رزق إبراهيم بولد آخر عندما أبدى استعدادَه للتضحية بابنه الأول، فكانت هذه مكافأة من الله، ولذا عبرت الآية بأن هبة إسحاق نافلة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾^(٤).

١. مجموعة محررين: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ٤٤.

٢. سورة البقرة: ١٢٤.

٣. القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ٥٩.

٤. سورة الأنبياء: ٧٢.

• البشارة بإسحاق:

تقول القصة التوراتية أنه بعد تلقى النبي إبراهيم «عليه السلام» البشارة السابقة أرسل الله «عز وجل» ثلاثة من الملائكة في هيئة بشرية، ومعهم رسالتان، الأولى ترتبط بحمل سارة وهي عجوز عقيم، وأنها ستلد ولداً هو إسحق، والثانية تخص قوم النبي لوط «عليه السلام»: (وَوَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بُلُوطَاتٍ مَمَرًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخِيْمَةِ وَقَتَ حَرِّ النَّهَارِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلَاثَةُ رِجَالٍ وَقِفُونَ لَدَيْهِ) ^(١). وقد مر بنا أن هذا المكان مرتبط بقرية أربع التي ستكون لاحقاً جزءاً من مدينة الخليل (= حبرون/حبرى).

وظهور الرب هنا - بحسب ظاهر العبارة - فيه تجسيم للذات الإلهية، ثم ما علاقة هذا الظهور بالرجال الثلاثة الذين كانوا في واقع الحال ثلاثاً من الملائكة؟ سأطرق لاحقاً لبيان هذا الأمر وتفسيره.

ويتحدث النص لاحقاً حول كيفية استقبال النبي إبراهيم لهم على أحسن وجه، وأنه قدّم لهم في البدء كسرة خبز ليسدّوا بها جوعتهم إلى أن يأتي لهم بالطعام: (فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخِيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلَا تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ» مجدداً نواجه مشكلة في العبارة، فمن هو السيد؟ وعينا من المقصودة هنا؟ هل هو الله؟ ولماذا يتحوّل الخطاب للمفرد هنا إلى خطاب للرجال الثلاثة في الفقرة اللاحقة: (لِيُؤْخَذَ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسَلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَآخُذْ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لَأَنْكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عِبْدِكُمْ) .

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨: ١-٢.

وافق الرجال على هذا الاقتراح: (فَقَالُوا: «هَكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ». فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخِيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلَاثِ كَيْلَاتِ دَقِيقًا سَمِيذًا. أَعْجِنِي وَأَصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عَجَلًا رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلَامِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعَجَلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا^(١)).

وفي هذه التفاصيل التقاء واختلاف مع القصة القرآنية حيث يقول «سبحانه»: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾^(٢).

وقوله «سبحانه»: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾^(٣).

فالالتقاء من حيث ذبح العجل السمين وتقديمه إليهم، والاختلاف من حيث أنهم لم يأكلوا في النص القرآني مما جعله يستغرب من ذلك ويستنكر فعلتهم لأنها مخالفة للطبيعة البشرية بلحاظ أنهم مسافرون مما يستدعي كونهم جوعى، وأن طبيعة ذلك الطعام تكون شهية، فلماذا لا يمدّون أيديهم ليأكلوا.. هل لديهم نية مسبقة لخيانة مضيفهم أو إيذائه؟ في المقابل نجد أن

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨: ٢-٨.

٢. سورة هود: ٦٩-٧٠.

٣. سورة الذاريات: ٢٤-٢٨.

النص التوراتي يذكر أنهم أكلوا من ذلك الطعام.

(وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ سَارَةُ امْرَأَتُكَ؟» فَقَالَ: «هَا هِيَ فِي الْخِيَمَةِ». فَقَالَ: «إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانٍ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ». وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً فِي بَابِ الْخِيَمَةِ وَهُوَ وَرَاءَهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شَيْخَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ فِي الْأَيَّامِ، وَقَدْ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ. فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: «أَبْعَدَ فَنَائِي يَكُونُ لِي تَنَعُّمٌ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟» فَقَالَ الرَّبُّ لِإِبْرَاهِيمَ: «لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شَخْتُ؟ هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ فِي الْمِيعَادِ أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانٍ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ». فَانْكَرَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: «لَمْ أَضْحَكْ». لِأَنَّهَا خَافَتْ. فَقَالَ: «لَا بَلْ ضَحِكْتَ»^(١)).

ونجد القرآن الكريم يقدم لنا هذا المقطع من القصة بصورة قريبة من النص التوراتي من حيث المضمون وذلك كالتالي: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^(٢).

وقال «سبحانه وتعالى»: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ، قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾^(٣).

وقد أولت بعض الروايات كلمة الضحك هنا بالحيز، بينما يلتقي المعنى

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨: ٩-١٥.

٢. سورة هود: ٧١-٧٣.

٣. سورة الذاريات: ٢٩-٣٠.

الظاهر للآية مع ما جاء في النص التوراتي وفيه: (فَضَحِكْتُ سَارَةً فِي بَاطِنِهَا).

○ قال الطبري في تفسيره جامع البيان: (اختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿فَضَحِكْتُ﴾، وفي السبب الذي من أجله ضحكت. فقال بعضهم: ضحكت الضحك المعروف.... وقال آخرون: بل معنى قوله: ﴿فَضَحِكْتُ﴾ في هذا الموضع: فحاضت.... عن مجاهد في قوله: ﴿فَضَحِكْتُ﴾. قال: حاضت، وكانت ابنة بضع وتسعين سنة. قال: وكان إبراهيم ابن مائة سنة)^(١).

○ روى الصدوق في معاني الأخبار بالسند عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (في قول الله «عز وجل»: ﴿فَضَحِكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقٍ﴾ قال: حاضت)^(٢).

○ وفي رواية أخرى في قصص الأنبياء للراوندي عن عبد الرحمن بن الحجاج: (عن أبي عبد الله «صلوات الله عليه» في قوله «تعالى»: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ﴾ يعنى: حاضت، وهي يومئذ ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة)^(٣).

○ وروى الصدوق في علل الشرائع بالسند عن أبي جميلة، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (إن بنات الأنبياء «صلوات الله عليهم» لا يطمثن، إنما الطمث عقوبة وأول من طمئت سارة). علماً بأن أبا جميلة هذا موصوف بالوضع والكذب.

١. الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج٧، ص ٧٠.

٢. الصدوق: معاني الأخبار، ص ٨٢.

٣. الراوندي: قصص الأنبياء، ص ١١٢.

قال السيد الخوئي^(١) في معجم الرجال: (مفضل بن صالح، يكنى أبا جميلة، له كتاب. وكان نخاساً يبيع الرقيق، ويقال إنه كان حداداً... وتقدم عن النجاشي في ترجمة جابر بن يزيد، قوله: «روى عنه جماعة غمز فيهم، وضعفوا، منهم عمرو بن شمر، والمفضل بن صالح..» إلى آخر ما ذكره، وقال ابن الغضائري: «المفضل بن صالح أبو جميلة الأسدي النخاس، مولاهم، ضعيف، كذاب، يضع الحديث»^(٢)).

• الرسالة الثانية:

أما الرسالة الثانية الخاصة بقوم النبي لوط «عليه السلام» فقد عُرِضت في التوراة بصورة مختلفة عما جاء في القرآن الكريم، ففي القرآن حديث عن أن الملائكة أخبروا إبراهيم بأن العذاب سينزل بحق أولئك القوم، وأن إبراهيم جادلهم في هذا الأمر محاولاً أن تتغير الإرادة الإلهية رحمة بالناس لاحتمال إمكانية إصلاحهم وردعهم عن ذنوبهم، أو درءً للعذاب عن المؤمنين الموجودين في هذه القرية، ومن بينهم لوط: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ.... فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ

١. أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم تاج الدين الموسوي الخوئي المعروف بأبو القاسم الخوئي (١٨٩٩ - ١٩٩٢). مرجع دين، كان يترأس الحوزة العلمية بمدينة النجف، ومرجعاً للملايين الشيعة الاثني عشرية، وتخرج على يديه المئات من المجتهدين والفقهاء والفضلاء. من مصنفاته (أجود التقريرات)، (البيان في تفسير القرآن)، (معجم رجال الحديث).

٢. الخوئي: معجم رجال الحديث، ج ١٩، ص ٣١١.

آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ»^(١).

وتم تقديم الحوار الدائر بين النبي إبراهيم وبين الملائكة في سورة الذاريات كالتالي: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾^(٢).

ويلتقي هذا الوصف مع ما في القصة التوراتية مع اختلاف جوهري وهو أن الملائكة غادروا المكان دون أن يتحدثوا عن العذاب الذي سينزل بقوم النبي لوط «عليه السلام»، وأن الحوار دار مباشرة بين الله وبين نبيه إبراهيم «عليه السلام»: (ثُمَّ قَامَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَتَطَلَّعُوا نَحْوَ سَدُومَ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مَاشِياً مَعَهُمْ لِيُشَيِّعَهُمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: «هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ، وَإِبْرَاهِيمُ يَكُونُ أُمَةً كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً، وَيَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الْأَرْضِ؟ لِأَنِّي عَرَفْتُهُ لَكِي يُوصِي بَنِيهِ وَبَيْتُهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بَرًّا وَعَدْلًا، لَكِي يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ». وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيئَتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جَدًّا. أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّامِّ حَسَبَ صُرَاخِهَا الْآتِي إِلَيَّ، وَإِلَّا فَاعْلَمُ». وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ)^(٣).

ولا يخفى أن العبارات السابقة مع الآية الأولى من الأصحاح ١٨ من سفر التكوين تتضمن إيحاءً بالتجسيم، وهو إذ كان مقبولا ومتصوراً وفق التفسير

١. سورة هود: ٧٠-٧٦.

٢. سورة الذاريات: ٢١-٢٤.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨: ١٦-٢٢.

المسيحي، إلا أنه يثير إشكالاً بحسب المعتقد اليهودي، وقد طُرح هذا الإشكال على موقع The Torah/ التوراة وذلك بالصورة التالية: هل كان ظهور الله لإبراهيم رؤية في المنام أم زيارة؟

وقد أجاب البروفيسور بن صهيون كاتز^(١) على هذا السؤال، معتبراً أن القراءة الحاخامية التقليدية تذهب إلى القول بأن إبراهيم كان يرى الله في منامه، ثم ما لبثت أن انقطعت تلك الرؤيا بقدم الملائكة الثلاث ضيوفاً عليه. ثم يثير كاتز بعض الإشكالات اللغوية والبيانية على هذه القراءة التقليدية للنص العبري، معتبراً أن ظاهر النص لا يتوافق مع هذه القراءة التأويلية. فظاهر النص يدل على أن الله «سبحانه وتعالى» كان أحد الثلاثة الذين رآهم إبراهيم، ولذا كان - تارة - يخاطب الله مباشرة (يَا سَيِّدُ، إِنَّ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلَا تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ) في أثناء وجود الضيوف الثلاثة، مما يعني أن الله «سبحانه وتعالى» كان أحدهم.

وهكذا عاد الحديث المباشر مع الله بعد أن بُشِّر إبراهيم بإسحاق ومغادرة الثلاثة للخيمة، ثم الحديث في الأصحاح ١٩ - كما سيأتي - عن اتجاه ملكين فقط إلى قرية قوم النبي لوط، مما يؤكد - بحسب كاتز - أن القراءة الظاهرية هي الأولى بالقبول.

واعتبر كاتز أن لجوء الحاخامات إلى القراءة التقليدية التأويلية المتعارضة مع ظاهر النص أمرٌ مفهوم، بلحاظ أن القراءة غير التقليدية تستدعي

١. Prof. Ben-Zion Katz أستاذ طب الأطفال في كلية الطب بجامعة نورث وسترن فاينبرج، وقد كتب عن موضوعات ذات أهمية يهودية تتعلق بالكتاب المقدس والطقوس والتقويم.

التجسيم كما لا يخفى، وتجسيم الذات الإلهية من شأنه خلق إشكالية عقدية لدى المرجعيات الدينية لليهود^(١).

• إبراهيم الرحيم:

ثم يتحدث النص التوراتي عن نفس الفقرة التي جاءت في القرآن كالتالي: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾^(٢).

وتفصيل الحوار في التوراة جاء كالتالي: (فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفْتَهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الْأَثِيمِ؟ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفْتَهْلِكُ الْمَكَانَ وَلَا تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الْأَثِيمِ، فَيَكُونَ الْبَارُّ كَالْأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلُّ الْأَرْضِ لَا يَصْنَعُ عَدْلًا؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أَكْلُمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تَرَابٌ وَرَمَادٌ. رَبِّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتَهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟» فَقَالَ: «لَا أَهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ». فَعَادَ يُكَلِّمُهُ أَيْضًا وَقَالَ: «عَسَى أَنْ يُوْجَدَ هُنَاكَ أَرْبَعُونَ». فَقَالَ: «لَا أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الْأَرْبَعِينَ». فَقَالَ: «لَا يَسْخَطُ الْمَوْلَى فَاتَكَلَّمْ. عَسَى أَنْ يُوْجَدَ هُنَاكَ ثَلَاثُونَ». فَقَالَ: «لَا أَفْعَلُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ ثَلَاثِينَ». فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أَكْلُمُ الْمَوْلَى.

1. www.thetorah.com/article/gods-appearance-to-abraham-vision-or-visit

عَسَى أَنْ يُوْجَدَ هُنَاكَ عَشْرُونَ». فَقَالَ: «لَا أَهْلُكَ مِنْ أَجْلِ الْعَشْرِينَ». فَقَالَ: «لَا يَسْخَطُ الْمَوْلَى فَاَتَكَلَّمَ هَذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطَّ. عَسَى أَنْ يُوْجَدَ هُنَاكَ عَشْرَةٌ». فَقَالَ: «لَا أَهْلُكَ مِنْ أَجْلِ الْعَشْرَةِ». وَذَهَبَ الرَّبُّ عِنْدَمَا فَرَّغَ مِنَ الْكَلَامِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَانِهِ^(١).

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ ذكرت التوراة قصة أسر النبي لوط ضمن حرب قامت بين تحالفات في منطقة امتدت شرقاً وراء الحدود العراقية الإيرانية الحالية إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

○ قام النبي إبراهيم بشن هجوم مضاد بالاستعانة بالعاملين تحت يديه ومواليه وحلفائه بالقرب من مدينة دمشق، وحقق نصراً خاطفاً وحاسماً، حرر خلاله لوطاً من الأسر، وتنازل عن كل الغنائم للأطراف الأخرى المشاركة في الغزوة التي قام بها.

○ كان هذا الموقف البطولي الشهم ثم الكريم من قبل النبي إبراهيم مدعاة للتكريم الإلهي له، فبشّره الله بالولد من زوجته سارة.

○ بعث الله ملائكته في هيئة بشرية لإبلاغ هذه البشارة ولإعلامه أيضاً بما سيحل بقوم النبي لوط.

○ حاول النبي إبراهيم أن يؤجل القرار الإلهي بإنزال العذاب على قوم لوط، وأثنى الله عليه لذلك واصفاً إياه بالحليم الأواه المنيب.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨، ١-٢٣.

○ تلتقي القصة القرآنية بكثير من تفاصيل التوراتية، ولكن يشوب الثانية شبهة تجسيم الذات الإلهية، وهو ما أنكره بعض أحبار اليهود، بينما أثبتته آخرون.

إِهْلَاك قوم لوط

إهلاك قوم لوط

• موضوعات هذا الفصل:

- عدم وضوح النص التوراتي في تحديد طبيعة المعصية الكبرى (الشذوذ الجنسي) في سلوك قوم النبي لوط.
- الموقف اليهودي والمسيحي (الشرعي) من الشذوذ الجنسي.
- محاولة تحديد موقع (سدوم) من خلال المعطيات التاريخية والآثار واستكشاف قاع البحر الميت عن طريق الغواصة (دلتا).
- النتائج الأخيرة للبعثة الاستكشافية الأمريكية وربط ما جرى لمملكة (سدوم) وما حولها بانفجار نيزك بالقرب من سطح الأرض.
- مقارنة وصف العذاب النازل على قوم النبي لوط بين ما جاء في القرآن والكتاب المقدس ومدى توافق ذلك مع انفجار النيزك.
- السعي لاستكشاف المكوّن البشري الرئيس لمملكة (سدوم) بما يتوافق مع التعبير القرآني بأنهم كانوا قوم النبي لوط في حين أنه مهاجر إليهم.
- هل أهلك الله قوم النبي إبراهيم أيضاً؟ وما طبيعة ذلك العذاب؟

بعد أن أُسْدِلَ الستار على المشهد السابق حيث كان النبي إبراهيم في المدينة التي تُعرف اليوم باسم الخليل، تنتقل التوراة للحديث عن سفر الملكين باتجاه سدوم، حيث يعيش النبي لوط لإنذاره من العذاب، وأمره بمغادرة القرية بمعية أهله، وكيف جاء بعض رجال هذه القرية إلى بيت النبي لوط في محاولة منهم للاعتداء على ضيفيه: (فَجَاءَ الْمَلَائِكَةُ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَأَاهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الْأَرْضِ) (١).

من الملاحظ تكرر هذه العبارة في استقبال النبي إبراهيم للضيوف وفي استقبال النبي لوط أيضاً، وهو ما فُسِّرَ من قبل بعض شراح التنخ بأنه من المراسيم التي كانت دارجة في ذلك الزمان عند استقبال الضيوف تكريماً لهم، بينما فُسِّرَ ذلك آخرون بأن السجود كان في قصة النبي إبراهيم لوجود الله «جل وعلا» بينهم، أو لرسل الله، أي الملائكة المكرمين كما في قصة النبي لوط. (وَقَالَ: «يَا سَيِّدِي، مِيلًا إِلَى بَيْتِ عَبْدُكَمَا وَبَيْتَا وَاغْسِلَا أَرْجُلُكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». فَقَالَا: «لَا، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتٌ». فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالَا إِلَيْهِ وَدَخَلَا بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَاةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلَا. وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. فَنادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرَّجُلَانِ اللَّذَانِ دَخَلَا إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا» (٢).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ١.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٢-٥.

التوراة المعربة وإن لم تذكر وصفاً أو كلمة تبين أن مطلب أولئك القوم كان ممارسة الشذوذ الجنسي مع ضيفي النبي لوط، وأن أكبر خطيئة عُرف بها هذا المجتمع وعوقب عليها لاحقاً هو هذا الشذوذ، إلا أنه في كلمة «لِنَعْرِفَهُمَا» دلالة غير مباشرة على ذلك، وهذا ما بيّنه شراح هذا النص في المصادر المختلفة.

يقول القس جون مكارثر^(١) على موقعه التبشيري Grace To You أن من الواضح أن مدينة سدوم كانت تُعجُّ بكل أنواع الإثم، حيث قدّم الأصحاح ١٦ من سفر حزقيال لائحة بعدد من الخطايا التي كانت مُستفحلة فيها: (هَذَا كَانَ إِثْمَ أَخْتِكَ سَدُومَ: الْكِبْرِيَاءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ وَسَلَامُ الاطمِنَّانِ كَانَ لَهَا وَلِبَنَاتِهَا، وَلَمْ تُشَدِّدْ يَدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، وَتَكَبَّرْنَ وَعَمِلْنَ الرَّجْسَ أَمَامِي فَنَزَعْتُهُنَّ كَمَا رَأَيْتُ)^(٢).

ولكنَّ أيّاً منها - بحسب القس مكارثر - لم يكن صادماً أكثر من «المثليّة الجنسيّة». فالفجور، والزنى، وتعدّد الزوجات، وسفاح القربى، والاغتصاب، والدّعارة كانت كلها موجودة في العالم في الوقت الذي تقرأون فيه عن الحضارة البشريّة. وكان من بينها، بكل تأكيد، خطيئة «المثليّة الجنسيّة» التي تُطلُّ برأسها القبيح.

وبعد أن يستعرض قصة وفود الملكين على النبي لوط، قال: (لقد رأوا هنا

١. John MacArthur راعي كنيسة جريس كوميونتي في صن فالي Grace Community Church in Sun Valley في كاليفورنيا، بالإضافة إلى كونه مؤلف ومحاضر ومستشار في إحدى الجامعات.

٢. الكتاب المقدس: سفر حزقيال، الأصحاح ١٦، ٤٩-٥٠.

أَجْمَلَ رَجُلَيْنِ اضْطَرَمَّتَ لهُمَا شَهْوَتُهُمُ الْمُنْحَرِفَةُ وَوَقَعَتْ عَلَيْهِمَا أَعْيُنُهُمْ. فَقَدْ رَأَوْا جَسَدَيْنِ جَذَابَيْنِ فَلَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ كَبْحِ شَرِّهِمُ الْجَامِحِ. «أَيُّنَ الرَّجُلَانِ اللَّذَانِ دَخَلَا إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟» لَقَدْ رَأَيْنَاهُمَا. «أَخْرَجَهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا». أَيُّ كِي نَضْطَجِعُ مَعَهُمَا. وَهَذَا يُرِينَا مَدَى انْحِرَافِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ. فَقَدْ جَاءَ النَّاسُ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ. فَهَذِهِ لَمْ تَكُنْ مَجْمُوعَةً صَغِيرَةً، بَلْ أَنْاسٌ مِنْ كُلِّ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ، وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ فِيهَا. فَقَدْ جَاءَ جَمِيعُ الرِّجَالِ «مَنْ الْحَدَّثِ إِلَى الشَّيْخِ». فَقَدْ اسْتَفْحَلَتِ الْمُثَلَّثَةُ الْجَنَسِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْمَرَاكِحِ الْعُمَرِيَّةِ فِي كُلِّ أَنْحَاءِ الْمَدِينَةِ. «أَخْرَجَهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا». وَالْكَلِمَةُ الْعِبْرِيَّةُ الْمُسْتَعْدَمَةُ هُنَا وَهِيَ: **Yada** تُشِيرُ إِلَى إِقَامَةِ عِلَاقَةٍ جَنَسِيَّةٍ. فَهَنَّاكَ تَرْجَمَاتُ تَقُولُ: «لِنَعْرِفَهُمَا»، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا هُوَ لَيْسَ مُجَرَّدَ لَجْنَةٍ تَرْحِيبٍ).

وَيُخْطِئُ الْقِسْمُ مَكَارِثُ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ بِصُورَةٍ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَرِيمَتَهُمْ كَانَتْ الشَّدُودَ، بَلْ سُوءُ الضِّيَافَةِ لَدَيْهِمْ، كَمَا قَالَ أَحَدُ الْكُتَّابِ، وَيُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ السَّبَبَ فِي أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَهُمْ لَمْ يَكُنْ سُوءُ ضِيَافَتِهِمْ، بَلْ لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَفْعَلُوا الشَّرَّ. فَقَدْ أَرَادُوا أَنْ يَهْجُمُوا عَلَى الْمَلَائِكِينَ وَأَنْ يُمَارِسُوا اللَّوَاطَ مَعَهُمَا.

وَيُؤَكِّدُ كَلَامُهُ بِالْعَرَضِ الَّذِي قَدَّمَهُ النَّبِيُّ لُوطٌ - وَسَيَتَحَدَّثُ عَنْهُ النَّصُّ التَّوْرَاتِي - حَيْثُ قَالَ: (هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلًا) أَيُّ ابْنَتَانِ عَذْرَاوَتَانِ (أَخْرَجَهُمَا إِلَيْكُمُ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَلَا تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لِأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلَا تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي)^(١).

وَأَضَافَ: (هَذَا غَرِيبٌ! أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ فَمَا الَّذِي يَفْعَلُهُ هُنَا؟ إِنَّهُ يَقُولُ:

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٨.

انظروا! عَوْضًا عن تجيس هذين الملاكَيْن الزَّائِرَيْن، مِنَ الْأَهْوَنِ عَلَيَّ أَنْ أُعْطِيَكُمَا ابْنَتَيَّ الْعِذْرَاوَتَيْنِ. أَنْتِ لَا تُعْطِي ابْنَتَيْكَ الْعِذْرَاوَتَيْنِ لِأَشْخَاصٍ مُجَرَّدٍ أَنَّ النَّاسَ لَا يُحْسِنُونَ الضِّيَافَةَ فَتَحَاوَلُ أَنْ تُرْضِيَهُمْ. فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: «هل يمكنني أَنْ أَقَايِضَهُمَا بِابْنَتَيَّ الْعِذْرَاوَتَيْنِ؟ أَلَا فَعَلْتُم بِهِمَا مَا تُمْلِيهِ عَلَيْكُم شَهَوَاتِكُم عَوْضًا عَنْ أَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ بِالْمَلَائِكَيْنِ الزَّائِرَيْنِ؟».

ثم يستشهد بالآية ٩ من نفس الأصحاح: (فَقَالُوا: «أَبْعُدْ إِلَى هُنَاكَ»). ثُمَّ قَالُوا: («جَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا»). مَنْ يَكُونُ لُوطُ هَذَا؟ فَهُوَ مَنْ جَاءَ إِلَى مَدِينَتِنَا. وَهُوَ غَرِيبٌ. وَهُوَ دَخِيلٌ. وَهُوَ لَا يَنْتَمِي أَصْلًا إِلَى هُنَا. وَالْآنَ، هَا هُوَ يَجْلِسُ وَيَحْكُمُ عَلَى تَصَرُّفَاتِنَا. («الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا»). وَرَبَّمَا كَانُوا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ سَيُغْتَصِبُونَهُ. وَبِهَذَا سَيَكُونُونَ جَمَاعَةً اغْتَصَبَتْ مَلَائِكَيْنِ ثُمَّ جَمَاعَةً اغْتَصَبَتْ لُوطًا «فَالْحُوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٌ جَدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ»^(١).

ثم قال: (وهذا يُخبركم شيئًا عن شهوة «المثلية الجنسية» الجامحة)^(٢). والذي يؤكد أن هذا هو المراد من كلمة «لِنَعْرِفَهُمَا» الواردة في قصة النبي لوط مع ضيفيه، هو ما جاء في قصة آدم وحواء في الأصحاح الرابع من سفر التكوين حيث يقول: (وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتِهِ فَحَبَلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ)^(٣)، حيث يتبين أن كلمة «عرف» باشتقاقاتها قد تُستخدم للدلالة على ذلك.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٩.

٢. نظرة-الله-إلى-المثلية-الجنسية-الجزء-الثاني/ www.gty.org/library/sermons-library/

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٤، ١.

إهلاك قوم لوط

والكتاب المقدس بقسميه القديم والجديد يحرم اللواط ويعتبره فعلاً مجرماً، ومن بين النصوص الكتابية التي بينت ذلك:

○ (وَلَا تُضَاجَعْ ذَكَرًا مُضَاجَعَةً امْرَأَةً. إِنَّهُ رِجْسٌ) ^(١).

○ (وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطَجَعَ امْرَأَةً، فَقَدْ فَعَلَا كِلَاهُمَا رِجْسًا. إِنَّهُمَا يُقْتَلَانِ. دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا) ^(٢).

○ (لِذَلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللَّهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لِإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمْ. الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا حَقَّ اللَّهِ بِالْكَذِبِ، وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ، الَّذِي هُوَ مُبَارَكٌ إِلَى الْأَبَدِ. آمِينَ. لِذَلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ، لِأَنَّ إِنَاثَهُمْ اسْتَبَدَّلْنَ الْأَسْتِعْمَالَ الطَّبِيعِيَّ بِالَّذِي عَلَى خِلَافِ الطَّبِيعَةِ. وَكَذَلِكَ الذُّكُورُ أَيْضًا تَارَكِينَ اسْتِعْمَالَ الْأُنْثَى الطَّبِيعِيَّ، اشْتَغَلُوا بِشَهَوَاتِهِمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَاعْلَيْنِ الْفَحْشَاءَ ذُكُورًا بِذُكُورٍ، وَنَائِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ جَزَاءَ ضَلَالِهِمُ الْمُحَقِّ) ^(٣).

○ (أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لَا يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللَّهِ؟ لَا تَضْلُوا: لَا زِنَاً وَلَا عِبَادَةَ أَوْثَانٍ وَلَا فَاسِقُونَ وَلَا مَأْبُونُونَ وَلَا مُضَاجِعُو ذُكُورٍ) ^(٤).

تاريخياً، ندد آباء الكنيسة بالشذوذ الجنسي كونه يتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس، ويظهر ذلك من خلال كتابات كل من ترتليان، وقبريانوس

١. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الأصحاح ١٨، ٢٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الأصحاح ٢٠، ١٣.

٣. الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الأصحاح ١: ٢٤-٢٧.

٤. الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الأصحاح ٦: ٩-١٠.

القرطاجي، وأمبروسياستر، ويوحنا فم الذهب، وتوما الأكويني، وهایدغار بنجین، ومارتن لوتھر، وأعتبروا هذا النوع من الممارسة الجنسية غير شرعي وضد الطبيعة وغير أخلاقي.

وعلى الرغم من النصوص السابقة ومواقف آباء الكنائس المختلفة وفي عصور مختلفة، إلا أن الطوائف المسيحية - اليوم - لا تجمع على أن الممارسة الجنسية الشاذة خاطئة - وإن كانت الأغلبية منها ترى ذلك - إذ أن هناك بعض وجهات النظر المسيحية الليبرالية تدعم الشاذين جنسياً، ولا تعتبر الزواج بين الشاذين أمراً لا أخلاقياً، وتستبعد أن يكون حكم الكتاب المقدس معمماً على جميع الشواذ، إذ يدعون أن وصف بولس الشواذ في رسالته إلى أهل رومية يتضح منه أنه كان يعني بكلامه فئة محددة منهم، بالإضافة إلى استنادهم إلى بعض المقولات التي تنفي أن تكون هذه الممارسة مرضاً أو شذوذاً عن الطبيعة، وبالتالي - بحسب زعمهم - ليس هناك سبب يجعل الله يحرم هذا السلوك. ومن بين هذه الطوائف التي تسمح بالشذوذ: كنيسة كندا المتحدة، وكنيسة المسيح المتحدة، والكنيسة الأسقفية الأمريكية، والكنيسة الإنجيلية اللوثرية في أمريكا، والكنيسة الإنجيلية اللوثرية في كندا.

أما في القرآن الكريم، فقد تحدّث الآيات بكل وضوح أن جريمتهم الكبرى والمميزة التي عُرفوا بها، بالإضافة إلى آثام أخرى اشتركوا فيها مع أقوام آخرين هي جريمة الشذوذ الجنسي:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَتَأْتُونَ

إهلاك قوم لوط

الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ، قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ أَوْ لَوْ أَنَّ لَنَا بَنُونَ لَأَكُونُوا بِمَقَرٍّ عَسَىٰ بِنَا يُرْسِلُ إِلَيْنَا رُسُلًا يَلْعَنُونَ ﴿١﴾

○ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ، وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (٢).

○ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣).

ونجد في موردين من الآيات السابقة عبارة ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ والتي يفهم منها أن هؤلاء القوم هم أول من مارس هذا النوع من الشذوذ من بين البشر، إلا أن بعض الكتابات المعاصرة تشير إلى أن تاريخ ممارسة الشذوذ الجنسي بين الذكور قديم جداً ويعود - بحسب بعض الآثار والمنحوتات - إلى ما قبل أربعة آلاف سنة بكثير، أي قبل العصر التقريبي الذي عاش فيه النبي لوط.

١. سورة الشعراء: ١٦١-١٦٨.

٢. سورة الأعراف: ٨٠-٨٢.

٣. سورة العنكبوت: ٣٠-٣٢.

إلا أن الأدلة المقدمة غير يقينية وليست واضحة بشكل دقيق للدلالة على ممارسة هذا الفعل القبيح. كما أننا لا نعلم منذ متى بدأ قوم النبي لوط بممارسة هذا الفعل القبيح، فربما سبقوا عصره بقرون عديدة، وكانوا قد بلغوا في عصره الأوج في علنية الممارسة وسعتها ودون خجل.

وقد مررنا بنا في النص التوراتي أن الذين هجموا على بيت النبي لوط طلباً للضيفين كانوا وقحين جداً، ومجاهرين بالأمر، ومن الفئات العمرية المختلفة: (أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رَجَالُ الْمَدِينَةِ، رَجَالٌ سَدُومَ، مَنِ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. فَتَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرُّجُلَانِ اللَّذَانِ دَخَلَا إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا»^(١)).

كما يُحتمل أن الآيات القرآنية لا تريد أن تقول أن قوم لوط أول من ابتكر ومارس هذا الفعل الشنيع، بل أول من شرعنه وجعله أمراً علنياً ومقبولاً اجتماعياً بحيث لا يتنافى - بحسب أعرافهم وتقاليدهم - مع شريعة ولا أخلاق. وإذا مورس هذا الفعل من قبل بعض الناس من أقوام آخرين في فترات زمنية سابقة، ولكن في حالات فردية، أو في نطاق ضيق، فلن يتنافى ذلك مع ما جاء من وصف قرآني لجريمتهم هذه.

نعود من جديد إلى النص التوراتي الذي يفصل ما جرى لقوم النبي لوط بعد تحرّشهم بضيفيه، حيث حاول أن يُثنيهم عن قرارهم المخزي ولو بعرض ابنتيه للزواج درءاً للمفسدة: (فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ، وَقَالَ: «لَا تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي. هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلًا. أَخْرِجْهُمَا

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٤-٥.

إهلاك قوم لوط

إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هَذَانِ الرَّجُلَانِ فَلَا تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لَأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلَا تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي»).

لم يقتنع القوم بكلام النبي لوط وأصرّوا على موقفهم الشنيع، معتبرين أنه شخص غريب وافد عليهم، وليس له أن يُصدر الأحكام بحقّهم، وأن يتهمهم فيما يعتبرونه فعلاً غير مذموم: (فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الْآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا». فَالْحُوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ جِدًّا^(١)).

في هذا المقطع نجد توافقاً مع ما جاء في القرآن الكريم من جهة، واختلافاً من جهة أخرى، أما جهة الموافقة ففي التفاصيل التالية: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ﴾ أي كانت تصرّفات أهل البلدة مسيئة بحقّهم حيث أرادوا التحرّش بهم وإغوائهم أو الاعتداء عليهم ﴿وَضَاقَ﴾ النبي لوط ﴿بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ في كناية عن اللواط ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ، قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٢).

ومن الاختلافات أنه يخاطبهم بأنهم قومه، وهم لا يقولون له أنت غريب عنا، بخلاف ما في التوراة... فهل من علاقة قري تربطه بهم؟

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٦-٩.

٢. سورة هود: ٧٧-٨٠.

• ديار قوم لوط :

لم يذكر القرآن الكريم اسم ديار قوم النبي لوط «عليه السلام»، ولم يُشر إلى موقعها الجغرافي، ولا العنوان الذي كان يحمله قومه، بينما ذكر:

○ أن عاداً هم قوم النبي هود «عليه السلام»، قال الله «تعالى»: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ.....﴾^(١).

○ وأن ديارهم بالأحقاف، قال «تعالى»: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ لِنُنْذِرَ مَنِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ.....﴾^(٢).

○ وأن ثمود هم قوم النبي صالح «عليه السلام»، قال «تعالى»: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ.....﴾^(٣).

○ وأن ديارهم -على ما قيل- هي الحجر المذكورة في الآية التالية، قال «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ، وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾^(٤).

○ وأن مدين هي ديار النبي شعيب «عليه السلام»: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ.....﴾^(٥).

ويبرز السؤال التالي: أين كانت تقع ديار قوم النبي لوط؟ ومن هم قومه؟

١. سورة الأعراف: ٦٥.

٢. سورة الأحقاف: ٢١.

٣. سورة الأعراف: ٧٣.

٤. سورة الحجر: ٨٠-٨٢.

٥. سورة هود: ٨٤.

إهلاك قوم لوط

عُرف البحر الميت باسم بحيرة لوط.. فهل جاءت هذه التسمية بلحاظ أن قوم النبي لوط سكنوا في موقع البحيرة قبل أن يحل بهم العذاب، ثم تحولت ديارهم إلى منخفض مليء بالماء شديد الملوحة إلى درجة أنك لا تجد فيه أية سمكة أو شيئاً من الكائنات البحرية التي تعيش عادة في البحيرات المالحة؟ وهل تسميته باسم البحر الميت نسبةً إلى هلاك قوم لوط وإبادتهم؟

ثم إن المقدسي^(١) في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ذكر هذه البحيرة باسم البحيرة المقلوبة... فهل جاءت التسمية بلحاظ ما جاء في وصف العذاب النازل بقوم لوط حيث قال «تعالى»: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا.....﴾^(٢)، وقوله «تعالى»: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا.....﴾^(٣)، وبما يؤكد أن ديارهم كانت في نفس موقع البحر الميت الآن؟

كما أن المفسر والمؤرخ ابن كثير في تفسيره لقوله «تعالى»: ﴿وَأَنهَا لَبَسِبِلِ مُقِيمٍ﴾^(٤) قال: (أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب السوري، والمعنوي، والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع) واسع عريض (مسالكه مستمرة إلى اليوم)^(٥).

١. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي المعروف باسم محمد بن أحمد شمس الدين المقدسي (٢٣٦هـ - ٢٨٠هـ). رحالة وجغرافي. صنف كتاباً أسماه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وقد أكسبه شهرة كبيرة.

٢. سورة هود: ٨٢.

٣. سورة الحجر: ٧٣-٧٤.

٤. سورة الحجر: ٧٦.

٥. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٥٠١.

وابن كثير وإن لم يسمَّ هذه البحيرة، إلا أن البعض استفاد ذلك من مقولته معتبراً أن البحر الميت هو مكان خسف ديار قوم النبي لوط «عليه السلام». فإلى أي مدى يمكن تصحيح هذه الفرضية؟

وجاء في قاموس الكتاب المقدس أن سدوم - وهي بحسب الفرض مدينة لوط - تقع اليوم تحت الماء في جنوب البحر الميت، وتجري المحاولات لكشف مكانها بواسطة الغواصين الذين يغوصون تحت الماء بمعداتهم الحديثة^(١).

تاريخياً، أطلق على البحر الميت عدة أسماء، من بينها:

- بحر الملح.
- بحر العربية.
- البحر الشرقي.
- عمق السديم.
- بحر الموت
- بحر سدوم.
- البحيرة المنتنة.
- بحيرة زُغر، نسبة إلى بلدة زُغر التي كانت تقع على شاطئه الجنوبي الشرقي.

○ بحر الزفت، نسبة إلى قطع الزفت التي كانت تطفو على سطحه في بعض

١. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٦١.

الأحيان وخاصة عند حدوث الزلازل. وقد كان بعض سكان المنطقة يتاجرون في قطع الزفت التي يستخرجونها ويبيعونها.

○ البحر الميت، وأطلق عليه الإغريق هذا الاسم لعدم وجود حياة فيه.

جيولوجياً، يعدّ البحر الميت أخفض رقعة على وجه الأرض؛ إذ يقع على عمق ٤١٧ متراً تحت مستوى سطح البحر، وهو أدنى نقطة على اليابسة في العالم، وماؤه أكثر أنواع المياه ملوحة. وبسبب ملوحته العالية، لا تعيش فيه الأسماك، ولا توجد فيه حياة مائية، باستثناء كميات صغيرة من البكتيريا والفطريات.

وتذهب إحدى النظريات الجيولوجية إلى أن بداية التشكل الجيولوجي للبحر الميت يعود إلى ما يقارب ٣,٧ مليون سنة، وبعضها إلى أكثر من ذلك، والأرقام على كل حال مليونية ولا علاقة لها بحدث يعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة تقريباً، لكي نقول بأن تشكّل البحر الميت تم بسبب الهلاك الذي نزل بقوم لوط «عليه السلام»، وأن ديارهم كانت حيث يقع هذا البحر اليوم.

نعم، يمكن افتراض أن ديارهم كانت محاذية لهذا البحر، وفق تشكّله الجيولوجي وسعته في ذلك الزمان، وأن ما حلّ بهم دمر ديارهم، ففرقت تحت الماء واختفت عن الأنظار.

وهذا ما دفع بعض الباحثين والآثارين إلى محاولة الغوص في أعماق البحر الميت بحثاً عن أية آثار قد تعود إلى المدينة المنكوبة.

ووجدت في إحدى المصادر أن غواصة بريطانية قامت في عام ١٩٥٧

THE SUNDAY TIMES • 21 NOVEMBER 1999

20

NEWS 1-9

Dead Sea sub dives for lost city of Sodom

SODOM, the biblical world's most sinful city, is about to get its first visitor since Lot left it to sink as it was destroyed by heavenly fire 4,000 years ago. A British researcher will this week venture to the bottom of the Dead Sea — where Sodom's remains are thought to lie — in a mini-submarine.

Jonathan Leake, a London-based biblical scholar, has found what appears to be the remains of the city under the surface of the Dead Sea by analysing satellite pictures taken by the National Aeronautics and Space Administration (Nasa). His findings have been backed by the Dead Sea Research Unit from Tel Aviv University, whose scholars are on site with him.

"We are about to embark on our first dive. Finding the biblical city of Sodom would be the greatest achievement of my life," he said yesterday as he embarked on his first test dive.

The drive came as the British Museum prepares to announce the results of its research in the area, which appears to confirm that Sodom was located there. A team excavating a Byzantine church has found what is

Jonathan Leake
Science Editor

thought to be the legendary Core of Lot hidden behind it. According to the Bible, Lot and his daughters took refuge in a cave while Sodom lay smouldering. It was there, thinking they were the last people on earth, that they decided to start a new generation.

To most people, including archaeologists, the biblical story of Lot, Sodom and Gomorrah is metaphorical, a warning to sinful humans from the authors of Genesis. No satisfactory archaeological evidence of the five lost cities of the plain, of which Sodom and Gomorrah were two, has ever been unearthed.

Other scholars, however, including Sanders, believe Sodom and Gomorrah not only existed but that they were also probably destroyed in a catastrophe 3,000-5,000 years ago and that their ruins were engulfed beneath the salty waters of the Dead Sea.

Sanders's findings are supported by Dr John Whitlatch, a geologist at the University of Leicester, who has found strong

evidence of a powerful earthquake in the area at that time. He said in a research paper: "Their remains have not been found because they are now under water. The total disappearance of the Vale of Siddim and its cities beneath the lake would explain the lack of archaeological evidence. Further underwater exploration could be revealing."

Sanders believes the remains of the ancient cities are to be found off the northwest shore of the Dead Sea, about 10 miles south of Jericho.

The orange Delta mini-submarine, on hire at a cost of about £5,000 a day, was the one used to explore the wreck of the Lusitania. The 10ft-long, 6ft-high vessel was flown into Israel from California last weekend. It holds two people and can sit submerged under hundreds of feet of water for up to three

days, but the team will be making only short dives. Half a ton of extra ballast was needed to operate in the salty water. Sanders watched on Friday as the vessel was winched about a barge at the site God sent in preparation for its journey to the northern shore.

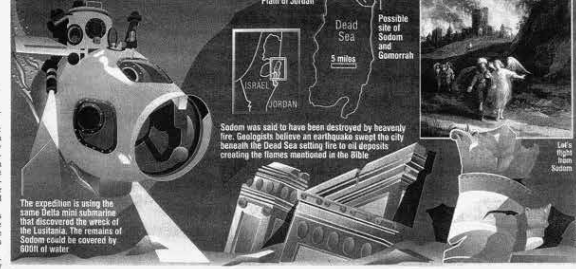
The Dead Sea may be only about 300 metres deep, but Sanders is diving into murky, sulphuric waters. The north-west corner of the sea is in the West Bank, which was ruled by Jordan until the six-day war in 1967 and has been under Israeli military occupation ever since.

Now the Palestinians have claimed it for their ancient independent state. The expedition therefore had to be cleared with the Israeli army, the Jordanians and the Palestinians — and if Sanders does find anything down there, there will be a diplomatic battle over ownership.

Not everyone is as convinced as Sanders, however. Dr David Noy, a respected Israeli geologist, has dedicated much of his life to the scientific study of the Dead Sea and its surroundings. He rejects Sanders's theory that Sodom and Gomorrah were located at the south end of the Dead Sea, said Noy.

Search for sins of the past

A British-led expedition is searching the depths of the Dead Sea for the remains of Sodom, the ancient world's most corrupt city.



The expedition is using the same Delta mini-submarine that discovered the wreck of the Lusitania. The remains of Sodom could be covered by 300 ft of water.

Sodom was said to have been destroyed by heavenly fire. Geologists believe an earthquake swept the city beneath the Dead Sea setting fire to oil deposits creating the flames mentioned in the Bible.

صورة عن الخبر المنشور حول مشروع الغواصة دلتا

بمحاولة لاستكشاف أعماق البحر الميت وتوصلت إلى وجود بعض الآثار البشرية دون التمكن من تحديدها أو استخراج شيء من تلك الآثار المزعومة. وفي عام ١٩٩٩، قام أحد الباحثين الأمريكيين بمحاولة استطلاعية في أعماق البحر الميت بحثاً عن آثار ديار النبي لوط وذلك بالاستعانة بالغواصة دلتا وللقيام بتصوير فيلم وثائقي لصالح تلفزيون NBC وبعنوان «ألفاز الكتاب المقدس: سدوم وعمورة». فبعد مشاهدة صور رادار تابع لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا وهي تظهر تشكلات غير طبيعية «شاذة» على أرضية البحر الميت، احتل الباحث المتخصص في شئون التوراة مايكل ساندروز أنها قد تكون بقايا ديار قوم النبي لوط. وبعد الحصول على إذن من حكومتي الكيان الصهيوني والأردن، وصل الطاقم العلمي المتخصص في علوم المحيطات

والبحار، وبرفقتة الغواصة دلتا، التي تمكنت من استكشاف قاع البحر الميت على عمق ١٠٠٠ قدم. وقد وجدت البعثة مساحة كبيرة من الهياكل أو التشكلات المغلفة بالملح التي لربما تكون من صنع الإنسان، دون أن تتمكن من تأكيد ذلك، ولا تأكيد رجوع تلك الهياكل الملحية إلى المدينتين المدمرتين. وبحسب التقرير، فإن البعثة العلمية لم تستطع إكمال مشروعها وذلك بسبب بعض العوائق الأمنية والسياسية^(١).

إلا أننا عندما نعود إلى القرآن الكريم، سنجد أن الآيات التي تحدّثت عن ديار أولئك القوم جاءت بالصورة التالية:

○ ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

○ ﴿وَإِنِّهَا لِبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

○ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾^(٤).

○ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا أَی فِيعْتَبَرُوا بِمَا حَلَّ بِأَهْلِهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالرَّسُولِ وَمَخَالَفَتِهِمْ أَوَامِرَ اللَّهِ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾^(٥).

وعندما نجمع ما تدل عليه الآيات السابقة، سيكون من المستبعد أن نذهب

1. www.deltaoceanographics.com/deadsea.html

٢. سورة العنكبوت: ٣٥.

٣. سورة الحجر: ٧٦-٧٧.

٤. سورة الصافات: ١٢٧-١٢٨.

٥. سورة الفرقان: ٤٠.

إلى القول بأن ديارهم تقع في باطن البحر الميت.

فعلى الرغم من عدم تسمية الآيات لموقع ديارهم، إلا أنها تصرّح بأن آثار وبقايا ديار النبي لوط «عليه السلام» كانت مشهودة في العهد النبوي، وكانت معروفة للناس بأنها ديار أولئك القوم الذين قضوا فجأة في حدث مُهلك ومروع ومضربٍ للمثل قبل قرابة ٢٥٠٠ سنة من حينه، وكان الناس يمرّون عليها -لربما في حركة السفر وتنقل القوافل- وكانوا يرون تلك الديار المدمّرة: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾.

كما أن وجودها في باطن البحر الميت وعدم ظهورها للعيان لا يمثّل ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ كما جاء في الآية الشريفة، لاسيما بلحاظ مرور عشرات القرون على تلك الحادثة.

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر اسم ديار قوم النبي لوط «عليه السلام»، ولم يحدد مكانها الجغرافي ولا اسم أولئك القوم، إلا أننا نجد في سفر التكوين من التوراة ما يحدد لنا الاسم، بل موقعها التقريبي، وقد مرّ بنا ذلك مسبقاً خلال بحث هجرة النبيين من موطنهما الأصلي.

وتستوقفنا هنا نقطة مهمة وضرورية لاستيضاح الحدث والموقع وفهم بعض الآيات القرآنية التي تناولت القصة. فقد مرّ بنا أن التوراة تذكر أن القوم ذكروا أن لوطاً شخص غريب وافد على مجتمعهم: (فَقَالُوا: «أَبْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ»)، بينما نجد أن القرآن الكريم كرّر في أكثر من موقع أن لوطاً كان أخاهم، وأنهم كانوا قومه.

والقرآن عندما يستعمل مثل هذا المصطلح فإنه يشير إلى أن هذا النبي ابن بلدتهم، وهم قومه وأهله وعشيرته، وهذا ما بيّنته بصورة مقارنة في الجزء الأول من كتابي (في عمق التاريخ).

حيث نجد استعمال مصطلحي «أخ» و«قوم» بشأن الأنبياء والمرسل إليهم، إلا في مورد النبي شعيب حيث يستعملهما مرة، وذلك عند الحديث عن رسالته إلى أهل مَدْيَن، ويعرض عنه أخرى حين يتحدث عن رسالته إلى أصحاب الأيكة، بما قد يدل على أنه كان من مدين، بينما وفد على أصحاب الأيكة وبلغ رسالته إليهم:

○ ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾^(١).

○ ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢).

○ ﴿وَالِىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾^(٣).

○ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٤).

○ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٥).

○ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا....﴾^(٦).

١. سورة الأعراف: ٦٥.

٢. سورة الشعراء: ١٢٣-١٢٤.

٣. سورة الأعراف: ٧٣.

٤. سورة الشعراء: ١٤١-١٤٢.

٥. سورة الشعراء: ١٦٠-١٦١.

٦. سورة النمل ٥٤-٥٦.

○ ﴿وَالَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾^(١).

○ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾^(٢).

وإذا استعدنا مسار هجرات النبي لوط بحسب ما جاء في التوراة، فسنجد أنها بدأت من جنوب أو وسط العراق الحالي، ثم الاستقرار في حرّان لفترة من الزمن، ثم الانتقال إلى الأراضي الكنعانية، ومنها إلى مصر، فكنعان مرة أخرى، ثم الاستقرار في مدينة سدوم في الأردن.

بالطبع، فإن القرآن الكريم أشار إلى هجرة النبي لوط مع النبي إبراهيم حتى استقرّ بهم المقام في الأراضي الكنعانية التي عبّر عنها القرآن في أكثر من موضع بعنوان الأرض التي باركها، ولكننا لا نجد - كالعادة - تفصيلاً لمسار الهجرة ومحطاتها، فهو خارج عن غرض بيان القصة القرآنية.

قال «عز وجل»: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾^(٣).

أي أن النبي لوط كان بمعية النبي إبراهيم عندما خرج من تلك الديار التي كان يسكنها - أيّاً كانت - وتعرّض فيها إلى محاولة القتل حرقاً بعد تحطيمه أصنامهم. إلا أن هذا السيناريو يواجه مشكلةً عند ملاحظة أن الذين نزل بهم العذاب كانوا قوم النبي لوط، وهو أخوهم.

١. سورة الأعراف: ٨٥.

٢. سورة الشعراء: ١٧٦-١٧٧.

٣. سورة الأنبياء: ٦٨-٧١.

فإذا كان النبي لوط من مدينة أور التي كانت تقع بالقرب من مدينة الناصرية، أو كوثى ربّى القريية من الحلة، في جنوب بلاد الرافدين، فكيف يكون أهل سدوم قومه، والفرض أنها مدينة في الأردن؟ وهذا يستدعي وضع عدة احتمالات:

١. أن لوطاً هاجر أولاً - لسبب أو لآخر - من سدوم إلى بلاد الرافدين حيث يستقر إبراهيم، وقد تكون هجرته الافتراضية هذه بغرض التعرف على الرسالة الجديدة وصاحبها النبي إبراهيم، فلما استقرّ هناك والتقاء آمن به وبرسالته، ثم هاجر معه تلك الهجرات المذكورة في التوراة، ثم عاد واستقر في مدينته وبين أهله وقومه من جديد في نهاية هجراته المتعددة مع النبي إبراهيم. وهذا يُضعف احتمال أنه ابن أخ النبي إبراهيم وابن خالته في نفس الوقت - كما تقول التوراة وبعض الروايات الإسلامية - وإن كنا لا نستطيع نفيه تماماً.

٢. أن والد لوط أو إحدى جداته من سدوم، فهم أخواله، فعندما هاجر من مسقط رأسه في بلاد الرافدين واستقر به المقام في سدوم، فإنه في الواقع نزل على أخواله... ولذا فهم قومه من جهة الأم أو إحدى الجدات. وأما إذا صحّحنا مقولة بعض المصادر الكتابية والإسلامية أن والدته هي أخت والد النبي إبراهيم، فإن دائرة الاحتمالات تضيق لتنتقل إلى الجدات دون الأم مباشرة.

٣. أن أهل سدوم - أو بعضهم - وأهل أور/كوثى - أو بعضهم - من قبيلة أو شعب واحد، ولكن الهجرات التي عُرفت بها المنطقة عبر الزمن جعلتهم



بعض محطات هجرات النبي لوط

موزعين جغرافياً بهذا الشكل، ولذا عندما استقرّ لوط في سدوم، فقد استقرّ عند فرع من فروع قومه/ قبيلته الذين ينتمي إليهم فعلياً، ولم يكن دخيلاً عليهم بحيث يكون منتمياً إليهم بالولاء مثلاً.

٤. أن القرية التي استقرّ فيها النبي لوط وكانت تعمل الخبائث ثم أنزل الله بها العذاب وأهلكها وأهلها، لم تكن في الأردن، سواء أكان اسمها سدوم أو غير ذلك، بل كانت تقع في مكان قريب من أور الكلدانيين أو كوثى ربى في بلاد الرافدين، بحيث أن أهلها كانوا ينتمون إلى نفس القوم الذين ينحدر منهم النبيان إبراهيم ولوط. وهذا يعني وقوع مَن كتب التوراة الحاضرة في خطأ فادح من الناحية الجغرافية، أو تعمّد التلاعب في المعلومات.

٥. أن النبيين إبراهيم ولوط لم يكونا من أور الكلدانيين / كوثي ربي، بل كانا من منطقة قريبة من سدوم في الأردن، ثم هاجرا منها إلى أن استقرّ النبي لوط في سدوم، وجرى له ما جرى. وهذا أيضاً يعني وقوع مَن كتب التوراة الحاضرة في خطأ فادح من الناحية الجغرافية، أو تعمّد التلاعب في المعلومات.

وبالنظر إلى مسار الهجرات وتكوين المجتمعات البشرية في الدول المعروفة حالياً باسم العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وجنوب تركيا قبل أكثر من أربعة آلاف سنة - أي قبل عهد النبيين إبراهيم ولوط ببضعة قرون - فإنني أستقرب الاحتمال الثالث.

وأحتاج أن أقدم المقدمة التالية السريعة كمدخل لبيان التفاصيل الآتية التي سأسعى أن أبينها باختصار وتبسيط شديدين.

• الساميون:

الاتجاه السائد في السابق لدى علماء التاريخ - بشكل إجمالي ووفقاً لما جاء في التوراة - قائم على تقسيم البشرية من بعد طوفان نوح إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

○ من ينتمي إلى سام بن نوح، ويُطلق عليهم الساميون.

○ من ينتمي إلى حام بن نوح، ويُطلق عليهم الحاميون.

○ من ينتمي إلى يافث بن نوح، ويُطلق عليهم اليافيثيون.

ولكن بتطور البحوث التاريخية والآثرية، ودخول علم الجينات على الخط،

فقد هجر علماء التاريخ تدريجياً هذا التصور، لأن البشرية اليوم لا تنحصر ذريتها في أبناء سام وحام ويافت فقط. وعلى الرغم من تغيير هذه النظرة، إلا أن علماء التاريخ احتفظوا بعنوان «الساميين» للدلالة على مجموعة شعوب هم بمثابة أبناء عمومة إن صح التعبير. فالعرب والعبرانيون والآكاديون والآراميون والكنعانيون وآخرون غيرهم كلهم ساميون.

هذه المقدمة ضرورية لنفهم ما سيأتي من تفصيل حول الأصل أو القوم الذين ينحدر منهم إبراهيم ولوط «عليه السلام».

من الشعوب السامية التي ظهرت قديماً جداً، وتفرع عنهم العرب والعبرانيون والكنعانيون، الشعب الأموري/العَموري، Amorite /Amurru وقد تحدثنا عن هذا الأمر في فصل سابق.

بدأوا بالظهور على مسرح التاريخ في الألف الرابع قبل الميلاد، ويضع المؤرخون تاريخاً تقريبياً لبدء هجراتهم الأولى حوالي ٣٥٠٠ ق.م، أي قبل ٥٥٠٠ سنة من الآن تقريباً.

وكان العراق مهداً لهم، وموطنهم الأصلي كان متاخماً للضفاف الغربية للفرات، وفي رقعة انتشار صحراوية واسعة غربية تمتد حتى بلاد الشام.

ومن هناك انتشروا غرباً ثم عادوا وزحفوا عسكرياً إلى الشرق واحتلوا بعض المدن السومرية.

وتصف مدونات الملك الأكادي «شار كالي - شاري» حوالي ٢٢١٥ ق.م والتي هي أولى النصوص التي تشير إليهم، أنهم البدو في منطقة الفرات الأوسط.

ويشير نصُّ من عهد «أمي - صادوقا» ملك مدينة بابل ١٦٤٦-١٦٢٦ ق.م على أن كلمة «أموري» استُعملت في مقابل كلمة «أكادي» - وهم من الساميين أيضاً - لتشير إلى العناصر السامية الغربية التي عاشرت سكان بلاد الرافدين من الأكاديين. هذا النص يدل أيضاً على أن الأموريين كانوا في زيادة مستمرة بعد قرون من التسلل والغزو، وأنهم ذابوا في المجتمع البابلي الذي أصبحوا فيه على قدم المساواة مع السكان الأصليين.

ولقد اندفع الأموريون الأوائل باتجاه السواحل الخليجية، فصارت سواحل الخليج العربي وشمال الجزيرة العربية أماكن سكنٍ لهم، وخصوصاً في مناطق أم النار ودلمون/ جزيرة البحرين.

ثم اندفعوا نحو السواحل الشامية، وعُرفوا فيما بعد بـ «الكنعانيين» الذين يعني اسمهم سكان المنخفضات «كنع = كنخ = الأرض المنخفضة».

أما الأموريون الذي ظلوا رهن الصحراء وبعض السهول التي تقع شرق مواطن الكنعانيين فقد ظلوا يُعرفون بهذا الاسم.

بينما الأموريون الذين قفزوا إلى مدن وادي الرافدين وأسسوا سلالة «إيسن»، ثم سلالة بابل الأولى، ثم الدولة البابلية القديمة، فقد صار من الطبيعي أن يُطلق عليهم البابليون حسب المدينة العظيمة التي سكنوها وأصبحت عاصمة دولتهم الكبيرة.

والأموريون الذين استمروا في صحراء العراق والشام والجزيرة العربية هم ما أصبحنا نعرفهم بـ «العرب».

وقد استطاع الأموريون تشكيل مجموعة دويلات في نهايات الألف الثالث قبل الميلاد وذلك في أوج حالة من الضعف أصابت مملكة «أور» السومرية. وامتد عصر دويلات المدن الأمورية لما يقرب أربعة قرون حتى أصبحت فيما بعد تحت حكم مملكة أمورية واحدة شملت وادي الرافدين والشام .

وجاء تأسيس المملكة الأمورية بدءاً على يد أحد الشيوخ الأموريين ويُعرف باسم «سومو-أبوم» وانفصل بمدينة بابل وأعلن نفسه ملكاً عليها ١٨٣٠-١٨١٧ ق.م مؤسساً بذلك سلالة بابل الأولى الأمورية الطابع والتي كانت نواة لتأسيس دولة بابل الأولى القديمة ١٨٣٠-١٥٨٠ ق.م. وبذلك أسس الأموريون القاعدة الحضارية الأولى لبابل التي ذاع صيتها في العالم القديم بأكمله. وعلى عهد «سومو-أبوم» كانت مدينة أور تابعة لبابل، فشيّد فيها هذا الملك بعض المعابد.

ولما جاء من بعده الملك «سومولا-إيلو» وحكم من سنة ١٨١٧-١٧٨٠ ق.م، وسّع المملكة وجعلها قوية وأحدث انقلاباً في الديانة الأمورية، إذ ارتفعت مكانة الإله مردوخ وأصبح بديلاً عن الإله أمورو/مارتو، وارتقت الإلهة عشتار مكانة عالية.

وتوالى الملوك الأموريون البابليون حتى جاء عهد سادسهم، الملك حمورابي والذي امتدت فترة حكمه من ١٧٢٨ إلى ١٦٨٦ ق.م وغدا أعظم ملك بابلي أموري، حيث استطاع أن يؤسس إمبراطورية بابلية وحدت العراق القديم، وضمت أطرافاً من عيلام والشام. وفي عصره أخذ الآلهة أنو وإنليل وشمش أدواراً مهمة في المعتقد البابلي.

هذا العصر - وفي ظل حكم البابليين الأموريين على وجه التحديد - هو العصر الذي عاش في جانب منه النبيان إبراهيم ولوط، وفي موازاة مملكة بابل الأمورية قامت ممالك أمورية أخرى في الأردن القديم.

وهذه الممالك الأمورية في الأردن القديم كالتالي:

١. الممالك الأمورية في العصر البرونزي المتوسط ١٩٥٠-١٥٥٠ ق.م.
 ٢. الممالك الأمورية في العصر البرونزي المتأخر، أي القرن ١٢ ق.م.
 ٣. الممالك الأمورية في العصر الحديدي المبكر والمتوسط ١٢٠٠-٥٥٠ ق.م.^(١)
- ولذا نستطيع فرض انتقال النبي لوط من المملكة البابلية الأمورية في جنوب بلاد الرافدين إلى إحدى الممالك الأمورية في الأردن وهي سدوم، فهو أمرٌ معقول وقابل للتصوّر والتصديق، ولنتذكّر أن من القرى المذكورة مع سدوم حيث نزل العذاب، قرية عمورة التي يقترن ذكرها مع ذكر القرية الأولى سدوم، ولا يبعد أن يكون اسمها مرتبطاً بسكانها الأموريين/العموريين.
- وهو ما يفسّر لنا كيف يمكن للنبي لوط أن يهاجر من دياره في بلاد الرافدين ليستقر في سدوم في الأردن، ويبقى مع ذلك يخاطب أهلها على أنهم قومه، ويتحدث القرآن عنه بصفته أخاً لهم.

• وصف العذاب:

نعود إلى وصف قصة إنزال العذاب بقوم لوط من خلال ما جاء في التوراة من تفاصيل لما حدث للنبي لوط بعد إصرار القوم على أن يُخرج إليهم ضيفيه

١. انظر: الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٢٤٩-٣٤٠.

ولجؤئهم إلى استعمال القوة: (وَتَقَدَّمُوا لِيَكْسِرُوا الْبَابَ، فَمَدَّ الرَّجُلَانِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلَا لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضْرَبَاهُم بِالْعَمَى، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، فَعَجَزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ) ^(١).

وهذا المقطع الأخير يتوافق - بحسب ظاهر العبارة - مع ما جاء في الوصف القرآني حيث قال «عز وجل»: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ^(٢).

(وَقَالَ الرَّجُلَانِ) أي المكان (لِلْوَطِ: «مَنْ لَكَ أَيْضًا هَهُنَا؟ أَصْهَارَكَ وَبَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرَجَ مِنَ الْمَكَانِ، لِأَنَّا مُهْلِكَانِ هَذَا الْمَكَانَ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلْنَا الرَّبُّ لِنُهْلِكَهُ». فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الْآخِذِينَ بِنَاتِهِ وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لَأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكُ الْمَدِينَةِ». فَكَانَ كَمَا زَحَّ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ) ^(٣).

إلى هنا لا نجد ذكراً لامرأة لوط، إذا أنها لن تكون من الناجين لموقفها المشين في دعم قوم النبي لوط ضده، وهذا الوصف متوافق مع ما صرّحت به الآيات القرآنية:

○ ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ^(٤).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٩-١١.

٢. سورة القمر: ٣٧.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ١٢-١٤.

٤. سورة هود: ٨١.

إهلاك قوم لوط

- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ،
إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ﴾^(١).
○ ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾^(٢).

وغيرها من الآيات القرآنية، إلا أن النص التوراتي يعود ليذكر امرأة لوط ضمن المسموح لهم بالنجاة، ولكن: (وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلَائِكَةُ يُعْجِلَانِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذْ امْرَأَتَكَ وَابْتَيْتِكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لئَلَّا تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ». وَمَا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلَانِ بِيَدِهِ وَبَيَدِ امْرَأَتِهِ وَبَيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِسَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لَا تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ، وَلَا تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لئَلَّا تَهْلِكَ»^(٣)).

ثم يتحدث النص التوراتي عن رغبة النبي لوط في اللجوء إلى مدينة صوغر - قيل أنها كانت تقع جنوب سدوم - بدلاً من الجبل، فسمح له الله بذلك، ليعود النص فيتحدث عن مخالفة امرأة لوط للنهي الإلهي عن الالتفات إلى الوراء والنظر فيما سيجري على القرية في تلك اللحظة، وتحولها - بسبب هذه المخالفة - إلى عمود من ملح: (وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، فَأَمَطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيَاءً وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ الْمَدْنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمَدْنِ، وَنَبَاتِ الْأَرْضِ. وَنَظَرَتْ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ)^(٤).

١. سورة الحجر: ٥٧-٦٠.

٢. سورة الشعراء: ١٧٠-١٧١.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ١٥-١٧.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٢٣-٢٦.

وقد أشير في القرآن الكريم إلى مسألة النهي عن الالتفات أثناء الهروب من القرية: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ﴾ (١) ولكن ليس في نفس سياق القصة التوراتية، حيث أن استثناء امرأة لوط من النجاة لم يكن بسبب هذه المخالفة وفي لحظات الهروب، بل كان سابقاً لذلك ولأنها كانت مناصرة لقوم النبي لوط، وقد أخبر الملائكة النبي إبراهيم من قبل أن العذاب سيشملها: ﴿قَالَ﴾ والمتحدث هو النبي إبراهيم ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ (٢).

وتحدث القرآن الكريم عن امرأة لوط في محل آخر واصفاً إياها بالكفر والخيانة لزوجها دون توضيح لطبيعة هذه الخيانة وحدود الكفر وطبيعته، وذلك بلحاظ أن استعمال القرآن لكلمة الكفر لا يعني بالضرورة الشرك بالله أو عدم الإيمان به، بل قد يشمل التمرد على أوامره، أو الكفر بالنعمة، أو الاعتقاد ببعض ما لا يصح نسبته إلى الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (٣).

نقل الطبرسي في تفسيره عن ابن عباس أن امرأة لوط كانت تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتها، وما بغت امرأة نبي قط، أي ما مارست البغاء، وإنما كانت خيانتها في الدين. ونقل عن الضحاك أن خيانتها كانت بقيامها

١. سورة هود: ٨١.

٢. سورة الحجر: ٥٧-٦٠.

٣. سورة التحريم: ١٠.

بالنميمة، إذا أفشت إلى المشركين ما أوحى الله لنبيه^(١).

ونقل الطبري آراء مختلفة حول حقيقة هذه الخيانة، ونقل عن بعض المرويات ما يدل على أن خيانتها تمثّلت في:

○ أن لوطاً كان يُسرّ الضيف، أي يخفيه، بينما كانت هي تدلّ عليه وتُخبر الناس بدخولهم في ضيافة زوجها.

○ الخيانة في الدين.

○ إفشاء سر النبي لوط فيما كان يوحى إليه^(٢).

وقد اعتبر العلامة السيد محمد حسين فضل الله في تفسيره أن خيانتهم كانت في موقفهما المضاد للرسالة، حيث اتبعتا قومهما في الكفر، ولم تنسجما مع طبيعة موقعهما الزوجي الذي يفرض عليهما أن تكونا من أوائل المؤمنين بالرسالة، لأنهما تعرفان من استقامة زوجيهما وأمانتهما وصدقهما وجدّيتهما ما لا يعرفه الآخرون، فلا يبقى لهما أيّ عذرٍ في الانحراف عن خط الرسالة والرسول، ولكن المشكلة أنهما كانتا غير جادّتين في مسألة الانتماء الإيماني والالتزام العملي، فلم تنظرا إلى المسألة نظرةً مسؤولّةً، بل عاشتا الجو العصبي الذي يربطهما بتقاليد قومهما، فكانتا تفشيان أسرار النبيين في ما قد يسيء إلى مصلحة الرسالة والرسول، وكانتا تبتعدان في سلوكهما عن منطق القيم الروحية الإيمانية لتبقيا مع منطق الوثنية، ما يجعل البيت الزوجي النبوي يتحرك في دائرة الجاهلية إلى جانب دائرة الإيمان، ولعل

١. الطبرسي: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٦٣.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ١٢، ص ١٦٠.

ضلال ابن نوح كان خاضعاً لتأثير والدته، ويقال: إن امرأة لوط كانت تُخبر قومها بالضيوف الذين يزورون زوجها، ليقوموا بالاعتداء عليهم، فكانت خيانتها للموقف وللموقع^(١).

والقرآن الكريم والتوراة يلتقيان في تفاصيل قصة النبي لوط في أن النجاة لم تُكتب إلا لبيت واحد، وهو بيت النبي لوط فقط: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

• ماهية العذاب:

عندما نستقريء الوصف القرآني للعذاب النازل بقوم النبي لوط، سنجد أنه يتمثل في التالي:

○ ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمَرْنَا جَعَلْنَاهَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ، مُّسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾^(٣).

○ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَاهَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾^(٤).

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ٢٢، ص ٣٢٨-٣٢٩.

٢. سورة الذاريات: ٣٥-٣٦.

٣. سورة هود: ٨١-٨٢.

٤. سورة الحجر: ٧٣-٧٤.

إهلاك قوم لوط

○ ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(١).

○ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾^(٢).

○ ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ إِذَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلُ لُوطٍ نَّجَيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ، وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِينَ، وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ، وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرْ﴾^(٣).

وخلاصة ما سبق أن العذاب الذي نزل عليهم تمثل في عدة أمور:

١. كان خروج لوط ومن معه من القرية في وقت السَّحَر، أي الثلث الأخير من الليل ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلُ لُوطٍ نَّجَيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾^(٤)، ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾^(٥). بينما يقول النص التوراتي أن خروجهم كان فجراً (وَلَمَّا طُلِعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلَائِكَةُ يُعْجِلَانِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لئَلَّا تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ»)^(٦).

٢. فاجأهم العذاب أول الصباح، مع شروق الشمس ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ

١. سورة العنكبوت: ٣٤.

٢. سورة الشعراء: ٥٨.

٣. سورة القمر: ٣٣-٣٩.

٤. سورة القمر: ٣٤.

٥. سورة هود: ٨١.

٦. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ١٥.

مُشْرِقِينَ^(١). وهذا يلتقي مع النص التوراتي حيث جاء فيه: (وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، فَأَمَطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيَّتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ)^(٢).

٣. نزول الحجارة النارية من السماء كما ينزل ماء المطر ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾^(٣) أي موضوع بعضه على بعض، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٤)، ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذاباً ينزل بشكل متتابع كما تنزل حبات المطر ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾^(٥). والمعنى هنا أنها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة. وهذا يلتقي مع النص التوراتي حيث جاء فيه: (فَأَمَطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيَّتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ)^(٦).

٤. هذه الحجارة كانت ذات علامات مخصوصة تجعلها مميزة عن سائر أنواع الحجارة ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(٧). قال الألوسي^(٨) في تفسيره: (أي

١. سورة الحجر: ٧٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٢٣-٢٤.

٣. سورة هود: ٨٢.

٤. سورة الشعراء: ٥٨.

٥. سورة العنكبوت: ٢٤.

٦. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩: ٢٤.

٧. سورة هود: ٨٢.

٨. أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ). مفسر ومحدث، وفقيه، وأديب. له عدة مصنفات من بينها: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، (غرائب الاغتراب)، (الخريدة الغيبية)، (الرسالة اللاهوتية).

عليها سيما - أي علامة - يُعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض^(١). وهذه الخصوصية لم تذكر في التوراة.

٥. رافق هذه الحجارة صيحة وصوت عظيم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾^(٢)، وهذه الخصوصية لم تذكر في التوراة.

٦. لم تتحدث الآيات القرآنية عن دخان شديد متصاعد من الأرض إلى السماء، لربما نتيجة الحرائق التي وقعت على إثر نزول الحجارة النارية أو الحمم البركانية - على فرض أن الكارثة كانت انفجاراً بركانياً - أو من فوهة البركان نفسه، ولكن نجد هذا الوصف حاضراً في النص التوراتي: (وَتَطْلَعُ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، وَنَحْوَ كُلِّ أَرْضِ الدَّائِرَةِ، وَنَظَرُوا إِذَا دُخَانُ الْأَرْضِ يَصْعَدُ كَدُخَانِ الْأَتُونِ)^(٣).

٧. ذكر القرآن الكريم أن من آثار هذا التدمير ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾^(٤)، واعتبر الطبري أن المعنى هو جعل عالي أرضهم سافلها - انهيارات أرضية - بينما ذكر الطبرسي أن المراد قلب القرية أسفلها أعلاها. وذهب ابن عاشور إلى القول بأن القرية انقلبت عليهم انقلاب خسف حتى صار عالي البيوت سافلاً، أي وسافلها عالياً، وذلك من انقلاب الأرض بهم. وهذا يشابه ما جاء في النص التوراتي: (وَقَلَبَ تِلْكَ الْمَدْنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمَدْنِ، وَنَبَاتِ الْأَرْضِ..... وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسْطِ الْأَنْقِلَابِ. حِينَ قَلَبَ الْمَدْنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا

١. الألوسي: روح المعاني، ج ٤، ص ٣٠٩.

٢. سورة الحجر: ٧٢.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٢٨.

٤. سورة هود: ٨٢.

لُوط^(١). ويمكن تفسير ذلك بصورة مجازية، وبمعنى أنه تم تدميرها بشدة. كانت هذه العلائم التي وردت في القرآن الكريم والكتاب المقدس عرضتها بشكل مقارن... فماذا تقول الاكتشافات الأثرية الحديثة عن هذه الكارثة؟ وأين وقعت على وجه التحديد؟ بما قد يساعد على تقريب احتمالات تحديد الموقع الذي كان يستقر فيه قوم النبي لوط والذي نزل عليهم العذاب فيه.

• تحديد الموقع:

كان التصوّر السائد إلى زمن قريب هو أن هذه العلامات تدلّ على وقوع بركان - على الأغلب - والذي قضى على الحياة في المنطقة وغمرها بحممه ودخانهِ وغازاته الكبريتية السامة وبصخوره المنصهرة.

إلا أن بعثة استكشافية أمريكية بدأت في عام ٢٠١٥ بدراسة ميدانية لاكتشاف ديار قوم النبي لوط، ومصدر الكارثة المفاجئة التي حلت بهم وقضت عليهم وعلى المدن والقرى المجاورة لهم. وفي سنة ٢٠١٨ قدّمت البعثة تقريراً علمياً عن احتمال انفجار نيزك في الجو - وعلى ارتفاع منخفض من الأرض - فوق منطقة من الأردن مما سبّب وقوع هذه الكارثة.

وبهذا الخصوص ذكر عالم الآثار المشارك في هذا البحث الميداني فيليب سيلفيا أن التعرّف على الكربون المشعّ والمعادن المكتشفة التي تبلورت فوراً في درجات حرارة عالية تشير إلى أن انفجاراً هائلاً تسبّب فيه نيزك انفجر في الجودمّر الحضارة فوراً في سهل دائري بعرض ٢٥ كيلومتراً.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٢٥-٢٨.



تل الحمام - الخليل



من آثار تل الحمام - ديار قوم لوط

ومن المحتمل أن طبقة كثيفة من أملاح البحر الميت اندفعت لتغطي الأراضي القريبة منها، وأن الناس هجروها لمدة ٦٠٠-٧٠٠ سنة.

وتشير الحفريات في خمسة مواقع كبيرة في منطقة الأغوار الوسطى إلى أن جميع هذه المواقع كانت مسكونة بشكل مستمر لمدة ٢٥٠٠ عام على الأقل حتى الانهيار الجماعي المفاجئ في نهاية العصر البرونزي.

وقال سيلفيا أن ما يتراوح بين ٤٠ إلى ٦٥ ألف شخص كانوا يسكنون منطقة الأغوار الوسطى عندما ضربت الكارثة الكونية، وأن الكربون المشع في مدينة **تل الحمام** يشير إلى أن الجدران المبنية من الطوب الطيني لجميع المباني تقريباً اختفت فجأة منذ حوالي ٣٧٠٠ عام، تاركة فقط الأسس الحجرية.

والأكثر من ذلك، فإن الطبقات الخارجية للعديد من قطع الفخار من نفس الفترة الزمنية تظهر علامات على ذوبان الزجاج.

وقال سيلفيا إن بلورات الزركون في تلك الأغلفة الزجاجية تشكلت في غضون ثانية واحدة في درجات حرارة مرتفعة للغاية، ربما تكون ساخنة مثل سطح الشمس.

الرياح القوية تسببت في ظهور حبيبات معدنية كروية صغيرة سقطت كالمطر على تل الحمام. وقد تعرّف فريق البحث على هذه القطع الصغيرة من الصخور الموجودة على أجزاء الفخار في الموقع^(١).

الوصف السابق يمكنه أن ينطبق فعلاً على طبيعة العذاب وصفاته التي



من آثار تل الحمام - ديار قوم لوط



من آثار تل الحمام - ديار قوم لوط

تحدّثت عنها الآيات القرآنية - وحتى التوراة - من قبيل نزول حجارة نارية من السماء وتحمل علامات خاصة يُعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، والصيحة الناشئة من انفجار النيزك، وانقلاب القرية رأساً على عقب، والذي قد يُفسّر بالتدمير الشديد أو بوقوع خسف في الأرض نتيجة نزول الحجارة النيزكية وارتطامها باليابسة، فانقلبت البيوت والأحياء رأساً على عقب.

هذه الدراسة الميدانية والنتائج التي توصّلت إليها البعثة الأمريكية إن كانت بالفعل تخصّ ديار قوم النبي لوط، فمن دون شك ستُعتبر فتحاً علمياً يُساند النصوص الدينية في القرآن الكريم والتوراة حول قصة قوم لوط النبي، وبما يردّ على كثير من المشكّكين الذي يعتبرون أن هذه القصص الدينية ليست سوى أساطير من وحي الخيال، تناقلتها المجتمعات البشرية القديمة، وأريد من سردها تهذيب المجتمعات.

• إهلاك قوم إبراهيم:

ثم الذي يجب أن نلتفت إليه ولربما هو غائب عن أذهان الكثيرين أن الله «سبحانه وتعالى» أشار عَرَضاً في القرآن إلى إهلاك قوم إبراهيم «عليه السلام» أيضاً، وهذا ما نجده في قوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ، وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ، فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبَنَرٍ مُعْتَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾^(١).

إهلاك قوم لوط

حيث نجد هنا حديث عن الأخذ والإهلاك، وكون تلك القرى خاوية على عروشها، وقد قال ابن عاشور في تفسير الآيات: (لما نعى على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم وإنكارهم البعث وصدّهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام وما ناسب ذلك في غرضه من إخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبي «صلى الله عليه وسلم» فقصد من ذلك تسليّة الرسول «صلى الله عليه وسلم» وتمثيلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله، وتهديدهم بالمصير إلى مصيرهم)^(١).

وهكذا نجد الإشارة إلى ذات الأمر في قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢).

قال الفخر الرازي في تفسيره: (ورابعهم: قوم إبراهيم أهلكهم الله بسبب سلب النعمة عنهم، وبما روي في الأخبار أنه تعالى سلط البعوضة على دماغ نمرود)^(٣).

وقال الطبرسي في تفسيره: (ذكر «سبحانه» الأمم الماضية والقرون السالفة وأنه «سبحانه» أهلكها ودمّر عليها لتكذيبها رسلها لئلا يأمنوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فأهلك «سبحانه» قوم نوح بالغرق، وعاداً قوم هود

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٧، ص ٢٨٢.

٢. سورة التوبة: ٧٠.

٣. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ١٦، ص ١٢٩.

بالريح الصرصر، وثمرود قوم صالح بالرجفة، وقوم إبراهيم بسلب النعمة، وهلاك نمرود، وأصحاب مدين وهي البلدة التي فيها قوم شعيب بعذاب يوم الظلة^(١).

وقال العلامة الطباطبائي في تفسيرها: (فذاك قوم نوح عمهم الله «سبحانه» بالفرق، و عاد وهم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية، و ثمود وهم قوم صالح عذبهم بالرجفة، وقوم إبراهيم أهلك ملكهم نمرود وسلب عنهم النعمة، والمؤتفكات وهي القرى المنقلبات على وجهها - من اتفكت الأرض إذا انقلبت - قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها)^(٢).

ويبدو أنهم يشيرون هنا إلى ما جاء في بعض المصادر من قبيل البداية والنهاية لابن كثير وفيها عن زيد بن أسلم قال: (وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم ذباباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فمكثت في منخري الملك أربعمئة سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب برأسه بالمرازب^(٣) في هذه المدة حتى أهلكه الله بها)^(٤).

١. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٥، ص ٧٥.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٩، ص ٣٢٧.

٣. جمع مَرزَبَة، وهي عصا ومطرقة كبيرة تُكسَّر بها الحجارة.

٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ١٨٧-١٨٨.

إهلاك قوم لوط

ولا نملك في القرآن الكريم أية تفاصيل بهذا الخصوص، كما أننا لم نتوصل في بحثنا على نحو اليقين إلى أن نمرود هذا كان وراء حرق إبراهيم «عليه السلام»، حيث لم يتحدث القرآن عن مسؤوليته في هذا الأمر، وهو ما يجعلنا نتوقف في قبول ما ذكره زيد بن أسلم - ولا ندري ما هو مصدره - على غرابة ما فيه من أن البعوض أكل لحومهم وشرب ودماءهم، وما في نهاية كلامه من أن البعوضة بقيت في منخري النمرود أربعمئة سنة! وهو بمجموعه باعث على مثل هذا التوقف، وإيكال علم حقيقة ما جرى إلى الله، مع التسليم بأن أصل الإهلاك قد وقع.

وهل المراد من قوم إبراهيم «عليه السلام» هم الذين أمروا بإحراقه؟ هذا هو المتبادر، إذ أقيمت عليهم الحجة بالأدلة والبراهين ثم تجرأوا على إبراهيم بإحراقه، مما يجعلهم مستحقين لمثل هذا العذاب الدنيوي الشديد.

وقد تساءلت مدونة الإسلام من القرآن على الإنترنت تحت عنوان عذاب قوم إبراهيم^(١) عن سبب عدم ذكر طبيعة العذاب النازل على قوم إبراهيم، وجاء فيها أن من بين أكثر الأشياء التي تطرق لها القرآن بإسهاب ذكره لقصص أمم وأقوام الأنبياء الذين بعثوا قبل محمد بما في ذلك نهايتهم المأساوية التي تطرق لها القرآن بأدق التفاصيل في عدة مواضع، لكن وسط كل هذا الزخم من النذر نجد غياباً شبه كلي لمصير قوم إبراهيم الكفار، فلا مجال للشك عند دراسة مختلف نصوص القرآن بأن قوم إبراهيم كفروا ربهم ولم يتوبوا، شأنهم شأن جل قرى الأنبياء التي أهلك بظلمها.

1. http://onlycoran.blogspot.com/2016/04/blog-post_86.html

وبعد أن أورد كاتب المقال مجموعة من الأمثلة تساءل: لكن ما هو مصيرهم؟ هل أهلكهم الله تعالى مثل باقي الأمم الكافرة؟ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا، سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾^(١). بطبيعة الحال لا تبديل ولا تحويل لسنة الله، فقوم إبراهيم أهلكوا شأنهم شأن كل من سبقهم ومن خلفهم من الفاسقين، وهو ما أكدته القرآن رغم ذكره لذلك بإقتضاب شديد.

وبعد ذكر مجموعة من النماذج قال كاتب المقال: رغم أن القرآن في مجمله قد أعطى أهمية كبرى لقصة نبي الله إبراهيم وأسهب في ذكرها أكثر من قصص الأنبياء السالفي الذكر باستثناء جزئية عذاب قومه. وإذا ظهر السبب بطل العجب لأننا عند العودة لنفس القرى المهلكة سنجد أن القاسم المشترك بينها هو قربها الجغرافي الكبير من قرية محمد كعاد و ثمود، وهذا القرب الجغرافي هو الذي جعل قصص هلاك و عذاب هذه الأقوام يبقى حاضرا في تراث وفلكلور نفس المنطقة حتى لحظة نزول القرآن الذي يروي لنا في أكثر من آية معرفة الكفار المسبقة بسبب هلاك أسلافهم، حتى قبل بعثة النبي محمد من خلال رؤية آثار الدمار الذي حل بمساكنهم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

١. سورة الإسراء: ٧٦-٧٧.

٢. سورة غافر: ٨٢.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾^(١).

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾^(٢).

و الذي أخذ مع مرور الزمن طابعاً أسطورياً: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾^(٣)، جاء القرآن ليخرجه من هذه الصورة التي صنعها الكفار مع مرور الوقت للهروب من واقع ما حل بأسلافهم: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾^(٤)، ونستطيع أن نضيف إلى نفس التراث قصتي موسى التي كانت حاضرة بقوة في محيط قوم الرسول، وقصة نوح التي لم تكن حاضرة في تراث المنطقة فحسب بل في عشرات الحضارات القديمة.

وهنا نستنتج أن سبب عدم ذكر القرآن لقصة هلاك قوم إبراهيم وإنذار قوم الرسول بها يعود إلى جهلهم الكلي لها كونها لا تنتمي لتراثهم ولا لمحيطهم الجغرافي، فإذا كان قوم الرسول قد أنكروا حتى قصص الأقوام المجاورة لهم التي كانوا يرون آثار خرابها ليل نهار، وجعلوها في مصاف الخرافات والأساطير، فما الفائدة بتخويفهم بقصة قوم لا يعرفون عنهم شيئاً.

وقد تجاهل القرآن ذكر تفاصيل عذاب العديد من الأقوام لنفس السبب:

١. سورة الفرقان: ٤٠.

٢. سورة العنكبوت: ٢٨.

٣. سورة المطففين: ١٣.

٤. سورة الفرقان: ٤٠.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾^(١)، ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾^(٢).

وسواء قلنا بهذا التحليل لسبب عدم ذكر أية تفاصيل عن عذاب قوم إبراهيم في القرآن الكريم، بل وحتى في التوراة، يبقى السؤال حول كيفية هذا العذاب وتحديد موقعه الجغرافي قائماً، ويأتي ضمن عدة احتمالات:

إذا قلنا أنه نزل بالملك شمشي أدد الأول وقومه، فيمكن حينئذ تفسيره بانهيار إمبراطوريته واحتلال عاصمته آشور عبر غزوات منافسيه ومن بينهم حامورابي وما يستتبع ذلك عادة من استعباد وإذلال.

وإذا قلنا أنه نزل بقوم النبي إبراهيم في كوثي ربي أو أور القريبة من الناصرية، فقد شهدت المدينتان غزوات كثيرة من أطراف مختلفة، وقد تكون واحدة منها بمثابة العذاب النازل بقوم إبراهيم، لاسيما وأن بعض هذه الغزوات ما كانت محدودة بعملية غزو واحتلال فقط، بل بتفكك الدولة وانهيارها، وتبدل الثقافة فيها والدين أيضاً، وهو ما نلاحظه في مدينة أور مثلاً الواقعة بالقرب من الناصرية، والتي كانت تحت حكم السومريين، ثم أصبحت تحت حكم الأموريين، وتبدلت بذلك الآلهة المعبودة على سبيل المثال. وتذكر بعض الدراسات التاريخية أن العلامات المبكرة لضعف الدولة السومرية ظهرت مع بداية حكم آخر ملك من ملوكها، وساعد على سقوطها

١. سورة الإسراء: ١٧.

٢. سورة الفرقان: ٣٨-٣٩.

الوضع الاقتصادي الصعب الذي مرت به بلاد سومر حيث ارتفعت نسبة الملوحة في الأراضي الزراعية وقلَّ إنتاجها الزراعي، وهو ما يمكن أن يتوافق مع عنوان (سلب النعمة) الذي مرّ بنا في بعض تفاسير القرآن الكريم. كما كان لِسعة الإمبراطورية السومرية المتزامنة الأطراف الأثر الكبير في عدم القدرة على إدارتها الاقتصادية والسياسية، فشكّل تمرّد العيلاميين من الشرق والأموريين من الغرب نهاية سلالة أور الثالثة ونهاية العصر السومري وبداية العصر البابلي القديم.

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ كان النبيان إبراهيم ولوط من الأموريين، ولذا عندما ارتحلا من ديارهما في العراق إلى الشام واستقر لوط أخيراً في إحدى قرى الأردن، وهي - سدوم بحسب التوراة - وسكانها من الأموريين/العموريين أيضاً، لذا فقد وفد على قومه كما أخبر بذلك القرآن الكريم، مع ملاحظة التشابه الكبير بين عنوان العموريين مع قرية عمورة المجاورة لسدوم والتي شملها العذاب أيضاً بحسب النص التوراتي.

○ بحسب الشواهد يمكن القول أن قرية النبي لوط التي نزل عليها العذاب كانت تقع شمال البحر الميت تقريباً، وقد تكلم القرآن الكريم عن ماهية الفاحشة التي عُرف بها أهل تلك القرية بكل وضوح، ولا نجد مثل ذلك الوضوح في التنخ، إلا أن جمع القرائن من الكتاب المقدس ككل، يقودنا إلى نفس النتيجة.

○ وصف مجريات الأحداث في التوراة يقترب كثيراً في مفرداته مما جاء

في عدد من الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذه القصة، وقدمتها للعبارة.

○ قام عدد من الباحثين والآثارين بدراسة الآثار الخاصة بتلك القرية ومحاولة تحديد موقعها، وهل تقع حالياً مدفونة في قاع البحر الميت أم خارجه، وما هو العصر الذي وقع فيه الحدث، وطبيعة ذلك العذاب النازل.

○ أحدث النتائج تقودنا إلى القول بانفجار نيزك في الجو - وعلى ارتفاع منخفض من الأرض - فوق منطقة من الأردن، وتركز فوق تل الحمام مما سبب وقوع هذه الكارثة في زمن يتوافق مع عصر النبيين إبراهيم ولوط «عليهما السلام».

○ أشار القرآن الكريم بشكل عابر وسريع إلى إهلاك قوم النبي إبراهيم «عليه السلام» أيضاً، دون تحديد لطبيعة ذلك العقاب، وتحدثت بعض الروايات عن أن الله عاقب نمرود وقوم إبراهيم بالبعوض، وبسلب النعمة منهم، دون أن نتمكن من التأكد من صحة هذه المرويات، وإن كانت الدلائل التاريخية تؤيد وقوع المنطقة في وضع اقتصادي صعب، بما يتوافق مع عنوان (سلب النعمة) الذي جاء في بعض الروايات وكتب تفسير القرآن الكريم.

إحياء الموتى

إحياء الموتى

• موضوعات هذا الفصل:

- قراءة في الروايات الإسلامية التي قدّمت صوراً مختلفة ومتضاربة وأسطورية أحياناً حول طبيعة الحدث المرتبط بطلب النبي إبراهيم من الله أن يريه كيف يحيي الموتى.
- متى تمّ هذا الطلب؟ هل كان في بدايات حياة إبراهيم أم بعد هجرته؟
- ما سبب هذا الطلب؟ هل للطلب ارتباط بتحدّي الملك للنبي إبراهيم ضمن الحوار المقدّم في سورة البقرة؟
- ما هي أنواع الطيور التي قطعها النبي إبراهيم؟ وكيف وزّعها؟
- استعراض صور من إضافات الرواة التهويلية بغرض التشويق والإثارة أو التحريف والوضع أو الوعظ والإرشاد.
- الأسلوبان الصوفي والباطني (الإسماعيلي) في تأويل الحدث.
- هل للقصة ذكر في المصادر الكتابية؟ وما علاقة هذا الحدث برغبة النبي إبراهيم في امتداد ذريته؟

إحياء الموتى

أمامنا في القرآن الكريم مشهد غير محدد الترتيب أو الارتباط بتفاصيل ومسار سيرة إبراهيم «عليه السلام» ومتى جرى هذا الأمر على وجه الدقة، وأين جرى، ولذا فإن ذكرنا لهذا الحدث في هذه المحاضرة لا يعني أننا نذكره وفق تراتبية الأحداث. فقد تحدث القرآن الكريم - بعد ذكر حدث الحاجة بين إبراهيم «عليه السلام» وبين الملك - عن قصة الذي مات مائة عام ثم بعثه الله، ثم تعود السورة لتتحدث عن مشهد آخر من مشاهد سيرة إبراهيم «عليه السلام». ولا يمكن التعويل بشكل أكيد على ترتيب الآيات في السورة فهي ليست في وارد ترتيب الأحداث من خلالها، لا سيما بلحاظ آية إحياء الرجل الميت التي جاءت بينهما.

والمشهد الخاص بإحياء الموتى جاء وصفه في الآية القرآنية الشريفة كالتالي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ من صار يصور إذا قطع أو أمل، أي أملهن إليك قاطعاً إياهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

ولا نجد في الآية تفصيلاً عن:

○ طبيعة هذه الطيور.

○ وهل هي من نوع واحد أم من أنواع متعددة.

○ وإلى كم قطعة تم تقطيعها.

وغير ذلك من تفاصيل تحدثت عنها بعض الروايات الإسلامية التي لم تقتصر أحياناً على تقديمها بشكل متضارب من رواية إلى أخرى، بل وإعطاء المسألة بُعداً باطنياً، بصورة عرفانية أحياناً، وبصورة هي أقرب للطريقة الإسماعيلية الباطنية في تأويل النصوص أحياناً أخرى.

كما أنّ من الروايات ما قدّم إجابة لإشكالية مرتبطة بظاهر الآية الذي يدل على عدم يقين إبراهيم «عليه السلام» بمسألة إحياء الله للموتى.

• أنواع الطيور الأربعة :

تضاربت أقوال الروايات فيما يخص أنواع الطيور، ويمكن عرضها كالتالي:

○ الديك والحمامة والطاووس والغراب.

○ الطاووس والنسر والديك والبط.

○ الهدد والصُرد والطاووس والغراب.

○ النعامة والطاووس والوزة والديك.

○ الديك والطاووس والكركي والنسر.

• تضارب التفاصيل :

ومع تضارب أنواع الطيور تتضارب تفاصيل أخرى من قبيل كيفية التقطيع والمزج أو الهرس أو التوزيع على الجبال، والاحتفاظ ببعض أجزائها بعد التقطيع، وكيفية عودتها إلى الحياة وما إلى ذلك. وفيما يلي مجموعة من نماذج هذه الروايات:

○ العياشي في تفسيره: روى أبو بصير عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كانت الجبال عشرة، وكانت الطيور الديك والحمامة والطاووس والغراب، وقال: فخذ أربعة من الطير فقطعهن بلحمهن وعظامهن وريشهن، ثم أمسك رؤوسهن، ثم فرقهن على عشرة جبال، على كل جبل منهن جزءاً، فجعل ما كان في هذا الجبل يذهب إلى هذا الجبل بريشه ولحمه ودمه، ثم يأتيه حتى يضع رأسه في عنقه، حتى فرغ من أربعتهن)^(١).

○ في الرواية التالية التي يرويها العياشي أيضاً في تفسيره إضافة تُحدّد المكان، مع اختلاف في نوعية الطيور، وجزئية مرتبطة بعدم الاكتفاء بالتقطيع بل ومنتف الريش والهرس والدق والطحن، وكأن الراوي أراد إضافة عنصر جديد يزيد من غرابة القصة في حد ذاتها.

فعن معروف بن خربوذ قال: سمعت أبا جعفر «عليه السلام» يقول: (إن الله لما أوحى إلى إبراهيم «عليه السلام» أنْ خذ أربعة من الطير، عمد إبراهيم فأخذ النعامة والطاووس والوزة والديك، فنتف ريشهن بعد الذبح، ثم جعلهن في مهارة فهرسهن، ثم فرقهن على جبال الأردن، وكانت يومئذ عشرة أجيال، فوضع على كل جبل منهن جزءاً، ثم دعاهن بأسمائهن فأقبلن إليه سعيّاً)^(٢).

○ الرواية الثالثة تمثل النموذج الباطني العرفاني من روايات هذا الحدث، والذي لا يكفي بالقصة في تفاصيلها، ولا بدالاتها على قدرة الله على إحياء

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٧٣.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٧٣.

الموتى، بل ويحاول أيضاً أن يُضيف رسالة أخرى ذات بُعد عرفاني أخلاقي مستقى من طبيعة أنواع الطيور التي تمّ اختيارها في القصة. كما أن فيها إضافات عديدة لا نجدها فيما سبق.

ففي علل الشرائع والخصال: سمعت محمد بن عبد الله بن محمد بن طيفور يقول في قول إبراهيم «عليه السلام»: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾: (إن الله «عز وجل» أمر إبراهيم «عليه السلام» أن يزور عبداً من عباده الصالحين فزاره، فلما كلمه قال له: إن لله «تبارك وتعالى» في الدنيا عبداً يقال له إبراهيم اتخذه خليلاً، قال إبراهيم: وما علامة ذلك العبد؟ قال: يُحيي له الموتى، فوقع لإبراهيم أنه هو) أي إبراهيم هو نفسه الذي اختاره الله ليكون خليله (فسأله) أي سأل إبراهيم الله (أن يحيي له الموتى) ليكون هو الخليل (قال): ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنِ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يعني على الخلّة، ويقال:) ولا ندري من القائل؟ وهل يمكن القول أن هذا من كلام الإمام أم الشيخ الصدوق أم الرواي؟ وهل ما سيأتي من كلام فيه تفسير باطني هو تنمة لرواية الإمام أم من مصدر آخر (إنه أراد أن يكون له في ذلك معجزة كما كانت للرسول، وإن إبراهيم سأل ربه «عز وجل» أن يحيي له الميت، فأمره الله «عز وجل» أن يميت لأجله الحي سواء بسواء، وهو لما أمره بذبح ابنه إسماعيل، وإن الله «عز وجل» أمر إبراهيم «عليه السلام» بذبح أربعة من الطير: طاووساً ونسراً وديكاً وبطاً، فالطاووس يريد به زينة الدنيا، والنسر يريد به الأمل الطويل، والبطة يريد به الحرص، والديك يريد به الشهوة. يقول الله «عز وجل»: «إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَحْيِيَ قَلْبُكَ وَيُطْمَئِنَّ مَعِيَ، فَاخْرُجْ عَنْ هَذِهِ

الأشياء الأربعة، فإذا كانت هذه الأشياء في قلب فإنه لا يطمئن معي) العبارات السابقة كانت مثال التأويل الباطني (وسألته كيف قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ مع علمه بسرّه وحاله؟ فقال: إنه لما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ كان ظاهر هذه اللفظة توهم أنه لم يكن بيقين، فقرر الله «عز وجل» بسؤاله عنه إسقاطاً للتهمة عنه وتنزيهاً له من الشك^(١).

○ النموذج الآخر الذي نجده في روايات الباب، هو النموذج الباطني الإسماعيلي والذي يعتمد على تقديم معانٍ رمزية مجازية للكلمة المستعملة في النص دون أن يكون هناك أي ارتباط لغوي بين المعنيين.

فعلى سبيل المثال، إذا كان النص يتحدث عن الصلاة فإن التفسير الظاهري للكلمة هو العبادة المعروفة، أما تأويلها الباطني فهو الإمام. وبالتالي تكون النصوص الداعية إلى إقامة الصلاة هي في معناها الباطني تعني اتباع الإمام والاستقامة في ذلك.

وما جاء من نص بمعنى (لا صلاة إلا بركة) فإن المعنى الظاهر هو إخراج ما يجب على الأغنياء في أموالهم ودفع ذلك إلى الأئمة الذين تعبّد الله «عز وجل» الناس بدفع ذلك إليهم، فيعني أنه لا تقوم الدعوة إلا بمعرفة الأسس الذين هم أوصياء النبيين والحجج الذين هم أوصياء الأئمة.

وإذا كان الحج في ظاهره الإتيان إلى البيت العتيق بمكة لقضاء المناسك عنده، فإن باطنه الذي جعل الظاهر دليلاً عليه هو إتيان إمام الزمان من نبي وإمام، لأن إمام الزمان مثله في الباطن مثل البيت الحرام.

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٤.

هذه نماذج من التأويلات الباطنية. وقد خصص القاضي النعمان^(١) كتابه **تأويل دعائم الإسلام** لهذا النوع من التأويل الباطني للعبادات.

والرواية التالية بالإضافة إلى التأويل الباطني، تتضمن تفاصيل إضافية جديدة وهي للصدوق رواها في **الخصال** بالسند عن صالح بن سهل، عن أبي عبد الله «عليه السلام» في قول الله «عز وجل»: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، قال: (أخذ الهدهد والصُّرَدَ والطاووس والغراب فذبحهن، وعزل رؤوسهن، ثم نحز أبدانهن في المنحاز) دقّه وسحقه في المنحاز أي الهاون الكبير (بريشهن ولحومهن وعظامهن حتى اختلطت، ثم جزّأهن عشرة أجزاء على عشرة أجبل، ثم وضع عنده حباً وماء، ثم جعل مناقيرهن بين أصابعه، ثم قال: آتين سعيّاً بإذن الله «عز وجل»، فتطأير بعضها إلى بعض، اللحم والريش والعظام، حتى استوت الأبدان كما كانت، وجاء كل بدن حتى التزق برقبته التي فيها رأسه والمنقار، فخلّى إبراهيم عن مناقيرهن فوقعن وشربن من ذلك الماء، والتقطن من ذلك الحب، ثم قلن: يا نبي الله، أحييتنا أحياءك الله، فقال إبراهيم: بل الله يحيي ويميت. فهذا تفسير الظاهر. قال «عليه السلام»: وتفسيره في الباطن: خذ أربعة ممن يحتمل الكلام، فاستودعهم علمك، ثم ابعثهم في أطراف الأرضين

١. النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت ٣٦٢ هـ)، ويقال له القاضي النعمان، واشتهر بأبي حنيفة لتشابه الاسم. تفقه بمذهب المالكية، وتحول إلى مذهب الإسماعيلية سنة ٢٢٢ هـ. قدم مع المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ، وهو كبير قضاته. وتوفي بها. أحد أهم فقهاء الإسماعيلية على عهد الدولة الفاطمية. من مصنفاته (دعائم الإسلام) وهو الكتاب الأساسي في الفقه الإسماعيلي، (تأويل دعائم الإسلام)، (اختلاف أصول المذاهب)، (أساس التأويل الباطن)، (مختصر الآثار في ما وري عن الأئمة الأطهار).

حُجْجاً لَكَ عَلَى النَّاسِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ يَأْتُوكَ، دَعَوْتَهُمْ بِالْأَسْمِ الْأَكْبَرِ يَأْتُوكَ سَعِيّاً بِإِذْنِ اللَّهِ «عَلَيْهِ السَّلَام».

ثم قال الصدوق: (الذي عندي في ذلك أنه «عليه السلام» أمر بالأميرين جميعاً)^(١) أي الظاهر والباطن.

○ الرواية التالية تربط المسألة باتخاذهِ خليلاً من قبل الله. وهي تشبه رواية سابقة مرت معنا مع فارق أنها لا تذكر هنا وجود شخص آخر في البين.

ففي التوحيد، عيون أخبار الرضا «عليه السلام»: تميم القرشي، عن أبيه، عن حمدان بن سليمان، عن علي بن محمد بن الجهم قال: (سأل مأمون الرضا «عليه السلام» عن قول إبراهيم «عليه السلام»: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾. قال الرضا «عليه السلام»: إن الله «تبارك وتعالى» كان أوحى إلى إبراهيم «عليه السلام»: أَنِّي مَتَّخِذٌ مِنْ عِبَادِي خَلِيلاً، إِنْ سَأَلَنِي إِحْيَاءُ الْمَوْتَى أَجَبْتَهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام» أَنَّهُ ذَلِكَ الْخَلِيلُ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾ عَلَى الْخَلَّةِ، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمُ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعِيّاً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمَ «عليه السلام» نَسْراً وَبَطْلاً وَطَاوُوساً وَدِيكاً فَقَطَعَهُنَّ فَخَلَطَهُنَّ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي حَوْلَهُ - وَكَانَتْ عَشْرَةٌ - مِنْهُنَّ جُزْءٌ، وَجَعَلَ مَنَاقِيرَهُنَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ثُمَّ دَعَاهُنَّ بِأَسْمَائِهِنَّ وَوَضَعَ عِنْدَهُ حَباً وَمَاءً، فَتَطَايَرَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ بَعْضُهَا

إلى بعض حتى استوت الأبدان، وجاء كل بدن حتى انضم إلى رقبته ورأسه، فخلّى إبراهيم «عليه السلام» عن مناقيرهن فطرن ثم وقعن فشربن من ذلك الماء والتقطن من ذلك الحب وقلن: يا نبي الله أحييتنا أحيك الله، فقال إبراهيم «عليه السلام»: بل الله يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير^(١).

• لماذا الطلب؟

علق المجلسي بعد الرواية السابقة حول توجيه طلبه رؤية إحياء الموتى وربط ذلك بمسألة الخلّة قائلاً: (هذا أحد وجوه التأويل في هذه الآية، وقد ذكره جماعة من المفسرين، ورووه عن ابن عباس وابن جبير والسدي^(٢)).

ثم جاء المجلسي برأيين آخرين حول سبب طلب إبراهيم «عليه السلام» أن يريه الله «عز وجل» كيف يحيي الموتى، وهي كالتالي:

١. أنه أحب أن يعلم ذلك علم عيان بعدما كان عالماً به من جهة الاستدلال والبرهان لتزول الخواطر والوساوس، وإليه يومي خبر أبي بصير وغيره.

وخبر أبي بصير هو ما جاء تفسير علي بن إبراهيم: أبي، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (إن إبراهيم «عليه السلام» نظر إلى جيفة على ساحل البحر تأكلها سباع البر وسباع البحر، ثم يثب السباع بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً، فتعجب إبراهيم «عليه السلام» فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ

١. الصدوق: التوحيد، ص ١٢١-١٢٢.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٦٤-٦٥.

إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُمْ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ الطَّاوُوسَ وَالْدِيكَ وَالْحَمَامَ وَالْغَرَابَ، قَالَ اللَّهُ «عز وجل»: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي قطعهن ثم اخلط لحماتهن وفرقها على عشرة جبال ثم خذ مناقيرهن وادعهن يأتينك سعياً، ففعل إبراهيم ذلك وفرّقهن على عشرة جبال ثم دعاهن فقال: اجيبيني يا ذن الله «تعالى»، فكانت يجتمع ويتألف لحم كل واحد وعظمه إلى رأسه، وطارَت إلى إبراهيم، فعند ذلك قال إبراهيم: ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

٢. أن سبب السؤال منازعة نمرود إياه في الإحياء فقال: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وأطلق محبوساً وقتل إنساناً، فقال إبراهيم: ليس هذا بإحياء، وقال: يا رب أرني كيف تحيي الموتى ليعلم نمرود ذلك.

وروي أن نمرود توعدّه بالقتل إن لم يحيي الله الميت بحيث يشاهده، فلذلك قال: ﴿لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي﴾ أي بأن لا يقتلني الجبار (٢).

ونجد النويري (٣) في موسعته نهاية الإرب في فنون الأدب يقدم لنا تفصيلاً حول القصة استخلصها من بعض الروايات مع ربطها بالحوار الدائر بين إبراهيم والملك بما يتوافق مع الاحتمال الثالث الذي ذكره المجلسي.

١. القمي: تفسير القمي، ص ٨١.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٦٤-٦٥.

٣. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري، نسبة إلى قرية النويرة بمحافظة بني سويف بمصر (٦٧٧هـ-٧٣٣هـ). مؤرخ وخطاط. قدم النويري للثقافة الإنسانية موسوعته الكبرى (نهاية الإرب في فنون الأدب) وتشتمل الموسوعة على خمسة فنون: السماء والأثار العلوية والأرض والأثار السفلية وهو قسم جغرافي فلكي عام - الإنسان وما يتعلق به - الحيوان - النبات - (شغلت عشرة مجلدات) - التاريخ (شغل واحداً وعشرين مجلداً).

جاء في جانب من هذه القصة: (قال نمرود: فما الذي يفعل) أي الله (من قدرته؟) ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ قال نمرود: ﴿أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾. قال: كيف تفعل؟ قال: أخرج من الحبس من قد وجب عليه القتل فأطلقه، وأقتل الذي لم يجب عليه. قال إبراهيم: إن ربي لا يفعل كذلك، بل الميت يحييه، والحي يميته من غير قتل، ولكن يا نمرود، إِنَّ ﴿اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾).

ثم ذكر النويري الآية وأكمل القصة كالتالي: (قال: فأخذ ديكاً أبيض وغراباً أسود وحمامة خضراء وطاوساً، وقطع رؤوسها، وخلط الدم بالدم والريش بالريش؛ ثم جزأها أجزاء متساوية، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، وجعل رؤوسها من بين أصابع إبراهيم، فصار كل رأس إلى بدنه. قال: والتفت إبراهيم إلى نمرود وقال: كيف ترى قدرة إلهي؟ قال: ليس هذا ببديع من سحر. وأمر به فقيّد وغلّت يده، وأدخل المضيق تحت الأرض وفيه الحيات والعقارب فلم يضره ذلك. وجاءه جبريل فبشره عن الله بالنصر، وألبسه حلة خضراء، وفرش له فرشاً من السندس، وأتاه بطعام فأكل وقال له: اصبر كما صبر الأنبياء من قبلك)^(١).

• القصة في المصادر الكتابية :

لم يتحدّث التنخ عن هذه القصة، كما لم أجد في التراث اليهودي أو المسيحي ما يدل على وجودها لديهم خارج إطار الكتاب المقدس. نعم، نجد في الأصحاح ١٥ من سفر التكوين قصة ادّعى بعضهم أنها أصل القصة القرآنية.

١. النويري: نهاية الأرب، ج ٢، ص ٣٣٠.

ففي أرض المهجر بعد الحرب التي خاضها إبراهيم «عليه السلام» وتحريره لوطاً من الأسر نجد النص التالي: (بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ صَارَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلاً: «لَا تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جَدًّا». فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا...») وتناولنا سابقاً التفاصيل اللاحقة لهذا الحوار حول الوعد الإلهي لإبراهيم أن يكثر نسله جداً وأن يورثهم الأرض المباركة (فَقَالَ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، بِمَاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرْتُهَا؟» فَقَالَ لَهُ: «خُذْ لِي عَجَلَةً ثَلَاثِيَّةً، وَعَنْزَةً ثَلَاثِيَّةً، وَكَبْشًا ثَلَاثِيًّا، وَيَمَامَةً وَحَمَامَةً». فَأَخَذَ هَذِهِ كُلَّهَا وَشَقَّهَا مِنَ الْوَسْطِ، وَجَعَلَ شَقَّ كُلِّ وَاحِدٍ مُقَابِلَ صَاحِبِهِ. وَأَمَّا الطَّيْرُ فَلَمْ يَشَقَّهُ. فَنَزَلَتِ الْجَوَارِحُ عَلَى الْجَثِّ، وَكَانَ أَبْرَامُ يَزْجُرُهَا»^(١)).

إلا أن هذه القصة لا علاقة لها بالقصة القرآنية، لا من حيث التفاصيل، لا من حيث الدافع، وذلك للأسباب التالية:

١. المسألة هنا ترتبط بذرية إبراهيم وموطنهم، لا بخصوص القدرة الإلهية على إحياء الموتى وما سيجري يوم القيامة.
٢. ثم إن القصة التوراتية لا تذكر قطع الطيور، بل تؤكد أنه لم يقطعهن.
٣. الدافع لعمل ذلك كان تقديم القرбан لله، وليس البرهنة لإبراهيم على القدرة الإلهية.

• نتائج الفصل وخلاصته:

○ اكتفى القرآن الكريم ببيان طلب النبي إبراهيم من ربه أن يريه كيف

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٥: ١-١١.

يحيي الموتى، فأراه ذلك من خلال أربعة طيور دون الدخول في أية تفاصيل تخص الزمان والمكان والظرف الذي استدعى ذلك.

○ لا يوجد في الكتاب المقدس والتراث اليهودي والمسيحي ضمن الكتاب المقدس وخارجه أي ذكر لهذه الحادثة.

○ ذكرت بعض الروايات أن هذا الأمر تم بطلب من النمرود، أو ضمن الحوار الذي دار معه، وذلك لإثبات القدرة الإلهية وبطلان ادعاءات الملك. وفي بعضها أن هذا تم في الأردن دون أن تكون له علاقة بالحوار مع الملك.

○ اختلفت الروايات في تحديد أنواع الطير وكيفية التقطيع والتوزيع على الجبال وغير ذلك من التفاصيل، ولا يوجد ما يرجح أي منها على ما سواها.

○ التفاصيل الأسطورية لم تغب عن بعض الروايات التي تناولت هذه الحادثة.

إسماعيل وهاجر

إسماعيل وهاجر

• موضوعات هذا الفصل:

- التفاصيل التوراتية في استعراض قيام العلاقة بين النبي إبراهيم وهاجر، وعلاقة سارة بذلك وندمها.
- البشارة بولادة إسماعيل كما جاءت في التوراة، وتحديد عمر النبي إبراهيم عند ذلك.
- صور من تأثر المرويات الإسلامية بالتفاصيل التوراتية غير المقبولة.
- هروب هاجر خلال حملها من (بطش) سارة وإيذاؤها بسبب الغيرة.
- ظهور الملك لهاجر وعودتها إلى إبراهيم وولادة إسماعيل.
- مقارنة الرواية التوراتية حول هجرة إسماعيل بمعية أمه بالنص القرآني والمرويات الإسلامية (المتضاربة) من حيث الزمان والمكان والأحداث.
- هل كان نبع ماء (زمزم) في طفولة إسماعيل الأولى أم عند إعادة بناء الكعبة وبدء الحج إلى بيت الله؟
- الأقوال في موقع (فاران) التي يقول المسلمون أنها مكة أو بعض جبالها.

• القصة بين القرآن والتناخ:

مر معنا في فصول سابقة أن الله «عز وجل» بشر إبراهيم «عليه السلام» على كبر سنّه بولادة ابن له. ونجد في ذيل الرواية الطويلة المروية عن الإمام الصادق «عليه السلام» في قصة إبراهيم «عليه السلام» التي تناولناها في بعض فصول هذا الكتاب، أن إبراهيم اشترى من سارة أمّتها هاجر لتكون سُرّيّته، أي أمة يعاشرها معاشرة الأزواج، لعل الله يرزقه بالولد منها. تقول الرواية: (ثم إن إبراهيم «عليه السلام» لما أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعثني هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفاً؛ فابتاع إبراهيم «عليه السلام» هاجر من سارة فوقع عليها فولدت إسماعيل «عليه السلام»^(١)).

لذات القصة ذكر في التناخ، مع اختلاف في التفاصيل، حيث جاء فيها أن هاجر كانت خادمة لدى سارة زوج النبي إبراهيم «عليه السلام»، وأنها كانت مصرية، وهدية من ملك مصر بعد القصة التي بحثناها من قبل حين قال إبراهيم أن سارة أخته فأخذها الملك وغير ذلك من تفاصيل.

وحيث أن إبراهيم لم يرزق بذرية من سارة، فقد قرّرت سارة أن تنكحه جاريتها، لعلّها تأتي له بولد: (وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجِرُ، فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: «هُذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَني عَنْ الْوَلَادَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةَ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سِنِينَ لِإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كِنَعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لِأَبْرَامَ رَجُلَهَا زَوْجَةً لَهُ فَدَخَلَ عَلَى

هَاجَرَ فَحَبَلَتْ). وهكذا تحقق لإبراهيم وسارة ما أرادا، إلا أن هاجر - بحسب هذا النص التوراتي - تكبرت على مولاتها بعد أن رأت أن هذا الحمل سيرفع من شأنها في عيني إبراهيم: (وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبَلَتْ صَغُرَتْ مَوْلَاتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. فَقَالَتْ سَارَايُ لِأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَّتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبَلَتْ صَغُرَتْ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». فَقَالَ أَبْرَامُ لِسَارَايَ: «هُوَذَا جَارِيَّتُكَ فِي يَدِكَ. افْعَلِي بِهَا مَا يَحْسُنُ فِي عَيْنَيْكَ». فَأَذَلَّتْهَا سَارَايُ، فَهَرَبَتْ مِنْ وَجْهَهَا»^(١)).

وتنتقل القصة بعد ذلك لوصف حال هاجر الهاربة والحزينة التي تتدخل يد العناية الإلهية من أجل إعادتها إلى بيتها، والبشارة العظيمة التي سيبشرها بها الملك: (فَوَجَدَهَا مَلَائِكَةُ الرَّبِّ عَلَى عَيْنِ الْمَاءِ فِي الْبَرِّيَّةِ، عَلَى الْعَيْنِ الَّتِي فِي طَرِيقِ شُورَ) احتمال بعض مفسري التوراة أنها كانت متجهة إلى مصر موطنها الأصلي، فقد وُصفت شور في التناخ بأنها أمام مصر، أي شرق مصر أو على حدودها الشرقية، أي في الجزء الشمالي الغربي لشبه جزيرة سيناء. وفي نص آخر أن النبي موسى قاد بني إسرائيل بعد عبور البحر الأحمر من شواطئ البحر إلى برية شور (وَقَالَ: «يَا هَاجِرُ، جَارِيَّةُ سَارَايَ، مِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ؟». فَقَالَتْ: «أَنَا هَارِبَةٌ مِنْ وَجْهِ مَوْلَاتِي سَارَايَ». فَقَالَ لَهَا مَلَائِكَةُ الرَّبِّ: «ارْجِعِي إِلَى مَوْلَاتِكَ وَاخْضَعِي تَحْتَ يَدَيْهَا». وَقَالَ لَهَا مَلَائِكَةُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرَ نَسْلِكَ فَلَا يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». وَقَالَ لَهَا مَلَائِكَةُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَدَلَّتِكَ»^(٢)).

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ١-٦.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ٧-١١.

ويستكمل النص التوراتي عرض الأحداث: (فَوَلَدَتْ هَاجِرٌ لَأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجِرُ «إِسْمَاعِيلَ». كَانَ أَبْرَامُ ابْنِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجِرُ إِسْمَاعِيلَ لَأَبْرَامَ)^(١).

ويعود **الأصحاح الحادي والعشرين** ليتحدث عن حمل سارة بعد ١٣ سنة من هذه الأحداث، وغيرتها المجددة بعد أن تلد إسحاق - ولكن هذه المرة من إسماعيل - وكأنها تريد أن تخلوها الأجواء مع زوجها وابنها، لتقرر على إثر ذلك أن تبعده وأمّه من أمام ناظريها وبطريقة خالية من أية إنسانية، ونحن إذ نذكر ذلك إنما ننقل ما جاء في التنخ لا بمعنى موافقتنا لمثل هذا الوصف أو حتى طبيعة تفاصيل الأحداث، وإن كان وقوع الغيرة أمراً متصوراً، ولكن أن تكون بالصورة التي ستأتي فهذا هو المرفوض. علماً بأن بعض الروايات الإسلامية تتناغم مع هذا الوصف التوراتي لموقف سارة غير الإنساني بما يوحي بخلفيتها الإسرائيلية.

وفي بعض الروايات الإسلامية حديث عن الفارق العمري ما بين الولدين إسماعيل وإسحاق، ولكنها لا تتفق مع الرواية التوراتية من هذه الناحية، وإن اتفقت معها في الدافع وراء هجرة إسماعيل وهاجر.

مثال ذلك ما رواه **العباشي** في تفسيره بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: (كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق؟ قال: كان بين البشارتين خمس سنين، قال الله «سبحانه»: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ يعني إسماعيل، وهي أول بشارة بشر

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ١٦: ١٥-١٦.

الله بها إبراهيم في الولد، ولما ولد لإبراهيم إسحاق من سارة وبلغ إسحاق ثلاث سنين أقبل إسماعيل إلى إسحاق وهو في حجر إبراهيم فنحاه وجلس في مجلسه فبصرت به سارة فقالت: يا إبراهيم يُنحَى ابن هاجر ابني من حجرك ويجلس هو مكانه! لا والله لا يجاورني هاجر وابنها في بلاد أبداً، فنحهما عني، وكان إبراهيم مُكرماً لسارة يعزّها ويعرف حقها، وذلك أنها كانت من ولد الأنبياء وبنّت خالته، فشق ذلك على إبراهيم واغتم لفراق إسماعيل...^(١).

يقول النص التوراتي في تنمة سرد الأحداث: (وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْزُحُ، فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَّةَ وَابْنَهَا، لِأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَّةِ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ». فَقَبِحَ الْكَلَامَ جِدًّا فِي عَيْنَيِ إِبْرَاهِيمَ لِسَبَبِ ابْنِهِ. فَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «لَا يَقْبُحُ فِي عَيْنَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْغُلَامِ وَمِنْ أَجْلِ جَارِيَّتِكَ. فِي كُلِّ مَا تَقُولُ لَكَ سَارَةُ اسْمَعْ لِقَوْلِهَا، لِأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. وَابْنُ الْجَارِيَّةِ أَيْضًا سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً لِأَنَّهُ نَسْلُكَ»^(٢)).

لا يخفى ما في هذا المقطع من نظرة عنصريّة ترفع من شأن إسحاق وذريته، ومنهم بنو إسرائيل فيما بعد، معتبرة أن الامتداد الحقيقي لإبراهيم في ذريته إنما جاء من هذا الفرع الإسحاق، دون التغافل عن أن نسل إبراهيم سيكثر من جهة ابنه الآخر والأكبر إسماعيل، إلا أن هذا الامتداد الآخر يأتي برتبة متأخرة لاسيما بلحاظ أنه ابن الجارية!

واستجابةً لأمر الرب بالنزول عند إرادة سارة: (فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٣٤-١٣٥.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٩-١٣.

وَأَخَذَ خُبْرًا وَقَرَبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لَهَا جَرًا، وَاضْعَا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بئرِ سَبْعٍ. وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقَرَبَةِ طَرَحَتْ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمِيَةِ قَوْسٍ، لِأَنَّهَا قَالَتْ: «لَا أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ»^(١).

وبرية بئر سبع لا تبعد كثيراً عن المنطقة التي يسكن فيها إبراهيم وسارة، لأننا نتكلم هنا عشرات الكيلومترات فقط لا عن مئات الكيلومترات كما هو حال المسافة بين مدينتي الخليل ومكة المكرمة. وبذا تختلف القصة التوراتية عن القصة القرآنية، وعن روايات المسلمين كما سيأتي تفصيل ذلك.

تقول القصة التوراتية بعد ذلك: (فَسَمِعَ اللَّهُ صَوْتَ الْغُلَامِ، وَنَادَى مَلَاكُ اللَّهِ هَاجِرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكَ يَا هَاجِرُ؟ لَا تَخَافِي، لَأَنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ لَصَوْتَ الْغُلَامِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي أَحْمِلِي الْغُلَامَ وَشُدِّي يَدَكَ بِهِ، لِأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». وَفَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بئرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتِ الْقَرَبَةَ مَاءً وَسَقَتْ الْغُلَامَ. وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبُرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ)^(٢).

• القصة في الروايات:

والقصة في صورتها العامة وإن اقتربت كثيراً مما هو مروي في كتب المسلمين، إلا أنها تختلف في نقطة جوهرية، وهي مُستقر هاجر وابنها، إذ لا تستطيع الروايات أن تخالف صريح القرآن الكريم في أن مستقرهما كان

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ١٥-٢١.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ١٥-٢١.

حيث مكة المكرمة الآن، وإن التقت معها في أن السبب يعود إلى الضغط الذي مارسه زوجته سارة بدافع الغيرة من خادمتها هاجر، وهو ما لا نجد له أثراً في القرآن الكريم.

لقد أشار القرآن الكريم إلى مسألة الهجرة في الآيات التالية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(١)، وليست فيها أية إشارة إلى غيرة سارة، بل إنها تتحدث عن غاية سامية وإلهية عند إبراهيم في هذه الهجرة: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

وبحسب القرآن الكريم والروايات الإسلامية صارت هذه الهجرة - في ما بعد - سبباً في وجود بلدة مأهولة بالسكان وذات قدسيّة خاصّة، هي مكة المكرمة، وما ترتّب على ذلك من بناء - أو إعادة بناء - الكعبة المشرفة.

ولنستعرض الآن بعض الروايات الإسلامية ونحاول أن نستكشف شيئاً من التأثير الإسرائيلي عليها:

○ في تفسير علي بن إبراهيم بالسند عن هشام، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن إبراهيم «عليه السلام» كان نازلاً في بادية الشام، فلما وُلد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غماً شديداً، لأنه لم يكن له منها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمّه. فشكى إبراهيم ذلك إلى الله «عز وجل»، فأوحى الله إليه إنما مثَلُ المرأة مثل الضلع العوجاء، إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها) هذه واحدة من المتبنيات الإسرائيلية التي أقيمت في روايات المسلمين وبشكل متكرر، وفيها احتقار للأنثى معهود في ثقافة اليهود والنصارى والعرب الجاهليين.

ثم تكمل الرواية تفاصيل القصة كالتالي: (ثم أمره أن يخرج إسماعيل وأمه. فقال: يا رب، إلى أي مكان؟ قال إلى حرمي وأمني وأول بقعة خلقتها من الأرض وهي مكة) جيولوجياً لا معنى لهذا الكلام (فأنزل الله عليه جبرائيل بالبراق، فحمل هاجر وإسماعيل، وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلا قال: يا جبرئيل، إلى ههنا إلى ههنا) لماذا يطلب إبراهيم النزول في هذه الأماكن على الرغم من أن الله أخبره - بحسب الرواية - أن مقصده مكة؟ (فيقول: لا امض، امض، حتى أتى مكة فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم «عليه السلام» عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها) وفي هذا استجابة لغيرتها الشديدة وهو طلب لا يمكن تصوّر قبوله من قبل إبراهيم (فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر) في الآية ٣٧ من سورة إبراهيم وعلى لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.. ألا يخالف مضمون الرواية ما جاء في الخبر؟ نعم،



موقع كداء و ذي طوى

يمكن أن يقال أن الزرع هو المثمر من الشجر، ولا دليل على أن تلك الأشجار كانت مثمرة.

تكمل الرواية: (فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً، وكان معها، فاستظلوا تحته، فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم وأراد الانصراف منهم إلى سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم، لم تدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم) وفي نسخة هو يكفيكم (ثم انصرف عنهم فلما بلغ كداء وهو جبل بذى طوى، التفت إليهم إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنْ

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١﴾. ثم مضى وبقيت هاجر فلما ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى ونادت: هل في الوادي من أنيس؟ فغاب عنها إسماعيل) أي ابتعدت بحيث لم تعد تراه (فصعدت على الصفا ولمع لها السراب في الوادي وظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي وسعت، فلما بلغت المسعى غاب عنها إسماعيل، ثم لمع لها السراب في ناحية الصفا، فهبطت إلى الوادي تطلب الماء، فلما غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات، فلما كان في الشوط السابع وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجله فعادت) وفي نسخة: قعدت. وفي نسخة: فعمدت. وفي نسخة فعدت (حتى جمعت حوله رملاً، فإنه كان سائلاً، فزمت بهما جعلته حوله فلذلك سميت «زمزم») أي حفظته من الضياع.

علق المجلسي على العبارة الأخيرة بقوله: (قوله: «فلذلك سُميت» يُحتمل أن يكون مبنياً على أن زمزم يكون بمعنى الحبس والمنع، أو الماء الممنوع من الجريان، وإن لم يذكره اللغويون، ويحتمل أن يكون المراد أنها لكثرتها وسيلانها قبل الزمّ سُميت زمزم، أو أنها لما منعت من السيلان واحتبست كثرت في مكان واحد فلذلك سميت به).

نعود إلى الرواية حيث تقول: (وكانت جرهم نازلة بذي المجاز^(١) وعرفات) وهي قبيلة يمانية. قال ابن كثير في البداية النهاية عند الحديث عن النبي إسماعيل: «ثم جميع عرب الحجاز على اختلاف قبائلهم يرجعون في أنسابهم

١. موقع لسوق من أسواق العرب على بعد ٥ كم تقريباً إلى الشرق من عرفات.

إلى ولديه نابت وقيدر، وكان الرئيس بعده والقائم بالأمر الحاكم في مكة والناظر في أمر البيت وزمزم: نابت بن إسماعيل، وهو ابن أخت الجرهميين. ثم تغلبت جرهم على البيت طمعاً في بني أختهم، فحكموا بمكة وما والاها عوضاً عن بني إسماعيل مدة طويلة^(١).

(فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء فنظرت جرهم إلى تعكف الطير على ذلك المكان فاتبعوها حتى نظروا إلى امرأة وصبي في ذلك الموضع قد استظلوا بشجرة وقد ظهر الماء لهما فقالوا لهاجر: مَنْ أنت؟ وما شأنك؟ وشأن هذا الصبي؟ فقالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرحمن وهذا ابنه، أمره الله أن يُنزلنا ههنا. فقالوا لها: أيتها المباركة، أفتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكما؟ فقالت: حتى يأتي إبراهيم. فلما زارهم إبراهيم «عليه السلام» يوم الثالث) هنا نعرف لماذا أقحم الراوي - واضع الخبر - البُراق في تفاصيل القصة، وذلك لكي يبرّر هذا التنقّل عبر مئات الكيلومترات من الشام إلى مكة في فترات زمنية قصيرة بالنسبة إلى وسائل النقل في ذلك الزمان.

نعود إلى الرواية حيث تقول: (فقالت هاجر: يا خليل الله، إن ههنا قوماً من جرهم يسألونك أن تأذن لهم حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في ذلك؟ فقال إبراهيم: نعم. فأذنت فنزلوا بالقرب منهم وضربوا خيامهم، فأنست هاجر وإسماعيل بهم، فلما زارهم إبراهيم في المرة الثالثة نظر إلى كثرة الناس حولهم فسرّ بهم سروراً شديداً، فلما ترعرع إسماعيل «عليه السلام»

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢٢.

وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة وشاتين، فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها. فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، أمر الله إبراهيم «عليه السلام» أن يبني البيت، فقال: يا رب، في أي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة (القبة نوع من الخيام قد تُصنع من جلود الأنعام، كخيाम القبائل التركية) فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبة التي أنزلها الله على آدم قائمة حتى كان أيام الطوفان أيام نوح «عليه السلام»، فلما غرقت الدنيا رفع الله تلك القبة وغرقت الدنيا إلا موضع البيت، فسميت البيت العتيق، لأنه أعتق من الغرق، فلما أمر الله «عز وجل» إبراهيم «عليه السلام» أن يبني البيت ولم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرئيل «عليه السلام» فخط له موضع البيت، فأنزل الله عليه القواعد من الجنة وكان الحجر الذي أنزل الله على آدم أشد بياضاً من الثلج، فلما لمستته أيدي الكفار اسودّ، فبنى إبراهيم البيت ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، فرفعه إلى السماء تسعة أذرع) أي أربعة أمتار ونصف المتر تقريباً (ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم «عليه السلام» ووضعه في موضعه الذي هو فيه الأول وجعل له بابين باب إلى المشرق وباب إلى المغرب والباب الذي إلى المغرب يسمى المستجار ثم ألقى عليه الشجر والإذخر^(١) وعلقت هاجر على بابه كساء كان معها وكانوا يكونون تحته. فلما بناه وفرغ منه حج إبراهيم «عليه السلام» وإسماعيل ونزل عليهما جبرئيل «عليه السلام» يوم التروية لثمان من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم، قم فارتو من الماء، لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسميت التروية لذلك، ثم أخرجته إلى منى فبات بها ففعّل به ما فعل بآدم «عليه السلام» فقال إبراهيم

١. من النباتات الصحراوية العطرية التي تنبت في مكة.

لما فرغ من بناء البيت ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال: من ثمرات القلوب أي حبيبهم إلى الناس لينتابوا إليهم) انتابهم انتياباً أي أتاها مرة بعد أخرى (ويعودوا إليهم)^(١).

بالطبع فإن المشهور أن تشريع السعي لاحقاً جاء بناء على هذا الحدث، إلا أن رواية الصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن الحلبي تقول شيئاً آخر، قال: (سألت أبا عبد الله «عليه السلام»: لم جعل السعي بين الصفا والمروة؟ قال: لأن الشيطان تراءى لإبراهيم «عليه السلام» في الوادي فسعى، وهو منازل الشيطان)^(٢).

قال المجلسي معلقاً على العبارة الأخيرة: (في الفقيه: منازل الشياطين، ويمكن أن يقرأ مُنَازِلٌ بضم الميم على صيغة اسم الفاعل من المنازلة بمعنى المحاربة، موافقاً لما مر في **خبر معاوية**)^(٣).

وخبر معاوية الذي أشار إليه المجلسي هو التالي: روى الصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (صار السعي بين الصفا والمروة لأن إبراهيم «عليه السلام» عرض له إبليس فأمره جبرئيل «عليه السلام» فشده عليه، فهرب منه، فجرت به السنة، يعني به الهرولة)^(٤).

تعليق: جعل «منازل» من قبل العلامة المجلسي بصيغة اسم الفاعل

١. القمي: تفسير القمي، ج ١، ص ٦٠-٦٢.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ١٤٩.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٠٨.

٤. الصدوق: علل الشرائع، ج ٢، ص ٤٣٣.

محاولة تبريرية لقبح وصف المسعى بأنه مَنَازِل الشَّيْطَان، والعبارة لا تحتمل التوجيه الذي قال به المجلسي لأن المعنى سيكون أن إبراهيم سعى حال كونه يحارب الشيطان، إلا بالجمع بينها وبين الرواية الأخيرة.

ثم إن من طرائف ما روي بالاستفادة من آية ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ما رواه الصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن إبراهيم بن مهزيار، عن أخيه علي بإسناده قال: قال أبو الحسن «عليه السلام» في الطائف: (أتدري لم سمي الطائف؟ قلت: لا، فقال: إن إبراهيم «عليه السلام» دعا ربه أن يرزق أهله من كل الثمرات، فقطع لهم قطعة من الأردن فأقبلت حتى طافت بالبيت سبعاً، ثم أقرها الله «عز وجل» في موضعها، فإنما سميت الطائف للطواف بالبيت)^(١).

وفي رواية أخرى للصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن البرنطي قال: قال الرضا «عليه السلام»: (أتدري لم سميت الطائف الطائف؟ قلت: لا، قال: لأن الله «عز وجل» لما دعاه إبراهيم «عليه السلام» أن يرزق أهله من الثمرات أمر بقطعة من الأردن فسارت بثمارها حتى طافت بالبيت، ثم أمرها أن تتصرف إلى هذا الموضع الذي سمي الطائف فلذلك سمي الطائف)^(٢).

ونجد عند أهل السنة ما يقترب من الصورة العامة للرواية الأخيرة التي نقلناها عن تفسير القمي بالسند عن الإمام الصادق «عليه السلام»، ولكنها مروية عن ابن عباس، ومن بينها رواية **صحيح البخاري** عن سعيد بن جبیر:

١. الصدوق: **علل الشرائع**، ج ٢، ص ٤٤٢.

٢. الصدوق: **علل الشرائع**، ج ٢، ص ٤٤٢-٤٤٣.

(قال ابن عباس: أوّل ما اتخذ النساء المنطق) ما يُربط على البطن (من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة) وما أدري ابن عباس أن هذا أوّل منطق عرفته النساء وتاريخ البشرية قبلها ممتد لآلاف السنين؟ ويبدو لي أن بعض القصاصين والرواة يحبّون أن يستخدموا عنوان الأوّليات ليميّزوا قصصهم عن قصص غيرهم ويعطوها طابعاً استثنائياً وينسبونها إلى ابن عباس أو غيره، وقد تكرر معنا هذا ضمن البحث (ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً) استدار مغادراً (فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت) أي الكعبة المشرفة، وظاهر ذلك أن الكعبة موجودة آنذاك أو ما تبقى منها على فرض تأثرها بالعوامل المختلفة، وقد يقال أن المقصود أنه استقبل بوجهه إلى حيث ستبنى الكعبة المشرفة.

نعود مرة أخرى إلى رواية ابن عباس حيث يقول: (ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر

إليه يتلوى - أو قال يتلَبَّط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي «صلى الله عليه وآله»: فذلك سعي الناس بينهما. فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي «صلى الله عليه وآله»: يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً (وهل رب العالمين بانتظار تصرف المرأة المسكينة هاجر كي يقرر أن يصبح الماء مجرد بئر أو أن يصبح عيناً معيناً نابعاً على الأرض ومستقراً عليه؟

(قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً) عاف الطائر عَوْفاً: دار حول الشيء يريد الوقوع عليه (فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء! لعهدنا

بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي «صلى الله عليه وآله»: فألقى) أنس (ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبّ الغلام، وتعلم العربية منهم وأنفسهم، وأعجبهم حين شبّ، فلما أدرك (بلغ سن الزواج (زوّجوه امرأة منهم).

وتتحدث الرواية بعد ذلك عن وفاة هاجر وقدم إبراهيم بعد سنوات طويلة ليطمئن على ولده وعلى سريته: (وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابه) وهكذا غادر إبراهيم - بحسب الرواية - ليعود إلى أرض كنعان دون أن ينتظر عودة ولده الذي فارقه منذ سنوات، وهل يمكن تصوّر مثل ذلك والمسافة بين المكانين مئات الكيلومترات؟ أما كان الأنسب هو انتظار عودته ليجدد بابنه العهد ويعزيه في والدته؟ هكذا أراد الراوي أن يوجد عنصراً تشويقياً في روايته بترقب هل سيفهم إسماعيل مغزى كلام والده ويعمل به أم لا.

(فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا

فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله) لماذا يأمره بطلاقها قبل أن ينصحها ويعلمها الصحيح من الخطأ ويوجّهها؟ أليس في هذا ظلم بحقها؟

(ثم أتاهم بعد فلم يجدوه، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج بيتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي «صلى الله عليه وآله»: ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبّت عتبة بابه).

مجدداً يغادر إبراهيم المكان ويعود إلى دياره دون أن ينتظر عودة ابنه: (فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عشنا، فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبكي نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال:

وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتاً. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

• رواية في سياق مختلف:

وتطالعنا رواية أخرى بتفاصيل مخالفة إذ لا تتفق مع السياق المعهود وتراتبية القصة وفق السيناريو المعروف.

ففي تفسير العياشي: عن الفضل بن موسى الكاتب، عن أبي الحسن موسى بن جعفر «عليه السلام» قال: (إن إبراهيم «عليه السلام» لما أسكن إسماعيل وهاجر مكة وودَّعهما لينصرف عنهما بكيا، فقال لهما إبراهيم: ما يبكيكما فقد خلفتكما في أحب الأرض إلى الله وفي حرم الله؟ فقالت له هاجر: يا إبراهيم ما كنت أرى أن نبياً مثلك يفعل ما فعلت، قال: وما فعلت؟ فقالت: إِنَّكَ خَلَفْتَ امْرَأَةً ضَعِيفَةً وَغُلَاماً ضَعِيفاً لَا حِيلَةَ لهما بَلَا أَنْيسَ مِنْ بَشَرٍ وَلَا مَاءَ يَظْهَرُ، وَلَا زَرْعَ قَدْ بَلَغَ، وَلَا ضَرْعَ يُحْلَبُ، قال: فَرَقَّ إبراهيم ودمعت عيناه عندما سمع منها، فأقبل حتى انتهى إلى باب بيت الله الحرام فأخذ بعضادتي (الكعبة) عضادتا الباب: خشبته من جانبيه، وهذا يعني أن الكعبة كانت مبنية وعليها باب في ذلك الوقت، وقد تكون قد تعرضت لشيء من الهدم لأسباب

١. صحيح البخاري، ح ٣١٨٤.

مختلفة وقد تبقت منها بعض الآثار وهو ما سيستدعي إعادة بنائها لاحقاً على يد الأب وابنه، ويساعد على ذلك قول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ فقد يفهم من ذلك أن البيت كان موجوداً حين أسكن إبراهيم ولد وسريته في ذلك الموضع، ولا ينافي هذا قوله تعالى لاحقاً: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) على اعتبار أن رفع القواعد قد يعني إعادة بناء ما تبقى من آثار البناء الأقدم.

(ثم قال: اللهم ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾) بحسب الرواية فإن أول الدعاء (اللهم) بينما المثبت في المصحف الشريف ﴿رَبَّنَا﴾ فهل في البين خطأ من الراوي أم تعمّد منه إذ يريد أن يأتي بالدعاء بأسلوبه الخاص؟

(قال: أبو الحسن: فأوحى الله إلى إبراهيم: أن اصعد أبا قبيس) وهو الجبل الذي يمتد منه الصفا ويطلّ على الكعبة المشرفة (فتناد في الناس: يا معشر الخلائق، إن الله يأمركم بحج هذا البيت الذي بمكة مُحَرَّمًا من استطاع إليه سبيلاً، فريضة من الله. قال: فصعد إبراهيم أبا قبيس فتنادى في الناس بأعلى صوته: يا معشر الخلائق إن الله يأمركم بحج هذا البيت الذي بمكة مُحَرَّمًا من استطاع إليه سبيلاً فريضة من الله، قال: فمدّ الله لإبراهيم في صوته حتى أسمع به أهل المشرق والمغرب وما بينهما من جميع ما قدّر الله،

وقضى في أصلاب الرجال من النطف، وجميع ما قدّر الله وقضى في أرحام النساء إلى يوم القيامة، فهناك - يا فضل - وجب الحج على جميع الخلائق، فالتلبية من الحاج في أيام الحج هي إجابة لنداء إبراهيم «عليه السلام» يومئذ بالحج عن الله»^(١).

تعليق: هذه الرواية تفرض:

١. وجود الكعبة عندما ترك إبراهيم سرّيته وابنه.
٢. النداء للحج تم في نفس هذا الحدث، وليس بعد عودة إبراهيم بسنوات حين كبر إسماعيل ورفعهما القواعد من البيت. ولكن أليس من المفترض أن يكون النداء للحج قد تمت التهيئة له من قبل من خلال دعوة إبراهيم لتوحيد الله وقبول الناس في بعض أنحاء الجزيرة العربية أو المناطق القريبة من مكة على الأقل لدعوته، ولا معنى للنداء كما جاء في الرواية من دون ذلك.
٣. لربما يقال أن في استعمال كلمة «غلام» في هذه الرواية دلالة على أن إسماعيل لم يكن طفلاً رضيعاً حين خرج به إبراهيم من أرض كنعان.
٤. ولربما يمكننا بذلك أن نفرض أيضاً أن عملية رفع القواعد من البيت والدعوة إلى توحيد الله تمت في هذا الوقت، فقد كان إسماعيل في سنٍّ مكّنه من أن يساعد والده في إتمام هذه المهمة. علماً بأن التوراة تتحدث عن أن إسماعيل كان في الرابعة عشرة حين خرج به أبوه مع أمه، حيث أن هذه الهجرة تمت بعد ولادة إسحاق التي وقعت وعمر إبراهيم «عليه السلام» مائة، وقد رُزق

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١١٤-١١٥.

باسماعيل وهو في السادسة والثمانين: (وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وُلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ..... وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْرُحَ، فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لِأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَةِ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ»..... فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقَرِيبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لَهَاجَرَ، وَاضْعَا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفَيْهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بَثْرٍ سَبْعَ....^(١)). ومن هنا نستطيع أن نصح النداء للحج في هذه المناسبة.

٥. وهذا التصور يكون أكثر تناسباً مع دعاء إبراهيم «عليه السلام» المنقول في القرآن الكريم على لسانه حيث عبر عن إسماعيل «عليه السلام» بأنه من ذريته: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي أن إبراهيم حين ترك زوجته وابنه إسماعيل كانت لديه ذرية متعددة، وهذا الولد من تلك الذرية، لدلالة (من) على التبويض، مما يستدعي افتراض ولادة إسحاق حينذاك. وعلى التقدير السابق الذي ذكرناه بأن بين الولدين ١٤ سنة، فهذا يناسب القول بأن إسماعيل «عليه السلام» كان غلاماً يافعاً حين هاجر به أبوه وتركه.

٦. هذا يستدعي إلغاء المفردة الخاصة بكيفية نبع ماء زمزم بالصورة المروية، وسعي هاجر بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، على اعتبار أن إبراهيم كان متواجداً، وأن إسماعيل كان يافعاً وهما أولى بالبحث عن الماء وتهئية الأسباب لقدم الحجاج إلى الكعبة المشرقة، ولاشك أن أهم عنصر في ذلك هو الماء.

٧. حيث أننا لا نملك من القرآن الكريم ما يدل على صحة التصور المعهود

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين الأصحاح ٢١: ٥-١٤.

للقصة، أو صحة هذا التصوّر الذي احتملناه من خلال هذه الرواية، لذا فسيكون الأمران محتملين، وإن كانت الأولى هي المشهورة.

٨. مقولة أن النداء امتدّ في الآفاق حتى أسمع به أهل المشرق والمغرب وما بينهما، بل وعبر الأجيال من خلال النطف الكامنة في أصلاب الرجال وما قضى الله في أرحام الناس، يعدّ من المبالغات التي تُضعف مضمون الرواية.

• أين تقع فاران؟

مرّ بنا عند استعراض القصة وفق الرواية التوراتية أن مستقرّ إسماعيل كان في بريّة فاران التي تقع بحسب سياق القصة ضمن الأراضي الكنعانية، أي فلسطين، فقد زوّد إبراهيم هاجر وإسماعيل ببعض الزاد: (وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بَنُرٍ سَبْعٍ).

وعندما عانيا من العطش أمرها الله قائلاً: (قُومِي احْمِلِي الْغُلَامَ وَشُدِّي يَدَكَ بِهِ) ولعلها بذلك سارت مع ابنها مسافة، ثم أرشدها الله لبئر ماء (وَفَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بَنُرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتِ الْقَرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلَامَ) ^(١).

ثم انتقل النص التوراتي إلى المقطع التالي: (وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبُرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ) ^(٢). إذاً فإسماعيل سكن «بريّة فاران»، بينما نجد في القرآن الكريم أن مستقره مع والدته - في مكة من أرض الحجاز.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين الأصحاح ٢١: ١٤-١٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين الأصحاح ٢١: ٢٠-٢١.



موقع مكة المكرمة - بئر السبع

فهل يتعارض ذكر «بئر سبع» أولاً، مع ذكر «برية فاران»، بحيث يمكن القول بأن تحريفاً أو حذفاً وقع في النص بحيث يُخيّل للقارئ أن برية فاران قريبة من بئر السبع بينما هي منطقة بعيدة جداً، وذلك انطلاقاً من أن فاران جبل في الحجاز بحسب كلمات بعض الباحثين المسلمين، بينما المدعى في النص التوراتي أن الأحداث كلها وقعت في أرض كنعان؟

لا بد عند البحث في هذا الموضوع من أن نلتفت إلى أن «فاران» ذكرت في أكثر من موقع من الكتاب المقدس، ومن بينها هذا النص: (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعيّر وتللاً من جبل فاران وأتى من ربّوات القدس وعن يمينه نارٌ شريعة لهم)^(١).

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التثنية ٢٣: ٢.

وقد علّق القُمص عبدالمسيح بسيط^(١) على تفسير بعض الباحثين المسلمين على هذا النص فقال: (أين هو الموقع الحقيقي لفاران؟ وبالرغم من وضوح المعنى والقصد في الآيات السابقة إلا أن بعض الكتّاب من الإخوة المسلمين قالوا أن مجيئه من سيناء يعني إعطاؤه التوراة لموسى، وإشراقه من سعيير يعني إعطاؤه الإنجيل لعيسى، وتلكؤه من فاران يعني إنزاله القرآن على نبي المسلمين، لأن فاران من جبال مكة! وقال أحد هؤلاء الكتّاب: «لكن تذكر التوراة أيضًا أن إسماعيل قد نشأ في برية فاران. تكوين ٢١/٢١. ومن المعلوم تاريخياً أنه نشأ في مكة المكرمة في الحجاز». وقد اختلف هؤلاء الكتّاب في تحديد موقع فاران ولم يتفقوا على شيء).

ثم نقل القمص عبدالمسيح كلمات مجموعة من الباحثين والعلماء المسلمين بهذا الخصوص:

١. فقال الشيخ رحمة الله الهندي: (فاران جبل بمكة. استعلانه من جبل فاران تعني إنزاله القرآن، لأن فاران جبل من جبال مكة). هكذا دون توثيق!!
٢. وقال محمد الشرقاوي أنها بلاد الحجاز نفسها: (فاران هي بلاد الحجاز التي هاجر إليها إبراهيم ووُلد فيها النبي). ولم يذكر لنا خريطة تدل على ذلك!!

٣. ولما وجد إبراهيم خليل أحمد أنه لا يوجد لا جبل ولا بلد في بلاد الحجاز

١. أستاذ اللاهوت الدفاعي في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكاهن كنيسة العذراء بمسطرد ومدير معهد دراسات الكتاب المقدس بشبرا الخيمة. له مؤلفات عديدة من بينها: (التوراة كيف كتبت وكيف وصلت إلينا؟)، (الإنجيل كيف كتب وكيف وصل إلينا؟)، (عقيدة المسيح عبر التاريخ: هل هو إله أم إنسان؟)، (التجسد الإلهي ودوام بتولية العذراء).

تُسَمَّى باسم فاران قال أنها مجرد مجاز: (فاران مجاز عن الأرض التي سكن فيها جدّ الرسول الكريم سيدنا إسماعيل)!!

٤. وقال بشري زخاري أنها بريّة من جبال مكة: (فاران برية بين ثلاث جبال بمكة هي أبوقيس وقيعان) يقصد أبوقيس وقيعان (وجبل حراء، وفيها سكن إسماعيل)!! وليته يدلّنا على خريطة واحدة أو مرجع واحد يثبت صحة مزاعمه!!

٥. وعندما وجد د. السقا أن هذه الاستنتاجات غير مجدية فقد حاول تأويلها بقوله أن فاران سُكنى بنى إسماعيل، وحيث أن إسماعيل له بركة وقد ظهر في بني إسماعيل نبي في مكان سكناه وانتشر دينه شرقاً وغرباً، فيكون المعنى بالتألول من جبل فاران، يُشير إلى بدء بركته!!

٦. وقال أبو عبيد الله القضاعي في كتابه تخطيط مصر أن فاران، والطور كورتان من كور مصر القبلية، وفاران من قرى صفد سمرقند، ويُنسب إليها أبو منصور الفاراني. «تخطيط مصر للقضاعي». ولم يقل أن فاران جبل في مكة إلا ياقوت في كتابه «المشترك وضعاً والمختلف صقعا»: (فاران اسم جبال مكة. وقيل اسم جبال الحجاز). وقال أبو عبيد القضاعي في كتاب «خطط مصر»: (وفاران والطور كورتان من كور مصر القبلية. وفاران أيضاً من قرى صفد سمرقند، يُنسب إليها أبو منصور الفارابي). ومع ذلك لم يحدد يقيناً ذلك، إذ أنه قال أن فاران موجودة في أربعة محلات، وهي مكة والحجاز ومصر وبلاد فارس!! ومع ذلك تؤكد الآيات الكتابية التي وردت فيها كلمة فاران أنها تقع فيما بين مصر وفلسطين بالقرب من إيلات الحالية وتبعد عن مكة بحوالي ٥٠٠ كيلومتر!!

٧. بل وقد جاء في كتاب **معجم البلدان** أنَّ اسم (فيران، فيرن، فارايان، فاران، كلها أسماء مختلفة لجبل واحد يقع في المنطقة ما بين مصر والشام، وعلى الأرجح في فلسطين).

ثم جاء الكاتب بعدة نصوص من مصادر كتابية تؤكد كلامه، لننتهي إلى نتيجة مفادها عدم التعارض بين ذكر استقرار هاجر وإسماعيل عند بئر السبع، وبين ذكر فاران بعد ذلك بحسب النص التوراتي^(١).

فكيف قارب المسلمون ادعاءهم بأن فاران هي مكة أو صحراء مكة؟

نجد في كتاب **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن قيم الجوزية**^(٢) محاولة مطوّلة لإثبات أن ذلك النص التوراتي تحدّث في الضمن عن بعثة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» وأن ذك فاران إشارة إلى مكة المكرمة. ويمكن اختصار وبيان ما قاله بهذا الشأن وما نقله عن علماء الإسلام بشأن نص التوراة: (تجلّى الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران) أن:

١. مجيء الله من طور سيناء: هو إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا.

1. <https://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-005-Is-there-a-New-Prophet-After-Jesus/Is-Muhammad-After-Jesus-07-Chapter-6-Faran-VS-Timan.html>

٢. أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي (٦٩١هـ - ٧٥١هـ) المشهور باسم ابن قيم الجوزية. فقيه ومحدّث ومفسّر وتلميذ ابن تيمية. له الكثير من المصنفات من بينها: (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)، (الاجتهاد والتقليد)، (إعلام الموقعين عن رب العالمين)، (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة).

٢. إشرافه من ساعير: إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير، أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها تسمى مَنْ اتَّبعه نصارى. وفي التوراة أنَّ نسل العيص كانوا سكاناً بساعير، وأمر الله موسى أن لا يؤذيههم. والنص الذي أشار إليه ابن قيِّم هو التالي: (وَأَرْسَلَ يَعْقُوبُ رُسُلًا قَدَّامَهُ إِلَى عِيسُو أَخِيهِ إِلَى أَرْضِ سَعِيرَ بِلَادِ أَدُومَ) ^(١) و«العيص» أو «عيسو» هو أخو يعقوب.

٣. استعلانه من جبال فاران: إنزاله القرآن على محمد «صلى الله عليه وآله»، وجبال فاران هي جبال مكة. وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة. فإن أنكروا ذلك، وهو متوقع من تحريفهم وإفكهم، قلنا:

○ أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟!

○ دلّونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح.

○ أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد، وهما ظَهَرَ وانكَشَفَ، فهل تعلمون ديناً ظَهَرَ ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها؟ بالطبع لا يوجد كذلك سوى الإسلام.

٤. واستشهد ابن قيِّم بكلام استاذَه ابن تيمية ^(٢) حيث قال: (وعلى هذا فيكون

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين الأصحاح ٢٢: ٣.

٢. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني (٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ) المشهور باسم ابن تيمية. فقيه ومحدث ومفسر. قال الذهبي: (لعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاث مائة مجلد، لا بل أكثر). وبلغت عدد المؤلفات المذكورة في كتاب أسماء مؤلفات ابن تيمية: حوالي ٣٣٠ مؤلفاً، من بينها: (منهاج السَّنة النَّبَوِيَّةِ في نقض كَلَامِ الشَّيْعة والقدرية).

قد ذكر الجبال الثلاثة، وحرّاء الذي ليس حول مكة أعلى منه، وفيه ابتداء رسول الله «صلى الله عليه وآله» بنزول الوحي عليه، وحوله جبال كثيرة، وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم، والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى برية فاران، ولا يمكن أحداً أن يدّعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأماكن، ولا بُعث نبي، فعُلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد «صلى الله عليه وآله». واعتبر ابن تيمية أن نفس الأفعال المستعملة في النص التوراتي دليل آخر على صحة هذا التأويل:

○ حيث ذكر النص إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله «تعالى» وهدايته.

○ وقال في التوراة: جاء، وفي الإنجيل: أشرق، وفي القرآن: استعلن.

○ وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس، ونزول القرآن بمنزلة ظهور الشمس في السماء.

○ فإن محمداً «صلى الله عليه وآله» ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين.

○ ولهذا سماه الله «تعالى» سراجاً منيراً.

○ وقد ذكر الله هذه الأماكن الثلاثة في قوله «تعالى»:

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وهو في الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وأنزل فيها الإنجيل.

﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾، وهو الجبل الذي كلم الله «تعالى» عليه موسى

«عليه السلام» تكليماً، وناداه من واديه الأيمن من البقعة المباركة في الشجرة التي فيه.

وأقسم بـ ﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(١) وهو مكة، التي أسكن إبراهيم إسماعيل وأمه فيه، وهو فاران كما تقدّم^(٢).

وهذه المحاولة من ابن قيّم وأستاذه ابن تيمية تعتمد بشكل كبير على الاستنتاج، وينقصها الإثبات المادي القوي، وقد سبقهما إليها عدد من علماء المسلمين من بينهم من علماء الإمامية قطب الدين الراوندي^(٣) في كتابه الخرائج والجرائح.

ويمكن تلخيص وبيان كلامه تعليقاً على الآية الثانية من الأصحاح ٣٣ من سفر التثنية - والتي مرّت بنا وفيها ذكر سيناء و ساعير وفاران - كالتالي:

١. مجيء الله إتيان دينه وأحكامه.

٢. سيناء جبل كلم الله عليه موسى، وساعير هو الجبل الذي بالشام كان فيه عيسى، وجبل فاران مكة.

٣. في التوراة: إنّ إسماعيل سكن بركة فاران، ونشأ فيها، وتعلم الرمي.

٤. فقد ظهر دين الله من مكة وهي فاران، فأتمّ الله «تعالى» هذه المواعد

١. سورة التين: ١-٢.

٢. ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص ٢٤٥-٢٤٧.

٣. قطب الدين أبو الحسين سعيد بن عبد الله الراوندي (ت ٥٧٣هـ). محدث ومفسر ومتكلم وفقه وفيلسوف ومؤرخ. له مصنفات عديدة من بينها: (تفسير القرآن)، (الخرائج والجرائح)، (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة)، (آيات الأحكام).

لإبراهيم «عليه السلام» بمحمد «صلى الله عليه وآله».

٥. كما ظهر دين الله في مكة بالحج إليها.

٦. واستعلن ذكره بصراخ أصحابه بالتلبية على رؤوس الجبال وبطون الأودية.

٧. في كتاب حبقوق، وهو من أسفار التَّنَخ (سيد يجيء من اليمين مقدس من جبل فاران يعطي السماء بهاءً، ويملاً الأرض نوراً، ويسير الموت بين يديه، وينفر الطير بموضع قدميه).

تعليق: النص الموجود في التَّنَخ حالياً مترجم كالتالي: (اللَّهُ جَاءَ مِنْ تِيْمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلَاةً. جَلَالُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضُ أَمْتَلَأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ)^(١).

٨. في سفر حزقيال: (إني مؤيِّدٌ بني قيدار بالملائكة) وقيدار جد العرب ابن إسماعيل لصلبه (وأجعل الدين تحت أقدامهم فيدينونكم بدينهم، ويهمشون أنفسهم بالحمية والغضب. ولا ترفعون أبصاركم ولا تنظرون إليهم، وجميع رضاي يصنعونه بكم).

تعليق: لم أجد هذا في سفر حزقيال ولا ما يقرب من لفظه.

٩. وأن محمداً أخرج إليهم من أطاعه من بني قيدار فيقتل مقاتليهم، وأيدهم الله بالملائكة في بدر والخندق وخيبر^(٢).

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر حبقوق، الأصحاح ٣: ٢.

٢. الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ١، ص ٧٤-٧٥.



موقع جبال الشراة

كما قام العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي^(١) في كتابه الهدى إلى دين المصطفى بمحاولة أخرى من خلال تتبع وصف المنطقة التي جاء فيها ذكر فاران في الكتاب المقدس في الأسفار المختلفة، وتبلغ ١٢ موضعاً، وتكلم حول ذلك كلاماً مفصلاً ثم قال مستنتجاً: (المراد من برية فاران هي البرية الواقعة في شرقي سلسلة جبل الشرات) وتكتب الشراة (فإنه لا برية له في غربه، لأن غربه مضائق بالأردن وبحيرة لوط) أي البحر الميت (ووادي العربة والبحر الأحمر، وهذه البرية هي الشاملة للحجاز ومكة. فالتوراة ذكرت منزل إسماعيل في مكة والحجاز لا بالتعيين، بل بالجهة الشاملة. قال في الجلد ١. العلامة محمد جواد بن حسن بن طالب البلاغي (١٢٨٢ هـ - ١٣٥٢ هـ) فقيه وباحث في الأديان وشاعر وأديب ومتمكن من بعض اللغات كالفارسية والإنجليزية والعبرية، كما كانت له مشاركة سياسية بارزة في ثورة العشرين. من مصنفاته: (آلاء الرحمن في تفسير القرآن)، (الهدى إلى دين المصطفى) و(المدرسة السيارة).

السابع من دائرة المعارف ص ٦٩١: «الحجاز قيل، وأحسن ما قيل في تحديده ما قاله ابن الكلبي - وهو العلامة النسابة في أواخر القرن الأول من الهجرة -: إن الحجاز عبارة عن جبل الشرات وما اتصل به»^(١). ثم ردّ بالتفصيل على عدة إشكالات في المقام وبما يخرج عن غرض هذا البحث، ومن أراد فليراجع الجزء الثاني من الكتاب. والحقيقة أنّ هذا التحليل الذي قدّمه العلامة البلاغي غير كافٍ أيضاً في إثبات أنّ فاران هي مكة أو الحجاز، والأمر بحاجة إلى أدلة أخرى نصّية أوضح وأقوى دلالة.

وذكر السيد سامي البدري^(٢) في كتابه **السيرة النبوية، تدوين مختصر** تحليلاً مختلفاً عما سبق، إذ اعتبر أن كلمة فاران قد لا تكون في النص التوراتي اسماً لمكان، بل وصفاً له، قال: (فاران ٦٦٥) وهي اسم من أسماء مكة، أو وصف مشهور لها، والكلمة لا يبعد أنها مشتقة من الفعل ٦٦٥ بمعنى: يُعظم، يُكرم، يُمجّد، فهي تعني البريّة المُكرّمة أو المعظمة، وقد ورد في سفر التثنية: «وَهَذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللَّهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَاعِيرَ، وَتَأَلَّقَ فِي جَبَلِ فَارَانَ جَاءَ مُحَاطًا بِعَشْرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمُقَدَّسِينَ». وقوله: «وتألق في جبل فاران» وفي ترجمة أخرى: «وأشرق من جبل فاران» أي أشرق نور الرب من جبل فاران، إشارة إلى نبوة محمد «صلى الله عليه وآله»^(٣).

١. البلاغي: الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ١٥٩.

٢. السيد سامي بن جابر بن عباس البدري (ولد ١٩٤٥م)، ويصل نسبه إلى الإمام علي الهادي «عليه السلام»، عالم دين ومحقق في التاريخ، له مؤلفات ومحاضرات عديدة من بينها (السيرة النبوية تدوين مختصر مع تحقیقات واثارات جديدة).

3. <http://albadri.info/books/seerah/index.htm>

وهذا التحليل إن صحَّ يمكنه أن يفسّر لنا لماذا لا نجد اتفاقاً على أن فاران هي مكة، إلا أن هذه المحاولة تصطدم مرّة أخرى مع النص التوراتي الذي يقول: (فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْرًا وَقَرَبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لَهَا جَرًا، وَاضْعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفَيْهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بَثْرٍ سَبْعٍ)^(١)، وهي كما ذكرت من قبل منطقة في جنوب فلسطين، وليست في الحجاز (.....). وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَبَكَرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَامِي قَوْسٍ. وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةٍ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ)^(٢).

فالقصة التوراتية بهذه الصورة من الترجمة لا يمكنها إلا أن تُفسّر بأنها تتحدّث عن الهجرة إلى جنوب فلسطين فحسب، لا إلى الحجاز، وهذا يجعلنا نقول باحتمال وجود تحريف في الترجمة أو في أصل النص المدوّن من قبل عزرا الكاتب حين أعاد كتابة التوراة بعد انتهاء السبي البابلي.

وقد تكون بعض أجزاء الخبر الذي جاء في كتاب تفسير علي بن إبراهيم القمّي صحيحة، بالإضافة إلى بعض ما جاء في التّنخّ، إلا أنه لا بد وأن نقرّر مسألة مهمّة وهي أن خروج إبراهيم بابنه إسماعيل وهاجر إلى منطقة بعيدة جداً قطع خلالها مئات الكيلومترات بحسب القصة الإسلامية، لم يكن استجابة لضغوطات سارة، وإلا لاكتفى بأن يُسكنهما في إحدى المدن أو القرى القريبة من البلدة الفلسطينية التي كان يقطن فيها آنذاك مع سارة، وذلك كي يتسنى له الاطمئنان على ابنه وهاجر على الأقل من حين إلى آخر، هذا

١. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٩.

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين ٢١: ٢٠-٢١.

ما يقتضيه التصرف العقلاني، لا أن يأخذه وأمه ليضعهما في صحراء قاحلة تبعد مئات الكيلومترات وحيث لا ماء هناك ولا أمان.

لقد كان التصرف الإبراهيمي استجابة لأمر الله «عز وجل» لتحقيق غاية مهمة، تجلّت فيها الثقة الكبيرة بالله، ولخصتها الآية الشريفة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(١).

وفي رواية الطبري عن ابن عباس - إن صحّت - ما يدلّ على أن هاجر أيضاً كانت على ثقة عظيمة بالله «عز وجل»، قال: (جاء نبيّ الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر، فوضعهما بمكة في موضع زمزم، فلما مضى نادته هاجر: يا إبراهيم، إنما أسألك ثلاث مرات) لعل المراد: لثالث مرة (مَنْ أَمْرُكَ أَنْ تَضَعَنِي بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا ضَرْعٌ وَلَا زَرْعٌ، وَلَا أَنْيسٌ، وَلَا زَادٌ وَلَا مَاءٌ؟ قال: ربي أمرني، قالت: فإنه لن يضيّعنا. قال: فلما قفا إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا

فُعْلُنُ﴾ يعني مِنَ الْحَزْنِ ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (١).

وأما الغاية من هذه الهجرة، فكانت تأسيس البلد الحرام وبناء أو إعادة بناء الكعبة المشرفة، وما سيطرت على ذلك من تهيئة للبيئة المؤمنة الموحدة في شبه الجزيرة العربية، وما تمثلت الصلاة من مظهر للعبودية الخالصة له «سبحانه وتعالى». أي أن تلك الهجرة كانت لله وفي سبيل الله، لبذر نواة التوحيد التي أراد الله لها أن تستمر عبر القرون، ثم ليخرج من البلد الحرام الذي سيتأسس - ولو بعد قرون متمادية - ذلك الرسول الذي ينحدر من ذريته الإسماعيلية، ليكمل مسيرة الرُّسُل ويَتِمَّ الرسالات: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

١. الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، ج ١٧، ص ٢٠.

٢. سورة البقرة: ١٢٥-١٢٩.

• وفاة هاجر ومدفنها :

روى الصدوق في علل الشرائع بالسند عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن إسماعيل دفن أمه في الحجر وجعله علياً، وجعل عليها حائطاً لئلا يوطأ قبرها) ^(١). وقيل أن إسماعيل دُفن في نفس ذلك المكان ولذا سُمي حجر إسماعيل.

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ تحدثت التوراة عن هروب هاجر عند حملها نتيجة المضايقات المستمرة من قبل سارة، ثم عودتها مجدداً بعد ظهور الملاك لها والبشارة بولادة إسماعيل، وهو ما لا أثر له في القرآن الكريم.

○ قصة ولادة النبي إسماعيل في صورتها العامة وإن اقتربت كثيراً مما هو مروي في كتب المسلمين، إلا أنها تختلف في نقطة جوهرية، وهي مُستقر هاجر وابنها، إذ لا تستطيع الروايات أن تخالف صريح القرآن الكريم في أن مستقرهما كان حيث مكة المكرمة الآن، وإن التقت معها في أن السبب يعود إلى الضغط الذي مارسه زوجته سارة بدافع الغيرة من خادماتها هاجر، وهو ما لا نجد له أثراً أيضاً في القرآن الكريم.

○ بل نجد في القرآن أن الله أمر إبراهيم ليرحل بهاجر وابنها إلى حيث سترفع القواعد من الكعبة، والغرض من ذلك أن يؤسسوا نواة التوحيد في تلك البقعة المباركة، ولم يتم الأمر استجابة لطلب سارة وضغوطاتها ولا طلباً

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٤.

للراحة نتيجة النزاعات المستمرة التي كانت تقوم بين السيدتين، وإلا لاكتفى بأن يُسكنهما في إحدى المناطق القريبة من البلدة الفلسطينية التي كان يقطن فيها آنذاك، وذلك كي يتسنى له الاطمئنان على الطفل وأمه، لا أن يضعهما في صحراء قاحلة تبعد مئات الكيلومترات وحيث لا ماء هناك ولا أمان.

○ هناك تعارض بين الروايات في تقديم تفاصيل هجرة النبي إبراهيم بهما، وبعضها يتحدث عن حصول ذلك بينما كان إسماعيل غلام يافع مدرك، وأن الكعبة كانت قائمة آنذاك، وأن النداء للحج تم في نفس تلك الرحلة!

○ وقع نزاع بين المسلمين وبين أهل الكتاب حول تحديد موقع (فاران)، ففي حين يدّعي اليهود والنصارى أن المكان يقع جنوب أرض كنعان، يصر المسلمون على أن المقصود من فاران مكة المكرمة أو جبل يقع بالقرب منها.

○ لم يقدّم المسلمون إلى اليوم دليلاً ملموساً على أن (فاران) هي مكة أو جبل بالقرب منها أو ما أشبه ذلك، بل قدّموا تحليلات واستنتاجات من بعض النصوص لا ترتقي إلى مستوى القطع في المسألة، وإن كنا نؤمن بأن الهجرة تمت إلى مكة المكرمة بنص القرآن الكريم، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أن فاران هي مكة، فلعل في النص التوراتي تلاعب أو خطأ في المسميات.

سارة وإسحاق

سارة وإسحاق

• موضوعات هذا الفصل:

- عرض بعض التفاصيل حول سارة، زوج النبي إبراهيم، والتضارب في الروايات حول طبيعة علاقة النسب بينهما، ومتى تم زواجهما.
- ادّعاء التنخ أنها الأخت غير الشقيقة لإبراهيم (أخته لأبيه) وإباحة نكاح الأخت في مثل هذه الحالة.
- هل كانت سارة ابنة نبي؟ وما اسمه؟
- ثراء سارة وتضحياتها ووقوفها إلى جانب زوجها إبراهيم.
- البشارة بإسحاق عن طريق الملائكة، وردة فعل سارة.
- التحليل اللغوي لاسم إسحاق والسبب في التسمية.
- الفارق العمري بين الأخوين إسماعيل وإسحاق.
- غيرة سارة من إسماعيل، وأمرها إبراهيم بطرده وأمه هاجر.
- تحليل روايات سوء خلق سارة وخضوع إبراهيم لها بأمر إلهي، وتعارض ذلك مع الثناء الإلهي عليها في القرآن الكريم.

سارة وإسحاق

فلنتعرف في بدء هذا الفصل على ساراي (= سارة) أولاً ثم ننتقل إلى الحديث عن البشارة بإسحاق.

جاء في قاموس الكتاب المقدس تحت عنوان سارة: (اسم عبراني معناه أميرة. وهي زوجة إبراهيم، وكانت في الأصل تدعى ساراي)^(١)، في إشارة إلى ما جاء في سفر التكوين: (وَقَالَ اللَّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ امْرَأَتُكَ لَا تَدْعُو اسْمَهَا سَارَايَ، بَلْ اسْمُهَا سَارَةُ»)^(٢).

وجاء فيه تحت عنوان ساراي: (اسم عبراني معناه المجاهدة وهو الاسم الأصلي لسارة زوجة إبراهيم)^(٣).

وحول نسبها، فإن التناخ يذكر - كم مرّة معنا تفصيل ذلك في فصل الهجرات الإبراهيمية - أنها أخت إبراهيم لأبيه. ففي سفر التكوين: (وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةُ أُمِّي، فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً)^(٤).

وحول زواجها من إبراهيم: (وَاتَّخَذَ أَبْرَامُ وَنَاحُورُ لِنَفْسِهِمَا امْرَأَتَيْنِ: اسْمُ امْرَأَةِ أَبْرَامَ سَارَايُ)^(٥).

وفي قاموس الكتاب المقدس أيضاً: (تزوجت سارة من إبراهيم في أور الكلدانيين، وكانت أصغر منه بعشر سنوات. وعندما خرج إبراهيم من حاران كان عمر سارة ٦٥ سنة. ولكنها كانت جميلة بالرغم مما بلغت من

١. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٤٣.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٧: ١٥.

٣. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٤٣.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٠: ١٢.

٥. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١١: ٢٩.

العمر، وكانت محتفظة بقوتها وشبابها. عندما بلغت سارة سن ٨٩ جاءها الموعد بميلاد إسحق الذي ولدته بعد سنة. وغيرَ الله اسم ساراي إلى سارة في ذلك الوقت. واختلفت الآراء في سارة، ولكنها كانت في الحق مؤمنة فاضلة وزوجة أمينة وأماً مثالية. وقد ماتت سارة في سن ١٢٧ سنة، بعد ولادة إسحق بما يزيد على ٣٦ سنة، ودفنها إبراهيم في حقل المكفيلة الذي اشتراه لهذا الغرض^(١).

أما الروايات الإسلامية فهي منقسمة في تحديد النسب الذي يربط سارة بإبراهيم «عليه السلام»، وبحسب روايات عند الشيعة :

- هي ابنة عم إبراهيم وابنة خالته في نفس الوقت، وهي أخت النبي لوط.
- كانت أم سارة وأم إبراهيم بنتي النبي لاجح، وقد تزوجت أحدهما من تارح والد إبراهيم، والأخرى تزوجت من أخي تارح بتوئيل.

روى - مثلاً - الكليني في الكافي بالسند عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: (إن إبراهيم «عليه السلام» كان مولده بكوثر ربى وكان أبوه من أهلها، وكانت أم إبراهيم وأم لوط سارة وورقة) وفي نسخة رقبة (أختين وهما ابنتان للاحج، وكان للاحج نبياً منذراً ولم يكن رسولاً. وكان إبراهيم «عليه السلام» في شببته على الفطرة التي فطر الله «عز وجل» الخلق عليها حتى هداه الله «تبارك وتعالى» إلى دينه واجتباها، وإنه تزوج سارة ابنة لاجح) كيف يصح هذا؟ فسارة بنت لاجح هي أم إبراهيم، ولذا قال المجلسي أن الظاهر أن كلمة ابنة كانت مكررة فأسقط أحدهما

النسخ لتوهم التكرار، ويحتمل أن يكون المراد ابنة الابنة مجازاً، أو يكون المراد بلاحج ثانياً غير الأول (وهي ابنة خالته، وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة، وكانت قد ملكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه، فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع حتى لم يكن بأرض كوثى ربي رجل أحسن حالاً منه)^(١) بما يشبه وضع النبي محمد «صلى الله عليه وآله» مع السيدة خديجة.

وفي روايات من مصادر أهل السنة ما يدل على أنها سارة بنت هاران، مع الاختلاف في تحديد من هو هاران هذا.

○ ففي إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني في شرح الحديث ٣٢٠٥ أنها سارة بنت هاران ملك حرّان، وأن المدينة أخذت اسمها من اسمه.

○ أما ابن كثير في البداية والنهاية فقد طرح ثلاثة آراء:

الأول نقلاً عن السدي: (انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقي إبراهيم سارة، وهي ابنة ملك حرّان، وقد طعنت على قومها في دينهم، فتزوجها على أن لا يغيرها). وعلق عليه قائلًا: (رواه ابن جرير، وهو غريب).

الثاني: (أنها ابنة عمه هاران، الذي تُنسب إليه حرّان). وعلق عليه قائلًا أنه المشهور.

الثالث: (أنها ابنة أخيه هاران، أخت لوط).

١. الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٣٧٠.

واعتبر أن من زعم ذلك - كما حكاها السهيلي عن القتيبي، والنقاش - (فقد أبعد النجعة، وقال بلا علم، وادعى أن تزويج بنت الأخ كان إذ ذاك مشروعاً، فليس له على ذلك دليل، ولو فرض أن هذا كان مشروعاً في وقت كما هو منقول عن الربانيين من اليهود، فإن الأنبياء لا تتعاطاه، والله أعلم)^(١).

• في القرآن الكريم:

تحدث القرآن الكريم عن بشارة الله (عز وجل) لإبراهيم وسارة بالولد، كما بشره من قبل بولادة إسماعيل من سرّيته هاجر. وقدّم لذلك ببيان أن هذا جاء وفق سنّته «سبحانه وتعالى» بأن يكافئ على الإحسان بالإحسان، وأنّ من ترك شيئاً من أجله فإن الله يعوّضه خيراً منه. فقد هجر إبراهيم «عليه السلام» أباه وقومه، فأبدله بالذرية الصالحة، وجعل النبوة فيها، كما هجر مسقط رأسه، فأبدله الله بالأرض المباركة والأرض الحرام، كما استجاب لأمر الله بذبح ابنه إسماعيل، فاستجاب له، ففداه الله بكبش عظيم، ورزقه بولد آخر، ومن الولدين رزقه ذرية عظيمة.

فاستعداد إبراهيم لذبح ابنه استجابة للأمر الإلهي مقدّمة لاستحقاقه ولداً آخر على الرغم من شيخوخته. فهي مكافأة إلهية على التضحية والتسليم لأمر الله في شأن الولد العزيز، ولذا عبّر الله عن هبة إسحاق ويعقوب بأنها نافلة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾^(٢)، ﴿وَقَالَ إِنِّي

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١، ص ١٨٨-١٨٩.

٢. سورة الأنبياء: ٧٢.

سارة وإسحاق

ذَاهِبْ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ^(١) وهي البشارة بإسماعيل «عليه السلام»، وتلتها آيات عن الأمر بذبح ابنه، ولما استجاب تحدثت الآيات من بعدها عن البشارة بإسحاق «عليه السلام» في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾^(٢).

ومرّت بنا الآيات القرآنية التي استعرضت قصة البشارة بإسحاق «عليه السلام» ضمن قصة إنزال العذاب على قوم لوط «عليه السلام»، وذلك عن طريق الملائكة الذين ظهرُوا في صورة إنسية، على الرغم من كبر سن إبراهيم وسارة. كما مرّ بنا في التنخّ جانب من هذه القصة أيضاً في البحث الخاص بتبديل اسمه، وفي العرض المقارن حول قصة إنزال العذاب بقوم لوط، وعلمنا أن النص التوراتي يحدد عمر إبراهيم عند البشارة بتسعين وتسعين سنة، وعند الولادة بمائة سنة: (فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لِإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللَّهُ عَنْهُ. وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ». وَخَتَنَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وَلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنَهُ. وَقَالَتْ سَارَةُ: «قَدْ صَنَعَ إِلَيَّ اللَّهُ ضَحْكًا. كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ يَضْحَكُ لِي». وَقَالَتْ: «مَنْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: سَارَةُ تَرْضَعُ بَنِينَ؟ حَتَّى وَلَدْتُ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ!». فَكَبِرَ الْوَلَدُ وَفُطِمَ. وَصَنَعَ إِبْرَاهِيمُ وَلِيمَةً عَظِيمَةً يَوْمَ فِطَامِ إِسْحَاقَ)^(٣).

١. سورة الصافات: ٩٩-١٠١.

٢. سورة الصافات: ١١٢-١١٣.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٢-٨.

جاء في قاموس الكتاب المقدس: (ومعناه بالعبرية «يضحك»....) ولما وعد الله سارة بأنها تلد ابناً ضحك إبراهيم لأن أمراً مثل هذا يبعد تصديقه «تك ١٧: ١٧-١٩». ولما سمعت سارة الوعد نفسه ينطق به أحد الضيفين السماويين ضحكت هي أيضاً لأنها لم تصدق شيئاً من مثل هذا «تك ١٨: ٩-١٥». ولما ولد الطفل قالت سارة أن الرب صنع إليّ ضحكاً وأن جيرانها سيضحكون معها «تك ٢١: ٦». فقد لازم الضحك هذا الصبي من وقت الوعد به إلى ما بعد ولادته، ولذا فقد دعا إبراهيم اسم ابنه «إسحاق» أي «يضحك»^(١). ولربما نقول أن اسمه: الضاحك أو الضحاك.

• فارق العمر بين إسماعيل وإسحاق:

ذكرنا في فصل سابق أن فارق العمر بين إسماعيل وإسحاق - بحسب التوراة - أربعة عشر سنة، وفي رواية العياشي أن الفارق بين البشارتين بإسماعيل وإسحاق خمس سنوات، ونجد هنا رواية أخرى متضاربة مع تلك في تحديد الفارق في العمر بينهما، وهي في تفسير العياشي أيضاً عن محمد بن القاسم، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن سارة قالت لإبراهيم «عليه السلام»: قد كبرت، فلو دعوت الله أن يرزقك ولداً فيقر أعيننا، فإن الله قد اتخذك خليلاً وهو مجيب دعوتك إن شاء الله، فسأل إبراهيم ربه أن يرزقه غلاماً عليمًا، فأوحى الله إليه: إني واهب لك غلاماً عليمًا) وهذا يخص إسحاق (ثم أبلوك فيه بالطاعة لي، قال: قال أبو عبد الله «عليه السلام»: فمكث إبراهيم بعد البشارة ثلاث سنين، ثم جاءته البشارة من الله بإسماعيل مرة أخرى

١. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٦٦.

بعد ثلاث سنين^(١)، أي أن إسحاق أكبر من إسماعيل، وهذا مخالف للقرآن الكريم والتخ والروايات الإسلامية، كما أن هذه الرواية تدل على أن إسحاق هو الذبيح، وهذا مخالف لظاهر القرآن كما ذكرنا من قبل. وعلى العموم فإن هذه الرواية جعلت الفرق بين إسحاق وإسماعيل ثلاث سنوات.

ويبدو لي أن الفارق يجب أن يكون أكثر من هذا، إذ يظهر من الآيات أن ولادة إسحاق جاءت بعد الأمر بذبح إسماعيل الذي كان يعي وأصبح مكلفاً بلحاظ قوله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾^(٢).

قال العلامة الطباطبائي: (المراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغاً يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سن الرهاق، والمعنى فلما راهق الغلام قال له يا بني... إلخ)^(٣). وهذا يتوافق مع ما جاء في التوراة من أن بينهما أربعة عشر سنة، حيث وُلد إسماعيل حين كان إبراهيم في سن السادسة والثمانين: (كَانَ أَبْرَامُ ابْنُ سِتِّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لِأَبْرَامَ)^(٤)، بينما ولد إسحاق حين كان إبراهيم في سن المائة: (وَكَانَ إِبرَاهِيمُ ابْنُ مِئَةِ سَنَةٍ حِينَ وَلِدَ لَهُ إِسْحَاقُ ابْنُهُ)^(٥).

• غيرة سارة:

تتحدث بعض الروايات عن استمرارية غيرة سارة على الرغم من ابتعاد

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٢١.

٢. سورة الصافات: ١٠٢.

٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١٥٢.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٦: ١٦.

٥. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢١: ٥.

هاجر وإسماعيل عنها وهجرتهما، ومن بين هذه الروايات ما عن ابن عباس أنه: (لما أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل امرأة منهم وماتت هاجر، استأذن إبراهيم سارة أن يأتي هاجر، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل، فقدم إبراهيم «عليه السلام» وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: ليس هو ههنا ذهب يتصيد، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد...).

ورجع إبراهيم إلى دياره في أرض كنعان بعد أن أوصل رسالة غير مباشرة لابنه أن يطلق هذه الزوجة لأنها غير صالحة كما مرّ بنا من قبل: (فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل...).

ويتكرر المشهد بعدم تواجد إسماعيل، ولكن الزوجة الثانية كانت صالحة (فدعا لها بالبركة.... فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل فجاءت بالمقام) أي الحَجَر الذي سيتحول إلى مقام إبراهيم في الحرم المكي بعد أن أوصل رسالة غير مباشرة لابنه أن يطلق هذه الزوجة لأنها غير صالحة كما مرّ بنا من قبل.

(فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له واشترطت عليه أن لا ينزل...) ويتكرر المشهد بعدم تواجد إسماعيل، ولكن الزوجة الثانية كانت صالحة (فدعا لها بالبركة.... فقالت له: انزل حتى أغسل رأسك، فلم ينزل فجاءت بالمقام) أي الحَجَر الذي سيتحول إلى مقام

إبراهيم في الحرم المكي، علماً بأن في البين روايات أخرى -مرّت بنا إحداها- وهي تتحدث عن أن هذا الحجر استعمله إبراهيم «عليه السلام» لبناء البيت حيث كان يقف عليه ليصف بعض الأحجار في الأماكن المرتفعة من البناء، وفي روايات أخرى أنه حجر وقف عليه إبراهيم عند النداء للحج، وقد يُوجّه ذلك بأنه استعمله في أكثر من مناسبة (فوضّعه على شقه الأيمن، فوضع قدمه عليه، فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شق رأسه الأيمن، ثم حوّلت المقام إلى شقّ رأسه الأيسر فبقي أثر قدمه عليه، فغسلت شقّ رأسه الأيسر...) (١).

واشترط سارة على إبراهيم أن لا ينزل حين يزور هاجر وإسماعيل إلى المقصد يعني أن تكون زيارته مجرد مرور دون بيتوته. وهنا يرد إشكال حول إمكانية تصوّر ذلك من جهتين:

١. ضعف شخصية إبراهيم بحيث يقبل الشرط.

٢. قطع كل تلك المسافة ثم العودة دون بيتوته.

وقد عالج بعض الرواة هذه الثغرة في قصصهم بطرق مختلفة تتضح من خلال الروايات التالية:

○ روى الراوندي في **قصص الأنبياء** بالسند عن عقبة، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (شكا إبراهيم إلى الله «تعالى» ما يلقي من سوء خلق سارة، فأوحى الله «تعالى» إليه: إن مثل المرأة مثل الضلع الأعوج، إن تركته استمعت به، وإن أقمته كسرته، وقال: إن إبراهيم «عليه السلام» تزوج سارة

١. المجلسي: بحار النوار، ج ١٢، ص ٨٤-٨٥.

- وكانت من أولاد الأنبياء - على أن لا يخالفها ولا يعصي لها أمراً فيما وافق الحق، وإن إبراهيم كان يأتي مكة من الحيرة في كل يوم^(١).

ويلاحظ على هذه الرواية أمور:

١. ادّعاء رجحان ترك المرأة وشأنها، وعدم السعي لإصلاح ما فسد من حالها.
٢. قبول إبراهيم الزواج بسارة بشرط أن يكون مطيعاً لها إلا في ما فيه معصية لله. وهذا يعني تحوّل إبراهيم إلى شخص ضعيف الحيلة مسلوب القرار نسبياً، وهو ما لا يتناسب مع وضع الرجل عموماً، فكيف بمن هو نبي وصاحب رسالة وشخصية يُراد لها أن تقود الأمة. ووضع شرط عدم طاعتها في المعصية محاولة للتخفيف من وطأة الإشكال إلا أنها محاولة غير مجدية.
٣. ادّعاء أن حركته لزيارة إسماعيل وهاجر كانت بين الحيرة - بالقرب من الكوفة - ومكة، ويبدو أن مختلق الرواية فاته أن إبراهيم كان يعيش في أرض كنعان آنذاك وقد هاجر من موطنه الأصلي منذ سنوات.

○ الرواية التالية تحاول أن ترفع الإشكال من خلال ادّعاء أن طاعتها جاء بأمر استثنائي من الله «عز وجل»، فقد روى البرقي^(٢) في المحاسن بالسند عن ابن أبي عمير، عن بعض أصحابه قال: (سألنا عن السعي بين الصفا والمروة، فقال: إن هاجر لما ولدت بإسماعيل دخلت سارة غير شديدة،

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١١١-١١٢.

٢. أبو جعفر، أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤هـ). كان من أصحاب الإمامين محمد الجواد وعلي الهادي. قال عنه العلامة الحلي: (كوفي، ثقة، غير أنه كثير الرواية عن الضعفاء، واعتمد المراسيل وعندي أنّ روايته مقبولة). من مصنفاته (أخبار الأصم)، (اختلاف الحديث)، (بنات النبي وأزواجه)، (التأويل)، (التيبان)، (المحاسن).

فأمر الله إبراهيم أن يطيعها، فقالت: يا إبراهيم، احمل هاجر حتى تضعها ببلاد ليس فيها زرع ولا ضرع) لاحظ النفسية الخبيثة التي تُنسب لسارة ولا يمكن أن نوافق عليها كما سيأتي بيانه (فأتى بها البيت - وليس بمكة إذ ذاك زرع ولا ضرع ولا ماء ولا أحد - فخلّفها عند البيت وانصرف عنها إبراهيم «عليه السلام» فبكى)^(١). وهذه الرواية - مثل سابقتها - تواجه أكثر من إشكال:

١. هل يمكن تصوّر أن الله يأمر هذا النبي وهو شيخ كبير وصاحب مقام رفيع أن يطيع زوجته في غيرتها الشديدة ويستسلم لرغبتها في إهلاك إنسانة بريئة مع طفلها؟

٢. يدل القرآن الكريم على علو شأن سارة حيث قال «تعالى»: ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَنَاءَ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^(٢)، فهي مشمولة بهذا الرحمة والبركة الإلهية، وهل يمكن شمولها لإنسانة تسعى لإهلاك هاجر وإسماعيل إذ أمرت إبراهيم بأن يضعهما ببلاد ليس فيها زرع ولا ضرع؟

○ الرواية الثالثة محاولة تبريرية لتصور تنقل إبراهيم بين كنعان ومكة في فترات زمنية قياسية مع الاستجابة لشرط سارة أن لا ينزل ولا يبيت عندها.

١. البرقي: المحاسن، ص ٣٢٨.

٢. سورة هود: ٧١-٧٣.

ففي **قصص الأنبياء** للراوندي بالإسناد عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سمعت أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: (إن إبراهيم «عليه السلام» استأذن سارة أن يزور إسماعيل بمكة فأذنت له على أن لا يبيت عنها ولا ينزل عن حماره، قلت: كيف كان ذلك؟ قال: طويت له الأرض)^(١).

وفي بعض الروايات أن الله «عز وجل» سخر له البراق للتنقل لهذا الغرض. وبمجملها لا تعدو أن تكون محاولات غير موفقة لسدّ بعض ثغرات القصة، أو لإضافة بعض عناصر الإثارة إليها، وهي غير موفقة، لأن تدخل العوامل الغيبية لتحقيق ما يخالف قوانين الطبيعة مشروط بأمور، ويأتي كحالة استثنائية جداً ومرتبطة بالرسالة والدعوة، لا يمثل هذه الأوضاع الشخصية، وقد أشرت إلى هذا الموضوع مفصلاً في الجزء الثاني من كتابي في **عمق التاريخ**.

• نتائج الفصل وخلاصته:

○ ادّعت التوراة أن سارة هي أخت إبراهيم لأبيه، وأن التشريع كان يسمح بزواج الأخ من أخته إن لم تكن شقيقته. أما الروايات الإسلامية فمتضاربة في هذا الشأن، وإن اتفقت على أنها من أقربائه.

○ بعد أن لبّى إبراهيم دعوة ربه بتقديم ابنه إسماعيل قرباناً ولم يتردد، أكرمه الله بأن رزقه ولداً آخر هو إسحاق، ولكن هذه المرة من زوجته العجوز سارة. وجاءته البشارة بذلك عن طريق الملائكة.

○ أساءت بعض الروايات إلى السيدة سارة حين صوّرت غيرتها - تحت

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١١٢.

تأثير المرويات الكتابية - بشكل مبالغ فيه حتى يصل إلى درجة الإجرام بحق هاجر وابنها، ونحن نبرؤها من ذلك بلحاظ التكريم الإلهي لها في القرآن الكريم، كما ونبريئ النبي إبراهيم من الصورة المهزوزة والضعيفة التي يظهر فيها حين يستجيب لضغوطات سارة المرة تلو الأخرى.

○ لا صحة للروايات التي تحدثت عن أن الله سخر البراق لإبراهيم للتنقل بين أرض كنعان ومكة، ولا تعدو أن تكون محاولات غير موفقة لسدّ بعض ثغرات القصة التي تذكر أن النبي إبراهيم كان يقطع مئات الكيلومترات لزيارة هاجر وابنها، دون أن تسمح له سارة بالنزول من مركبه، فضلاً عن المبيت في مكة! كما قد تكون هذه الجزئية لإضافة بعض عناصر الإثارة إلى القصة.

من هو الذبيح ؟

من هو الذبيح ؟

• موضوعات هذا الفصل:

- عرض مقارنة لقصة الذبيح من أبناء النبي إبراهيم بين ما جاء في التناخ وما جاء في القرآن الكريم.
- بيان عمدة الاختلاف بين القصتين والمتعلق بتحديد هوية الذبيح، هل هو إسماعيل، كما في القصة القرآنية، أم إسحاق كما في القصة التوراتية.
- بيان أسباب بطلان الرواية التوراتية.
- تأثر المرويات الإسلامية بالرواية التوراتية وادّعاء أن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل.
- التحديد الزمني والمكاني للحدث بصورة مقارنة بين التناخ والقرآن.
- ارتباط الحدث والاستعداد للتضحية بإسماعيل بالبشارة بإسحاق.
- علاقة قصة الذبح برمي الجمرات وظهور الشيطان لإبراهيم.
- تحديد صفات الكبش (الفداء) كما جاء في الروايات، وأثار الوضع والدس فيها.

تحدث كلٌّ من القرآن الكريم والتنخ عن أمر الله إبراهيم بذبح ابنه.

أما في القرآن فقد جاء ذلك بعد الحديث عن ولادة إسماعيل - وإن لم يذكر اسمه - وقبل الحديث عن ولادة إسحاق: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾^(١). من خلال ظاهر الآيات السابقة نجد أن الله «عز وجل»:

○ عطف بالبشارة الثانية على الأولى عطفًا يقتضي التغاير.

○ وهذا يعني أن الولد الأول غير الثاني.

○ وكذلك كانت البشارة الثانية مصرحة بأنَّ المَبْشَر به هو إسحاق، أي أن المَبْشَر به الأول - الذي هو الذبيح - هو غير إسحاق.

○ فيكون الذبيح هو إسماعيل، وهو الولد البكر لإبراهيم.

إلا أن بعض الوضّاعين استغلوا عدم التصريح باسم الذبيح في الآيات، فرووا أنه إسحاق وليس إسماعيل، وهو ما يتوافق مع ما جاء في التنخ. فلنطالع

أولاً ما جاء في التنخ، ثم نطالع بعض الروايات الإسلامية المحرفة عند الشيعة والسنة.

• قصة الذبيح في التنخ:

تحدث سفر التكوين عن قصة الذبيح وأنه إسحاق: (وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ اللَّهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هَآنَذَا». فَقَالَ: «خُذْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، الَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ، وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمَرِيَا، وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحَرَّقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ». فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَشَدَّ عَلَى حِمَارِهِ، وَأَخَذَ اثْنَيْنِ مِنْ غِلْمَانِهِ مَعَهُ، وَإِسْحَاقَ ابْنَهُ، وَشَقَّقَ حَطَبًا لِمُحَرَّقَةٍ، وَقَامَ وَذَهَبَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ اللَّهُ. وَفِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَأَبْصَرَ الْمَوْضِعَ مِنْ بَعِيدٍ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لَغُلَامَيْهِ: «اجْلِسَا أَنْتُمَا هَهُنَا مَعَ الْحِمَارِ، وَأَمَّا أَنَا وَالْغَلَامُ فَندْهُبُ إِلَى هُنَاكَ وَنَسْجُدُ، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَيْكُمَا». فَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ حَطَبَ الْمُحَرَّقَةِ وَوَضَعَهُ عَلَى إِسْحَاقَ ابْنِهِ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ النَّارَ وَالسَّكِينِ. فَذَهَبَا كِلَاهُمَا مَعًا. وَكَلَّمَ إِسْحَاقُ إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ وَقَالَ: «يَا أَبِي!». فَقَالَ: «هَآنَذَا يَا ابْنِي». فَقَالَ: «هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْخُرُوفُ لِلْمُحَرَّقَةِ؟» فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللَّهُ يَرَى لَهُ الْخُرُوفَ لِلْمُحَرَّقَةِ يَا ابْنِي». فَذَهَبَا كِلَاهُمَا مَعًا. فَلَمَّا أَتَيَا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي قَالَ لَهُ لَاللَّهُ، بَنَى هُنَاكَ إِبْرَاهِيمُ الْمَذْبَحَ وَرَتَّبَ الْحَطَبَ وَرَبَطَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ فَوْقَ الْحَطَبِ. ثُمَّ مَدَّ إِبْرَاهِيمُ يَدَهُ وَأَخَذَ السَّكِينِ لِيَذْبَحَ ابْنَهُ. فَنَادَاهُ مَلَكَ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هَآنَذَا». فَقَالَ: «لَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الْغَلَامِ وَلَا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لِأَنِّي الْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفُ اللَّهِ، فَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي») كيف يكون

وحيدة وإسماعيل مولود قبله؟ وهذا المقطع قد يكون دليلاً على أن الأمر يخص إسماعيل، لا إسحاق، وأن الحدث تم قبل ولادة إسحاق، كما هو دلالة سياق الآيات في سورة الصافات، حيث جاءت البشارة بإسحاق بعد حادثة الذبيح.

(فَرَفَعَ إِبْرَاهِيمُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا كَبَشٌ وَرَاءَهُ مُمَسِّكًا فِي الْغَايَةِ بِقَرْنَيْهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ وَأَخَذَ الْكَبَشَ وَأَصْعَدَهُ مُحْرَقَةً عَوْضًا عَنْ ابْنِهِ. فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ «يَهُوهَ يِرَاهُ». حَتَّى إِنَّهُ يُقَالُ الْيَوْمَ: «فِي جَبَلِ الرَّبِّ يُرَى». وَنَادَى مَلَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ ثَانِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أَبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأَكْثُرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كُنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكَ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الْأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي») ولعل هذا المقطع يؤيد ما ذكرنا بالبشارة بإسحاق وذريته بالإضافة إلى الذرية من إسماعيل (ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى غُلَامِيهِ، فَقَامُوا وَذَهَبُوا مَعًا إِلَى بَثْرِ سَبْعٍ. وَسَكَنَ إِبْرَاهِيمُ فِي بَثْرِ سَبْعٍ)^(١).

• قصة الذبيح في الروايات الإسلامية :

○ قال الشيخ الصدوق في كتابه **من لا يحضره الفقيه**: (قد اختلفت الروايات في الذبيح، فمنها ما ورد بأنه إسماعيل، ومنها ما ورد بأنه إسحاق، ولا سبيل إلى رد الاخبار متى صح طرقها) بل يمكن ذلك بالرجوع إلى القرآن الكريم، فصحة الطرق لا تحتم صحة صدور الرواية عن النبي أو الإمام، ولكن الشيخ الصدوق سيحاول أن يجد لها مخرجاً بالصورة التالية، قال: (وكان

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٢: ١-١٩.

الذبيح إسماعيل، لكن إسحاق لما وُلد بعد ذلك تمنى أن يكون هو الذي أمر أبوه بذبحه، فكان يصبر لأمر الله ويسلم له كصبر أخيه وتسليمه، فينال بذلك درجته في الثواب، فعلم الله «عز وجل» ذلك من قلبه، فسماه بين ملائكته ذبيحاً لتميئه لذلك^(١).

○ وفي المقابل نجد أن الشيخ الصدوق بنفسه يروي ما يخالف طريقته هذه في معالجة التعارض. ففي معاني الأخبار بالسند عن داود بن كثير الرقي قال: قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: (أيهما كان أكبر إسماعيل أو إسحاق؟ وأيهما كان الذبيح؟ فقال: كان إسماعيل أكبر من إسحاق بخمس سنين، وكان الذبيح إسماعيل، وكانت مكة منزل إسماعيل، وإنما أراد إبراهيم أن يذبح إسماعيل أيام الموسم بمنى. قال: وكان بين بشارة الله لإبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق خمس سنين، أما تسمع لقول إبراهيم «عليه السلام» حيث يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إنما سأل الله «عز وجل» أن يرزقه غلاماً من الصالحين، وقال في سورة الصافات: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ يعني إسماعيل من هاجر، قال: فقدي إسماعيل بكبش عظيم، فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: ثم قال: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ يعني بذلك إسماعيل قبل البشارة بإسحاق، فمن زعم أن إسحاق أكبر من إسماعيل وأن الذبيح إسحاق فقد كذب بما أنزل الله «عز وجل» في القرآن من نبأهما^(٢).

١. الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٢١.

٢. الصدوق: معاني الأخبار، ص ١١١.

وبغض النظر عن الفارق الزمني بين البشارتين والذي ذكرنا من قبل أنه لا بد أن يكون أكثر من ذلك، إلا أننا نلاحظ اعتماد أسلوب مرجعية القرآن في بيان الجواب، وهو الأسلوب الأوفق بالنبي وأهل البيت «عليهم السلام»، وفي الخبر أنه «صلى الله عليه وآله» قال: (إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط)^(١).

○ أما الرواية التالية فتتحدث عن أن المراد بالذبيح هو إسحاق، لأن الأم هي سارة، وهذا يوافق الرواية التوراتية، ويشعر بإسرائيلية المصدر. ففي **تفسير علي بن إبراهيم** بالسند عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله «عليه السلام» في حديث طويل: (.... فرأى في النوم أن يذبح ابنه، وقد كان حج بوالدته سارة وأهله، فلما انتهى إلى منى رمى الجمرة هو وأهله، وأمر سارة أن زوري البيت، واحتبس الغلام فانطلق به إلى موضع الجمرة الوسطى، فاستشار ابنه وقال كما حكي الله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾.... وأقبل شيخ) وهو إبليس (فقال: يا إبراهيم ما تريد من هذا الغلام؟ قال: أريد أن أذبحه، فقال: سبحان الله! تذبح غلاماً لم يعص الله طرفة عين؟ فقال إبراهيم: إن الله أمرني بذلك، فقال: ربك ينهاك عن ذلك، وإنما أمرك بهذا الشيطان، فقال له إبراهيم: ويلك إن الذي بلغني هذا المبلغ هو الذي أمرني به والكلام الذي وقع في أذني فقال: لا والله ما أمرك بهذا إلا الشيطان، فقال إبراهيم: لا والله لا أكلمك، ثم عزم على الذبح فقال:

١. الطبرسي: مجمع البيان، ج ١، ص ١٢.

يا إبراهيم إنك إمام يُقتدى بك، وإنك إن ذبحته ذبح الناس أولادهم، فلم يكلمه وأقبل على الغلام واستشاره في الذبح فلما أسلما جميعاً لأمر الله قال الغلام: يا أبتاه خمر وجهي، وشدّ وثاقي، فقال إبراهيم: يا بني الوثاق مع الذبح؟ لا والله لا أجمعهما عليك اليوم، فرمى له بقرطان الحمار) كالبرذعة بالنسبة لذوات الحوافر (ثم أضجعه عليه، وأخذ المديّة فوضعها على حلقه ورفع رأسه إلى السماء، ثم انتحى عليه المديّة وقلب جبرئيل المديّة على قفاها، واجترّ الكبش من قبل ثبير^(١)، وأثار الغلام من تحته، ووضع الكبش مكان الغلام، ونودي من ميسرة مسجد الخيف: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾. قال: ولحق إبليس بأمر الغلام حين نظرت إلى الكعبة في وسط الوادي بجذاء البيت فقال لها: ما شيخ رأيته؟ قالت: ذاك بعلي، قال: فوصيف رأيته معه؟ قالت: ذاك ابني، قال: فأني رأيته وقد أضجعه وأخذ المديّة ليدبحه، فقالت: كذبت إن إبراهيم أرحم الناس كيف يذبح ابنه؟ قال: فورب السماء والأرض ورب هذا البيت لقد رأيته أضجعه وأخذ المديّة، فقالت: ولم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك، قالت: فحق له أن يطيع ربه. فوقع في نفسها أنه قد أمر في ابنها بأمر، فلما قضت نسكها أسرع في الوادي راجعة إلى منى وهي واضعة يدها على رأسها تقول: يا رب لا تؤاخذني بما عملت بأمر إسماعيل. قلت: فأين أراد أن يذبحه؟ قال: عند الجمرة الوسطى. قال: ونزل الكبش على الجبل الذي عن يمين مسجد منى نزل من السماء وكان يأكل في سواد، ويمشي في سواد، أقرن. قلت: ما كان

١. جبل ثبير: من الجبال الشهيرة بمكة، ويقع على يسار الذهاب من مكة إلى منى، وهو يقابل جبل حراء، ويمتد منه إلى أن يصل إلى أواخر منى.

لونه؟ قال: كان أملح أغبر^(١) ^(٢). وسنتحدث عن معنى الجمل الأخيرة في نهاية هذا الفصل.

○ وتحدث الرازي في تفسيره كذلك عن الاختلاف في تحديد من هو الذبيح، ولنلاحظ الأسماء وكثرتهم وفي جانب القول بأنه إسحاق كعب الأحبار، قال: (اختلفوا في أن هذا الذبيح من هو؟ فقيل: إنه إسحاق. وهذا قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي ومقاتل «رضي الله عنهم»، وقيل: إنه إسماعيل، وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي). ثم جاء بأدلة القائلين بأنه إسماعيل، وهي كالتالي:

١. أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (أنا ابن الذبيحين).

وقال له أعرابي: (يا ابن الذبيحين) فتبسم، فسئل عن ذلك فقال: (إن عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سَهَّلَ الله له أمرها ليذبحن أحد ولده، فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله، وقالوا له افد ابنك بمائة من الإبل، ففداه بمائة من الإبل، والذبيح الثاني إسماعيل).

٢. نُقل عن الأصمعي أنه قال: (سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي، أين عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة).

٣. أن الله «تعالى» وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ

١. الأغبر: ما لونه الغبرة. وفي نسخة: الأعين وهو الذي عظم سواد عينه في سعة.

٢. القمي: تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٢٤-٢٢٦.

وَأَدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ^(١) وهو صبره على الذبح. ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾^(٢)؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح، فوفى به.

٤. قوله «تعالى»: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾^(٣)، فلو كان الذبيح إسحاق لكان الأمر بذبحه، إما قبل ولادة يعقوب، وهذا باطل، لأنه «تعالى» قد أخبر أنه سيكون له عقب، أو بعد ولادة يعقوب، وهذا يخالف قوله ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فكيف يكون له ولد هو يعقوب وللتوقد كبر وماشى والده؟

٥. حكى الله «تعالى» عن إبراهيم «عليه السلام» أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهْدِينَ﴾. ثم طلب من الله ولداً يستأنس به في غربته فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهو لا يفيد إلا طلب الولد الواحد، فكلمة «من» للتبويض وأقل درجات التبعية الواحد. وهذا الطلب إنما يحسن قبل أن يحصل له الولد؛ لأنه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد. وقد أجمع الناس على أن إسماعيل متقدم في الوجود على إسحاق، فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء هو إسماعيل. ثم إن الله «تعالى» ذكر عقبيه قصة الذبيح، فوجب أن يكون الذبيح هو إسماعيل.

١. سورة الأنبياء: ٨٥.

٢. سورة مريم: ٥٤.

٣. سورة هود: ٧١.

٦. الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش - الذي فداه الله به - بالكعبة، فكان الذبيح بمكة. ولو كان الذبيح إسحاق كان الذبيح بالشام .

ثم جاء الرازي بأدلة القائلين بأن ذلك الذبيح هو إسحاق:

١. حكى الله «عز وجل» عن إبراهيم «عليه السلام» قبل آية الذبيح أنه قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته إلى الشام. ثم قال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلا إسحاق. ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد من هذا الغلام هو ذلك المولود في الشام. ثم إنه «تعالى» لما تمم قصة الذبيح قال بعده: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ومعناه أنه بشره بكونه نبياً من الصالحين، لا أنه سيولد له إسحاق.

٢. اشتهر من كتاب يعقوب «عليه السلام» إلى يوسف «عليه السلام»: (من يعقوب إسرائيل نبي الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله).

ثم قال الرازي: (فهذا جملة الكلام في هذا الباب، وكان الزجاج يقول: الله أعلم أيهما الذبيح. والله أعلم. واعلم أنه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم في موضع الذبيح، فالذين قالوا: الذبيح هو إسماعيل، قالوا: كان الذبيح بمنى، والذين قالوا: إنه إسحاق قالوا: هو بالشام، وقيل: ببيت المقدس، والله أعلم^(١)).

○ وأدلى كذلك المجلسي في البحار بدلوه حيث قال: (وقال الشيخ أمين

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ٢٦، ص ١٥٣-١٥٥.

الدين الطبرسي «قدس الله روحه» بعد ذكر القولين: وكلا القولين قد رواه أصحابنا عن أئمتنا «عليه السلام» إلا أن الأظهر في الروايات أنه إسماعيل).

ثم ذكر المجلسي بعض ما مر من الوجوه التي ذكرها الرازي ثم قال: (وَحُجَّة مَنْ قَالَ: إِنَّهُ إِسْحَاقُ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِينَ أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ. وَجَوَابُهُ أَنَّ إِجْمَاعَهُمْ لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَقَوْلُهُمْ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَسَأَلَنِي عَنِ الذَّبِيحِ، فَقُلْتُ: إِسْمَاعِيلُ وَاسْتَدَلَّتْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَى رَجُلٍ بِالشَّامِ كَانَ يَهُودِيًّا وَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامِهِ وَكَانَ يَرَى أَنَّهُ مِنْ عِلْمَاءِ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ ذَلِكَ وَأَنَا عِنْدَهُ فَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ الْيَهُودَ لَيَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى أَنْ يَكُونَ أَبُوكُمْ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فِيهِ مَا كَانَ، فَهُمْ يَجْحَدُونَ ذَلِكَ وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُ إِسْحَاقُ لِأَنَّ إِسْحَاقَ أَبُوهُمْ)^(١). ثم علق المجلسي معتبراً أن:

١. أدلّتهم على كونه إسحاق ضعيفة.

٢. وأن الأخبار الدالة على ذلك معارضة بما هو أكثر وأصح منها.

٣. بعض الأدلة التي جيء بها للاستدلال على أنه إسماعيل قوية.

٤. المشهور بين علماء الشيعة ومحدثيهم في جميع الأعصار أنه إسماعيل.

واعتبر المجلسي أنه يمكن عدم طرح الأخبار كلها، وذلك بأن نقول أن الدالة على أنه إسحاق قد صدرت فعلاً عن الأئمة، ولكنها صدرت:

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٣٤-١٣٧.

١. تقية، لأنه في ذلك الوقت كان هو الأشهر بين العلماء من غير الشيعة.
 ٢. بمعنى تمنّي إسحاق أن يكون هو الذبيح كما مرّ في قول الصدوق.
- ثم أضاف احتمالاً ثالثاً وهو وقوع الذبح لكليهما، هذا (إن لم ينعقد إجماع على كون الذبيح أحدهما).
- ونقل المجلسي عن الكليني قوله أنّ من زعم أن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل، فلا بد أن يكون الحدث قد وقع بعد أن نادى إبراهيم بالحج، وحج هو «عليه السلام» وأهله وولده. ثم أضاف المجلسي: (ويظهر منه «رحمه الله» أنه في ذلك من المتوقّفين).
- ثم جاء المجلسي بكلام للطبرسي: (وقال الطبرسي «رحمه الله»: ومن قال: إن الذبيح إسماعيل، فمنهم محمد بن إسحاق بن بشار، وذكر أن إبراهيم كان إذا زار إسماعيل وهاجر، حُمِل على البراق، فيغدو من الشام فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ السعي أرى في المنام أن يذبحه، فقال له: يا بني خذ الحبل والمديّة ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب، فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه، فقال: يا أبت اشدّد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شئ فتراه أُمي، واشدّد شفرتك، وأسرع مرّ السكين على حلقي ليكون أهون علي، فإن الموت شديد، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله. ثم ذكر نحوه مما تقدم ذكره^(١)).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٢٤-١٢٥.

o والرواية التالية تتحدث عن أن الذبح كان في موسم الحج ولكن في نفس الوقت الذي أبعد فيه إبراهيم هاجر وإسماعيل من أرض كنعان إلى مكة. وقد مرّ بنا المقطع الأول من هذه الرواية من قبل، وهي **للعياشي** بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي عن الصادق «عليه السلام»، وفي تتمتها بعد أن اتخذ إبراهيم قرار إبعاد إسماعيل وهاجر: (فلما كان في الليل أتى إبراهيم آت من ربه فأراه الرؤيا في ذبح ابنه إسماعيل بموسم مكة، فأصبح إبراهيم حزينا للرؤيا التي رآها، فلما حضر موسم ذلك العام حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل في ذي الحجة من أرض الشام، فانطلق بهما إلى مكة ليذبحه في الموسم، فبدأ بقواعد البيت الحرام، فلما رفع قواعده وخرج إلى منى حاجاً وقضى نسكه بمنى رجع إلى مكة فطافا بالبيت أسبوعاً، ثم انطلق إلى السعي، فلما صارا في المسعى قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك في الموسم عامي هذا، فماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر. فلما فرغا من سعيهما انطلق به إبراهيم إلى منى وذلك يوم النحر، فلما انتهى به إلى الجمرة الوسطى وأضجعه لجنبه الأيسر وأخذ السكين ليذبحه نودي: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ إلى آخره، وفدي إسماعيل بكبش عظيم فذبحه وتصدّق بلحمه على المساكين^(١).

وقد بلغ تأثير الرواية الإسرائيلية حداً أن قال **القرطبي**: (اختلف العلماء في المأمور بذبحه. فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق)^(٢)، وهذا قد يُعطي للمجلسي مبرراً أن يقول أن الروايات التي تقول أن الذبيح إسحاق قد تكون صدرت عن

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٣٤-١٣٥.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٧٣.

الإمام تقيّة، لأنّ الأشهر بين علماء غير الشيعة ذلك. لكن ما الداعي أن يفصل الإمام ويسترسل في قضية باطلة، ويربك المتلقّين؟

○ ودخلت على الخط رواية أخرى تدّعي تمني إبراهيم «عليه السلام» إتمام عملية الذبح على الرغم من التدخل الإلهي ونجاة إسماعيل منه! فقد روى الصدوق في **الخصال**: (وللذبح العظيم وجه آخر: حدثنا ابن عبدوس، عن ابن قتيبة، عن الفضل قال: سمعت الرضا «عليه السلام» يقول: لما أمر الله «عز وجل» إبراهيم أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه تمنّى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده، وأنه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعز ولده عليه بيده فيستحق بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، فأوحى الله «عز وجل» إليه: يا إبراهيم من أحب خلقي إليك؟ فقال: يا رب ما خلقت خلقاً هو أحب إلي من حبيبك محمد، فأوحى الله إليه: أ فهو أحب إليك أم نفسك؟ قال بل هو أحب إلي من نفسي، قال: فولده أحب إليك أم ولدك؟ قال: بل ولده، قال: فذبح ولده ظلماً على أيدي أعدائه أوجع لقلبك أذبح ولدك بيدك في طاعتي؟ قال: يا رب بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي، قال: يا إبراهيم فإن طائفة تزعم أنها من أمة محمد ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يذبح الكبش، ويستوجبون بذلك سخطي. فجزع إبراهيم لذلك وتوجع قلبه وأقبل يبكي، فأوحى الله عز وجل: يا إبراهيم، قد فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيد، بجزعك على الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، وذلك قول الله «عز وجل»: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ

عَظِيمٌ»^(١). وهذا تحريف لمراد الآية، وهل سيولد الحسين لو ذبح إسماعيل وهو غلام يافع؟

• فلسفة الأمر بالذبح:

مرّ معنا في بحث (إبراهيم المقاتل) وعند الحديث عن البشارة بإسحاق أو بالإمامة احتمالية أن تكون هذه العطية الإلهية - أو تلك - متعلّقة بنجاح إبراهيم «عليه السلام» في الاختبار - الابتلاء - الإلهي عندما أمر بذبح ابنه إسماعيل، فاستجاب.

وقد كان المنحى الدارج لدى أحبار اليهود في تفسيرهم للأمر الإلهي بالذبح أنه اختبار وابتلاء لقياس درجة الطاعة والعبودية لدى إبراهيم - ولربما لدى إسحاق أيضاً - ولمعرفة مدى الاستجابة لديه - أو لديهما - لذلك، وما حصل على أرض الواقع مثل قمة التضحية والإيمان والتسليم لله «سبحانه وتعالى»، قال الربّي مناحيم مندل شنيرسون^(٢) Menachem Mendel Schneersohn: (في البدء يظهر أن الامتحان الإلهي في قصة الذبح موجّه لإسحاق، إذ أنه هو من سيُقدّم نفسه تضحية وقرباناً لله، لكن التوراة تتحدث عن أن موضوع الاختبار الإلهي كان إبراهيم)^(٣).

وأضاف بعضهم إلى ذلك بُعداً آخر يرتبط بتقليدٍ وعُرفٍ كان دارجاً لدى

١. الصدوق: الخصال، ج ١، ص ٢٠-٢١.

٢. حاخام أرثوذكسي وزعيم رוחي لحركة خباد لوبافيتش الحسيدية. ت ١٨٦٦م.

٣. مقري، وآخرون: رواية ذبح النبي إبراهيم لابنه، دراسة مقارنة بين الديانات الإبراهيمية، مجلة نصوص معاصرة، ع ٥٤، ص ١٥٩.

الأقوام المحيطة بهم وغيرهم ويتمثل في تقديم الأبناء قرابين للآلهة، ف جاء هذا الحدث ليكون بمثابة النسخ لذلك التقليد والعرف القائم.

وممن قال بذلك الربّي جوزف هرمان هرتز^(١) Joseph Herman Hertz «ت ١٩٤٦م» حيث اعتبر أن الذي كان مُدهشاً ومحيراً لعقولهم هو التدخل الإلهي لمنع إبراهيم من إتمام ذبح ابنه، وليس نفس الأمر الإلهي بتقديم إسحاق قرباناً.

وأضاف هرتز أن هذا التدخل الإلهي بمنع الذبح كان سبباً في تمييز اليهود لاحقاً عن المشركين الذين كانوا يستسلمون لآلهتهم الظالمة ولأوامر كهنتها بذبح الأبناء بما يُمثل قمة التوحّش، وأن إرادة الله تعلّقت فقط في إظهار الاستسلام والعبودية التامة، لا ذبح إسحاق^(٢).

إلا أنه في مقابل هذا التفسير التقليدي، قام جمع من أحبار اليهود بطرح رأي آخر يبتني على القول بأن واقعة الذبح سلوك غير أخلاقي! جاء في مدرّاش برشيت ربا Bereshit Rabba: (أنا أبداً لا أستطيع القبول أن الله قد أمر إبراهيم بذبح ابنه إسحاق)^(٣).

ولكن مفسّري التنخ والمعلقين عليه انقسموا في طريقة التخلّص من الإشكال المرتبط بلا أخلاقية هذا الذبح إلى آراء:

١. حاخام بريطاني وباحث في التنخ. شغل منصب رئيس الحاخام في المملكة المتحدة من عام ١٩١٢ حتى وفاته في عام ١٩٤٦.

2. Miles, Jack: God a biography, p 59.

٣. مقري، وآخرون: رواية ذبح النبي إبراهيم لابنه، دراسة مقارنة بين الديانات الإبراهيمية، مجلة نصوص معاصرة، ع ٥٤، ص ١٦١.

١. اعتبر بعضهم أن إبراهيم كان على استعداد للقيام بأي شيء يكون فيه خلاص ابنه من الذبيح، حتى لو تمثل ذلك في التمرد على الأمر الإلهي ومخالفته!

٢. وقال آخرون بأن الأمر بالذبيح جاء عقاباً من الله لإبراهيم حين استجاب لطلب زوجته سارة وإلحاحها بالتخلص من إسماعيل وأمه، ونفيهما إلى الصحراء بعيداً عن الناس في أرض لا ماء فيها ولا كلاً. لقد تنصّل إبراهيم من مسؤوليته الأبوية تجاه ابنه إسماعيل، فكان ذلك بمثابة المعصية التي استوجبت العقاب، فجاء الأمر بذبح الولد الآخر، إسحاق، والذي حظي بمكانة أعلى لدى الأب من أخيه الأكبر إسماعيل. ويأتي هذا التفسير منهم على الرغم من معارضته لظاهر النص التوراتي الذي يؤكّد على أن الله كان راضياً على طلب سارة ومؤيداً لها، ومثل هذا الرضا والتأييد هو الذي شجّع إبراهيم على الإقدام على تهجيرهما إلى الصحراء، فكيف يُعاقب على ذلك؟

٣. أما وفق الربّي والطبيب واللغوي الأندلسي مروان بن جناح القرطبي أو يونا بن جانا^(١) Jonah ibn Janah فإن المسألة كانت مجرد طقوس رمزية حيث يجب تقصّي معناها الحقيقي فيما وراء الصورة والفعل الظاهريين.

٤. بينما اعتبر يوسف بن كاسبي^(٢) Joseph Ibn Kaspi أن أساس قصة

١. الحاخام أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي أو يونا بن جناح (ت ١٠٥٠ م). عمل في مجال الطب وعاش من دخله من هذه المهنة، وكان عالماً في اللغة، متمكناً من اللغتين العبرية والعربية، وأبحاثه اللغوية في التنخ العبري ما زالت مرجعاً للباحثين حتى اليوم.

٢. أديب وفيلسوف يهودي تأثر بالفيلسوف المسلم ابن رشد. (ت ١٢٤٥ م). كان واحداً من أكثر الكتاب اليهود إنتاجاً في عصره، صنّف ٢٩ كتاباً.

ذبح إبراهيم لابنه كانت ناتجة عن توهمات إبراهيم، وأن من المستكرأن يأمر الله إبراهيم بهذا الأمر البغيض! وأن القوة الخيالية سيطرت على إبراهيم فأوهمته الأمر بالإقدام على هذا الفعل «الخاطيء» وأنها رغبة إلهية^(١).

٥. وناقش المعاصر **ليمان بودف**^(٢) Lippman Bodoff صاحب كتاب (إلزام إسحاق والقتل والقبالة الدينية: بذور التطرف والاعترا ب اليهودي) The Binding of Isaac, Religious Murders & Kabbalah: Seeds of Jewish Extremism and Alienation في أصل مقولة أن إبراهيم عزم على تقديم ابنه قرباناً لله، وأنه كان على يقين بأن الله لم يرد ذلك منه.

٦. أما الباحث المعاصر **زُلتان فيشر** Zoltan Fischer فقد اعتبر أن ما سيقدمه من تفسير للحدث يُعتبر بحسب رأيه: (خروجاً جديداً وراديكالياً -على حد علمي- من جميع التفسيرات السابقة لأحداث الدعوة للتضحية. لقد فكرت كثيراً في هذا الموضوع لأنني أشعر أن اختبار إبراهيم -ظاهرياً- لا معنى له. ضع في اعتبارك أن ولادة إسحاق من سارة العجوز كانت معجزة. ثانياً، أبعد إبراهيم ابنه الأول -إسماعيل- من بيته، رغماً عنه وبإصرار سارة وبموافقة الله. ثالثاً، كان إبراهيم مطمئناً إلى أن إسحاق سيتحمل مهمته بشكل سليم في المستقبل، وسيصبح أباً للأمة عظيمة. ليس من المنطقي بالنسبة لي أن يطلب الله التضحية به بعد كل هذا وبصورة حقيقية بحيث تضيع معها

١. مقري، وآخرون: رواية ذبح النبي إبراهيم لابنه، دراسة مقارنة بين الديانات الإبراهيمية، مجلة نصوص معاصرة، ع ٥٤، ص ١٦١.

٢. باحث حقوقي معاصر. تخرج في بيتا كابا من كلية سيتي في نيويورك، ثم كلية الحقوق بجامعة ييل. ولد ١٩٣٠.

كل اللحاظات السابقة، وبشكل مؤلم، أو أن تكون الوعود الإلهية وعوداً زائفة. يجب أن يكون هناك تفسير معقول للتضحية. ولم يكن من غير المألوف في تلك الأيام أن يقدم النبلاء القرايين من ذريتهم لآلهتهم المختلفة، وعليه فلن تكون تضحية إبراهيم بابنه أمراً مميزاً. أي أن طلب الله لن يميز إبراهيم عن معاصريه، أو يميّز إلهه عن سائر الآلهة المعبودة من قبل الشعوب المجاورة. لذلك أقترح أن التعليقات والتفسيرات التقليدية التي قرأتها تفوّت مغزى القصة. فمعظم فصول أسفار موسى الخمسة تشتمل على دروس جادة وقابلة للتعليم. الفصول الأولى مهمة بشكل خاص لأنها تقدّم الأساس الأخلاقي لهذه المجموعة الجديدة - بني إسرائيل - وتركّز على الإشارة إلى الاختلافات بين إلههم وبين آلهة جميع الشعوب الأخرى المعبودة في ذلك الوقت، أو منذ ذلك الحين. إن قصة التضحية شبه محورية لأنها تظهر لنا - إذا كنا على استعداد لقراءة السطور وفيما بينها - حساسية أخلاقية عالية من جانب إبراهيم وإسحاق وتوضيح لما يريده الله منا - أو بصورة أكثر أكثر دقة - ما لا يريده بالتأكيد. أعتقد أن الاختبار لم يكن فيما إذا كان إبراهيم سيذبح ابنه أم لا. في تصوّري، سيجد الله أن الطاعة العمياء أداء مخيب للآمال، وأقل بكثير من إمكانية اتخاذ قرارات أخلاقية ستكون سبباً لاختيار إبراهيم في المقام الأول. كان الاختبار هو ما إذا كان الطلب سيفتح تفكير إبراهيم بأسئلة جديدة، وإمكانيات جديدة، وإعادة فحص رسالته، وفهم أفضل له ولإلهنا. ببساطة، لم يرد الله أن يكون إبراهيم على استعداد تام للتضحية بإسحاق. أراد الله أن يسمع حجة إبراهيم التي يطرحها من خلال طبيعته الأخلاقية، أي من خلال

ذلك الجانب الذي كان يعارض ويعاني بشدة من مسألة التضحية البشرية. كما أراد الله أن يصرح إلى الأبد بأنه لا يريد من الناس أن يقدموا قرابين بشرية. بالطبع، فإن قراءة تفاصيل القصة كما جاءت في التوراة وسطراً بعد سطر، لن تجعل الأدلة التي قدّمتها قوية. هناك بعض الآيات التي تدعم توجهي، ولكن هناك أيضاً الكثير الذي لم يذكره الكتاب المقدس^(١).

وفي المسيحية، نجد أن التفسير الغالب ينحى نحو التركيز على ربط هذا الحدث بصلب المسيح «عليه السلام»، مع التأكيد على أن إبراهيم «عليه السلام» من خلال استجابته قد خرج من الاختبار الإلهي متفوقاً ومكلاً بالنجاح. **فالقديس أغوستين** Augustine of Hippo أو Saint Augustine «ت ٤٣٠ م» كان يرى أن إبراهيم - على الرغم إيمانه بأن الله لن يقبل أن يقدم إنساناً قرباناً - إلا أن هذا لم يكن ليجعله يتقاعس أو يتردد ولو لوهلة في الاستجابة للأمر الإلهي والاستسلام لإرادته^(٢).

مثلاً، **هيبوليتوس الرومي** Hippolytus of Rome «ت ٢٣٥ م» ذكر أن إسحاق المقدس كان مشتاقاً ليكفّر عن العالم، وأن يقدم نفسه فداءً لهم لخلاصهم^(٣). وأضاف بعض رجال الدين المسيحي الأوائل أن إسحاق كان كلمة الرب، وأنه كان الممهد لمجيء المسيح.

1. <https://www.questia.com/library/journal/1G1-229543441/sacrificing-isaac-a-new-interpretation>

٢. مقري، وآخرون: رواية ذبح النبي إبراهيم لابنه، دراسة مقارنة بين الديانات الإبراهيمية، مجلة نصوص معاصرة، ع ٥٤، ص ١٦٧.

3. Smith, Yancy: Hippolytus, Commentary on Song of Songs in Social and Critical Context, p 312.

واعتبر أكثر مفسري الكتاب المقدس من المسيحيين أن هذه القصة بمثابة التمهيد لعرض عقيدة الفداء المتمثلة في صلب المسيح «عليه السلام» وقته لتحقيق النجاة للمؤمنين به، وتخليصهم من تبعات ذنوبهم، وخلص البشرية ككل من آثامها. وبهذا اللحاظ يكون المسيح قد أخذ بدلاً عن الكبش الذي أنزل على إبراهيم كبديل عن ذبح إسحاق، وأن استعداد إبراهيم لتنفيذ الأمر الإلهي ليس سوى علامة وشاهد على رضا الأب (الله) على أن يكون ابنه الوحيد (المسيح) قرباناً وفداءً لنجاة وخلص البشرية. ويضيف هؤلاء أن إبراهيم قد عاين قيامة المسيح، من خلال فداء إسحاق، قبل وقوعها بمئات السنين.

لقد حاول الكتاب المسيحيون إيجاد التماثل بين كل مفردات قصة ذبح إسحاق وقصة صلب المسيح «عليه السلام»، حيث رأوا في حمل الحطب من قبل إسحاق والذهاب إلى أعلى الجبل تجلياً لحمل عيسى الصليب على ظهره طوال الطريق إلى مقر الصلب. وفي الدعاء الذي يُقرأ في **الخميس المقدس**^(١): كما أن إسحاق قد حمل الحطب الذي سيحرق به بعد أن يُقدم قرباناً، كذلك حمل عيسى خشبة الصليب التي سيُصلب عليها. وكما أن إسحاق قد بقي حياً،

١. خميس العهد ويعرف أيضاً بالخميس المقدس أو الخميس الأسرار. عيد مسيحي أو يوم مقدس يسبق عيد الفصح؛ وهو ذكرى العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه، وهو اليوم الذي غسل فيه يسوع أرجل تلاميذه ووعظ فيهم بأن يحبوا بعضهم البعض كما أحبهم هو وترك لهم وصيته. ويقوم الكاهن في كثير من الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية بغسل أرجل المصلين ورشهم بالزيت في هذا اليوم. أيضاً في يوم خميس العهد تم القبض على يسوع ليلاً بعد خيانة يهوذا له وتسليمه لليهود ومحاكمته بتهمة التجديف وفقاً للرواية المسيحية.

فكذلك سيبعث عيسى من موته، وسيظهر لحوارييه المقدسين^(١).

إسلامياً، انصبَّ الاهتمام لدى مفسري القرآن الكريم وسائر العلماء على تناول المسألة من زاوية البحث عن شخصية الذبيح لا فلسفة الذبح، وإن لم يغفلوا عن التأكيد على أن الغاية من الأمر هو الاختبار كي ينال إبراهيم «عليه السلام» في نهاية المطاف ذلك المقام الإلهي الرفيع المتمثل في الإمامة.

قال العلامة فضل الله في تفسير قوله «تعالى»: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: (نلاحظ في هذه الشخصية التي يصورها القرآن طابعاً مميزاً في ما يتحدّث الله عنه، في صفاته الذاتية من الملكات الروحية التي تزخر بها روحه وتتحرك بها حياته، وفي مواقفه الإيمانية الرسالية المتمثلة في هذا الاستسلام المطلق لله في أشدّ المواقف صعوبةً وحرجاً، سواء في ابتلاء الله في ذبح ولده أو في موقفه من أبيه ومجابهته لقومه ومواجهته لطاغية زمانه، من دون أن نلمح في أيّ موقف من هذه المواقف شعوراً بالضعف أو الإحراج أو الصعوبة، بل هو الانسجام القوي مع المهمة والمسؤولية، والانطلاق معها في قوّة وإخلاص، والانسحاب الروحي في عمق الإيمان الكبير بالله الذي يتفایض بالحبّ والوداعة والحياة في كلّ كلمة وفي كلّ موقف، فلا نجد، حتى في أشدّ المواقف صعوبةً وخطورة، أيّ ابتعاد عن جوّ الإيمان، أو أيّ غياب عن الله،

١. مقري، وآخرون: رواية ذبح النبي إبراهيم لابنه، دراسة مقارنة بين الديانات الإبراهيمية، مجلة نصوص معاصرة، ع ٥٤، ص ١٦٧.

بل هو الحضور الدائم الذي يشعر معه بوجود عينٍ نفاذةٍ في القلب والضمير واللسان والفكر والشعور والوجدان وهي تحدّق بالله هنا وهناك، في كلّ مظهرٍ من مظاهر الخلق وفي كلّ سرٍّ من أسرار الوجود^(١).

وقد ذهب ابن قيّم الجوزية إلى أكثر من ذلك، حيث اعتبر أن إبراهيم «عليه السلام» لما سأل ربه الولد ووهبه له، تعلّقت شعبة من قلبه بمحبته، واللّه «تعالى» قد اتخذه خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، جاءت غير الخلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد، خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطئ النفس عليه، فقد حصل المقصود، فنسخ الأمر، وفدى الذبيح، وصدّق الخليل الرؤيا، وحصل مراد الرب. ومعلوم أن هذا الإمتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه. وهذا في غاية الظهور^(٢).

وقريب من هذا قول الحائري الشيرازي أن الأمر بالذبح لم يتعلّل ولم يستعّض عنه بالفداء بالكبش، لأن الله يقول ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾^(٣)، فما كان ينبغي أن يُذبح قد ذُبح. لم يكن المطلوب أن يُراق

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١، ص ٤١٩.

٢. ابن قيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ١، ص ٧٠.

٣. سورة الصافات: ١٠٢.

دم إسماعيل، بل كان الهدف أن يتحرر إبراهيم بانصياعه للأمر الإلهي من جميع الروابط والتعلقات التي تمظهرت في إسماعيل. وحقاً يقول القرآن: قد صدقت الرؤيا! لقد تمّ الذبح.

كان الأمر أن يذبح إبراهيم جميع تعلقاته وقد فعل. تحرّر إبراهيم. وانعتق إسماعيل من التعلق بالنفس. وأنجز الأمر الإلهي^(١).

ونجد القرطبي يطرح للمسألة أبعاداً أخرى عقديّة وفقهيّة وذلك من خلال عرض مجموعة من التساؤلات تتلخص في التالي:

فإن قيل: كيف يؤمر إبراهيم بذبح الولد وهو معصية، والأمر بالمعصية لا يجوز؟ قلنا: هذا اعتراض على كتاب الله، ولا يكون ذلك ممن يعتقد الإسلام، فكيف بمن يفتي في الحلال والحرام، وقد قال الله «تعالى»: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ؟﴾ والذي يجلو الإلباس عن قلوب الناس في ذلك: أن المعاصي والطاعات ليست بأوصاف ذاتية للأعيان، وإنما الطاعات عبارة عما تعلق به الأمر من الأفعال، والمعصية عبارة عما تعلق به النهي من الأفعال، فلما تعلق الأمر بذبح الولد إسماعيل من إبراهيم صار طاعة وابتلاء، ولهذا قال الله «تعالى»: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ في الصبر على ذبح الولد والنفس، ولما تعلق النهي بنا في ذبح أبنائنا صار معصية.

فإن قيل: كيف يصير نذراً وهو معصية؟ قلنا إنما يكون معصية لو كان يقصد ذبح الولد بنذره ولا ينوي الفداء.

فإن قيل: فلو وقع ذلك وقصد المعصية ولم ينو الفداء؟ قلنا: لو قصد ذلك

1. http://www.perfectkid.org/Educational_Guidelines

لم يضره في قصده ولا أثر في نذره، لأن نذر الولد صار عبارة عن ذبح الشاة شرعاً^(١).

• رمي الجمرات:

اختلفت الروايات في بيان البُعد التاريخي لتشريع رمي الجمرات بمنى في أيام الحج:

○ ففي بعض الروايات أن رمي الجمرات تم على يد إبراهيم حين عرض له الشيطان في سعي منه لردعه عن ذبح ابنه. فقد روى أحمد بن حنبل بالسند عن ابن عباس: (أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: إن جبريل ذهب بإبراهيم إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ، ثم أتى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ، ثم أتى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات فساخ، فلما أراد إبراهيم أن يذبح ابنه إسحاق... إلخ)^(٢).

○ ولا يوجد في بعض آخر من الروايات ارتباط بين رمي الجمرات وبين الذبح. فقد روى الحميري^(٣) في قُرب الإسناد عن علي «عليه السلام»: (إن

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٧٤.

٢. أحمد بن حنبل: المسند، ح ٢٧٩١.

٣. عبد الله بن جعفر بن الحسن بن مالك بن جامع الحميري أبو العباس القمي (ت ٢٠٤هـ). قال النجاشي: (شيخ القميين ووجههم، قدم الكوفة سنة نيف وتسعين ومائتين، وسمع أهلها منه فأكثرُوا، وصنف كتباً كثيرة يعرف منها: كتاب الإمامة، كتاب الدلائل، كتاب العظمة والتوحيد، كتاب الغيبة والحيرة، كتاب فضل العرب، كتاب التوحيد والبداء والإرادة والاستطاعة والمعرفة، كتاب قرب الإسناد إلى الرضا).

الجمار إنما رميت إن جبرئيل «عليه السلام» حين أرى إبراهيم «عليه السلام» المشاعر، برز له إبليس فأمره جبرئيل أن يرميه، فرماه بسبع حصيات، فدخل عند الجمرة الأولى تحت الأرض فأمسك، ثم إنه برز له عند الثانية فرماه بسبع حصيات آخر، فدخل تحت الأرض في موضع الثانية، ثم برز له في موضع الثالثة فرماه بسبع حصيات فدخل موضعها) ^(١).

○ وفي بعض الروايات أن أول من رمى الجمرات آدم، فقد روى الصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (أول من رمى الجمار آدم «عليه السلام» ^(٢)).

• صفات الكبش:

مرّ بنا الخبر في تفسير القمي الذي يذكر في نهاياته صفات الكبش، وفي البين روايات أخرى تتحدث عن ذات الأمر، فقد روى الصدوق في **عيون أخبار الرضا** «عليه السلام» بالسند عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه قال: (سألت أبا الحسن الرضا «عليه السلام» عن معنى قول النبي «صلى الله عليه وآله»: أنا ابن الذبيحين، قال: يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وعبد الله بن عبد المطلب..... فلما عزم على ذبحه فداه الله بذبح عظيم بكبش أملح) أكثره أبيض (يأكل في سواد، ويشرب في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد، ويبول ويبعر في سواد، وكان يرتع قبل ذلك في رياض الجنة أربعين عاماً) أية جنة؟ جنة الآخرة؟ وهل جنة الآخرة موجودة الآن؟ ثم

١. الحميري: قرب الإسناد، ص ٦٨-٦٩.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ٢، ص ٤٢٧.

هل كان يبول ويبعر أيضاً في الجنة؟ ولماذا يعيش أربعين سنة؟ (وما خرج من رحم أنثى، وإنما قال الله «عز وجل» له: كن فكان، لِيُفْتَدَى به إسماعيل، فكلما يذبح بمنى فهو فدية لإسماعيل إلى يوم القيامة، فهذا أحد الذبيحين)^(١).

ولهذه الرواية لفظ مشابه في مصادر أهل السنة ففي سنن البيهقي^(٢) عن الإمام الصادق عن أبيه عن أبي سعيد الخدري أنه قال: (ضجّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» بكبش أقرن فحِيلَ يأكل في سَواد، ويشرب في سَواد، وينظر في سَواد، ويمشي في سَواد، ويبطن في سَواد)^(٣)، أي أن أطراف فمه وعينه ورجليه ومخرجه سوداء، وباقي جسده أبيض... فهل هذا هو أصل رواية الصدوق فأقحمت في قصة إبراهيم وإسماعيل مع بعض الإضافات حول الجنة وعمر الشاة وما إلى ذلك بهدف تحقيق المزيد من الإثارة؟

• نتائج الفصل وخلاصته:

○ وردت قصة الأمر الإلهي لإبراهيم بذبح ابنه في القرآن الكريم دون تحديد لاسمه، ولا شك أن الذبيح هو إسماعيل، إلا أن بعض الروايات الإسلامية، وتأثراً بالنص التوراتي والتراث العبري، ذكرت أن الذبيح إسحاق! ○ بناء على الاختلاف بين الروايات، انقسم علماء المسلمين فيما بينهم، وكلٌّ منهم قدّم حجّته لتأييد رأيه.

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٢٢.

٢. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخراساني البيهقي المشهور بالبيهقي (٢٨٤هـ - ٤٥٨هـ). محدّث وفقهه. من مصنفاته (السنن الكبرى)، (المعارف)، (الأسماء والصفات).

٣. البيهقي: السنن الكبرى، ح ١٧٥١٩.

○ قراءة النص التوراتي بتمعن تقودنا إلى صحة القول بأن لاذبيح لا يمكن أن يكون سوى النبي إسماعيل.

○ تطرّق عدد من علماء المسلمين وأهل الكتاب إلى فلسفة الأمر بالذبيح، حيث كان الاتجاه الغالب هو الاختبار والابتلاء، إلا أن البعض منهم ذهب إلى تفسيرات أخرى مغايرة، من قبيل العقوبة الإلهية لإبراهيم نتيجة استجابته لضغوطات سارة للتخلص من هاجر وابنها، أو أن إبراهيم قد توهم الأمر، ولم يكن في البين أمر إلهي أصلاً، فأُنقذه الله روابنه رافة به، ومنهم من ذهب إلى أن الأمر برّمته كان صورياً كنوع من الطقوس المعتادة في ذلك الزمان، وأن للحدث معنى رمزياً يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، وغير ذلك من التوجيهات التي لا يصمد أغلبها أمام النقد العلمي.

○ ربطت بعض الروايات بين هذه الحادثة وبين تشريع رمي الجمرات، حيث ظهر إبليس لإبراهيم - ولربما لإسماعيل أيضاً - في محاولة للتشجيع على التمرد على الأمر الإلهي، فرُمي بالحصى.

بناء الكعبة

بناء الكعبة

• موضوعات هذا الفصل:

- استعراض لوصف الحدث من خلال الآيات القرآنية.
- استعراض لوصف الحدث من خلال الروايات الإسلامية وما جاء فيها من تفاصيل متضاربة.
- التحديد الزمني لعملية البناء.
- ارتباط بناء الكعبة بظهور ماء زمزم.
- عدد وأسماء أبناء النبي إسماعيل بين التوراة والروايات الإسلامية.

• الحدث كما صوّره القرآن:

جاء وصف القرآن الكريم لعملية بناء الكعبة المشرفة على يد إبراهيم وإسماعيل كالتالي: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾.

وفي سورة الحج إشارة مختصرة للأمر: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (٢). ثم تتحدث الآيات عن بعض شئون الحج.

وبحسب الرواية المشهورة، فإن إسماعيل مع هاجر كانا مستقرين في مكة المكرمة منذ أن تركهما إبراهيم فيها، إلا أن الرواية التالية تُقدِّم سيناريو مختلفاً تماماً وبصورة تُسِف معها الرواية المشهورة، حيث روى الصدوق في **علل الشرائع** بالسند عن كلثوم بن عبد المؤمن الحراني، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (أمر الله «عز وجل» إبراهيم «عليه السلام» أن يحج ويحج بإسماعيل معه وَيُسْكِنُهُ الْحَرَمَ) أين كان إسماعيل قبل ذلك؟ أليس في مكة؟ فمن أين يأخذه إلى مكة؟ (قال: فحجَّ على جمل أحمر ما معهما إلا جبرئيل، فلما بلغا الحرم قال له جبرئيل «عليه السلام»: يا إبراهيم انزلا فاغتسلا قبل أن تدخلوا الحرم، فنزلا واغتسلا، وأراهما كيف يتهيأ للإحرام، ففعلا، ثم أمرهما فأهلاً بالحج، وأمرهما بالتلبية الأربع التي لبي بها المرسلون، ثم

١. سورة البقرة: ١٢٥-١٢٩.

٢. سورة الحج: ٢٦.

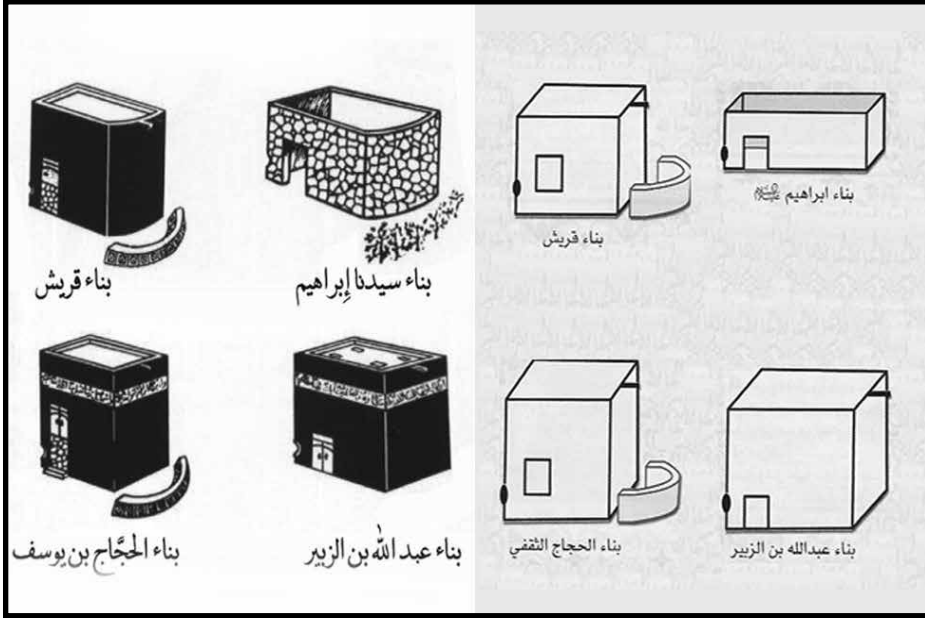
سار بهما حتى أتى بهما باب الصفا) لم يكن هناك باب حينئذ، ولعل المراد حيث باب الصفا لاحقاً (فتزلا عن البعير وقام جبرئيل بينهما فاستقبل البيت فكبر وكبرا) وتفصل الرواية في بيان المناسك (فلما قضيا نسكهما أمر الله «عز وجل» إبراهيم بالانصراف، وأقام إسماعيل وحده ما معه أحد غيره) وهذا أيضاً ينسف القصة المعروفة والتي تقول باستقراره هناك واستقرار قبيلة جرهم معه (فلما كان من قابل، أذن الله «عز وجل» لإبراهيم في الحج وبناء الكعبة، وكانت العرب تحج إليه وكان ردماً، إلا أن قواعده معروفة، فلما صدر الناس، جمع إسماعيل الحجارة وطرحها في جوف الكعبة، فلما أن أذن الله «عز وجل» في البناء قدم إبراهيم فقال: يا بُني، قد أمرنا الله «عز وجل» ببناء الكعبة، فكشفا عنها فإذا هو حجر واحد أحمر، فأوحى الله «عز وجل» إليه: ضع بناءها عليه، وأنزل الله «عز وجل»، عليه أربعة أملاك يجمعون له الحجارة، فصار إبراهيم وإسماعيل يضعان الحجارة والملائكة تناولهما، حتى تمت اثنا عشر ذراعاً) ٦ أمتار تقريباً (وهيئاً له باباً يدخل منه، وباباً يخرج منه، ووضع عليه عتبة وشريجاً من حديد) أي علق عليه عرى وحلقاً (على أبوابه، وكانت الكعبة عريانة، فلما ورد عليه الناس أتى امرأة من حمير أعجبه جمالها، فسأل الله «عز وجل» أن يزوجه إياها، وكان لها بعل) وهل تدنون نفس نبي كريم لامرأة ذات بعل ولو كانت بمنتهى الجمال؟ (فقضى الله «عز وجل» على بعلها الموت، فأقامت بمكة حُزناً على بعلها، فأسلى الله «عز وجل» ذلك عنها وزوجه إسماعيل....).

وبعد أن قدمت الرواية بعض التفاصيل حول لقاء إبراهيم بها أضافت:

بناء الكعبة

(وقالت له امرأته وكانت عاقلة: فهلا نعلّق على هذين البابين سترين: سترًا من ههنا وستراً من ههنا، قال: نعم. فعملّا له سترين طولهما اثنا عشر ذراعاً فعلقهما على البابين، فأعجبها ذلك فقالت: فهلا أحوك للكعبة ثياباً ونسترها كلها؟ فإن هذه الأحجار سمجة. فقال لها إسماعيل: بلى، فأسرعت في ذلك وبعثت إلى قومها بصوف كثير تستغزل بهن، قال أبو عبد الله «عليه السلام»: وإنما وقع استغزال النساء بعضهن من بعض لذلك) وكأن هذا الأمر لم يكن معروفاً بين الناس من قبل، وهذا المورد من الأوليات التي تحدثنا عنها من قبل، وهي واحدة من أساليب القصاصيين في تشويق المستمعين والقراء.

(قال: فأسرعت واستعانت في ذلك، فكلما فرغت من شقة علققتها فجاء الموسم وقد بقي وجه من وجوه الكعبة، فقالت لإسماعيل «عليه السلام»: كيف نصنع بهذا الوجه الذي لم ندركه بكسوة فنكسوه خصفاً، فجاء الموسم فجاءته العرب على حال ما كانت تأتیه فنظروا إلى أمر فأعجبهم فقالوا: ينبغي لعامر هذا البيت أن يهدي إليه، فمن ثم وقع الهدى، فأتى كل فخذ من العرب بشئ تحمله من ورق) فضة (ومن أشياء غير ذلك حتى اجتمع شئ كثير فنزعوا ذلك الخصف وأنموا كسوة البيت، وعلّقوا عليها بابين، وكانت الكعبة ليست بمسقفّة، فوضع إسماعيل عليها أعمدة مثل هذه الأعمدة التي ترون من خشب، فسقّفها إسماعيل بالجرائد) سعف النخيل (وسواها بالطين: فجاءت العرب من الحول فدخلوا الكعبة ورأوا عمارتها فقالوا: ينبغي لعامر هذا البيت أن يزداد، فلما كان من قابل جاءه الهدى فلم يدر إسماعيل كيف يصنع به، فأوحى الله «عز وجل» إليه: أن انحره وأطعمه الحاج).



تصوّران لتطوّر بناء الكعبة منذ عهد النبي إبراهيم

ثم تنتقل الرواية لتقديم قصة مختلفة تماماً عن حفر بئر زمزم: (قال: وشكا إسماعيل قلة الماء إلى إبراهيم «عليه السلام» فأوحى الله «عز وجل» إلى إبراهيم «عليه السلام» أن احتفر بئراً يكون فيها شرب الحاج، فنزل جبرئيل «عليه السلام» فاحتفر قليبهم يعني زمزم حتى ظهر ماؤها، ثم قال جبرئيل: انزل يا إبراهيم، فنزل بعد جبرئيل «عليه السلام»، فقال: اضرب يا إبراهيم في أربع زوايا البئر وقل: بسم الله، قال: فضرب إبراهيم «عليه السلام» في الزاوية التي تلي البيت وقال: بسم الله فانفجرت عيناً ثم ضرب في الأخرى وقال بسم الله فانفجرت عيناً، ثم ضرب في الثالثة وقال بسم الله فانفجرت عيناً، ثم ضرب في الرابعة وقال: بسم الله فانفجرت عيناً، فقال جبرئيل «عليه السلام»: اشرب يا إبراهيم وادع لولدك فيها بالبركة، فخرج إبراهيم

بناء الكعبة

«عليه السلام» وجبرئيل جميعاً من البئر فقال له: أفضْ عليك يا إبراهيم وطف حول البيت، فهذه سُقيا سقاها الله ولدك إسماعيل، وسار إبراهيم وشيَّعه إسماعيل حتى خرج من الحرم، فذهب إبراهيم).

وهكذا تنتهي الرواية عن وصف الأحداث التي جرت بين إبراهيم وإسماعيل بعد أن غادر إبراهيم مكة: (ورجع إسماعيل إلى الحرم فرزقه الله من الحميرية ولداً ولم يكن له عقب. قال: وتزوج إسماعيل «عليه السلام» من بعدها أربع نسوة فولد له من كل واحدة أربعة غلمان) فصار المجموع ١٧ ذكراً. وفي التوراة أن عددهم اثنا عشر: (وَهَذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِأَسْمَائِهِمْ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ:) ويذكر النص الترواتي أسماءهم كالتالي:

١. نَبَايُوتُ بُكْرُ إِسْمَاعِيلَ. ٢. وَقِيدَارُ.

٣. وَأَدَبْيَيْلُ. ٤. وَمِبْسَامُ.

٥. وَمَشْمَاعُ. ٦. وَدُومَةُ.

٧. وَمَسَا. ٨. وَحَدَارُ.

٩. وَتَيْمًا. ١٠. وَيَطُورُ.

١١. وَنَافِيشُ. ١٢. وَقَدَمَةُ.

(هَؤُلَاءِ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ، وَهَذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ بِدِيَارِهِمْ وَحُصُونِهِمْ. اثْنَا عَشَرَ رَئِيسًا حَسَبَ قَبَائِلِهِمْ)^(١). وهؤلاء الأبناء هم المقصودون في النص التالي: (وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أَبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جَدًّا.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ١٣-١٦.

اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً) ويثبت النص اللاحق النبوة لإسحاق وذريته دون إسماعيل: (وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلَدَهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ) (١).

نعود إلى الرواية حيث تقول: (وقضى الله على إبراهيم الموت فلم يره إسماعيل ولم يُخبر بموته حتى كان أيام الموسم، وتهياً لإسماعيل «عليه السلام» لأبيه إبراهيم فنزل عليه جبرئيل «عليه السلام» فعزاه بإبراهيم «عليه السلام» فقال له: يا إسماعيل، لا تقول في موت أبيك ما يسخط الرب، وقال: إنما كان عبداً دعاه الله فأجابه، وأخبره أنه لاحق بأبيه، وكان لإسماعيل ابن صغير يحبه وكان هوى إسماعيل فيه فأبى الله عليه ذلك، فقال: يا إسماعيل، هو فلان، قال: فلما قضى الموت على إسماعيل دعا وصيه فقال: يا بُنَيَّ إذا حضرك الموت فافعل كما فعلت، فمن ذلك ليس يموت إمام إلا أخبره الله إلى من يوصي) (٢).

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ في القرآن الكريم حديث عن رفع القواعد من البيت الحرام، بالتعاون بين إبراهيم الأب وإسماعيل الابن «عليهما السلام»، دون تحديد لتفاصيل أخرى متعلقة بالزمان والظروف المحيطة بالحدث، وهل كان ذلك مقروناً بحدث الهجرة من أرض كنعان أم بعد ذلك.

○ الرواية المشهورة هي أن هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل تمت حين كان

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٧: ٢٠-٢١.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٩٥-١٩٦.

الولد طفلاً رضيعاً، وكان ظهور ماء زمزم مقترناً بذلك. وأن رفع القواعد من البيت الحرام والابتلاء بذبح إسماعيل تم في سفر آخر قام به إبراهيم لزيارة ولده، وعمدة هذه الروايات رواية ابن عباس، وعلى الرغم من شهرتها إلا أننا لا نملك دليلاً أكيداً على صحتها.

○ وفي البين روايات تشير إلى صورة أخرى لتسلسل الأحداث، فالهجرة تمت حين كان إسماعيل غلاماً يافعاً مدركاً، وأن البيت الحرام كان ردماً، وأن العرب كانوا يحجون إليه، وأن إبراهيم وإسماعيل «عليهما السلام» حجاً إليه في تلك الهجرة، ثم قاما بإعادة بناء البيت، والنداء للحج التوحيدي بعد مدة من الزمن حين أذن الله لإبراهيم بذلك.

○ هذه الرواية تلتقي مع تسلسل الأحداث وفق الرواية التوراتية، التي جعلت خروج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بعد أن وُلد إسحاق، وحينها كان إسماعيل في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، فإن قبلنا بها، ولسنا نعلم مدى صحتها، فإن التسلسل المحتمل للأحداث سيكون كالتالي:

١. ولادة إسحاق، وإسماعيل في الرابعة عشرة من عمره.
٢. هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل وإسكانهما مكة المكرمة ليكونا بذرة التوحيد في البلد الحرام.
٣. ابتلاء الله إبراهيم بذبح إسماعيل. وهو ابتلاء ثانٍ يُضاف إلى الابتلاء بترك هاجر وإسماعيل في وادٍ غير ذي زرع عند البيت المحرم.
٤. إعادة بناء الكعبة المشرفة على يد إبراهيم وإسماعيل، وقيام إبراهيم بحفر زمزم في أربعة مواضع بإشارة من جبريل.

وفاته ومدفنه

وفاته ومدفنه

• موضوعات هذا الفصل:

- قرب وفاة النبي إبراهيم ووصيته لبنيه.
- كيف عرضت الروايات الإسلامية وفاة النبي إبراهيم وكراهيته الموت؟ وما هو السبب الذي جعله يُعرض عن ذلك ويتمنى الموت لاحقاً؟
- ماهية (الحضانة الإبراهيمية) للأطفال في الجنة كما جاءت في الروايات الإسلامية وتأثرها بالتلمود البابلي والتصورات المسيحية.
- وصف الرواية التوراتية حول وفاة سارة وشراء النبي إبراهيم قطعة أرض تشتمل على مغارة لدفنها فيها.
- قصة تزويج النبي إسحاق من ابنة ابن عمه الساكنة في حرّان، سوبب ذلك.
- تزوّج النبي إبراهيم مجدداً وإنجابه عدة أولاد.
- وفاة النبي إبراهيم ومدفنه عند زوجته سارة في مغارة المكفيلة.
- الحرم الإبراهيمي في الخليل.

• وصية إبراهيم:

لم يتحدث القرآن الكريم عن وفاة النبي إبراهيم «عليه السلام» إلا ضمن مشهد وصيته لذريته، فإذا أحسَّ الإنسان الذي يشعر بالمسؤولية بدنو أجله، فإنه يتفقد أحوال مَنْ يُحب، ويوصيهم. وربما لا يقتصر في الوصية على البعد المالي، بل ويقدم لهم خلاصة تجاربه، وينصحهم، ويوصيهم بالضعفاء من عائلته. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن بعض الأنبياء «عليه السلام» أوصوا ذريتهم بوصايا ترتبط بآخرتهم وعلاقتهم بالله والدين والرسالة، ومن بينهم إبراهيم «عليه السلام».

قال «عز وجل»: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

إن ملة إبراهيم «عليه السلام» هي ملة الرُّشد، ولا يرفضها إلا السفیه الذي فقد الرشد الفكري، لأنها ملة تركز على التوحيد الخالص، والتسليم الكامل لله الخالق والرب، والالتزام بالقيم الروحية، وخصال الخير، وطهارة القلب، وصفاء السريرة. عاش الإسلام لله بكلِّ عمق الإيمان، ولم يكن إسلامه إسلام الكلمة المنطلقة من اللسان البعيدة عن القلب، أو إسلام الرغبة والرغبة من دون قناعة، أو إسلام الشكل من غير مضمون، والصورة في الظاهر لا الحقيقة في الباطن، بل عاش الإسلام الكلي، لأنَّ الله يريد من الإنسان أن يخلص له

بكله، ويستغرق في عبوديته له، فيكون محياه لله ومماته له.

ولم يقتصر على نفسه في إسلامه هذا، بل وصّى بها بنيه، لقد ذكّرهم إبراهيم «عليه السلام» بنعمة الله «تعالى» إذ هداهم إلى دين التوحيد والتسليم له، وأن مسئوليتهم الكبرى تتلخص في أن لا يتخلّوا عن هذه النعمة مهما حصل محتفظين بهذه الاستقامة إلى حين مماتهم.

○ وفي الروايات الإسلامية ما يشير إلى كراهية إبراهيم للموت وطلبه التأجيل، ومن بينها ما رُوي عن الصدوق في علل الشرائع بالسند عن يونس بن ظبيان - وهو من الغلاة - عن الصادق، عن آبائه، عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: (لما أراد الله «تبارك وتعالى» قبض روح إبراهيم «عليه السلام» أهبط إليه ملك الموت فقال: السلام عليك يا إبراهيم، قال: وعليك السلام يا ملك الموت أَداع أم ناع؟ قال: بل داع يا إبراهيم فأجَب، قال إبراهيم: فهل رأيت خليلاً يُميت خليله؟ قال: فرجع ملك الموت حتى وقف بين يدي الله «جل جلاله» فقال: إلهي قد سمعت بما قال خليك إبراهيم، فقال الله «جل جلاله»: يا ملك الموت اذهب إليه وقل له: هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه، إن الحبيب يحب لقاء حبيبه) (١).

وحيث أن في الرواية ما يسيء إلى مقام هذا النبي الكريم، ويخالف الإرادة الإلهية وما جاء في قوله «تعالى»: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢)، لذا حاول المجلسي تبرير ذلك فقال:

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٤.

٢. سورة الأعراف: ٢٤.

(المراد بالداعي أن يكون طلبه على سبيل التخيير والرضى كما هو المتعارف فيمن يدعوضيفاً لكرامته، وبالناعي أن يكون قاهراً طالباً على الجزم والحثم، وكان غرض إبراهيم «عليه السلام» الشفاعة والدعاء لطلب البقاء ليكثر من عبادة ربه إن علم الله صلاحه في ذلك) (١).

○ وروى الصدوق رواية أخرى تحمل ذات المضمون وتتوافق مع ما قدمه المجلسي من تبرير، ففي **علل الشرائع** بالسند عن أبي بصير، عن أبي جعفر أو أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن إبراهيم «عليه السلام» لما قضى مناسكه رجع إلى الشام فهلك، وكان سبب هلاكه أن ملك الموت أتاه ليقبضه فكره إبراهيم الموت فرجع ملك الموت إلى ربه «عز وجل» فقال: إن إبراهيم كره الموت، فقال: دع إبراهيم فإنه يحب أن يعبدني) ولكنها تختلف معها في كيفية تغيير إبراهيم قراره وتراجعه عن طلب البقاء على قيد الحياة (قال: حتى رأى إبراهيم شيخاً كبيراً يأكل ويخرج منه ما يأكله) هل بمعنى الاستفراغ بسبب عدم القدرة على الهضم والمرض، أم من مخرج الفضلات وحينها كيف رأى ذلك وشخص الحالة؟

(فكره الحياة وأحب الموت. فبلغنا أن إبراهيم أتى داره فإذا فيها أحسن صورة ما رآها قط، قال: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، قال: سبحان الله من الذي يكره قربك وزيارتك وأنت بهذه الصورة؟ فقال: يا خليل الرحمن إن الله «تبارك وتعالى» إذا أراد بعبد خيراً بعثني إليه في هذه الصورة، وإذا أراد بعبد شراً بعثني إليه في غير هذه الصورة) يا ترى في أية هيئة رآه في المرة الأولى؟

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٧٩.

بحسب مفهوم هذه الرواية أنه رآه في الصورة الأخرى، فلماذا؟ هل أراد الله بإبراهيم شراً حينئذ؟

(فقبض «عليه السلام» بالشام، وتوفي بعده إسماعيل وهو ابن ثلاثين ومائة سنة، فدفن في الحجر مع أمه)^(١).

○ الرواية الثالثة للصدوق تبين أن طلبه تأجيل الموت جاء تحت إيعاز من زوجته سارة التي كان يحبها كثيراً. ففي **علل الشرائع** بالسند عن محمد بن القاسم وغيره، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن سارة قالت لإبراهيم «عليه السلام»: يا إبراهيم قد كبرت، فلو دعوت الله أن يرزقك ولداً تقر أعيننا به، فإن الله قد اتخذك خليلاً، وهو مجيب لدعوتك إن شاء) وهذا مخالف للقرآن الذي يبين أن سارة تفاجأت بالأمر.

(قال «عليه السلام»: فسأل إبراهيم ربه أن يرزقه غلاماً عليمًا فأوحى الله «عز وجل» إليه: أني واهب لك غلاماً عليمًا ثم أبلوك) أختبرك (بالطاعة لي، قال أبو عبد الله «عليه السلام»: فمكث إبراهيم بعد البشارة ثلاث سنين ثم جاءته البشارة من الله «عز وجل»، وإن سارة قد قالت لإبراهيم: إنك قد كبرت وقرب أجلك، فلو دعوت الله «عز وجل» أن ينسيء في أجلك وأن يمد لك في العمر فتعيش معنا وتقر أعيننا، قال: فسأل إبراهيم ربه ذلك، قال: فأوحى الله «عز وجل» إليه: سل من زيادة العمر ما أحببت تعطه، قال: فأخبر إبراهيم سارة بذلك فقالت له: سل الله أن لا يميتك حتى تكون أنت الذي تسأله الموت، قال: فسأل إبراهيم ربه ذلك، فأوحى الله «عز وجل» إليه: ذلك لك،

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٤.

قال: فأخبر إبراهيم سارة بما أوحى الله «عز وجل» إليه في ذلك فقالت سارة لإبراهيم: اشكر لله واعمل طعاماً وادع عليه الفقراء وأهل الحاجة، قال: ففعل ذلك إبراهيم ودعا إليه الناس، فكان فيمن أتى رجل كبير ضعيف مكفوف معه قائد له فأجلسه على مائدته، قال: فمد الأعمى يده فتناول لقمة نفسه: أليس إذا كبرت أصير مثل هذا؟ ثم إن إبراهيم «عليه السلام» سأل الله «عز وجل» حيث رأى من الشيخ ما رأى وأقبل بها نحو فيه فجعلت تذهب يميناً وشمالاً من ضعفه، ثم أهوى بيده إلى جبهته فتناول قائده يده فجاء بها إلى فمه، ثم تناول المكفوف لقمة فضرب بها عينه، قال: وإبراهيم «عليه السلام» ينظر إلى المكفوف وإلى ما يصنع، قال: فتعجب إبراهيم من ذلك وسأل قائده عن ذلك، فقال له القائد: هذا الذي ترى من الضعف، فقال إبراهيم في فقال: اللهم توفي في الأجل الذي كتبت لي فلا حاجة لي في الزيادة في العمر بعد الذي رأيت^(١). ويغلب الظن أن هذه نماذج من قصص القصاصين الذين كانوا يعتمدون أحياناً على الموعظة لكسب اهتمام الناس وتبرير كذبهم فيما يأتون به من قصص من وحي خيالاتهم، أو من تراث سائر الأمم، كما أن بعض «الصالحين» كانوا يضعون الأحاديث والقصص وغايتهم من ذلك وعظ الناس، معتبرين أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد مرّت بعض النماذج في الفصل السابع، وعلقنا عليها، فلا نكرر.

وتطالعنا الرواية التالية الغريبة في مضمونها، وهي من ضمن روايات الإسراء والمعراج.

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ٢٤.

○ حيث يروي الصدوق في الأمالي بالسند عن عطاء الخراساني، رفعه، عن عبد الرحمن بن غنم، قال: (جاء جبرئيل «عليه السلام» إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» بدابة دون البغل وفوق الحمار، رجلها أطول من يديها، خطوها مد البصر) ثم تتحدث الرواية كيف عُرج بالنبي في السماء ومشاهداته في الجنة ومن بينها: (فمرّ على شيخ قاعد تحت شجرة وحوله أطفال، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: من هذا الشيخ يا جبرئيل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. قال: فما هؤلاء الأطفال حوله؟ قال: هؤلاء أطفال المؤمنين حوله يغذوهم)^(١). فهل سيقوم هذا النبي المكرّم بدور الحاضنة للأطفال في الجنة؟

وعندما قمت بالبحث عن أصل هذه الفكرة في التراث الكتابي وجدت أن أحضان إبراهيم Abraham's Bosom مصطلح يراد منه حُسن خاتمة المؤمنين ودخول الجنة وفقاً للاستعمال اليهودي والمسيحي معاً. فالصالحون الذين يموتون بسبب إيمانهم يستقبلهم إبراهيم وإسحق ويعقوب في الجنة، وبتعبير آخر عندما يموت المؤمن، تنتقل روحه إلى أحضان إبراهيم.

استُحدث هذا المصطلح في التراث اليهودي في عهد البناء الثاني لهيكل سليمان - بعد العودة من السبي البابلي وتحت تأثير الثقافة البابلية. ولذا فإن هذا المصطلح غير متداول في التراث اليهودي ما قبل السبي، ولا نجد له أثراً في التنخ، إلا أننا نجده حاضراً لأول مرة في التراث اليهودي المدوّن على بعض البرديات التي وصلتنا من عهد ما بعد السبي.

١. الصدوق: الأمالي، ص ٥٣٤-٥٣٦.

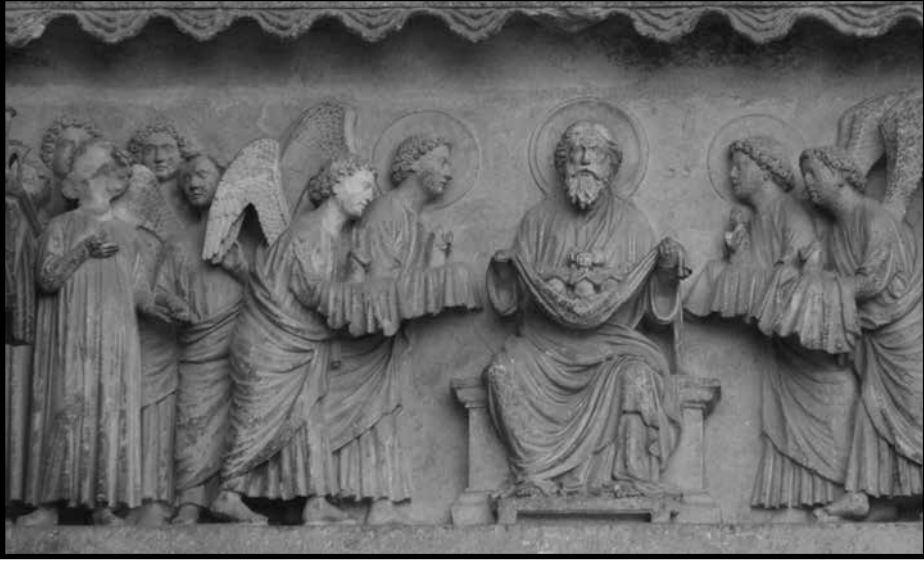
كما نجد أن هذا التعبير قد استُعمل في التلمود أيضاً، ففي الفصل الرابع من الباب السابع (قدوشين/ الخطبة والزواج) من القسم الثالث (نشيم/ النساء) من التلمود البابلي ما تُرجم إلى العربية كالتالي: (عندما كان رابي يحتضر قال: وهناك حصن أجاما التي يقطنها أدا بن أهاباه، وإنه اليوم يُسكن في تثنية إبراهيم، اليوم قد ولد الحبر يهودا في بابل، لأن الأستاذ قال: عندما توفي الحبر عقيبا كانت ولادة رابا، وعندما توفي رابا، عندما توفي راب يهودا، كانت ولادة الحبر أشي. هذا يعلم أن الشخص الصالح لا يغادر الحياة حتى يُخلق شخص آخر محله)^(١).

فالمفهوم من النص السابق أن الحبر أدا عندما توفي صار في تثنية إبراهيم، وإن كانت هذه العبارة غامضة شيئاً ما، إلا أننا بالرجوع إلى الترجمة الإنجليزية سنجد المعنى المطلوب واضحاً أمانا حيث يقول:

When Rabbi Yehuda HaNasi was dying, he said prophetically:..... There is a place called Akra DeAgma in Babylonia. There is a man named Adda bar Ahava there. Today he is sitting in the lap of Abraham our forefather, since he has just been circumcised. He added: Today Rav Yehuda was born in Babylonia. The Gemara comments: As the Master said: While Rabbi Akiva was dying, Rabbi Yehuda HaNasi was born; while Rabbi Yehuda HaNasi was dying, Rav Yehuda was born; while Rav Yehuda was dying, Rava was born; while Rava was dying, Rav Ashi was born. This teaches you that a righteous person does not leave the world before an equally righteous person is created....^(٢).

١. التلمود البابلي، ج ١٠، ص ٣٦٤.

2. <https://www.sefaria.org/Kiddushin.72b.2?lang=bi&with=all&lang2=en>



تصوير مجسم للنبي إبراهيم وهو يحمل نماذج صغيرة لأرواح
محمولة في قطعة قماش، والملائكة تأتي إليه بالمزيد.



لوحة شرقية تمثل فكرة حضن إبراهيم. ونموذج مجسم
للبطارقة في أحضان إبراهيم كما جاء في الفن الأوروبي.

وترجمة النص السابق كالتالي: (عندما كان الربّي يهودا هاناسي يحتضر قال متنبئاً: وهناك مكان في بابل يعرف باسم «أكرا دي أغما». وفيه رجل اسمه أدا بار أهافا. إنه يجلس اليوم في حضن جدنا الأكبر إبراهيم، لأنه تطهر للتو. وأضاف: ولد اليوم الربّي يهودا في بابل. وتعلّق الجمارا: كما قال السيد: عندما كان الربّي عقيبا يحتضر وُلد الربّي يهودا هاناسي، عندما كان الربّي يهودا هاناسي يحتضر وُلد راب يهودا، عندما كان رابا يحتضر، ولد راب أشي. تتعلّم من هذا أن الفرد الصالح لا يغادر الدنيا قبل أن يولد صالح مثله...). المعنى هنا أكثر وضوحاً من النص السابق، والمؤدى واحد، وهو أن الصالحين عندما يموتون، يغدون في أحضان النبي إبراهيم.

كما نجد المصطلح حاضراً في العهد الجديد. ففي إنجيل لوقا: («كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الْأَرْجَوَانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهًا. وَكَانَ مَسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، الَّذِي طَرَحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوبًا بِالْقُرُوحِ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفُتَاتِ السَّاقِطَةِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ، بَلْ كَانَتْ الْكَلَابُ تَأْتِي وَتَلْحَسُ قُرُوحَهُ. فَمَاتَ الْمَسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضًا وَدُفِنَ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْجَحِيمِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ، فَنَادَى وَقَالَ: يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، ارْحَمْنِي، وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيُبَلِّ طَرْفَ إصْبَعِهِ بِمَاءٍ وَيُبْرِدَ لِسَانِي، لِأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هَذَا اللَّهيبِ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذَلِكَ لِعَازَرُ الْبَلَايَا. وَالْآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ»^(١)).

١. الكتاب المقدس: إنجيل لوقا، الأصحاح ١٢: ١٩-٢٥.

• وفاة سارة ودفنها :

وبغض النظر عن المفردة التي تحدثت عن حضن إبراهيم فإن التوراة قدّمت لنا وصفاً تفصيلياً للمقطع الأخير من حياة هذا النبي الكريم وزوجته سارة التي حزن على وفاتها حزناً شديداً، فقد حدد لنا عمر كلٍّ منهما عند وفاته، ومحل الوفاة، وموقع الدفن: (وَكَانَتْ حَيَاةُ سَارَةَ مِئَةً وَسَبْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، سَنِي حَيَاةِ سَارَةَ. وَمَاتَتْ سَارَةُ فِي قَرْيَةِ أَرْبَع، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَاتَى إِبْرَاهِيمُ لِيَنْدُبَ سَارَةَ وَيَبْكِي عَلَيْهَا) (١).

ثم تنتقل التوراة للتحدث عن دفن سارة في مغارة اشتراها النبي إبراهيم «عليه السلام» من الملك الذي كان يحكم القرية، واسمه عفرون، والنص التوراتي يقدّم لنا وصفاً تفصيلياً لكيفية انتقال ملكية هذه المغارة لإبراهيم «عليه السلام»: (وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَمَامَ مَيْتِهِ وَكَلَّمَ بَنِي حَثِّ قَائِلًا: «أَنَا غَرِيبٌ وَنَزِلٌ عِنْدُكُمْ. أَعْطُونِي مَلِكَ قَبْرِ مَعُكُمْ لِأَدْفِنَ مَيْتِي مِنْ أَمَامِي»). وحيث أن سيرة إبراهيم لديهم كانت محمودة، لذا فقد قدّموا له خياراً مجانياً بأن يدفن زوجته في مقابرهم وحيث يختار ويفضل: (فَأَجَابَ بَنُو حَثِّ إِبْرَاهِيمَ قَائِلِينَ لَهُ: «اسْمَعْنَا يَا سَيِّدِي. أَنْتَ رَئِيسٌ مِنَ اللَّهِ بَيْنَنَا. فِي أَفْضَلِ قُبُورِنَا أَدْفِنَ مَيْتَكَ، لَا يَمْنَعُ أَحَدٌ مِنَّا قَبْرَهُ عَنْكَ حَتَّى لَا تَدْفِنَ مَيْتَكَ» (٢).

قدّم إبراهيم شكره وتقديره لاقتراحهم، ولكنه أكد لهم أنه يفضل شراء الأرض، ولربما شاء أن يجعل مرقدها بعيداً عن مرقد المشركين، أو أنه خطّط

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٣: ١-٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٣: ٣-٤.

أن تكون له في المستقبل مع زوجته وذريته مقبرة خاصة متميزة عن سائر المقابر، كي يكون اختيارها بأيديهم ولا تتأثر بتقلب الأوضاع: (فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ وَسَجَدَ لِشَعْبِ الْأَرْضِ، لِبَنِي حَثٍّ) كما مر معنا من قبل، فإن هذا السجود كان في ذلك الوقت تعبيراً دارجاً للدلالة على الاحترام (وَكَلَّمَهُمْ قَائِلاً: «إِنْ كَانَ فِي نَفْسِكُمْ أَنْ أَدْفِنَ مَيِّتِي مِنْ أَمَامِي، فَاسْمَعُونِي وَالتَّمَسُّوا لِي مِنْ عَفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ) ملكهم ومالك الأرض (أَنْ يُعْطِيَنِي مَغَارَةَ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي لَهُ، الَّتِي فِي طَرْفِ حَقْلِهِ. بِثَمَنِ كَامِلٍ يُعْطِيَنِي إِيَّاهَا فِي وَسْطِكُمْ مُلْكَ قَبْرِ»^(١)).

استجاب ملك الحثيين لرغبة إبراهيم، ولكنه قدّم أرض المغارة له مجاناً، فأصرَّ إبراهيم على دفع ثمنها: (وَكَانَ عَفْرُونُ جَالِسًا بَيْنَ بَنِي حَثٍّ، فَأَجَابَ عَفْرُونُ الْحِثِّيُّ إِبْرَاهِيمَ فِي مَسَامِعِ بَنِي حَثٍّ، لَدَى جَمِيعِ الدَّاخِلِينَ بَابَ مَدِينَتِهِ قَائِلاً: «لَا يَا سَيِّدِي، اسْمَعْنِي. الْحَقْلُ وَهَبْتُكَ إِيَّاهُ، وَالْمَغَارَةُ الَّتِي فِيهِ لَكَ وَهَبْتُهَا. لَدَى عُيُونِ بَنِي شَعْبِي وَهَبْتُكَ إِيَّاهَا. أَدْفِنَ مَيِّتَكَ». فَسَجَدَ إِبْرَاهِيمُ أَمَامَ شَعْبِ الْأَرْضِ، وَكَلَّمَ عَفْرُونَ فِي مَسَامِعِ شَعْبِ الْأَرْضِ قَائِلاً: «بَلْ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ إِيَّاهُ فَلَيْتَكَ تَسْمَعْنِي. أُعْطِيكَ ثَمَنَ الْحَقْلِ. خُذْ مِنِّي فَادْفِنْ مَيِّتِي هُنَاكَ»).

وكان لإبراهيم ما أراد: (فَأَجَابَ عَفْرُونُ إِبْرَاهِيمَ قَائِلاً لَهُ: «يَا سَيِّدِي، اسْمَعْنِي. أَرْضُ بَارَبَعِ مِئَةِ شَاقِلِ فِضَّةٍ، مَا هِيَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ؟ فَادْفِنْ مَيِّتَكَ». فَسَمِعَ إِبْرَاهِيمُ لِعَفْرُونَ، وَوَزَنَ إِبْرَاهِيمُ لِعَفْرُونَ الْفِضَّةَ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي مَسَامِعِ بَنِي حَثٍّ. أَرْبَعُ مِئَةِ شَاقِلِ فِضَّةٍ جَائِزَةٌ عِنْدَ التُّجَّارِ. فَوَجَبَ حَقْلُ عَفْرُونَ الَّذِي فِي الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي أَمَامَ مَمَرًا، الْحَقْلُ وَالْمَغَارَةُ الَّتِي فِيهِ، وَجَمِيعُ الشَّجَرِ الَّذِي فِي

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٣: ٧-٩.



فتحة مغارة المكفيلة بالحرم الإبراهيمي

الْحَقْلُ الَّذِي فِي جَمِيعِ حُدُودِهِ حَوَالِيهِ، لِإِبْرَاهِيمَ مُلْكًا لَدَى عِيُونِ بَنِي حِثٍّ، بَيْنَ جَمِيعِ الدَّاخِلِينَ بَابَ مَدِينَتِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ دَفَنَ إِبْرَاهِيمَ سَارَةَ امْرَأَتَهُ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ أَمَامَ مَمْرًا، الَّتِي هِيَ حَبْرُونُ، فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَوَجَبَ الْحَقْلُ وَالْمَغَارَةُ الَّتِي فِيهِ لِإِبْرَاهِيمَ مُلْكًا قَبْرِ مَنْ عِنْدَ بَنِي حِثٍّ^(١).

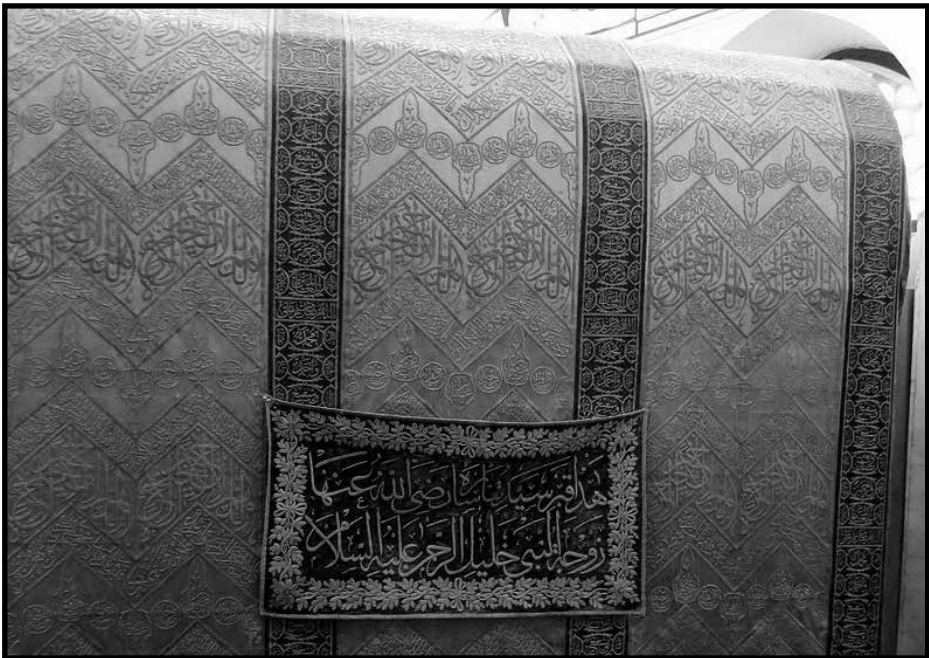
• تزويج إسحاق:

بعد وفاة سارة، صار إبراهيم «عليه السلام» يفكر في مستقبل ابنه إسحاق الذي لم يكن قد تزوج بعد، ويعيش في غربة عن أهل وعشيرة والده، ويخاف

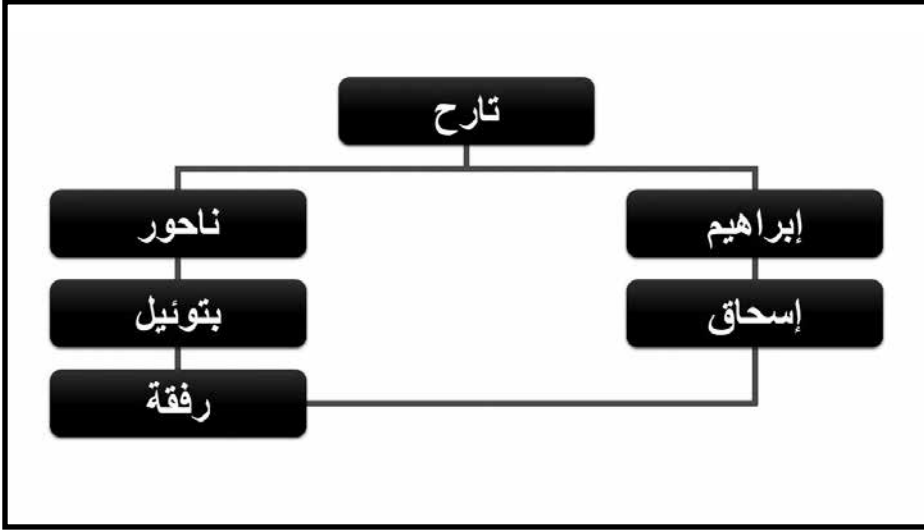
١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٣: ١٠-٢٠.



مرقد السيدة سارة زوج النبي إبراهيم



مرقد السيدة سارة من الداخل



زواج إسحاق من رفقة

الأب أن يفكر ابنه بالزواج من إحدى بنات القوم المشركين الذين هم في ضيافتهم، ولذا يقوم باتخاذ خطوة متعجلة - إذ لم يمض على وفاة سارة كثير - ويسعى لتزويج ابنه من حفيدة أخيه ناحور: (وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الْأَيَّامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوَلِيِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي» بحسب شرح الكتاب المقدس هو أسلوب في القسم (فَأَسْتَحْلِفُكَ بِالرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ وَإِلَهِ الْأَرْضِ أَنْ لَا تَأْخُذَ زَوْجَةً لِبَنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنَعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لِبَنِي إِسْحَاقَ)).

وبعد مناقشة حول بعض التفاصيل أقسم العبد: (فَوَضَعَ الْعَبْدُ يَدَهُ تَحْتَ فَخْذِ إِبْرَاهِيمَ مَوْلَاهُ، وَحَلَفَ لَهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ)^(١).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٤: ١-٤.

توجّه العبد من فوره إلى حران حيث كانت تعيش رفقة ابنة بتوئيل بن ناحور مع أخيها لابان، وخطب لإسحاق الذي كان في الأربعين من عمره بحسب النص التوراتي، وبمهر قدره عشرة من الإبل، وتمت الموافقة، وارتحلت الفتاة مع العبد إلى أرض كنعان وتم الزواج.

• زواج إبراهيم:

وبحسب النص التوراتي فقد قرّر النبي إبراهيم «عليه السلام» بعد ذلك أن يتزوَّج، فاتخذ لنفسه زوجة اسمها قطورة، ورزقه الله منها بذرية، ولا نجد تفاصيل عن حياته خلال هذه الفترة التي ينبغي أن تكون قد امتدت بضعة سنوات بلحاظ عدد الأبناء المولودين له خلالها: (وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قُطُورَةُ، فَوَلَدَتْ لَهُ: زَمْرَانُ وَيَقْشَانُ وَمَدَانُ وَمِدْيَانُ وَيَشْبَاقُ وَشُوحًا) (١). ثم تذكر أسماء بعض نسل هؤلاء الأبناء.

ويذكر التنخ أن إبراهيم اتخذ إجراء احترازيًا خوفًا من وقوع الحسد والخلافات بعد أن قسّم أملاكه بين ذريته وهو ما زال على قيد الحياة، ولكن من دون تسوية بينهم، إذ فضل إسحاق عليهم، وتمثّل الإجراء في إبعاد ذريته الآخرين إلى منطقة شرقية: (وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. وَأَمَّا بَنُو السَّرَّارِيِّ اللَّوَاتِي كَانَتْ لِإِبْرَاهِيمَ) ولا ندري هل المقصود أن من ضمنهم إسماعيل أم لا (فَأَعْطَاهُمُ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِهِ شَرْقًا إِلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ) (٢).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ٢-١.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ٢-١.

ويبعد تصوّر اتخاذ مثل هذا الإجراء من قبل النبي إبراهيم «عليه السلام»، فهو تصرف غير عادل، ويزرع الأحقاد، ولا يكفي أن تُبعد الإخوة عن بعضهم البعض كإجراء وقائي بعد أن بذرت فيهم بذرة النزاع والتخاصم والحسد.

ولنلاحظ الرواية التالية عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: (تصدّق عليّ أبي ببعض ماله) ولم يعط سائر الأبناء شيئاً، فخافت الأم من وقوع نزاع بين أبنائها بإنكارهم هذه العطية أو بالتحاسد (فقالت أُمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فانطلق أبي إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» ليشهد على صدقتي فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا. قال: اتقوا الله واعدلوا في أولادكم فرجع أبي، فردّ تلك الصدقة)^(١).

ومثل هذا التوجيه الصادر عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» هو الأوفق بالحكمة، وليس ببعيد أن يكون وُضع ذلك النص التوراتي قد تمّ بدافع الروح العنصرية التي عُرِف بها بنو إسرائيل، وقد مرّ بنا كيف نسبوا قصة الذبح لإسحاق كي لا يعطوا لإسماعيل قيمة وأهمية، وكيف عبّروا عن إسحاق بأنه هو الولد الحقيقي أو الوحيد لإبراهيم، وهناك موارد عديدة تبرز فيها هذه الروح العنصرية.

• وفاة إبراهيم ومدفنه:

وتحين ساعة إبراهيم «عليه السلام»، وبحسب التوراة فقد عاش ١٧٥،

١. صحيح مسلم، ح ١٦٢٢.

(وَهَذِهِ أَيَّامُ سِنِي حَيَاةِ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي عَاشَهَا: مِئَةٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً. وَأَسْلَمَ إِبْرَاهِيمُ رُوحَهُ وَمَاتَ بِشَيْبَةٍ صَالِحَةٍ، شَيْخًا وَشَبَعَانِ أَيَّامًا) أي أخذ حصته من الحياة بشكل كامل ولم يمت في شبابه مثلاً أو قبل أن ينجز ما عليه من مسؤوليات (وَأَنْضَمَّ إِلَى قَوْمِهِ)^(١) هناك اختلاف في معنى هذه العبارة، هل المراد بها أنه انضم إلى قائمة من مات من أهله، أم المقصود خصوص سارة لأنه سيُدفن عندها أم أن روحه انضمت إلى أرواح آبائه أم غير ذلك.

ووافقتها بعض الروايات الإسلامية، فقد روى الصدوق في كتابه **كمال الدين** بالسند عن محمد بن يوسف التميمي، عن الصادق، عن آبائه «عليه السلام» قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: عاش إبراهيم مائة وخمساً وسبعين سنة)^(٢)، وفي بعضها أنه عاش مائتي سنة، وكلاهما رقم كبير، ومن حيث الدراسات الحديثة القائمة على دراسة ما تم الحصول عليه إلى حد الآن من آثار عظام الإنسان على مر التاريخ، فإن أعمار من عاشوا قبل آلاف السنين مقاربة لأعمار الناس في هذا العصر، وقد بحثت هذا الموضوع من قبل عند دراسة عمر النبي نوح «عليه السلام».

(وَدَفَنَهُ إِسْحَاقُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنَاهُ فِي مَغَارَةِ الْمَكْفِيلَةِ فِي حَقْلِ عِفْرُونَ بْنِ صُوحَرَ الْحِثِّيِّ الَّذِي أَمَامَ مَمْرًا، الْحَقْلُ الَّذِي اشْتَرَاهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ بَنِي حِثٍّ. هُنَاكَ دُفِنَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ أُمَّرَاتُهُ)^(٣).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ١-٢.

٢. الصدوق: كمال الدين، ص ٢٨٩.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢٥: ١-٢.

قال الإصطخري^(١) في كتابه **مسالك الممالك**: (وفي المسجد الذي يجمع فيه الجمعة قبر إبراهيم واسحق ويعقوب صفاً، وقبور نسائهم صفاً بحذاء كل قبر من قبورهم قبر امرأة صاحبه)^(٢).

وقال المقدسي في كتابه **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: (حبرى هي قرية إبراهيم الخليل. فيها حصن منيع. يزعمون أنه من بناء الجن من حجارة عظيمة منقوشة، وسطه قبة من الحجارة إسلامية، على قبر إبراهيم وقبر إسحاق، قدام في المغطى، وقبر يعقوب في المؤخر. حذاء كل نبي امرأته)^(٣).

وبذا نكون قد أسدلنا الستار على هذا البحث التفصيلي المقارن لسيرة أبي الأنبياء إبراهيم خليل الله «عليه السلام».

• نتائج الفصل و خلاصته :

○ في البين عدة روايات تتحدث عن كراهية إبراهيم الموت، وهي لا تصمد أمام النقد، ولا يُعبأ بها، ويغلب الظن أنها من قصص القصاصين أو (الصالحين) الذين كانوا يعتمدون أحياناً على وضع الموعظة لكسب اهتمام الناس وتبرير كذبهم.

○ تُصوّر إحدى روايات الإسراء والمعراج إبراهيم في صورة الحاضن لأطفال المؤمنين، وهذه الصورة ذات مرجعية يهودية وانتقلت منها إلى

١. أبو القاسم إبراهيم محمد الكرخي (ت ٢٤٦هـ). جغرافياً نشأ في إصطخر التي كانت تقع بالقرب من مدينة شيراز في بلاد فارس. صنّف كتاب (صور الأقاليم)، (مسالك الممالك).

٢. الإصطخري، مسالك الممالك، ص ٤٩.

٣. المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٤٨.

وفاته ومدفنه

المسيحية وحملت عنوان أحضان إبراهيم Abraham's Bosom ويراد منه حُسن خاتمة المؤمنين ودخول الجنة وفقاً للاستعمال اليهودي والمسيحي معاً. فالصالحون الذين يموتون بسبب إيمانهم يستقبلهم إبراهيم وإسحق ويعقوب في الجنة، وبتعبير آخر عندما يموت المؤمن، تنتقل روحه إلى أحضان إبراهيم. وتم تصوير ذلك حيث يبدو إبراهيم في حجم طبيعي، بينما من يحتضنهم في صورة أطفال صغار.

○ توفيت سارة زوج إبراهيم وقد بلغت ١٢٧ سنة - بحسب التوراة - ولا نملك دليلاً على ذلك، ولكن القرآن الكريم يتحدث عن بلوغها سنّاً متقدمة حين ولدت إسحاق.

○ اشترى إبراهيم مغارة وأرضاً ودفن فيها زوجته، وصار هذا المكان مدفناً لإسحاق وزوجته، وليعقوب وزوجته، وهو اليوم المسجد المعروف بالحرم الإبراهيمي، ويُعرف عند اليهود والمسيحيين باسم كهف البطارقة أو مغارة المكفيلة.

○ بحسب التوراة فإن إبراهيم تزوّج بعد سارة امرأة اسمها قطورة، ورُزق منها بستة أولاد، ثم توفي بعد أن بلغ ١٧٥ عاماً، وفي البين رواية عن النبي تؤيد ذلك، وأخرى تُخبر عن وفاته بعد أن بلغ قرنين من الزمان، ولا نعلم مدى دقة الروايتين وصحتهما.



الحرم الإبراهيمي



الحرم الإبراهيمي



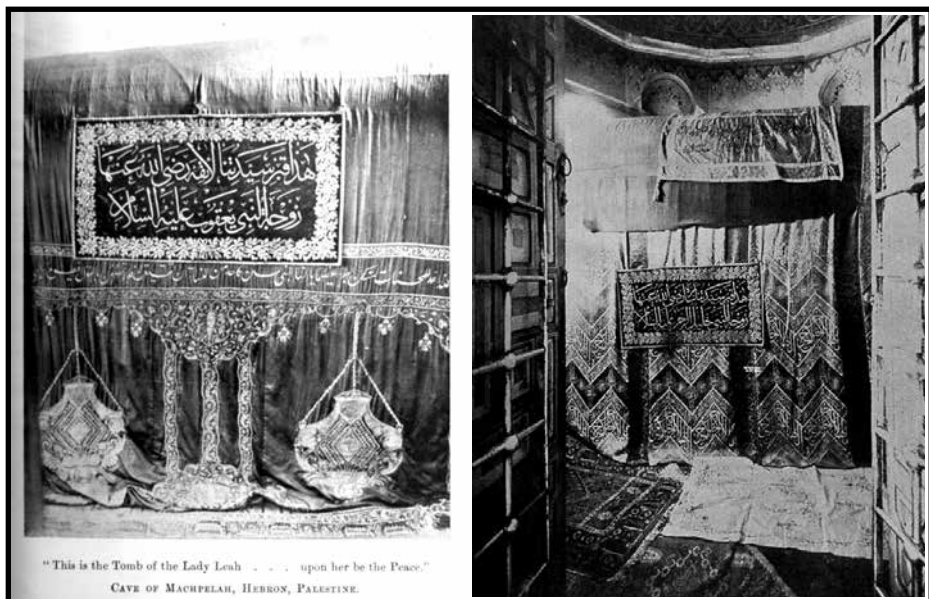
مرقد النبي إبراهيم الخليل



المُصلّي الإسحاقى، ويظهر فيه حجرنا إسحق (على اليمين) وزوجته رفقة



مرقد النبي يعقوب



مرقد لائقة زوجة النبي يعقوب

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. إبراهيم بن محمد الثقفي: الفارات
٤. إبراهيم محمد الفارسي الإصطخري، مسالك الممالك
٥. أبو القاسم الخوئي: معجم رجال الحديث
٦. أحمد بن حنبل الشيباني: المسند
٧. أحمد بن عبد الله الأصبهاني: أخبار أصبهان
٨. أحمد بن عبد الله المحب الطبري: غاية الأحكام في أحاديث الأحكام
٩. أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب
١٠. أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي: الاحتجاج على أهل اللجاج
١١. أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن
١٢. أحمد بن محمد القسطلاني: إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري
١٣. أحمد بن محمد بن خالد البرقي: المحاسن
١٤. إسحاق بن راهويه المروزي: المسند
١٥. إسماعيل بن عمر الدمشقي (ابن كثير): البداية والنهاية
١٦. إسماعيل بن عمر الدمشقي (ابن كثير): تفسير القرآن العظيم
١٧. آصف محسن: بحوث في علم الرجال
١٨. الإمام الحسن العسكري: تفسير الإمام العسكري
١٩. بولس الفغالي: المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم
٢٠. التلمود البابلي
٢١. الحسن بن الفضل الطبرسي: مكارم الأخلاق

٢٢. الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن
٢٣. الحسين بن مسعود البغوي: معالم التنزيل
٢٤. خزل الماجدي: الحضارات السامية المبكرة
٢٥. خزل الماجدي: الحضارات السامية المبكرة
٢٦. رشيد رضا: تفسير المنار
٢٧. سعيد بن عبد الله الراوندي: الخرائج والجرائح
٢٨. سعيد بن هبة الله الراوندي: قصص الأنبياء
٢٩. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة
٣٠. عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري: نزهة المجالس ومنتخب النفائس
٣١. عبد الرحمن بن علي بن الجوزي: المنتظم من تاريخ الأمم
٣٢. عبد الرحمن بن محمد الرازي (ابن أبي حاتم): تفسير القرآن العظيم
٣٣. عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان
٣٤. عبد الرزاق بن همام الصنعاني: المصنف
٣٥. عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع
٣٦. عبد الله بن عثمان بن عامر الطبراني: المعجم الكبير
٣٧. عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: تأويل مختلف الحديث
٣٨. عبد الله بن يوسف الزيلعي: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف
٣٩. علي بن إبراهيم القمي: تفسير القمي
٤٠. علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر): تاريخ مدينة دمشق
٤١. علي شحيلات وعبد العزيز الحمداني: مختصر تاريخ العراق
٤٢. عمرو بن بحر الجاحظ: الحيوان
٤٣. عيد مرعي: معجم الآلهة والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم
٤٤. الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن
٤٥. مجلة نصوص معاصرة
٤٦. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس
٤٧. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس
٤٨. مجموعة محررين: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس
٤٩. محمد بن عيسى الترمذي: الجامع المختصر من السنن عن رسول الله (ص)

٥٠. محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير
٥١. محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار
٥٢. محمد باقر المجلسي: مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول
٥٣. محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية): زاد المعاد في هدي خير العباد
٥٤. محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية): هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى
٥٥. محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن
٥٦. محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
٥٧. محمد بن أحمد بن علي الفتال النيسابوري: روضة الواعظين
٥٨. محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه
٥٩. محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)
٦٠. محمد بن الحسن الطوسي: الأمالي
٦١. محمد بن بسطام الخوشابي: عرائس القرآن ونفائس الفرقان وفراديس الجنان
٦٢. محمد بن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك
٦٣. محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن
٦٤. محمد بن عبد الرحمن بن العباس: المخلصيات
٦٥. محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرق: أخبار مكة
٦٦. محمد بن عبد الله الحميري: قرب الإسناد
٦٧. محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار
٦٨. محمد بن علي الصدوق: التوحيد
٦٩. محمد بن علي الصدوق: الخصال
٧٠. محمد بن علي الصدوق: علل الشرائع
٧١. محمد بن علي الصدوق: كمال الدين
٧٢. محمد بن علي الصدوق: معاني الأخبار
٧٣. محمد بن علي الصدوق: من لا يحضره الفقيه
٧٤. محمد بن عمر السفيري: المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية
٧٥. محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازي: التفسير الكبير
٧٦. محمد بن محمد بن النعمان المفيد: الاختصاص
٧٧. محمد بن محمد المرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس

٧٨. محمد بن مكرم بن علي بن منظور: لسان العرب
٧٩. محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري: حياة الحيوان الكبرى
٨٠. محمد بن يعقوب الكليني: الكافي
٨١. محمد جواد البلاغي: الهدى إلى دين المصطفى
٨٢. محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن
٨٣. محمد حسين بن علي بن محمد حرز الدين: تاريخ النجف الأشرف
٨٤. محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن
٨٥. محمد عبيد البغدادي (ابن أبي الدنيا): العقوبات
٨٦. محمد متولي الشعراوي: خواطر
٨٧. محمد متولي الشعراوي: قصص الأنبياء
٨٨. محمود أبورية: أضواء على السنة المحمدية
٨٩. محمود بن عبد الله الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
٩٠. مسلم بن الحجاج النيسابوري: المسند الصحيح (صحيح مسلم)
٩١. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب
٩٢. نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي: بحر العلوم
٩٣. وهب بن منبه: التيجان
٩٤. ياقوت الحموي: معجم البلدان
٩٥. يحيى بن شرف بن مري النووي: المجموع شرح المذهب
٩٦. يحيى بن سلام البصري: تفسير القرآن

المصادر الأجنبية

1. Dictionary of Deities and Demons in the Bible, by van der Toorn, Karel; Becking, Bob; van der Horst, Pieter Willem
2. Echoes of Eden: Sefer Shmot, by Ari D. Kahn
3. Encyclopedia of Jewish Folklore and Traditions, By Raphael Patai
4. Hippolytus, Commentary on Song of Songs in Social and Critical Context, by Yancy Smith
5. Salamandra and the Flames of Hell, by Reb Chaim HaQoton
6. The Origins of Osiris and His Cult, by Griffiths, J. Gwyn.

مواقع الإنترنت

1. albadri.info
2. arabic.bayynat.org.lb
3. biblehub.com
4. britishbibleschool.com
5. hiswordsarepure.com
6. islamweb.net
7. mfa.gov.il
8. onlycoran.blogspot.com
9. pdfslide.net
10. st-takla.org
11. tben.wordpress.com
12. www.alameli.net
13. www.chabad.org
14. www.deltaoceanographics.com
15. www.gty.org
16. www.jewishencyclopedia.com
17. www.mayoclinic.org
18. www.npr.org
19. www.perfectkid.org
20. www.questia.com
21. www.sciencenews.org
22. www.sefaria.org
23. www.thetorah.com

